

التَّسْوِيعُ المَضْرِيّ

الْفَاطِمِيّ

إِشْعَاقُ حَيْثُ وَحَضَارَتُ

مِثْلَانِ وَعَشْرَ سَنَوَاتٍ
مِنَ الْإِبْدَاعِ الْإِنْسَانِيّ

تَأْلِيفُ : الدِّكْتُورُ حَسَنُ مُحَمَّدٍ صَالِحٍ
أَسْتَاذُ مُحَاضِرَاتِ الْجَامِعَةِ اللَّبْنَانِيَّةِ

١

المرتكزات الدينية والتاريخية

دارُ المِجْدِ البيضاء

حضارة مصر

في

ظل الإسلام الشيعي

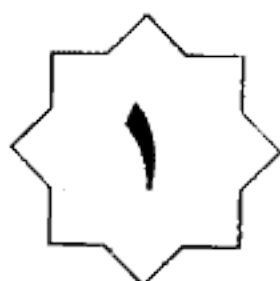
مئتان وعشر سنوات

من الإبداع الإنساني

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

تأليف

الدكتور حسن محمد صالح



دار الجمان
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت-٢٠٠٣

المرتكزات الدينية والتاريخية



مرکز تحقیقات کمپیوتر علوم اسلامی

حضارة مصر في ظل الإسلام الشيعي

مئتان وعشر سنوات
من الإبداع الإنساني

تأليف: الدكتور حسن محمد صالح
أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية

مركز تحقيقات بيروت للدراسات والبحوث

١

المرتكزات الدينية والتاريخية

دار الجمان للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت- ٢٠٠٣



مرکز تحقیقات کتاب و اسناد

کتابخانه	کتابخانه
مرکز تحقیقات کتاب و اسناد	کتابخانه
شماره ثبت	۰۲۰۶۷۲
تاریخ ثبت	

كلمة شكر...

أقدمها من القلب إلى كل ما ساهم في إخراج هذا السفر
من عتمة الخط المكتوب إلى بسمة الحرف المطبوع



د. حسن صالح

مركز بحوث ودراسات في العلوم الإسلامية



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

إهداء:

- إلى حفيد أصحاب الكساء (ع).
- إلى سليل العترة النبوية الطاهرة (ع).
- إلى نائب قائم آل محمد (ع).
- إلى السيد القائد علي الخامنئي (دام ظله).
- أقدم هذا الكتاب ...

حسن محمد صالح
تبينين - جبل عامل

٢٤ - ٨ - ٢٠٠٢

المقدمة

عندما بدأت أحضر لشهادة الدكتوراه وكان موضوعها قصيدة النثر في جبل عامل وأين وصلت وكيف انتهت، أوصلني البحث لتأثر هذه القصيدة وشعرائها بأدبيات نهج البلاغة ونثر الإمام السجّاد زين العابدين عليه السلام كما توصلت في هذا البحث إلى ارتباط قداسة شعر الطفّ بقداسة الوزن والقافية، مما دفعني للغوص في أعماق وجذور أدبيّات الشيعة عبر التاريخ.

وخلال تتبّعي للموضوع الشيعي، وجدت نفسي كالداخل في دهاليز متشعبة متفرّقة، وفعلاً دخلت في نفق الخصومة الإسلامية التاريخية: السُّنة والشيعة، واضطرت لأن أتتبع كل شاردة وواردة لهذا الخلاف، وما نتج عنه من معارك عسكرية وسياسية وفقهية وأدبية وشعرية.

وهكذا دخلت معترك التاريخ الإسلامي. وأكثر ما شدّني له وإليه، تاريخ الدولة الفاطمية في مصر، لكثرة ما قدّمت هذه الدولة من نظم وتنظيمات إدارية ومؤسّساتية سبقت عصرها بمئات السنين.

وقد استنتجت من هذه المطالعات والنصوص التاريخية، وكلّها بأقلام مؤرخين سنّة، أنّ الفكر الشيعي القائم على رفض القديم ورفض الظلم، يؤدي إلى تطوير وتقديم كلّ مجتمع يحكمه ويسيره،

مما يعني أنَّ الحضارة والتقدّم تحلّ أينما حلّ الفكر الشيعي، القائم على علوم أهل البيت عليه السلام، تلك العلوم التي نظّمت العلاقة بين الإمام والرعية، وبين الحاكم والناس، وبين الناس أنفسهم.

وهي علوم مستمدة من القرآن والسنة النبوية، والأحكام والفتاوى اليومية والميدانية، التي حكم وأفتى بها الأئمة المعصومون، وأئمة الزيدية، والفاطميون. بدءاً بعلي بن أبي طالب عليه السلام وانتهاءً بمحمد بن الحسن الإمام الثاني عشر. عجل الله فرجه.

وككلّ حركة دينية وسياسية، أصاب الحركة الشيعية انشقاقات واختلافات، لها أسبابها المحكومة بظروفها، فخرجت الزيدية من رحم هذه الحركة بعد الإمام الخامس، على يد زيد بن علي بن الحسين عليه السلام. وخرجت الإسماعيلية على يد الإمام محمد بن إسماعيل، بعد وفاة أبيه الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام، مما أوقع الشيعة في مأزق، أجبر الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أن يوصي بالإمامة بعد موت ولده إسماعيل، إلى ولده موسى الكاظم عليه السلام.

ولن نطيل البحث عن هذه التشققات لأننا سنفرد لكلّ منها فصلاً كاملاً في الكتاب، وهي ليست موضوع بحثنا، فالبحث مخصّص لحضارة ومؤسّسات الدولة الفاطمية، وكون نظم هذه المؤسّسات وعملها قائم على تشريعات أئمة هذه الحركات، لذلك سنضطر لتداولها ومعرفة أرضيتها الفكرية والسياسية والفقهية.

وسنجد في الفصول القادمة، أن الفاطميين الشيعة الذين حكموا مصر، والزيديين، والإماميين الإثني عشريين، لا يفرّق بينهم أي تشريع أو موقف فقهي أو تكليفي، وتتشابه رسومهم وتشريعاتهم

وفرائضهم الدينية في كل شيء. ولكنهم يختلفون في الإمام الذي يأتّم به كل واحد منهم، فالشيعة في ظل الدولة الفاطمية كان يبكي الحسين عليه السلام بعاشوراء، ويحتفل بعيد الغدير، ويبسمل جاهراً في كل سورة قرآن، ويورث البنت دون العم، ويصلي ساجداً يديه، ويؤذن بحّي على خير العمل، ويدفع خمس أمواله ويتحفظ ببيعة الشيخين. وكلهم يرفض إقدام عمر بن الخطاب على إلغاء زواج المتعة، لأنّه لا سلطة لخليفة على القرآن والحديث النبوي الشريف، وكلهم يلعن يزيداً، إمامياً كان أو إسماعيلياً أو زيدياً. ويقولون بعصمة الأئمة، وكلهم يؤمن بالتقية من أجل استمرار المذهب.

ويعتبرون كل من غالى في تقية، ونسب الألوهية لعلي وذريته، وترك الصلاة والصوم وبقية أركان الإسلام، مرتدّاً عن الإسلام وجب قتله.

والأمويون سبّوا عليّاً على منابرهم، ولا اعتراض للمؤرخين، بينما يعترضون على العامة، إذا سبّوا معاوية ولعنوا يزيداً.

وكلهم لا يعتبر طلاق المرأة نافذاً، إلّا بوجود شاهدين، ولا تطلق لمجرد لفظ الكلمة، ولو ألف مرّة، وكلهم لا يصلي صلاة الضحى.

وقد اعتبروا التشيع شعاراً إسلامياً ترسموا فيه طريقة علي بن أبي طالب وأهل بيته عليهم السلام في فهم الإسلام وتنفيذ سنّته.

وقد وصلت الحضارة الإسلامية في عهد الدولة الفاطمية لمستويات حضارية تضاهي حضارة بدايات القرن العشرين، وسنجد مظاهر الحضارة هذه في ظل هذه الدولة الفتية جلياً واضحاً في كل نواحي الحياة المادية والفكرية والفلسفية.

حضارة مصر في ظل الإسلام الشيعي

لماذا هذا العنوان؟:

حضارة مصر في ظل الإسلام الشيعي، ليست حضارة الإسلام الشيعي، بل هي برعايته، وهي حضارة الشرق العربي بإسلامه وفرقه من سنة وشيعة ودروز وإسماعيليين، وبمسيحيته المشرقية المطعمة بالفكر الحسيني النائر، بخط متوازٍ مع تضحية المسيح، عليه السلام.

تلك هي حضارة مصر الفاطمية.

يختلف الإسلام عن غيره من الأديان باعتباره دين علم وعمل، دين فكر وسياسة، دين النظرية والتطبيق، لذا، أعطى الإسلام من خلال آياته البيّنات، ومن خلال الأحاديث النبوية الشريفة، وتجربة الخلفاء الراشدين والصحابة، الحلول الشرعية لكل مستجدات الحياة اليومية. وكان الشيعة بفرقهم المختلفة يرون أن تفسير الأئمة المعصومين للآيات القرآنية وللأحاديث النبوية الشريفة هو التفسير الصحيح، وانطلقوا من تفاسير الأئمة المعصومين وعلماء الإمامية

عبر التاريخ لتحقيق المجتمع الإسلامي الأفضل والأمثل.

وقد امتاز الفكر الإسلامي الشيعي الإمامي بالإنفتاح على كل الفلسفات والنظريات، وبالتسامح والتساهل مع كل أهل الأديان الكتابية الأخرى، مما جعله، أينما حلّ، حلّت الحضارة، وحلّ الرفاه والرقى والتسامح والحرية. ومصر الفاطمية أفضل مثال متقدّم على هذا الأمر، كما أن جمهورية إيران الإسلامية الحالية، مثال ساطع على الرقى الحضاري الإسلامي، على جميع الأصعدة، العقيدية، والإقتصادية والاجتماعية، ففي واحة الإسلام الشيعي الإمامي في إيران، ترتع الأديان المشرقية الثلاثة، الإسلام والمسيحية واليهودية، كما تتمتع مذاهب السنّة والشيعية على اختلاف مشاربها بالحرية الكاملة، إلى جانب كل القوميات والأعراق والأجناس.

وحضارة مصر الفاطمية في ظل الإسلام الشيعي، كانت نتاج تجربة فريدة من نوعها للدولة الإسلامية الشيعية. وسنجد مؤشرات عظيمة هذه الحضارة في المؤسسات التي بناها الخلفاء المصريون، فالمظهر الحضاري المميّز والمتقدّم، هو الذي يدلّ على عظمة الدولة وعظمة الفكر الذي يحمله أهلها.

من هنا، سوف نركّز في البحث على مظاهر الحياة المصرية الفاطمية اليومية، كدليل ساطع وقاطع على تقدّم الفاطميين الفكري والإنساني والحضاري. والحضارة بمفهومها المعاصر، ليس أن نكتشف الجينوم الوراثي أو نصل إلى المريخ، أو نحول عظام الحيوانات إلى (لبنة صب)، بل الحضارة هي أن تؤمّن الحرية الفكرية للفلاسفة والمفكرين والمتقّفين. وأنّ تؤمّن الغذاء المادي لكل الناس،

إلى جانب الغذاء الفكري والروحي، فحضارة الإيدز والكوكايز. والهيرويين، ليست حضارتنا. بل هي حضارة الغرب، أما حضارتنا الإسلامية تحت مظلة علوم أهل البيت وفكرهم، هي الحضارة المنشودة وهي التي ستسود العالم، إن شاء الله.

يجد الباحث في تاريخ مصر الفاطمية نفسه، مشدوداً لهذه الدولة الفريدة بنظمها وحضارتها، كما يجد نفسه مشدوداً أكثر لأهم مؤرخيها، «تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي»، الذي قال عنه المؤرخ المعاصر، محمد أبو الفضل إبراهيم، «أنه شيخ مؤرخي الإسلام غير مدافع، وفارس هذه الحلبة غير معارض في كل ما ألف وصنف، وفي جميع ما نقل وروى، مما جعل كتبه المصدر الأصيل في تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها وخطتها وآثارها ومعارضها وفنونها وآدابها، وعلمائها، وأعيانها»^(١).

وسيجد المتتبع لصفحات هذا البحث، أن المقرئزي فعلاً فارس هذه الحلبة الوحيد، وسيجد أن أكثر «الخبريات» ذات النكهة المميزة، هو مصدرها، وهو ناقلها.

ويقول جمال الدين الشيال عن المقرئزي أيضاً، أنه كان مؤرخاً ممتازاً، وكان يخضع النصوص للمقارنة والتحليل والنقد سعياً وراء الحقيقة، كما أن مؤرخي كل بلد، أعرف من غيرهم بتاريخ بلدهم^(٢).

(١) اتعاط الحنفا، بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، الجزء الأول، تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي، ط ١، القاهرة، المقدمة، ص ٦.

(٢) م. س. نفسه ص ٢٩.

والمقريري نفسه يقول عن المؤرخين المشاركة أنهم متحاملين على الدولة الفاطمية.

وعندما يعرف التاريخ يقول أن أصل الكلمة فارسي ثم عربت ويقول أن تاريخ كل شيء آخره. ويقال ورخت الكتاب تورخاً وأرخته تأريخاً، ولكل أهل ملة تاريخ. وقد أكد المقريري أن بعد العهد عن الحادثة يؤدي إلى الإختلاط والتزوير «لبعد العهد وعجز المعتنى به عن حفظه»، وقال أيضاً: «وإذا نظرنا في التاريخ، وجدنا فيه بين الأمم خلافاً كثيراً»^(١).

والخلط والإختلاط الذي أشار إليه المقريري يظهر على سبيل المثال في النجوم الزاهرة، حيث ينسب ابن تغري بردي المذهب السني للوزير أحمد بن الأفضل - أبو علي كتيفات - حيث يقول في معرض الحديث عنه: «ثم أصل خلفاء بني عبيد والدعاء لهم، فإنه كان سنياً كأبيه، وأظهر التمسك بالإمام المنتظر في آخر الزمان، فجعل الدعاء في الخطبة له، وغير قواعد الرافضة»^(٢).

وهذا الإختلاط والتخليط الذي أوقع نفسه فيه ابن تغري بردي، دليل على ضعف رواياته وكثرة تدليسه، فأحمد بن الأفضل مسلم شيعي إمامي إثني عشري، أباً عن جد. وقبل مجيء جدّه الأفضل من أرمينيا، والإثنا عشرية هم أهم فرق الرافضة.

(١) الخطط المقريرية، الجزء الأول، ص ٢٥.

(٢) النجوم الزاهرة، في ملوك مصر والقاهرة، أبو المحاسن ابن تغري بردي، الجزء الخامس، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، سنة ١٩٩٢، ص ٢٢٤.

كما توصل المدلسون والمتحاملون على الفاطميين، ليس فقط إلى الشك بنسبهم وإخراجهم من بيت العترة النبوية الطاهرة بل عمدوا إلى تزوير نسب للأكراد الأيوبيين، وجعلوهم من بني أمية، وأدخلوهم في النسب الشريف عن طريق جدّهم عبد شمس. حيث يقول ابن أبيك الدواداري عن نسبهم:

أيوب بن شاذي، بن مروان، بن الحكم، ابن عبد الرحمن، بن محمد، بن عبدالله، بن محمد، بن محمد، بن عبد الرحمن، ابن الحكم، بن هشام، بن عبد الرحمن الداخل، بن معاوية، بن هشام، بن عبد الملك، بن مروان، بن الحكم، بن أبي العاص، بن أمية، بن عبد شمس، ابن عبد مناف، وفي عبد مناف يجتمع نسب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بنسب بني أمية^(١).

حتى الفقهاء السنة، عمدوا إلى تشعيب أهل البيت، وجعلهم بيوتاً، كما أفتى الفقيه ابن تيمية نقلاً عن النبي ﷺ، عن زيد بن أرقم بأن أهل بيته هم آل علي، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل عباس.

ويفسر ابن تيمية التعبير أهل البيت، بالنبي وزوجاته، أم سلمة وعائشة وبقية الزوجات حيث يقول: «مع أن سياق القرآن يدل على أن الخطاب مع أزواجه، علمنا أن أزواجه وإن كنّ من أهل بيته، كما دلّ القرآن، فهو لاء أحقّ بأن يكونوا أهل بيته، لأنّ صلة النسب أقوى من صلة الصهر»^(٢).

(١) الدرّ المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، ابن أبيك الدواداري، ط ١، القاهرة، لا دار نشر، سنة ١٩٧٢، ص ٦.

(٢) حقوق آل البيت، ابن تيمية، ط ٢، بيروت، دار الكتب العلمية، سنة ١٩٨٧، ص ٢٦.

وبينما لم يذكر التاريخ عن إقدام الفاطميين على قتل أو ذبح أو تشريد أي فئة مسلمة أو عالم مسلم من كل المذاهب الإسلامية، حفلت الكتب بأخبار ذبح المسلمين الشيعة بكل طوائفهم، بتهمة الإلحاد والزندقة والخروج عن الملة الإسلامية، وجاءت فتوى ابن تيمية بحقهم، فأكمل المماليك والأتراك على من تبقى منهم. ولم ينج منهم إلا من توقى هذا الشر المستطير بالتظاهر بالمذهب الشافعي.

وعندما أقدم الخليفة المتوكل على هدم قبر الإمام الثالث والخليفة الخامس الحسن بن علي بن أبي طالب، سنة ٢٣٦هـ، لم يشر أي مؤرخ من المؤرخين المتحاملين على الشيعة والتشيع إلى هذا الأمر.

وعن إقدام خمارويه على طلب الفاحشة من أحد خدمه، وقتل الخادم بعد تمنّعه^(١)، يمرّ المؤرخون الأكراد على هذا الخبر دون الإشارة إليه، ولو أقدم على هذا الأمر أي أمير أو خليفة معارض لهؤلاء المؤرخين لكانوا سطرّوا الكتب ودبّجوا المقالات به.

وإذا نظم تاج الملوك بوري بن أيوب، شقيق صلاح الدين الأيوبي في هجاء رمضان بقوله:

رمضان بل رمضان إلا أنّهم أخطوا إذا في قولهم وأساءوا
رمضان فيه تخالفافنهاره سِلٌّ ولكن ليله استسقاء
فيعتبرون أن هذا الوصف للشهر الكريم، على سبيل المداعبة وأصبحت مهاجمة الشيعة والتشيع، عادة، عند كل المؤرخين الأكراد والمتحاملين على الشيعة، فإذا مات الشيخ المفيد أظهرُوا شماتتهم،

(١) راجع النجوم الزاهرة: الجزء الثالث، م. س. ص ٧٤.

وإذا مات الشاعر علي بن يحيى بن البطريق بن ثابت الأسدي رغم أنه حسب قول ابن كثير، «فاضلاً ذكياً جيد النظم والنثر، لكنه مخذول محبوب عن الحق»^(١).

وبينما أخرجهم المؤرخون المشاركة والأكراد من الإسلام والملة الإسلامية، أكد المقرئزي إسلامهم حيث قال: «لا شك أن القوم كانوا شيعة يرون تفضيل علي بن أبي طالب على من عداه من الصحابة، وكانت أساسات دولتهم راسخة في التخوم وسيادة شرفهم قد انافت على النجوم، وأتباعهم وأولياؤهم لا يحصى لهم عدد، وأعوانهم وأنصارهم قد ملئوا كل قطر وبلد، فأحبوا طمس أنوارهم وتغيير منارهم، والصاق الفساد والقبيح بهم، شأن العدو وعادته في عدوه.

وينصح القارئ بقوله: «فتفطن رحمك الله، وميز الأخبار كتمييزك الجيد من النقود، تعثر إن سلمت من الهوى بالصواب، ومما يدلّك على كثرة التحامل عليهم، أن الأخبار الشنيعة، لا سيما التي فيها إخراجهم من ملة الإسلام، لا تكاد تجدها إلا في كتب المشاركة من البغداديين والشاميين، فحكم العقل، واهزم جيوش الهوى، واعط كل ذي حق حقه، تُرشد إن شاء الله تعالى»^(٢).

ويقول المقرئزي فيهم:

وبادوا فلامخبر عنهم وماتوا جميعاً وهذا الخبر

(١) راجع البداية والنهاية، ابن كثير، الجزء ١٣، ط ٧، بيروت، مكتبة المعارف، سنة ١٩٨٨، ص ١٦٤.

(٢) اتعاظ الحنفاء، في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء الجزء الثالث، ط ١، القاهرة، سنة ١٩٧٣، ص ٢٤٦.

فمن كان ذا عبيرة فليكن فطيناً ففي من مضى معتبر
وكان لهم أثر صالح فأين هم ثم أين الأثر
وكان المقريري يعرف أن الإيمان الكامل بالله وشرائعه لا يتم إلا
بتأمين ملذات الحواس الخمس، فلذلك نراه يؤكد في الخطط المقريرية
وفي اتعاظ الحنفاء أكثر من مرة أن الخلفاء الفاطميين كانوا يسعون
دأبهم لتأمين أشهى ملذات الحواس الخمس لهم ولشعبهم، حتى
توصل الأمر إلى تأكيد أكثر من مؤرخ أن أيامهم كانت كلها أفراح
وأعراس.

وقد قال عن غناهم الفاحش وحياة الترف والدعة التي عاشتها
مصر في ظلهم: «ما لا يفي به ملك الأكاسرة، ولا تتصوره الخواطر
الحاضرة، ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة، ولا يقدر على
حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق في الآخرة».

ورغم توصل الفاطميين إلى السيطرة على العالم الإسلامي بما
فيها بغداد أيام البساسيري، لكن الدنيا دول، يوم لك ويوم عليك،
وقضت مشيئة ربك أن تزول هذه الدولة، دون زوال الإسلام الأصيل
وأهل بيته.

وبالرغم من تفرّد الحياة المصرية بالوقائع الخارجة عن المألوف
التي تصل إلى المعاصرة، نجد ظلم المثقفين المصريين لتاريخهم
عمداً حتى في كتب التاريخ المدرسي، كما لدى المؤلفين السينمائيين،
فنجد المسلسلات الضخمة عن صلاح الدين الأيوبي، وشجرة الدر
والظاهر بيبرس وعلي بك الكبير ومحمد علي باشا، ولانجد فيلماً
واحداً أو مسلسلاً واحداً عن هذه الحقبة المصرية الباهرة والمشعة

في تاريخ مصر والحضارة الإسلامية، رغم تغلغلها في نفوس
وضمائر الشعب المصري بكل فئاته.

أما مصر بعد الفاطميين فكانت مصر الأكراد والمماليك والأتراك،
مصر الفقر والفاقة والظلم والعسف والتسلط على قوت الشعب
ولقمة عيشه، وحضارتنا مرتبطة بالإيمان القرآني والنص القرآني،
وقد أدت سيطرة الأكراد والمماليك والأتراك الجهلة، إلى عدم فهم هذا
النص، لجهلهم لغة الضاد ولغة القرآن، مما دفع بمصر وبالعالم
الإسلامي إلى التراجع والتقهر والتحجر، من ثم تقدّم الحضارة
الغربية المادية عليها، ووقوعنا تحت سيطرة العولمة الجديدة.

وسيجد القاري أن المعلومة الواحدة والخبر الواحد أو الواقعة
الواحدة، سوف يتكرر ذكرها في أكثر من باب أو فصل، حيث أن
تكرارها لا مفرّ منه، لأن النص الواحد يتضمن عدة أمور، مما يدفع
بالباحث إلى تكراره وإثباته في كل فصل أو عنوان، ويختص
بمناقشة الموضوع الذي يتضمنه النص.



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

الباب الأول

الأسس التاريخية لعقيدة الدولة الفاطمية

- أبو هريرة بين السنة والشيعة.
- مقتل الخليفة الرابع عثمان بن عفان.
- حرب الجمل.
- صلح الإمام الحسن.
- خروج الإمام الحسين.
- أئمة الظهور.
- الإمام الصادق والمذاهب الأربعة.
- أئمة الستر - من الإمام اسماعيل حتى الإمام الحسين بن أحمد الرضي.
- رسائل إخوان الصفا.
- الأئمة الخلفاء قبل حكم مصر، التاريخ العسكري.
- الأئمة الخلفاء المصريون، التاريخ السياسي.



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

رَبَابُ الدَّوَلَةِ:

الأسس التاريخية لعقيدة الدولة الفاطمية:

إسلام أبي طالب:

التشيع في المعنى اللغوي هو أن يكون الإنسان من شيعة فلان أي من أنصاره وأتباعه، أما في المعنى التاريخي، فهي تعني التشيع لعلي بن أبي طالب وبنيه وذريته من بعده عليه السلام وقد ذهب أنصار الإمام علي إلى وضع أسس تاريخية لهذا المصطلح فقالوا: «ان أول من وضع بذرة التشيع في الإسلام، هو نفس صاحب الشريعة الإسلامية، النبي محمد صلى الله عليه وآله. يعني أن بذرة التشيع وضعت مع بذرة الإسلام جنباً إلى جنب، وسواء بسواء، ولم يزل غارسها (أي النبي) يتعاهدها بالاهتمام والعناية، حتى نمت وأزهرت في حياته، ثم أثمرت بعد وفاته»^(١). وقد أورد صاحب هذا الرأي آل كاشف الغطاء، العدد من الأحاديث النبوية، والآيات القرآنية التي تدعم صحة وجهة نظره. ثم للتأكيد على صلابة وجهة نظرهم، رجعوا إلى الجاهلية

(١) أصل الشيعة وأصولها، محمد الحسين آل كاشف الغطاء، ط ٤، بيروت مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، سنة ١٩٨٢، ص ٤٣.

وأخذوا يتعاهدون شخصية أبي طالب والد الإمام علي عليه السلام والمشرف التربوي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فألفوا الكتب عن هذه الشخصية.

اتجه المؤرخون لبدايات التشيع لعلي بن أبي طالب عليه السلام وذريته، إلى وضع أسس فكرية قوية لهذا الإنجاز. فتناولوا أبا طالب والد الإمام علي عليه السلام، فجمعوا سيرته وأقواله وأشعاره، وأثبتوا من خلالها إسلامه على يد ابن أخيه النبي المصطفى، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان لا بد من إثبات التحاق أبي طالب بالدين الحنيف، لأنه التربة التي نشأ وترعرع فيها النبي ووصيه، ومتى كانت صالحة، فلا بد أن تطرح ثمراً صالحاً.

ومن شعر أبي طالب دفاعاً عن النبي قال: (١).

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفيناً
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقر منك عيوننا
ودعوتني وعلمت أنك صادق ولقد صدقت وكنت ثم أميناً
ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً
وقد كان أبو طالب للنبي، عضداً وحرزاً في أمره، ومنعة وناصرأ
على قومه، فلما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من
الأذى، ما لم تكن تطمح به في حياته. حتى أعترضه سفيه من سفهاء
قريش، فنثر على رأسه تراباً، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيته والتراب
على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسله وتبكي، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير، مج ٢، لا طبعة، مكتبة المعارف، بيروت، سنة ١٩٩١، ص ١٢٢.

يقول: لا تبكي فإن الله مانع أباك، ويقول: «ما نالتني قریش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»^(١).

وقد ناقش أبو الفداء وغيره قضية إسلام أبي طالب، فذكر حديثاً عن العباس بن عبد المطلب أن أبا طالب نطق الشهادتين وعدة أبيات تعلن إسلامه العلني الذي لا لبس فيه، وأن النبي رفض إلا أن يسمعها بنفسه، لأن عمه أبا طالب كان يحتضر، فقال أبو الفداء: وقد استدل بعض من ذهب من الشيعة وغيرهم من الغلاة، إلى أن أبا طالب مات مسلماً بقول العباس هذا الحديث: «يا ابن أخي لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها يعني: لا إله إلا الله» وقد ناقش أبو الفداء هذه الرواية، وأشار لمن ذكرها من الاخباريين ولمن لم يذكرها وينهى مداولته بقوله: «عن أبي هريرة قال: لما حضرت وفاة أبي طالب، أتاه رسول الله ﷺ وقال له: يا عمّاه قل: لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة». فقال لولا أن تعيرني قریش يقولون ما حملة عليه إلا فزع الموت، لأقررت بها عينك، ولا أقولها إلا لأقر بها عينك، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَنْتَ لَا تَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِي﴾ ويؤكد أبو الفداء بأن هكذا قال عبد الله بن العباس، وابن عمر، ومجاهد، والشعبي وقتادة، بأن هذه الآية نزلت في أبي طالب، حين عرض عليه رسول الله ﷺ أن يقول لا إله إلا الله، فأبى أن يقولها وقال: هو على ملة الأشياخ وكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب^(٢).

(١) شيخ الأبطح أبو طالب، محمد علي شرف الدين، ط ٢، دار الأرقم، صور . لبنان، سنة ١٩٨٧، ص ٤٦.

(٢) البداية والنهاية، م.س. ص ١٢٣.

وهذه المداخلة التي قدّمها أبو الفداء وأثبت موت أبي طالب على دين أجداده وعدم إسلامه، لا يأخذ بها المسلمون الشيعة لأن سندها يصل لأبي هريرة، وهم يعتبرونه شيخ الوضّاعين والمدلسين ولهم كتبهم فيه وفي الأحاديث التي وضعها وهي أكثر من أربعين ألف حديث.

أصحاب الكساء:

تعود فرق الشيعة الرئيسية: الإمامية والزيدية والفاطميون^(١)، إلى واقعة أصحاب الكساء، ويعتبرونها مؤشراً مهماً في تسمية علي بن أبي طالب عليه السلام وصياً للنبي صلى الله عليه وآله، ومن بعده ولديه: الحسن والحسين عليهما السلام، ومضمونها أنّ النبي صلى الله عليه وآله وضع عليهم وعلى ابنته فاطمة الزهراء كساء يلقّهم وإياه فقط، وكان جبرائيل عليه السلام سادسهم، وكان ذلك في بيت زوجته أم سلمة، وأرادت أن تدخل معهم تحت الكساء فمنعها النبي صلى الله عليه وآله^(٢).

وقد وصف الشاعر الشيخ عبد الكريم صادق العاملي هذا الحدث حين مدح فاطمة الزهراء بقوله:^(٣)

ولأنّ خامسة الذين تجمّعوا تحت الكساء وكلّهم قرياب

(١) لقد تعمّدت ذكر الفاطميين لتفريقهم عن الفرق التي تفرّعت عنهم أثناء حكمهم من باطنية وبهرة، ونصيرية ودروز وكلها من الإسلام، شطّت عنه وغالت في عقائدها، وتركت الصلوات الخمس وبقية أركانها.

(٢) راجع الدر الثمين في أهم ما يجب معرفته عن المسلمين، السيد محسن الأمين، ط ١، مؤسسة أهل البيت، بيروت، سنة ١٩٨٦، ص ٣٠.

(٣) في رحاب الخيام، عبد الكريم صادق، ط ١، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، بيروت، سنة ١٩٨٤، ص ١٢٩.

وهمو أبوك أجل سادات الوري قدرأ وبعلك ذو العلى وابناك
 وحديث الكساء ذكرته أسانيد الشيعة وأسانيد السنة فقد رواه
 مسلم في صحيحه (الجزء الثاني ص ٣٣١)، عن عائشة زوجة
 النبي ﷺ إذ قالت: خرج رسول الله ﷺ غداة وعليه مرط مرحل
 من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي ﷺ فأدخله، ثم جاء
 الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة الزهراء فأدخلها ثم نزلت الآية:
 ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.
 وذكره ابن كثير في تفسيره لهذه الآية كما ذكره السيوطي في الدر
 المنثور (المجلد الخامس، ص ١٩٨).

ولأصحاب هذه الفرق الإسلامية أدلة كثيرة على تفضيل
 النبي ﷺ علياً ﷺ وأبناءه على بقية الصحابة. وقد رواها
 المؤرخون المسلمون، وكلهم من المؤرخين السنة، حيث كان التسنن
 وسيلة تقرب من الحكام الأمويين والعباسيين وخلفائهم من أيوبيين
 ومماليك وعثمانيين، بينما بقي التشيع ملجأ للمعارضة ورافضي
 الظلم الرسمي، اقتصادياً كان أم مذهبياً أم اجتماعياً.

حجة الوداع وبيعة غدير خم:

يعتبر الشيعة الإمامية والزيدية والفاطميون، أن الإمامة جزء من
 الدين والفعل الإيماني، كما يرون أن الأئمة هم خلفاء الله على الأرض
 بعد النبي محمد ﷺ، وأن الإمام نص عليه في القرآن والسنة.
 ويفسرون عدة آيات تدل على إمامة علي بن أبي طالب وأولاده من
 بعده ومنها: ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾، فهم يفسرونها بأنها نزلت
 في علي بن أبي طالب ﷺ.

وتعرّف هذه الفرق الإمامة بأنها (رياسة عامة في أمور الدين لشخص من الأشخاص نيابة عن النبي ﷺ)^(١)، كما يرون أن من صفات الإمام، أن يكون معصوماً من الذنوب والخطأ والنسيان كالنبي، وأن يكون متصفاً بجميع الكمالات، منزهاً عن جميع النقائص، وأن يكون أفضل أهل زمانه، وأن يتولّى هذا المنصب من قبل الله تعالى بواسطة النبي ﷺ.

وقد ألفت فرق الشيعة الثلاث، الكتب الجمة في الإمامة ووجوبها، وصفات الإمام كلّها متقاربة ما عدا الاختلاف على الإسم، وكلّهم متفقون على إمامة عليّ والحسن والحسين وزين العابدين عليّ بن الحسين وافترقت الزيدية في الإمام الخامس، فتبعت زياداً بن عليّ عم الإمام جعفر الصادق بن محمد ﷺ. واستمرت الإمامة عند الفاطميين والإثني عشرية حتى الإمام السادس جعفر الصادق بن محمد بن عليّ زين العابدين ﷺ، فأوصى الإمام جعفر بها لولده البكر إسماعيل، ولكن إسماعيل توفي، فعاد الإمام الصادق ﷺ وعهد بها إلى ولده الثاني موسى الملقّب بالكاظم ﷺ، فاختلف أتباع الصادق ﷺ على هذا الأمر. فمنهم من طالب بانتقالها إلى حفيده محمد ابن ولده البكر إسماعيل، وسمّوا الإسماعيلية، ومنهم الفاطميّون، ولم يخالف البعض الآخر قرار الصادق ﷺ وهم الإمامية الإثنا عشرية.

وارتكزت الإمامة كما أشرنا إلى آيات قرآنية وأحاديث نبوية

(١) راجع الدر الثمين، ص ٢٥.

شريفة، جمع منها أكثر من مائة وسبعين حديثاً مبنوثة في أمهات كتب التاريخ الإسلامي، وكلها مكتوبة بأقلام مؤرخين مسلمين سنة، وكلها تشير إلى تسمية علي بن أبي طالب عليه السلام إماماً وخليفة على المسلمين بعد النبي محمد ﷺ (١).

أما الحديث الساطع الذي لا يحتاج إلى تأويل أو برهان، فهو حديث غدير خم. ومؤدى هذا الحديث أن النبي محمد ﷺ، حج حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة. وبعد انتهاء مراسم الحج، وقف في عرفة وخطب في المسلمين، وأوصاهم باتباع دينهم، وهي خطبة طويلة. وعاد إلى المدينة، فصار إلى موضع بالجحفة يقال له غدير خم، لثمانى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة وقام خطيباً، وأخذ بيد علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب (٢).

وقد ذكرت كتب التاريخ أن عمر بن الخطاب بايع علياً في هذا الاجتماع قائلاً له: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة (٣).

وقد أكثر الشعراء من وصف هذا الحدث المهم في التاريخ

(١) راجع علي والوصية، الشيخ نجم الدين جعفر بن العسكري، ط ٢، دار الزهراء، بيروت، سنة ١٣٩٨ هـ، ص ٧.

(٢) راجع تاريخ اليعقوبي، لا طبعة، دار بيروت، بيروت، مج ٢، سنة ١٤٠٠ هـ، ص ١١٢.

(٣) راجع الصواعق المحرقة، ابن حجر العسقلاني، ص ٢٦.

الإسلامي، فقال فيه حسان بن ثابت وقد كان أحد الصحابة الحاضرين
لببيعة غدير خم^(١):

يناديهم يوم الغدير نبيهم بخمّ واسمع بالرسول مناديا
فقال: فمن مولاكم ونبيكم فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت نبينا ولم تلق منا في الولاية عاصيا
فقال له: قم يا عليّ فإنني رأيتك من بعدي إماما وهاديا
فمن كنت مولاه فهذا وليّ فكونوا له أتباع صدق مواليا
هناك دعا اللّهم والّ وليّ وكن للذي عادى علياً معاديا
ومن الشعراء المتأخرين، الشاعر محمد حسين شمس الدين
العالمي يقول على لسان النبي ﷺ شعراً^(٢).

اليوم أكملت فيه دينكم نزلت ونعمة اللّهُ في الإسلام قد كملت
والسن الشكر آيات الثناء تلت إن حجة المرتضى بالنصّ فيه علت

يوم الغدير فأضحى للورى عيداً

وتروي كتب السيرة النبوية أنّ النبي ﷺ بعد حجة الوداع
 واجتماع غدير خمّ، بدأ يعدّ نفسه ويعدّ المسلمين لقرب انتقاله إلى
رفقة الرفيق الأعلى.

وتقول هذه الكتب أنه كلّ أب بكر بإمامة المسلمين في الصلاة،
بينما كان عليّ وبنوه وفاطمة ؑ يقفون بجوار النبي، ولما مات،
جاء الخبر لأبي بكر وعمر (رض)، أنّ الأنصار اجتمعوا في سقيفة

(١) الغدير، عبد الحسين الأميني النجفي، ج ٢، ط ١، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات،
سنة ١٩٩٤، ص ٥٦.

(٢) القصيدة الغديرية، محمد حسين شمس الدين، ط ١، مطابع دار الهدى، بيروت لا
تاريخ، ص ٢٦.

بني ساعدة وبدأوا يتشاورون في مبايعة أحدهم، فتركوا علياً ورهطه يتولون دفن الرسول ﷺ وقصدا السقيفة. وانتهى الاجتماع بالإتفاق على مبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة.

وبعد الدفن رفض علي بن أبي طالب عليه السلام هذه البيعة لأسباب ذكرتها كتب التاريخ الإسلامي بإسهاب، وقيل أنه بقي رافضاً مبايعة أبي بكر مدة ستة أشهر، بايعة بعدها بالخلافة، بعد أن رأى الدسّاسين، والحاquدين على الإسلام قد نشطوا لهدمه وإعادة الروح الجاهلية إلى سابق عهدها.

ومن هؤلاء الدسّاسين ابن أبي لهب الذي حرّض علياً على رفض بيعة أبي بكر بقوله^(١):

ما كنت أحسب أن الأمر منصرفٌ عن هاشم ثم منها عن أبي الحسن عن أول الناس إيماناً وسابقةً وأعلم الناس بالقرآن والسنن وآخر الناس عهداً بالنبى ومن جبريل عون له في الغسل والكفن فبعث إليه علي ونهاه

أما خالد بن سعيد بن العاص، فقد استقدم جماعة من السفينانية وقدم إلى علي يطلب منه قبول بيعتهم، فانتبه إلى غدرهم واستعدادهم للتراجع وإنكار البيعة فيما بعد.

أما أبو سفيان صخر بن حرب، والد معاوية، توجه إلى بني هاشم وعليّ بقوله:

أرضيتم يا بني عبد مناف أن يلي هذا الأمر عليكم غيركم،

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، م.س. ص ١٢٤.

وتوجّه لعليّ بن أبي طالب مخاطباً: أمدد يدك أبايعك وقال: (١).

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ولا سيما تيم بن مرة أو عديّ
فما الأمر إلا فيكم وإليكم وليس لها إلا أبو حسن عليّ
أبا حسن، فاشدد بها كفّ حازم فإنك بالأمر الذي يُرتجى مَليّ
وقال له أيضاً:

أبسط يدك أبايعك، فوالله لو شئت لأملأتها على أبي فضيل (أبو بكر)
خيلاً ورجالاً. فسكت الإمام عليّ ولم يجبه. فحرّضه شعراً بقوله:
ولا يقوم على ضيم يراد به إلا الأذلّان: غير الحيّ والوئدُ
هذا على الخسف مربوط بقامته وذا يُشجُّ فلا يرثي له أحدُ
وكان من الحاضرين أبو ذر الغفاري وزوجته فاطمة الزهراء عليها السلام،
فرمقه أبو ذر غيظاً تعبيراً عن دناءة هذا التحريض المؤدي إلى محو
الإسلام من أساسه. وتحمّست فاطمة الزهراء عليها السلام لرأي أبي سفيان.
وكان الإمام عليّ يطرق رأسه مفكراً فإذا بصوت المؤذن يؤذن: الله
أكبر... الله أكبر... إلى آخر الأذان فرفع عليّ رأسه والتفت إلى فاطمة
وقال: «أتحبّين أن يزول هذا النداء من الوجود! قالت: لا، قال: إذا سابيع
أبا بكر» (٢).

ولكن لم يعطه الإمام عليّ إذناً صاغية لأنه كان يعلم خفايا نفسه
وأسبابه.

(١) المصدر السابق، ص ١٢٦.

(٢) أبو ذر الغفاري، الإشتراكي الزاهد، عبد الحميد جودة السحار، ط ١، القاهرة دار الهلال،
سنة ١٩٦٦، ص ١٠٢.

أبو هريرة بين السنة والشيعة

لن نتكلم عن حقبة حكم الخلفاء الراشدين الثلاثة، لأنها ليست موضوع بحثنا، وكذلك سنتجاوز مقتل الخليفة عثمان (رض) لأنها كلها أمور معروفة، وكذلك حرب الجمل أو حرب ثار عثمان، وحروب الخوارج وصفين، وتنازل الحسن بن علي عليه السلام عن الخلافة لمعاوية من أجل استمرار المذهب، بل سندخل مباشرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان باعتبارها الإسفين الأول الذي غرس في خاصرة الإسلام. فقد عمد معاوية بن أبي سفيان إلى خلق مرتكزات دينية تدعم حكمه، ومنها وضع أحاديث على لسان النبي الكريم ﷺ، تظهر فضله وفضل السفينانية على الهاشميين.

فالمشكلة بين السنة والشيعة لم تكن مشكلة مبايعة أبي بكر وعمر وعثمان (رض)، فعلي بن أبي طالب عليه السلام، بايع الشيخين لرأب الصدع بين المسلمين. والشيعة بفرقهم الثلاث: زيدية وإمامية وفاطمية إسماعيلية، مع هذه البيعة ولو كانت قسراً. ولا يعقل أن ترفض الشيعة أمراً قام به إمامها، كما أنهم لا يسبّون السلف الصالح

كما يتَّهمهم أهل السنَّة، فأدبياتهم ومدوناتهم تناقش أمور هذه البيعة وما نتج عنها من أحداث ومؤسسات بتسلسل منطقي، بعيد كلَّ البعد عن الإسفاف والشتائم، وإذا قامت الدهماء وأعلاج المدن والسوق، في كلِّ عصر ومصر، يسبِّون السلف الصالح، فلا يعني أنَّ الشيعة بفرقها الثلاث توافق على سبِّهم وشتيمتهم. وهذا زيد بن علي، يرفض سبَّ الشيخين، ويقبل بيعتهم لأنَّ جدَّه علي بن أبي طالب بايعهم. ويقال أنَّ المؤرِّخين أطلقوا على الشيعة لقب الروافض بسبب رفضهم سبَّ الخلفاء الراشدين، ولكن من أين أتت هذه الأمواج المتلاطمة لتقف سداً بين الفريقين ومن أجج نارها؟.

في خضمِّ هذا الخلاف المستعرِّ، اضطرَّ المتشدِّدون والمتعصِّبون السنَّة للعودة إلى الأحاديث النبوية الشريفة، التي تدعم وجهة نظرهم في تقديم بيعة الشيخين أبي بكر وعمر، على بيعة الإمام عليٍّ عليه السلام ومنهم من غالى في تسنُّئه، ففضَّل معاوية على عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام، ويزيد على ولده الحسين عليه السلام، فلم يجد أفضل من مرويات أبي هريرة الدوسي لدعم وجهة نظره.

فتصدَّى الشيعة لإثبات بطلان هذه الأحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وآله، واعتبروها مختلقة موضوعة، كما عمد أهل السنَّة إلى إثبات صحتها، بالرغم من تفرد أبي هريرة بها. فمن هو أبو هريرة الدوسي؟.

قال النووي: اختلف في اسمه واسم أبيه على نحو ثلاثين قولاً. وقال ابن عبد البر في كتابه الإستیعیاب: واختلفوا في اسم أبي هريرة واسم أبيه اختلافاً كبيراً، لا يحاط به ولا يضبط لا في

الجاهلية ولا في الإسلام. وقد غلبت عليه كنيته، وهو كمن لا اسم له غيرها.

وذكر الفيروز أبادي في محيطه، نقلاً عن أبي هريرة قوله: كنت أرى غنم أهلي وكانت لي هرة صغيرة، فكنت أضعها بالليل في شجرة، وإذا كان النهار ذهبت بها معي فكنوني أبا هريرة. ويبدو أن هذه الهرة كانت تلازمه وهو في المدينة، فقد رآه النبي ﷺ وهو يحملها في كفه^(١).

ونقل أبو رية عن المقرئ في كتابه إمتاع الأسماع، أن أول ما جاء أبو هريرة إلى النبي ﷺ، كان بعد وقعة خيبر. وبعد أن أسلم على يديه، يقول أبو هريرة أنه صاحبه من أجل (ملء بطنه)^(٢).

ولم يلزم أبو هريرة النبي ﷺ، سوى سنة واحدة فقط. وبعد وفاة النبي ﷺ، أكثر أبو هريرة من الرواية عنه، فتنبه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) إلى خطورة ما يرويه أبو هريرة، وينسبه إلى النبي ﷺ، فاستدعاه وزجره، ثم لم يلبث أن ضربه ومنعه من رواية الحديث عن النبي ﷺ^(٣).

وقال السيد عبد الحسين شرف الدين:

نزل أبو هريرة أيام معاوية إلى جناب مريع، وأنزل أماله منه منزل صدق لذلك نزل في كثير من الحديث على رغائبه، فحدث في

(١) راجع شيخ المضيرة، أبو هريرة، محمود أبو رية، ط٢، دار المعارف بمصر، لا تاريخ، ص٤٣.

(٢) م. س. نفسه، ص٤٨.

(٣) م. س. ص١٠٣.

فضل معاوية وغيره أحاديث عجيبة. وقد كثر وضع الحديث في عهده حسبما اقتضت دعايته، وأوجبته سياسته في نكاية الهاشميين. وكثر الكذب يومئذٍ على رسول الله ﷺ، كما أُنذِر به ﷺ وتطُوروا فيما اختلقوه من الحديث حسبما أوحى إليهم. وكان أبو هريرة في الرعيل الأول من هؤلاء. فحدّث الناس في فضائل معاوية أحاديث منكراً^(١).

ومن نماذج هذه الأحاديث التي رواها أبو هريرة: إن النبي ﷺ ناول معاوية سهماً وقال له: خذ هذا السهم حتى تلقاني به في الجنة. وروى الكثير من الأحاديث التي تشهد بتفضيل أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية على آل أبي طالب، رغم أنَّ البخاري لم يورد إلا ٤٤٦ حديثاً له.

وقد أجمع أهل الحديث، أنَّ الأحاديث التي رواها أبو هريرة، بلغت ٥٣٧٤، حديثاً علماً أنه كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة. وكلّ هذه الأحاديث سمعها في سنة واحدة من مصاحبته للنبي ﷺ. بينما روى أبو بكر الصديق (رض)، وهو شيخ الصحابة جميعاً، وقضى مع النبي مدة البعثة كلها، أي أكثر من ٢٢ سنة، روى عنه ١٤٢ حديثاً فقط.

أما الفاروق، عمر بن الخطاب (رض)، أسلم سنة ست من البعثة، وأقام مع النبي في مكة سبع سنين، وبالمدينة عشر سنين، ولم يسند له الرواة، سوى ٥٣٧ حديثاً.

(١) أبو هريرة، السيد عبد الحسين شرف الدين، ط٢، المطبعة الحيدرية، النجف بغداد، سنة ١٩٦٤، ص ٣٤.

بينما علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو صهر النبي ﷺ وخليفته
ووصيه روى عنه ٥٨٦ حديثاً فقط.

وبعد مقتل علي بن أبي طالب، وتنازل الحسن بن علي عن
الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، اضطر معاوية، من أجل تركيز
دعائم خلافته، إلى الإستعانة ببعض الصحابة والتابعين لاختلاق
الأحاديث على لسان النبي، التي تعطي حكمه شرعية دينية، وتُبعد
عنه صفة الإغتناب.

قال أبو جعفر الإسكافي: أن معاوية وضع قوماً من الصحابة
وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في حق علي عليه السلام،
تقتضي الطعن فيه، والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً (مرتّباً)
يُرغب في مثله، فاختلفوا ما أَرْضاه. ومنهم أبو هريرة وعمر بن
العاص، والمغيرة ابن شعبة، ومن التابعين عروة ابن الزبير^(١).

وقد اختص أبو هريرة بنوع جديد من الأحاديث النبوية، وهي
محصورة برفع شأن معاوية بن أبي سفيان وبني أمية عامة، والخط
من قدر الإمام علي عليه السلام والهاشميين.

وروى البهاء العاملي صاحب الكشكول، نقلاً عن كتب التاريخ
الإسلامي، أنَّ أبا هريرة كان في معركة صفين، يقف على الرابية إذا
احتدم القتال بين المتقاتلين، وينزل إلى مائدة معاوية إذا توقف
المتقاتلون للطعام، ويقصد جيش علي للصلاة وراءه، إذا نُودي
للصلاة، فسأله أحدهم عن سبب هذا التصرف فأجابه: أما الصلاة

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٤٦.

وراء علي فأكرم، وأما الأكل على مائدة معاوية فأدسم، وأما الوقوف على الرابية (أثناء القتال) فأسلم.

وقد لاقى معاوية في أبي هريرة ضالته، كما لاقى أبو هريرة في عزّ وجاه معاوية طلبه، فوضع واختلق هذه الآلاف المؤلفة من الأحاديث التي ترفع من شأن بني أمية، وتجعلهم في مصاف علي وبنيه عليه السلام.

يقول الشاعر العاملي بولس سلامة في وصف البغايا التي كان يقودهن صخر بن حرب المعروف بأبي سفيان، والد معاوية، حين كان في الجاهلية يدير مواخير الدعارة في مكة: ^(١)

وتراهم من سورة الخمر صرعى عربدات فمذكر وشتائم
يقرعون الزقاق بالخمرملاي مثلما تكرر الحياض البهائم
شهوة إثر شهوة تتلظى في ضروب الزنى ومسّ المحارم
والخيام الحمراء رأي البغايا حولها الناس كالفراش الحائم
يدفعون الإماء للعهر دفعاً ومن النتن يأكلون المغارم
سل عن الصفقة الدنيئة صخراً أي نسل في حماة النتن عائم
وكان المغرضون والداعون إلى هدم الإسلام وشقّ صفوفه،
يعمدون دائماً إلى فتح ملف هذا الخلاف التاريخي كلما أرادوا تحويل
صراع المسلمين مع أعدائهم، كي يكون الصراع فيما بينهم.

ويستطيع الباحث في التاريخ الإسلامي أخذ العبر الكثيرة من هذا الموضوع، وأقلّها إقدام صلاح الدين الأيوبي وأبنائه من بعده،

(١) عيد الغدير، بولس سلامة، ط ١، بيروت، لا دار نشر، سنة ١٩٤٧، ص ٣٦.

بحجة وحدة المسلمين، على ضرب الشيعة في مصر وإبادتهم
وذبحهم في حماه وحمص ومنبج، والتفرغ من بعد الإنتهاء من
السيطرة على قلاعهم وحصونهم، إلى التناش والتناهش بين أبناءه
وأبناء أخوته، مما أدى إلى تدمير العالم الإسلامي وقتل روح
الشجاعة في الإنسان المسلم، وتعبيد الطريق لمجيء المغول.



مقتل الخليفة عثمان بن عفان

قال المسعودي في مروج الذهب: «كان عثمان في نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد. فسلك عمّاله وكثير من أهل عصره طريقته وتأسوا به في فعله. وبنى داره في المدينة، وثبتّها بالجير والكلس، وجعل أبوابها من الساج والعرعر واقتنى أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة. وذكر عبد الله بن عتبة أنّ عثمان يوم قتل كان له عند خازنه من المال، خمسون ألف دينار، وألف ألف درهم (مليون) وخلف خيلاً كثيراً وإبلًا^(١)».

وذكر محمد بن يحيى ابن أبي بكر أنّ «عليّاً وعظه وخوّفه وحذّره، وذكر له ولاية من ولّاه مثل معاوية وابن سرح وابن عامر وسعيد بن العاص وغيرهم، ثم خرج من عنده بعد محاوراة طويلة»^(٢).

(١) مروج الذهب ومعادن الجواهر، للمسعودي، ج ٢، ط ٢، دار الأندلس، بيروت، سنة ١٩٧٣، ص ٣٣٢.

(٢) التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، محمد بن يحيى بن أبي بكر، تحقيق محمود يوسف زايد، ط ١، بيروت، دار الثقافة، سنة ١٩٦٤، ص ٥٤.

وجراء هذا الوضع المستجد، والثراء الفاحش الذي ظهر على الخليفة الثالث، بدأ المسلمون يطعنون في خلافته وأخلاقه ويشنعون عليه، وبدأت المشاحنة والتلاسن بينه وبين عبد الله بن مسعود، وبينه وبين جندب بن كعب الأزدي، واشتد خلافه مع أبي ذر الغفاري، فنفاه إلى الشام، فكتب معاوية إلى عثمان: أن أبا ذر تجتمع إليه الجموع، ولا آمن أن يفسدهم عليك، فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله إليك، فحمله على بعير، على قتب يابس، ومعه خمسة من الصقالبة، وما وصل إلى المدينة حتى تسلخت بواطن أفضائه وكاد أن يتلف.

وقد عدّ القاضي أبو بكر بن العربي مثالب عثمان فقال^(١):

- ١ - ضربه لعمار بن ياسر حتى فتق أمعاءه.
- ٢ - ضربه لعبد الله بن مسعود حتى كسر أضلاعه ومنعه عطاءه.
- ٣ - ابتدع في طريقة جمع القرآن وحرق بعض المصاحف برواية آخرين.
- ٤ - نفى أبا ذر الغفاري إلى الربذة.
- ٥ - إخراج أبا الدرداء من الشام وردّه إلى الحكم بعد أن نفاه رسول الله ﷺ.
- ٦ - أبطل سنة القصر في صلوات السفر.
- ٨ - ولّى الوليد بن عقبة وهو فاسق ولا يجوز توليته.
- ٩ - أعطى مروان بن الحكم خمس خراج أفريقيا.

(١) راجع م. س. نفسه، ص ٢٤٤.

١٠ - كان عمر بن الخطاب يقيم الحدود بالدرة (عصا صغيرة) أما هو فكان يقيمها بعصا غليظة.

١١ - لم يحضر وقعة بدر، وانهزم يوم أحد وغاب عن بيعة الرضوان.

١٢ - أرسل كتاباً مع عبده إلى ابن أبي سرح يأمره بقتل الثوار المصريين.

وكان من المحرضين على عثمان (رض)، مالك النخعي في الكوفة، وحكيم بن جبلة العبدي في البصرة، ومحمد بن أبي بكر الصديق في مصر، وقد هجم كل منهم بسرية من أنصاره على المدينة، فردهم علي بن أبي طالب بعد تدخله مصلاً بينهم وبين الخليفة الثالث، وعاد كل فريق إلى بلاده، وفي طريق عودتهم «التقوا بغلام على بعير وهو مقبل من المدينة فتأملوه» فإذا هو ورش غلام عثمان، فقرروه، فأقرّ، وأظهر كتاباً إلى ابن أبي سرح صاحب مصر.

وفيه: «إذا أقدم عليك الجيش، فاقطع يد فلان، واقتل فلاناً، وافعل بفلان كذا، وأحصى أكثر من في الجيش، وأمر فيهم بما أمر»^(١). وعلم القوم أنّ الكتاب بخط مروان بن الحكم، فرجعوا إلى المدينة، واتفق رأيهم وراي من قدم منهم من العراق، ونزلوا المسجد في المدينة، وتداولوا هذا الأمر فيما بينهم، ورجعوا إلى عثمان، فحاصروه في داره وقصة محاصرته طويلة، روتها أكثر كتب التاريخ.

(١) راجع: العواصم من القواسم، أبو بكر بن العربي، ط ١، الفسطاط مصر، لا دار نشر،

سنة ١٣٧١ هـ، ص ٦١.

قال المسعودي: فلما بلغ علياً عليه السلام أنهم يريدون قتله، بعث بإبنيه الحسن والحسين، مع مواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته، وأمرهم أن يمنعوه منهم، وكذلك الزبير، بعث ولده عبد الله، وطلحة، ولده محمداً، واشتبك القوم وجرح الحسن، وجرح محمد بن طلحة، وهجم القوم على دار عثمان. وكان السابق إليه محمد بن أبي بكر، فعاتبه عثمان على هذه الفعلة، وذكره بوالده، فتركه وخرج من داره، فدخل رجلان فقتلاه، وكان المصحف بين يديه، يقرأ فيه، فبلغ ذلك علياً وطلحة والزبير، وسعدا وغيرهم من المهاجرين والأنصار، فاسترجع القوم، ودخل علي الدار، وهوى كالواله الحزين، وقال لابنيه: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب: وسأل زوجته عين كيفية قتله.

وقد روت أم سلمة (رض) زوجة النبي صلى الله عليه وسلم ان عائشة كانت تحرّض المسلمين على عثمان بن عفان، تمهيداً لعزله وتولية ابن عمها طلحة بن عبيد الله التيمي، وكانت تقول: «هذا قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبلّ وعثمان قد أبلى سنته. ثم تقول: اقتلوا نعتلاً قتل الله نعتلاً». وتعني به عثمان بن عفان، ولكن بعد مقتل عثمان فوجئت عائشة بمبايعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فأخذت تقول: «قتل عثمان مظلوماً، والله لأطلبن بدمه فقوموا معي، فقال لها عبيد بن كلاب: لم تقولين هذا؟ فوالله لقد كنت تحرّضين عليه وتقولين: اقتلوا نعتلاً قتله الله فقد كفر. فقالت لعبيد: إنهم استتابوه ثم قتلوه. فقال لها عبيد بن كلاب^(١):

(١) أم سلمة، علي محمد علي دخیل، ط ١، بیروت، مؤسسة أهل البيت، سنة ١٩٧٩، ص ٤٨.

ومنك البكاء ومنك العويل ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا: إنه قد كفر
وكانت مدة محاصرته في داره تسعاً وأربعين يوماً. وقيل أكثر،
وقيل أن الرجلين اللذين قتلاه هما: كنانة بن بشير التجيبي،
سعد بن حمران المرادي.

وقد أحسن المسعودي في وصف هذه الحادثة التي تركت
بصماتها على التاريخ الإسلامي، وكانت أول إشارة للخلاف
التاريخي المميت بين شقي المسلمين: السنة والشيعة.

وبالرغم من أن أكثر كتب التاريخ أشارت إلى وقوف علي بن أبي
طالب إلى جانب الخليفة الثالث، ودفاعه عنه عبر ولديه الحسن
والحسين وأنصاره، إلا أن موقع الخلافة الذي آل إليه، والمكتسبات
التي حققها بني أمية من خلال هذا الموقع، من مال وجاه وعقار،
جعل منه مطمعا ومطمحا لكل متسلق.

والمتسلق، بحاجة إلى حجة وسلّم يصل عبره إلى مبتغاه، فكان
ثار عثمان، هو السلّم الذي سعى إليه أصحاب الطموح من سفيانيين
وزبيريين لاسترجاع مركز الخلافة.

وكان أول من نادى بثار عثمان حسان بن ثابت حيث قال:

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني

ما كان شأن علي وابن عفانا

لنسمعن وشيكاً في ديارهم

اللّه أكبر يا ثارات عثمان

وكان لعثمان بن عفان أخ غير شقيق من أمه، وهو الوليد بن عقبة بن أبي معيط وقد اشتهر بفسقه ومجونته، فاشترك الأخير في تأجيج نار العداوة بين السفينيين والهاشميين. وبويع علي بن أبي طالب، في اليوم الذي قتل فيه عثمان بن عفان.



حرب الجمل

خلافة الإمام الأول: علي بن أبي طالب (ع):

قال الحافظ الذهبي في كتابه العبر، أنه لما خرجت عائشة وطلحة والزبير نحو البصرة طالبين دم عثمان، دون مشورة الإمام علي عليه السلام ومن غير أمره، ساق وراءهم وأراد منعهم دفعاً للفتنة، فكانت وقعة الجمل^(١).

أما الأسباب الحقيقية لهذه الوقعة، فهي تكمن في إقدام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، على عزل كل ولاية الأمصار المعيّنين من قبل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، فقد عزلهم كلهم خلا أبي موسى الأشعري، ويقول اليعقوبي في تاريخه: «إنه ولي طلحة اليمن، والزبير اليمامة والبحرين، وعاد وعزلهما لأسباب شرحتها كتب التاريخ، فأدى هذا العزل إلى انقلابهما عليه^(٢). وقال اليعقوبي: «أنَّ

(١) راجع العبر في خبر من غير، الذهبي، ط٢، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت سنة ١٩٨٤، ص ٣٧.

(٢) راجع تاريخ اليعقوبي، م. س. ص ١٨٠.

طلحة والزبير جاءا علياً وطلباً منه الخروج بقصد العمرة، وقال علي لبعض أصحابه: والله ما أرادا العمرة، ولكنهما أرادا الغدرة، فلحقا عائشة بمكة وحرّضاها على الخروج.

أما المسعودي في مروج الذهب، يقول أن عامل عثمان على اليمن يُعلى بن أمية، جاء إلى مكة بعد أن عزله علي عليه السلام، وحرّض طلحة والزبير وعائشة، وأعطاهم أربعمئة ألف درهم، وكراعاً وسلاحاً. وبعث إلى عائشة بالجمل المسمى عسكرياً، وكان قد اشتراه من اليمن بمائتي دينار، فأرادوا أن يقصدوا الشام، فنصحهم بقصد البصرة، وأعطاهم ألف ألف درهم (مليون)، ومائة من الإبل وغير ذلك، وهكذا كانت بداية الفتنة.

أما الحافظ ابن كثير فإنه يقول أنه عندما وصل جيش عائشة إلى ماء الحوаб، نبحت الكلاب، فسألت عائشة عن اسم هذا الماء فقالوا لها: الحوаб، فجفلت وأرادت الرجوع، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد تنبأ لها بهذا الأمر، فأناخت جملها عسكرياً وقالت: ردّوني، ردّوني أنا والله صاحبة ماء الحوаб، ويقول ابن كثير أن عبد الله بن الزبير أعاد وأنكر هذا الاسم، فكانت أول شهادة زور في الإسلام، وأقنعها بمتابعة سيرها^(١).

ولن نطيل الحديث عن هذه المعركة، فهي موجودة في كتب التاريخ الإسلامي. لقد كانت معركة دامية، أدت إلى قتل معظم حفاظ

(١) البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير، مج ٧، لا طبعة، مكتبة المعارف، بيروت، سنة ١٩٩٢، ص ٢٣٢.

القرآن والحديث، ومقتل القيادات من الصحابة، كالزبير بن العوام وغيره من كبار الصحابة. وقد ذكر سيف بن عمر الضبي عدد قتلى وقعة الجمل، فقال: أنهم قُتلوا بالقرب من الجمل الذي كان يحمل هودج عائشة (رض)، واسمه عسكر، وكان قتلى الجمل حوالي عشرة آلاف، نصفهم من أصحاب علي عليه السلام، ونصفهم من أصحاب عائشة، وقتل من بني عدي يومئذ سبعون شيخاً، كلهم من قرأ القرآن»^(١).

وروى أبو مخنف أن علياً عليه السلام، لما رأى أن الشر قد استطار وأن قوم عائشة يدافعون عن جملها عسكر دفاع المستميت، أمر بقتل الجمل، فتقدم رجل من همذان اسمه بجير ليقتله، فتقدم بجير وضرب عجز الجمل بسيفه، وضرب قوائمه، فوقع الجمل الأرض وعج عجباً لم يسمع بمثله قط، وانتهت المعركة بسقوط الجمل وفرار رجال عائشة من حوله.

وأمر الإمام علي، محمداً بن أبي بكر باحتمال هودج أخته عائشة ومواكبتها معرزة مكرمة إلى دار أبي عبد الله بن خلف الخزاعي وهي أعظم دار في البصرة.

وكانت امرأة من عبد القيس خرجت تبحث في أرض المعركة عن ولديها بين القتلى فوجدتهما قتيلين، وكان قد قتل لها في المناوشات الأولى زوجها وأخوان لها فقالت^(٢):

(١) الفتنة ووقعة الجمل برواية سيف بن عمر الضبي الأسدي المتوفي سنة ٢٠٠ هـ، ط ٢، دار النفائس، بيروت، سنة ١٩٩٣، ص ١٧٩.

(٢) حرب الجمل وحرب صفين، السيد محسن الأمين، ط ١، دار الفكر للجميع، بيروت، سنة ١٩٦٩، ص ٥٥.

شهدت الحروب فشيتني فلم أر يوماً كيوم الجمل
أضر على مؤمن فتنة وأقتله لشجاع بطل
فليت الظعينة في بيتها وليتك عسكر لم ترتحل
وتعني الظعينة، عائشة (رض)، وعسكرا جملها.

زوجات النبي شعراً:

ولم تكن عائشة هي الزوجة الوحيدة للنبي محمد، ولكنها كانت
المفضلة لديه. وقد تزوج صلوات الله عليه تسع زوجات جمع أحد
الشعراء أسماءهن بقوله:

توفي رسول الله عن تسع نسوة إلهن تعزى المكرماً وتُنسبُ
فعائشة ميمونة وصفية وحفصة تتلوهُنَّ هندٌ وزينبُ
جويرية مع رملة ثم سورة ثلاث وست ذكرهُنَّ مُهدَّبُ

مركز تحقيقات كليات العلوم الإسلامية

حرب صفين

قال نصر بن مزاحم المنقري: «بعد أن انتهى علي بن أبي طالب عليه السلام، من حرب الجمل في البصرة، جاء إلى الكوفة، وأكثرهم من أتباع عثمان ومعاوية بن أبي سفيان، فخطب بهم علي عليه السلام. وأسمعهم ما يكرهون دون أن يعاتبهم على نصرتهم معاوية، فقام إليه مالك بن حبيب اليربوعي، وكان صاحب شرطته، فقال له: «والله لأرى الهجر وإسماع المكروه لهم قليلاً، والله لئن أمرتنا لنقتلهم». ولكن الإمام علي رفض هذا الأمر، ووبّخ مالكا وكل من أراد أن يأخذ المظلوم بفعل الظالم. وبعد أن نزل علي عليه السلام في البصرة، بدأت تأتية الوفود وتخبره بتحركات معاوية بن أبي سفيان وعزمه على حربه. ثم ترك البصرة وقصد الكوفة، دون أن يقصد معاوية في عقر داره، فانتقده بعض أنصاره ومنهم شن بن عبد القيس الذي قال^(١):
قل لهذا الإمام قد خبت الحرب وتمت بذلك النعماء

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري، تحقيق عبد السلام هارون، ط ٢، مكتبة الخانجي بمصر، القاهرة، سنة ١٩٨١، ص ٨.

وفرغنا من حرب من نقض العهد وبالشام حية صماء
تنفث السم ما لمن نهشته فارمها قبل أن تعض شفاء
إن تذرهم فمما معاوية الدهر بمعطيك ما أراك تشاء
ولنيل السماك أقرب من ذاك ونجم العيوق والعواء
فاضرب الحد والحديد إليهم وليس والله غير ذاك دواء

وهذه الأبيات تعطينا الصورة الحقيقية لواقع الحال، وللمشاعر التي كانت سائدة في صفوف المسلمين من هاشميين وعثمانيين، وكيف بدأ التسنن والتشيع يأخذ طريقه ويطفو على سطح البحر الإسلامي الهائج.

وبدأ كل فريق يحشد قواته ويشحن نفوس أتباعه، فمعاوية يرفضبيعة الخليفة الرابع بحجة تأمره على الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وتساهله في الدفاع عنه، بينما يرد علي عليه السلام وشيعته بأن الذين قتلوا عثمان، هم الأمويون أنفسهم بزعامة عمرو بن العاص، وأنه هو وأولاده فقط الذين حاولوا منع المصريين عن عثمان وداره، وأن ولديه الحسن والحسين عليه السلام، قد جرحا وهما يدافعان عن خليفة المسلمين.

ومعركة صفين معروفة في كتب التاريخ بأسبابها ودوافعها وتفصيلاتها ونتائجها، وخاصة قضية الخدعة لتي لجأ إليها عمرو بن العاص، والقاضية برفع المصاحف على أسنة الرماح والمناداة: لا حكم إلا الله، والتي انتهت بتأليف لجنة الحكمين: أبو موسى الأشعري عن جيش المسلمين وعلي عليه السلام، وعمرو بن العاص عن أهل الشام ومعاوية. والتي انتهت بخداع عمرو بن العاص، لأبي موسى الأشعري، حيث اتفق معه على خلع معاوية وعلي عليه السلام، وطلب منه أن يبدأ بخلع صاحبه، (علي بن أبي طالب)،

وقام أبو موسى الأشعري وخلع صاحبه، فما كان من عمرو بن العاص إلا أن ثبت صاحبه (معاوية). علماً أن معاوية ليس خليفة بل كان وال على الشام من قبل الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رض). وقد روى نصر بن مزاحم المنقري، أنه قتل بصفين من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً وقتل من أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً.

مقتل الإمام علي (ع):

في شهر رمضان من سنة أربعين للهجرة، «وبينما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يجاهد ويكابد ليحمل أصحابه على مناصرة الحق والمستضعفين وحرب البغاة، وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان، ويبعث فرقاً من جيشه إلى هنا وهناك، لرصد الغارات التي كان يشنها ابن أبي سفيان على أطراف العراق والحجاز واليمن، بينما كان في هذا كله، وإذا به يسقط صريعاً في بيت الله، بسيف ابن ملجم المرادي، نتيجة لمؤامرة ذهب أكثر المؤرخين أنها وضعت في مكة المكرمة، وفي موسم الحج بالذات. واشترك فيها ثلاثة من الخوارج: عبد الرحمن بن ملجم المرادي، والحجاج بن عبد الله الصريمي، وعمرو بن بكر التميمي.

ولم يمت الإمام علي عليه السلام مباشرة من ضربة ابن ملجم، بل استمر ينازع أربعة أيام، حتى قضى نحبه في الواحد والعشرين من رمضان، شهيد الحق والعدالة، تاركاً وراءه أروع الأمثلة من البطولات والتضحيات والإستخفاف بالدنيا ومتاعها، وقد خرج من هذه الدنيا كما دخلها تاركاً الحسن والحسين عليهما السلام وزينب عليها السلام بين يدي

خصمه في الدين والدنيا، معاوية بن أبي سفيان، يمزقهم الألم ويقسو عليهم الزمن، وفي سلسلة من المآسي، لم تعرف البشرية أشد هولاً منها ولا أقسى في تاريخها الطويل»^(١).

خلافة الإمام الثاني الحسن الزكي (ع):

ولد الإمام الحسن عليه السلام، في السنة الثالثة للهجرة وقد سماه الرسول ﷺ بنفسه الحسن والشيعه يقولون: أن الوحي ناجى رسول الله ﷺ بالإسم المبارك من عند الله سبحانه وتعالى وقال له: سمه حسناً يا رسول الله^(٢). والإمام الحسن خامس أصحاب الكساء عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. وأحد الثقلين اللذين من تمسك بهما نجا، ومن تخلف عنهما ضلّ وغوى، ومن أهل البيت اللذين شبّههم الله بسفينة نوح. وقال واصفوه: أنه كان أشبه الناس بجده رسول الله ﷺ خلقاً وخلقاً وسؤدداً وهدياً. وقد كان متواضعاً كريماً، عميق الإيمان، محدثاً عن جده وأبيه، وقد عاشر الخلفاء الراشدين الثلاثة، ولكن لم يذكر لنا التاريخ أي شيء يلفت النظر عن حياته في عهدهم، سوى اشتراكه في غزو أفريقيا وعودته منصوراً يحفظ ويدرس أبناء المسلمين في المدينة، حتى وقعت الفتنة فوقف مع أخيه الحسين عليه السلام، ووالدهما علي عليه السلام إلى جانب عثمان بن عفان، محاولين إقناع المصريين بالعودة من حيث أتوا، ولكن

(١) راجع سيرة الأئمة الاثني عشر، هاشم معروف الحسيني، مج ١، ط ٣، دار القلم بيروت، سنة ١٩٨١، ص ٥٠١.

(٢) م. س. نفسه. ص ٥١٢.

مروان بن الحكم كان يؤجج النار والصراع كلما أطفأها علي وبنوه عليه السلام، وقد انتهت بمقتل عثمان بن عفان على يد الثوار المصريين، وإصابة الحسن والحسين بجراح وهما يدافعان عن خليفة المسلمين.

وبعد أن تسلّم الإمام علي عليه السلام خلافة المسلمين، تابع الحسن إدارة شؤون الخلافة مع أبيه، وشارك أباه في حروبه «مع الناكثين والفاسقين المارقين، بالرغم من أنّ أباه كان يرضى به وبأخيه الحسين عن خوض المعارك، ويستعين بأصحابهما عليهما^(١)».

وبعد مقتل الإمام علي عليه السلام، على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم، بقي أربعة أيام ينازع الموت فيها، ويوصي أولاده والمسلمين بما يجب أن يفعلوه بعد موته.

كتاب الإمام علي لواليه علي مصر، مالك بن الأشتر:

لم يكن علي بن أبي طالب عليه السلام رجلاً عادياً، بل كان يسبق عصره بقرون وأجيال، لقد كان نموذجاً للإنسان الكامل. فبالعودة إلى خطبه وأقواله في نهج البلاغة، وإلى الرسالة التي أرسلها إلى عامله على مصر، مالك ابن الأشتر، يحدّد له مسؤولياته تجاه الخلافة وتجاه الرعية، ووصيته لولده الحسن عليه السلام، وهو على فراش الموت، تظهر مدى تفوقه النوعي في مجال العلاقات الإنسانية، ومدى ارتقائه فوق الأطماع الدنيوية، وذوبانه في الأفق الإنساني المطلق.

(١) م.س. ص ٥٤٩.

فقد كتب الإمام علي عليه السلام لأهل مصر يقول: «أما بعد فقد بعثت إليكم عبداً من عباد الله، لا ينام أيام الخوف، ولا ينكل عن الأعداء ساعات الروع، أشد على الفجار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث: فاسعوا له وأطيعوا أمره فيما طابق الحق»^(١).

وجاء في هذا الكتاب أيضاً:

«ثم اعلم يا مالك، أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور، فليكن أحب الذخائر إليك، ذخيرة العمل الصالح، فاملك هواك، وشح بنفسك عما لا يحل لك، واشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، والطف بهم ولا تكون عليهم سبعا ضارياً، تغنم أكلهم، ففتيانهم صنفان: إما أخ لك في الدين (المسلمون) أو نظير لك في الخلق، (الأقباط). فاعطهم من عفوك وصفحك مثل اللذين تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم وولي الأمر عليك، فوقك، (الخليفة). ولا تندمن على عفو، ولا تبجن بعقوبة. وتقرب من الغير».

ومنه أيضاً:

«إياك ومساواة الله في عظمته، والتشبه به في جبروته فإن الله يذل كل جبار، ويهين كل محتال، أنصف الله وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك، ممن لك فيه هوى من رعيته (المحاسيب والأزلام)، فإنك إن لا تفعل تظلم».

وليكن أبعد رعيته منك وأبغضهم عندك أطلبهم لمعايب الناس

(١) عهد الأشر، محمد مهدي شمس الدين، بيروت، مؤسسة الوفاء، سنة ١٩٨٤، ص ١٤.

فإنّ في الناس عيوباً، الوالي أحقّ من سترها، فاستر العورة ما استطعت، يستر الله منك ما تحبّ ستره من رعيّتك، ولا تعجلن إلى تصديق ساع، فإن الساعي غشّاش وأن تشبّه بالناصحين.

ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل عن الفضل، ولا جباناً يضعك عن الأمور، ولا حريصاً يزيّن لك الشر بالجور، فإن البخل والجبن والحرص، غرائز شتى، يجمعها سوء الظن بالله..
وجاء فيه أيضاً:

«والصق بأهل الورع والصدق ثم إرضهم، على أن لا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو... وأكثر مدارس العلماء ومناقشة (محاذية) الحكماء، وإقامة ما استقام به الناس من قبلك».

ويوصيه بطبقات الناس عامة:

«فالجند حصون الرعيّة، وعز الدين، ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً، فإنهم مواد المنافع، وأسباب المرافق، وتفقد أمورهم بحضرتك، وفي حواشي بلادك... واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً، وشحاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع، وتحكماً في البياعات، وفي ذلك باب مضرّة للعامة وعيب على الولاية، فامنع الإحتكار، وليكن البيع بيعاً سمحاً، بموازين عدل وأسعار لا تجحف الفريقين، من البائع والمبتاع، فمن قارف (اقترف) حكرة، (احتكار) بعد نهيك إياه، فنكل به وعاقبه من غير إسراف».

ويوصيه بالطبقات الشعبية من المصريين فيقول له:

الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين

والعحتاجين وأهل البؤس، فإن في هذه الطبقة قابلاً ومعتراً، فاحفظ
لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك».

ولم ينس الإمام علي عليه السلام أحداً من المصريين في كتابه لمالك
ابن الأشتر، فيطلب منه أن يتعهد أهل اليتيم وذوي الرقة في السن من
لا حيلة له (العجزة).

وينهي كتابه بقوله للأشتر: إياك والدماء وسفكها بغير محلها،
ولا عذر لك عندي في قتل العمد، لأن فيه قود (قصاص) البدن،
وإياك والإعجاب بنفسك، وحب الإطراء، فإن ذلك من أوثق فرص
الشیطان في نفسه، ليمحق ما يكون من أحساس المحسنين، وإياك
والممن على رعينتك بإحسانك، فإن الممن يبطل الإحسان، وإياك والعجلة
في الأمور قبل أوانها، أو اللجاجة فيها، واملِك نفسك، واحترس حتى
يسكن غضبك. وأنا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على عطاء
كل رغبة، أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه مع حسن الثناء في العباد،
وجميل الأثر في البلاد (مصر)، وتمام النعمة، وأن يختم لي ولك
بالسعادة والشهادة، إنا لله وإنا إليه راجعون»^(١).

وكان مالك بن الأشتر فور وصوله إلى مصر جمع المصريين
في جامع الفسطاط وخطب فيهم قائلاً:

«الحمد لله الذي خلق السموات العلى، الرحمن على العرش استوى ...
أحمده على حسن البلاء وتظاهر النعماء حمداً كثيراً، بكرة وأصيلاً.

(١) راجع عهد الأشتر، محمد مهدي شمس الدين، ط ١، مؤسسة الوفاء بيروت، سنة
١٩٨٤، ص ١٤٧.

لقد ساقتنا المقادير إلى أهل هذه البلدة من الأرض، فلفت بيننا وبين عدو الله وعدونا، فنحن بحمد الله ونعمه وفضله، قريرة أعيننا، طيبة أنفسنا، نرجو بقتالهم حسن الثواب والأمن والعقاب.

معنا ابن عم نبيّنا وسيف من سيوف الله: عليّ بن أبي طالب - صلى مع رسول الله - (ص)، ولم يسبقه إلى الصلاة ذكرّ، حتى كان شيخاً لم يكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة ولا سقطّة. فقيه في دين الله تعالى، عالم بحدود الله، ذو رأي أصيل وصبر جميل وعفاف قديم. فاتقوا الله، وعليكم بالحزم والحدّ، واعلموا أنكم على الحق وأن القوم على الباطل، وإنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البدرين (أبطال موقعة بدر)، سوى من حولكم من أصحاب محمد أكثر ما معكم رايات قد كانت مع رسول الله (ص)، ومعاوية مع رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله (ص) (١).

وصيته لولده الحسن (ع): تحفة كريمة من رسول الله

ضرب ابن ملجم الإمام عليّ عليه السلام، وهو يصلي الفجر في محرابه، وشجّ رأسه، فبقي ينازع أربعة أيام كما أشرنا. وقبيل وفاته أوصى لولده الحسن عليه السلام، ونصّ على إمامته وإمامة أخيه الحسين عليه السلام، مؤكداً وصية جدّهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم، من قبل. وقد جاء في هذه الوصية:

«أوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهل بيتي ومن بلغه كتابي هذا

(١) أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، عبد الحسيب طه حميده، ط ١، القاهرة مطبعة السعادة بمصر، سنة ١٩٥٦، ص ١٢٠.

بِتَقْوَى اللَّهِ رَبِّنَا، وَلَا تَمُوتَنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ. انْظُرُوا إِلَى أَرْحَامِكُمْ فَصَلُّوهُمْ، يَهْوَنَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْحَسَابَ. اللَّهُ اللَّهُ فِي الْإِيْتَامِ، فَلَا تَقْيِدُوا أَفْوَاهَهُمْ بِجَفَوَتِكُمْ. وَاللَّهُ اللَّهُ بِجِيرَانِكُمْ»، فَإِنَّهَا وَصِيَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. مَا زَالَ يُوصِينَا بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُورِثُهُمْ. «وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، فَلَا يَسْبِقُكُمْ إِلَى الْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ، وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّهَا عِمَادُ دِينِكُمْ، وَاللَّهُ اللَّهُ فِي بَيْوتِ رَبِّكُمْ، فَلَا تَخْلُونَنَّ مِنْكُمْ مَا بَقِيْتُمْ. وَاللَّهُ اللَّهُ فِي صِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَإِنَّهُ جَنَّةٌ مِنَ النَّارِ، وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، وَاللَّهُ اللَّهُ فِي زَكَاةِ أَمْوَالِكُمْ، فَإِنَّهَا تَطْفِيءُ غَضَبَ رَبِّكُمْ، وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، فَاشْرِكُوهُمْ فِي مَعَايِشِكُمْ. وَاللَّهُ اللَّهُ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، فَإِنَّهَا كَانَتْ آخِرَ وَصِيَّةٍ لِرَسُولِ اللَّهِ. وَلَا تَنْكُرُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ». وَتَوَجَّهَ إِلَى جَمِيعِ أَوْلَادِهِ وَقَالَ لَهُمْ: «عَلَيْكُمْ بِالتَّوَاضُعِ وَالتَّبَازُلِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّقَاطُعَ وَالتَّفَرُّقَ وَالتَّدَابِرَ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ. وَلَا تَبْغُوا الدُّنْيَا وَإِنْ تَفْتَكُمُ، وَلَا تَأْسَفُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا. وَكُونُوا لِلظَّالِمِ خَصِماً وَلِلْمَظْلُومِ عَوِناً»^(١).

وَتَقُولُ الشَّيْعَةُ الْإِمَامِيَّةُ أَنَّهُ نَصَّ عَلَى الْأَئِمَّةِ التَّسْعَةِ مِنْ نَسْلِ الْحُسَيْنِ فِي وَصِيَّةِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ بِشَهَادَةِ وَلَدِهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ وَالْحُسَيْنِ وَرُؤَسَاءِ شِيعَتِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ.

(١) راجع سيرة الأئمة الإثني عشر، م. س. ص ٥٥٢.

وقد رثته أم الهيثم بنت الأسود النخعية بقولها^(١):

ألا يا عين ويحك فاسعدينا ألا تبكي أمير المؤمنين
رزئنا خير من ركب المطايا وخيسها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ومن قرأ المثنائي والمثينا
وكنّا قبل مقتله بخير نرى مولى رسول الله فينا
يقيم الدين لا يرتاب فيه ويقضي بالفرائض مستبينا
ويدعول الجماعة من عصاه وينهك قطع أيدي السارقينا
وليس بكاتم علماً لديه ولم يُخلق من المتجبرينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طراً أجمعينا
ومن بعد النبي فخيرُ نفس أبو حسن وخيرُ الصالحينا
فلا تشمت معاوية بن صخر فإن بقية الخلفاء فينا

إمامة وخلافة الإمام الثاني الحسن بن علي (ع):

توفي الإمام علي عليه السلام، تاركاً الإمامة والخلافة لولده الحسن، فاجتمع الناس وبايعوا الحسن بن علي عليه السلام. فقام وخطب بهم خطبة طويلة، استدعى من بعدها قاتل أبيه عبد الرحمن بن ملجم، فأمر بإحضاره وقتله بيده.

وما أن فرغ من مراسم استلام الإمامة والخلافة، حتى وجّه جيشاً لقتال معاوية، تعداده إثنا عشر ألفاً، بقيادة عبد الله بن العباس وقيس بن سعد بن عبادة، فالتقى العسكران ناحية الموصل، فأرسل

(١) مقاتل الطالبين، أبو الفرج الأصبهاني، ط ١، دار المعرفة، بيروت، ص ٤٥.

معاوية يرشي قيس بن سعد بن عبادة بمبلغ ألف ألف درهم (مليون درهم). فرفض الرشوة وبقي على ولائه للإمام الحسن، فحاولها معاوية ثانية مع عبد الله بن العباس، فسار إليه عبد الله مع ثمانية آلاف من أصحابه^(١).

ولما كان تصرف ابن العباس على هذه الشاكلة، أضمر له معاوية الحقد وانتظر فرصة لينتقم منه، وبعد فترة أرسل معاوية بُسر بن أرطاة على رأس جيش إلى اليمن، فدهم بيت عبد الله بن العباس، وكان غائباً عنه، فدخل بُسر بيته وقتل ولديه الرضيعين: عبد الرحمن وقتلهم، وذبحهما ذبحاً على مرأى من أمهما. فخولطت في عقلها وأصابها من جراء ذبحهما جنون وخبل وكانت ترثيها في كل عام بقولها^(٢):

يا من أحسن بابني اللذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدفُ
يا من أحسن بابني اللذين هما مخ الفطام فمخي اليوم مزدحفُ
يا من أحسن بابني اللذين هما قلبي وسمعي فقلبي اليوم مختطفُ
من دل والهة حرى مُدلهة على جبیني ذل إذ غدا السلفُ
نُبئتُ بسراً وما صدقت ما زعموا من إفكهم ومن الإثم الذي اقترفوا
أحني على ودجي ابني مرهفة مشحوزة وكذاك الإثم يقتترف
وكان معاوية يحاول الإيقاع بين الإمام الحسن عليه السلام، وقادة

(١) تاريخ اليعقوبي، م. س. مج ٢، ص ١٢٤.

(٢) رسالة الحقوق، للإمام زين العابدين، مقدمة الرسالة، عبد الهادي المختار، بغداد، مطبعة دار الهلال، سنة ١٩٥٠، ص ٧٨.

جيوشه، فأرسل من يقول للحسن، أن قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار معه، كما أنه وجه إلى معسكر قيس من أخبره أن الإمام الحسن عليه السلام، قد صالح معاوية وأجابه.

ووجه معاوية إلى الإمام الحسن عليه السلام، المغيرة بن شعبه، وعبد الله بن عامر، وعبد الرحمن بن أم الحكم، فأتوه وهو بالمدائن نازلاً في مضاربه، وخرجوا من عنده وهم يقولون ويسمعون الناس: إن الله قد حقن بآبى رسول الله الدماء، وأسكن به الفتنة وأجاب إلى الصلح، فاضطرب العسكر ووثبوا إلى مضارب الإمام الحسن ونهبوها، وتقول بعض كتب التاريخ، أن الجراح بن سنان الأسدي كمن له وضربه بمعول فجرحه في فخذه، فحمل الإمام الحسن عليه السلام إلى المدائن وقد نزف نزفاً شديداً واشتدت به العلة، ففترق عنه الناس. وقدم معاوية العراق فقلب على الأمر، ولما رأى الحسن عليه السلام أن لا حول ولا قوة له، وأن أصحابه قد افترقوا عنه، صالح معاوية.

صلح الحسن:

تروي لنا كتب التاريخ أن حالة الإحباط التي أصابت الإمام الحسن عليه السلام وغدر الناس به، دفعته للقبول بالصلح، كما أن الحرب وتكالب الخصم على الحكم، سيؤدي حتماً إلى تفريق المسلمين، واندثار الإسلام، ونكوص مذهب التشيع، ومن أجل استمرار المذهب، وحفاظاً على أرواح المسلمين، قبل بهذا الصلح.

وقد اتفق المؤرخون أن الحسن بن علي عليه السلام، قد تنازل عن السلطة لمعاوية، لقاء شروط وعهود أخذها عليه، وروى الطبري

وغيره أنَّ معاوية أرسل إلى الحسن صحيفة بيضاء، وختم أسفلها بخاتمه، وترك الحسن يضع ما يشاء ويقترح ما يريد كائناً ما كان من شروط.

وروى المؤرخون أنَّ من جملة شروط الحسن على معاوية:

١ - أن لا يطلب ولا يلاحق أو يعتقل أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق من شيعة أبيه علي أمير المؤمنين عليه السلام.

٢ - أن يعمل معاوية بن أبي سفيان بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الراشدين الصالحين.

٣ - أن لا يعهد بالأمر إلى أحد من بعده بل يكون الأمر شورى بين المسلمين، وأنَّ الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله، في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم.

٤ - أن لا يبغى معاوية على الحسن وأخيه الحسين عليهما السلام، ولا على أحد من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، سراً ولا جهراً، ولا يخيف أحداً منهم.

بينما يرى أصحاب الحسن عليه السلام، أنَّ المؤرخين وكلهم من أهل الحكم، اسقطوا بنداً مهماً من بنود هذه الوثيقة، وهو ينص على أنَّ يلي الحكم بعد معاوية أخوه الحسين عليه السلام، وأن لا يسمي معاوية نفسه أمير المؤمنين، وأن لا يسب الإمام علي عليه السلام ولا يذكره إلا بالخير. وأن ينفق على أيتام من قتل مع الإمام علي في حربي الجمل وصفين، ألف ألف درهم، وأن يدفع معاوية للحسن في كل عام، مائة ألف درهم من بيت مال المسلمين.

وقد التزم بها معاوية كلها مؤقتاً متأملاً أن يتراجع عنها لاحقاً،
بعد أن يكون قد تمكن من الحكم وأهله.

وهذا ما كان، فبعد أن بسط سلطته، تتبّع الحسن والشيعة قاطبةً،
بالبقتل والحبس والتشريد، وقطع الأرزاق والصلوات. وشردهم في
البراري والأفاق، وأوصى عمّاله وأنصاره في جميع المقاطعات
بمطاردتهم وقتلهم، وأن لا يتركوا سبّ عليّ عليه السلام على المنابر، وأن
يعلموا أولادهم وصبيانهم هذا الأمر.

وقد شكك بعض المؤرخين في نوايا الإمام الحسن عليه السلام،
وبنزاهة مقصده، فوضعوا الأحاديث والمرويات التي تشير إلى أن
الإمام الحسن عليه السلام قد باع الخلافة بالأموال، وأنه كان منصرفاً إلى
الملذّات والشهوات، عن أمور دينه وعظائم دنياه.

وقد جعل مؤرّخو السنة من هذا الصلح عملاً إلهياً ورووا روايات
عن النبي صلى الله عليه وآله أنه تنبأ به حيث قال عن الحسن عليه السلام: إن إبنی هذا
سيّد، إنّ يعيش، يصلح بين طائفتين من المسلمين. وروى أيضاً أنه قال:
أنّ الخلافة تدوم ثلاثين سنة وبعدها تتحوّل إلى ملك^(١).

وفاة الإمام الحسن (ع):

كتب أبو الفداء، الحافظ ابن كثير عن الإمام الحسن عليه السلام، وهو
المعروف بتحامله على الشيعة فقال:

الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، أبو محمد القرشي الهاشمي،

(١) راجع البداية والنهاية، م. س. مجلد ٨، ص ١٦.

سبط رسول الله ﷺ، ابن ابنته فاطمة الزهراء ﷺ، وريحانته، وأشبهه خلق الله به في وجهه. ولد للنصف من رمضان سنة ثلاث من الهجرة، فحنَّكه (لفَّ رقبته) رسول الله ﷺ بريقه، وسمَّاه حسناً، وقد كان رسول الله ﷺ يحبه حباً شديداً، حتى كان يقبله وهو صغير في فمه، وربما حمله وداعبه، وربما جاء رسول الله ﷺ ساجداً في الصلاة فيركب على ظهره فيقره على ذلك، ويطيل السجود من أجله، وربما صعد معه إلى المنبر. ونقل ابن كثير عن النبي ﷺ، قوله عن الحسن والحسين ﷺ: إنكم لمن روح الله وأنكم تبجلون وتحبَّون. وقد أورد صفحة كاملة عن شبهه للنبي وقربه وأفضليته، ولكنه روى صفحات تثبت شرعية خلافة معاوية بن أبي سفيان ونزول الأحاديث القدسية فيها^(١).

وقال ابن كثير أنه سُقي سُمّاً ثم أفلت، ثم سُقي فأفلت، ثم كانت الآخرة توفي فيها، فلما حضرته الوفاة، قال الطبيب وهو يختلف إليه: هذا الرجل قطع السم أمعاءه. وتابع قائلاً: كان معاوية قد تلطَّف لبعض خدمه أن يسقيه سُمّاً، وروى بعضهم أن يزيد بن معاوية بعث إلى جعدة بنت الأشعث أن: سمِّي الحسن، وأنا أتزوجك بعده، ففعلت، فلما مات الحسن بعثت إليه فقال لها: إنَّا والله لم نرضك للحسن، أفنرضاك لأنفسنا. وينتهي الرواية بقوله وعندي أن هذا ليس صحيحاً^(٢).

(١) راجع م. س. ص ٢٢، ٢٥.

(٢) راجع م. س. نفسه، ص ٤٢.

ولما مات الحسن عليه السلام، حاول أخوه الحسين عليه السلام أن يدفنه مع جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله حسب وصيته، ولكن تصدّى له مروان بن الحكم ومنعه من دفنه، فدفنه في البقيع مع والدته فاطمة الزهراء عليها السلام، حيث قال: إِنَّ أَخَاكَ قَالَ إِذَا خَفْتُمُ الْفِتْنَةَ، ففِي مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ سَعَةٌ. وهذّده بالفتنة، فسكت الحسين عليه السلام على مضض^(١).

إمامة الإمام الثالث الحسين بن علي (ع):

توفي الإمام الحسن عليه السلام في السنة الخمسين للهجرة وترك الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، واستمرّ فيها معاوية حتى السنة الستين للهجرة، قضاها سباً ولعناً بالإمام علي عليه السلام، على المنابر وفي مجالسه وسهراته، وتعقّباً للشيعة أينما وجدوا، وقتلهم واحداً يلي الآخر، أمثال حجر بن عدي ومحمد بن أبي بكر، وحول الخلافة من خلافة إسلامية إلهية إلى ملكية أموية. وقد أخذ البيعة لولده يزيد قبل موته. فبايعه كلّ المستفيدين والمرترقة.

وتولى يزيد الأمر بعد موت والده بعشرة أيام، فكتب إلى خالد بن الحكم عامله على المدينة كتاباً يطلب منه أخذ البيعة من أعيانها وجاء فيه:

«أما بعد، فإنّ معاوية بن أبي سفيان، كان عبداً استخلفه الله على العباد، ومكّن له في البلاد، وكان من حادث قضاء الله جلّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه فيه، وما سبق في الأولين والآخرين، ولم يدفع عنه

(١) راجع الحسين أبو الشهداء، عباس محمود العقاد، ط ١، دار الهلال، القاهرة، ص ١٩.

ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فعاش حميداً ومات سعيداً. وقد قلّدتنا الله عزّ وجلّ ما كان إليه، فيا لها من مصيبة ما أجلّها، ونعمة ما أعظمها، نقل الخلافة، وفقدُ الخليفة، فنستوزعه الشكر ونستلهمه الحمد، ونسأله الخيرة في الدارين معاً، ومحمود العقبي في الآخرة والأولى. إنّ أهل المدينة قومنا ورجالنا فبايع لنا قومنا، ومن قبلك من رجالنا، بيعة منشوحة بها صدوركم، طيبة عليها أنفسكم، وليكن أول من يبايعك من قومنا وأهلنا الحسين، عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، ويحلفون على ذلك بالآيمان اللازمة، يحلفون بصدقة أموالهم وجزية رقيقهم وطلاق نسائهم بالثبات على الوفاء بما يعطون من بيعتهم ولا قوة إلا بالله والسلام»^(١).

ولما وصل الكتاب لخالد ابن الحكم، أرسل وراء مروان بن الحكم يستشير، فأشار عليه بمحاصرة الحسين بن علي عليه السلام في بيته، وعدم السماح له بالخروج منه، إما مبايعاً أو مقتولاً، فلم يأخذ برأيه بل أجابه قائلاً: ويحك أتشير عليّ أن أقتل الحسين: فوالله ما يسرّني أن لي الدنيا وما فيها، وما أحسب أن قاتله يلقى الله بدمه إلا خفيف الميزان يوم القيامة، فتركه مروان هازئاً منه مستخفاً رأيه^(٢).

وقد رفض الحسين عليه السلام مبايعة يزيد مع وجهاء المدينة آنفي الذكر. فما كان من يزيد بن معاوية إلا أن عزل خالد بن الحكم عن

(١) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، ج ١، ط ١، بيروت، دار المنتظر، سنة ١٩٨٥، ص ١٧٤.

(٢) راجع م. س. نفسه، ص ١٧٦.

المدينة، وولاها عثمان بن محمد بن أبي سفيان الثقفي.

فكتب يزيد بن معاوية كتاباً ثانياً لأهل المدينة، وطلب من واليه عثمان بن محمد أن يقرأه على أهلها، فقرأه عليهم ونصّه: «بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد، فإنني قد نفسيتم حتى أخلفتكم، ورفعتمكم حتى أخرقتكم (أي وجدتم خرقى وحمقى)، ورفعتمكم على رأسي ثم وضعتكم. وأيم الله، لئن آثرت أن أضعكم تحت قدمي لأطأتكم وطأة أقل منها عددكم، وأترككم أحاديث تتناسخ (تنسخ وتكتب) كأحاديث عاد وثمود»^(١).

وقد رفض أهل المدينة مبايعة يزيد، وطردهوا بني أمية منها وحصنوها، فقدمت جيوش يزيد ودخلت المدينة، فقتلت أهلها وخاصة شيعة الحسين وصحبه، علماً أن الحسين عليه السلام، كان خارج المدينة، وقد أطلق المؤرخون على هذه الواقعة اسم وقعة الحرّة، وقد توسّع ابن قتيبة في شرح الجرائم التي ارتكبتها الأمويون في حق صحابة النبي، وتوسّع كثيراً، فقال: أن عدد قتلى الحرّة من قريش والأنصار والمهاجرين ألف وسبع مئة، ومن سائر الناس عشرة آلاف قتيل، سوى النساء والصبيان. وذكر الدينوري أيضاً أنه قتل في هذا اليوم من أصحاب النبي ﷺ ثمانون رجلاً.

وعندما تحدث أبو الفداء الحافظ ابن كثير، عن الحسين عليه السلام قال عنه: «هو الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، ولد في السنة السادسة للهجرة، وقتل يوم الجمعة، يوم عاشوراء من

(١) راجع م. س. نفسه، ص ١٧٧.

المحرّم سنة إحدى وستين للهجرة، وله من العمر أربع وخمسون سنة، وتابع يقول: «روى عن النبي ﷺ أنّه حنّكه وتفل في فيه، ودعا له وسمّاه حسيناً، وصحب أباه وكان معه في مغازيه كلّها، وكان معظماً موقّراً، لم يخرج عن طاعته طيلة أيام حياته»^(١).

خروج الحسين(ع):

عندما يتحدّث المؤرّخون المتحاملون على الحسين بن عليّ عليه السلام وعن أسباب خروجه على يزيد، يعتبرون هذا الخروج طلباً للملك والإمارة، أما المؤرّخون الشيعة، فيعتبرونه أمراً إلهياً مقدراً، ويعتبرون أنّ الحسين عليه السلام كان يعلم مسبقاً أنّه سيقتل، ومع ذلك أقدم على هذا الأمر، وأنّه بهذه التضحية، أنقذ الإسلام وأعادته إلى مساره الصحيح، بعد أن حرّفه وزوّره معاوية وبنوه.

فقد نقل السيد هاشم معروف الحسيني عن بحار الأنوار للمجلسي، أنّ الحسين عليه السلام، دخل على الحسن وهو على فراش الموت يتململ ويتلوّى من الألم، فلما نظر إليه بكى لحاله لما يعانيه، فنظر الإمام الحسن عليه السلام إليه وهو يصارع الموت وقال له: «لا يوم كيومك يا أبا عبد الله، كأني بك وقد ازدلف إليك ثلاثون ألفاً يدعون أنّهم من أمة جدنا محمد يتمثلون دين الإسلام، ويجتمعون على قتلك وسفك دمك وانتهاك حرمتك وسبي ذراريك ونسائك.

ويشير السيد هاشم معروف، وهو من علماء جبل عامل المشهود لهم بالعلم والفتوى فيقول: إنّ ما أخبر به الإمام الحسن لأخيه

(١) راجع البديّة والنهاية، مج ٨، م. س. ص ١٥٠.

الحسين عليه السلام، هو مما كان النبي صلى الله عليه وآله، يخبر به علياً والصفوة الطاهرة من أصحابه. وعلي عليه السلام أخبر عن بعض تلك المغيبات التي اتصلت للنبي صلى الله عليه وآله، عن طريق علام الغيوب، الذي لا يُظهر على غيبه أحداً، وقد شاعت أخبار واقعة الطف، وما يجري منها على العترة الطاهرة قبل وقوعها بعدد من السنين، وتناقلها الخواص من كرام أصحاب النبي وأمير المؤمنين^(١)، وهم عترة النبي وأهل بيته، الذين أبعد الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، في القرآن والسنة والدنيا والآخرة.

من هذا المنطلق، نظر الشيعة بفرقهم الثلاث: الإمامية والزيدية، والفاطمية إلى النبي وأهل بيته، نظرة نورانية روحانية، فهم بشر وفوق البشر، صفوة الخلق بل الخلق، والخليقة خلقت لهم ومن أجلهم. يقول الكميت بن زيد الأسدي في النبي وأهل بيته:

أنت المصطفى المذهب المحض في النسبة
إن نص قومك النسيب

أكرم عيداننا وأطيبها عود النضار لا العرعب
لن ندخل في متاهات وقعة كربلاء ومعركة الطف لأنها أصبحت
معروفة من كل الأطراف، فالكتب التي أرسلها أهل العراق
للحسين عليه السلام، يطلبون منه المجيء إليهم، قال مؤرخو تلك المرحلة،
أنها بلغت ستين حملاً من أحمال الجمال.

(١) راجع الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ، هاشم معروف الحسيني، ط ١، دار الكتب الشيعية، بيروت ص ٢٦٩.

وكان الحسن عليه السلام قد ترك الخلافة وتنازل عنها شرط أن لا تلاحق شيعة أبيه، ولا يسب والده على المنابر، يقول عباس محمود العقاد عن معاوية: «وأمر بلعن عليّ على المنابر، عسى أن يضعف من مكانته. ولجّ في ذلك حتى قتل أناساً لم يطيعوه في لعنه واتهامه، وأبى أن يجيب الحسن بن عليّ عليه السلام إلى شرطه الذي أراد به أن يدفع اللعن عن أبيه»^(١).

وإن كان بعض العامة من الشيعة يسبّون الشيخين، فهذا جهل مطبق، فعلماء الشيعة ومثقفوها، يرفضون سبّ السلف الصالح، وخاصة الخلفاء الراشدين، وهم يعتبرون مبايعة الإمام عليّ لهم، مبايعة شرعية، وإن مكرهاً، بهدف رأب صدع الإسلام، وعدم ترك أي شرح فيه أيضاً. وإنّ نقض هذه البيعة في كل عصر ومصر، ستؤدي إلى شقّ الصف الإسلامي وتداعيه، لذلك لا مجال لإنكار هذه البيعة.

من هنا يرى الشيعة أن معاوية بن أبي سفيان اغتصب الخلافة بالحيلة والدهاء، وكان عليه أن يعيدها إلى ما كانت عليه أيام الخلفاء الراشدين ولكنه حوّلها من خلافة إلى ملك.

ويقول المؤرخ المصري أحمد بن علي المقرئ في هذا المجال:
«أما بعد: فإنني كثيراً ما كنت أتعجب من تطاول بني أمية إلى الخلافة مع بُعدهم من جذم (قراية) رسول الله ﷺ، وقرب بني هاشم منه وأقول: كيف حدّثتهم أنفسهم بذلك؟ وأين بنو أمية وبنو مروان بن الحكم طريد رسول الله ﷺ ولعينه من هذا الحديث؟ مع تحكّم العداوة

(١) الحسين أبو الشهداء، عباس محمود العقاد، ط ١، دار الهلال، القاهرة، ص ١٩.

بين بني أمية وبني هاشم في أيام جاهليتها، ثم شدة عداوة بني أمية لرسول الله ﷺ، ومبالغتهم في أذاه، وتماديهم على تكذيبه، فيما جاء به، منذ بعثه الله عز وجل بالهدى ودين الحق إلى أن فتح مكة شرفها الله تعالى، فدخل من دخل منهم في الإسلام كما هو معروف مشهور».

ويستشهد المقرئ بقول الشاعر:

كم من بعيد الدار نال مراده وآخر داني الدار وهو بعيد
ويتابع قائلا:

فلعمري، لا بعد أبعد مما كان بين بني أمية وبين هذا الأمر، إذ ليس لبني أمية سبب إلى الخلافة، ولا بينهم وبينها نسب».

ويعدد المقرئ ما فعله بني أمية مع النبي ورهطه قبل أن يدخلوا الإسلام قسراً، وما فعلوا مع عترته وأهل بيته بعد وفاته فيقول: «فكان جزاء ذلك من أبناء سفيان أن حاربوا علياً وسمّوا الحسن وقتلوا الحسين، وحملوا النساء على الاقتاب حواسر، وأرادوا الكشف عن عورة علي بن الحسين (زين العابدين) حين أشكل عليهم بلوغة الرشد. وبعث معاوية بن أبي سفيان إلى اليمن بسر بن أرطاة، فقتل بني عبيد الله بن العباس، وهما غلامان لم يبلغا الحلم وقتلوا من صلب علي بن أبي طالب تسعة، ومن صلب عقيل بن أبي طالب تسعة. وقد قالت نائحتهم:

يا عين جودي بعبرة وعويل واندبي ان ندبت آل الرسول
تسعة منهم لصلب علي قد أصيبوا وتسعة لعقيل
واكلت هند (أم معاوية) كبد الحمزة، فمنهم أكلة الأكباد ومنهم
كهف النفاق. ونقروا بالقضيب بين ثنيتي الحسين، ونبشوا قبر زيد

وصلبوه، وألقوا رأسه في عرصة الدار تطأه الأقدام وتنقر دماغه الدجاج. وقتلوا يحيى بن زيد وصلبوه». ومسلسل القتل طويل، اكتفينا بهذا الجزء اليسير منه فقط^(١).

خرج الحسين عليه السلام، بأهل بيته ومحبيه، وعددهم ثلاثة وسبعون نفرًا. وصل إلى كربلاء وناحية الطف، فحاصره جنود يزيد ومنعوه من ورود الماء، وبقي يجالدهم ويصارعهم وهم أكثر من عشرة آلاف فارس، مدة عشرة أيام، من أول يوم من الشهر المحرم، حتى العاشر منه، فقتلوا أولاده وإخوته وأبناء عمومته وصحبه، وقتلوه شرًّا قتلة، وقطعوا رأسه عن جسده وأخذوا الرأس مع أخته زينب وبناته، وسبوا بني هاشم إلى الشام، إلى قصر الطاغية ومغتصب الخلافة، يزيد بن معاوية. وقد روى ابن شهر آشوب عن الطبري عن أبي مخنف قال: وجدنا بالحسين عليه السلام ثلاثاً وثلاثين طعنة، وأربعاً وثلاثين ضربة. وعن الباقر عليه السلام قال: وجد به ثلاثماية وبضعة وعشرون طعنة، برمح أو ضربة سيف أو رمية سهم. وكانت السهام في درعه كالشوك في جلد القنفذ^(٢).

وقد جز جيش يزيد رؤوس أهل الطف جميعاً وتوزعوها فيما بينهم، ظناً بأن يزيد سيزيد العطاءات بقدر الرؤوس المجزوة. فخطف قيس بن الأشعب الكندي ثلاثة عشر رأساً واختطف

(١) النزاع والتخاصم، بين بني أمية وبني هاشم، أحمد بن علي المقرئ، ط ١، بيروت، سنة ١٩٨١، ص ٢٩ - ٣٢.

(٢) راجع مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، مج ٤، ط ٢، دار الاضواء، بيروت، سنة ١٩٩٢، ص ١٢٠.

الشمر بن ذي الجوشن عشرين رأساً، وعمر بن سعد، أمر خولي بن يزيد بحراسة رأس الحسين والإحتفاظ به لنفسه.

وأعطى عبيد الله بن زياد رأس الحسين لسنان بن أنس النخعي لحمله إلى الشام، واللاحق به، لعرضه على الخليفة الأموي يزيد بن معاوية.

وروى الطبري، أنه عندما دخل سنان بن أنس، وهو حامل رأس الحسين على مجلس عبيد الله بن زياد، أنشأ (يرتجز) زهواً وتيهاً^(١):
أوقرركابي فضة وذهباً أنا قتلت الملك المحجبا
ومن يلي القبلتين في العبا قتلت خير الناس أمأ وأبا
وخيرهم إذ ينسبون نسباً

وعن ابن شهر آشوب أيضاً قال: قال الطبري والبلاذري والكوفي، لما وضعت الرؤوس بين يدي يزيد، جعل يضرب بقضيبه على ثنية الحسين عليه السلام وقال: يوم كيوم بدر وهو يعني أنه أخذ بثار بني أمية في معركة بدر في الجاهلية، حيث أهلك الإمام علي أبطالهم وكسر شوكتهم وشتت شملهم وجعل يزيد يقول:

نفلقها من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلموا
وكان ابن عمومته يحيى بن الحكم أخو مروان بن الحكم
موجوداً، لم يعجبه هذا الموقف ولا هذا المنظر المثير للإشمئزاز،
فأجابه على شعره بشعر فقال:

(١) تاريخ الأمم والملوك، ابن جرير الطبري، الجزء السادس، ط ١، القاهرة، المطبعة الحسينية المصرية، لا تاريخ، ص ٢٢٠.

لهام بجانب الطف أدنى قرابة

من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل
سمية أمسى نسلها عدد الحصى وبنت رسول الله أمست بلا نسل
فقد ذكره يحيى بن الحكم بأن قرابته من بني هاشم، هي أشرف
وأفضل من قرابة الدعى ابن الدعى، عبید الله بن زياد، فضربه يزيد في
صدره وقال له: أسكت، لا أم لك، وتمثل بقول الشاعر الجاهلي ابن
الزبعرى الذي وصف معركة بدر وقتلى بني سفيان والتي مطلعها:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
وتابع قائلاً من نظمه:

لأهلوا واستلّوها فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم وعدلناه يوم بدر فاعتدل
لست من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل
لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل
ولما أطلت زينب بنت علي عليه السلام مكشوفة أمام السبايا، والرؤوس
المجزوزة على قصر يزيد في جيرون، أنشد يزيد بن معاوية طرباً:
لما بدت تلك الرؤوس وأشرقَت تلك الشموس على ربي جيرون
نعب الغراب فقلت: صبح أو لا تصح

فلقد قضيت من النبي ديوني
فقد اعتبر يزيد وقعة كربلاء ومقتل الحسين وأهل بيت النبي هي
وقعة بين بني أمية وبني هاشم، وأن ديون بني أمية على بني هاشم
أو ثارات بني أمية على بني هاشم التي كان سببها النبي محمد ﷺ،
بإقدامه على إزاحة بني أمية من زعامة مكة، هي ديون مستردة أو

ثارات مأخوذة، وأنها عادت للأمويين بعد أن انتزعها محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي من أبي سفيان بن صخر بن حرب بن عبد شمس الأموي.

وقد ارتعدت فرائص السيدة زينب ابنة أمير المؤمنين أمام منظر الرأس المجزوز، وهو يلعب بقضيبه بفيه، فوقفت أمام المأخوذة تخاطب يزيد قائلة^(١):

«أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وأفاق المساء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى، أن بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة؟ فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة. فمهلاً مهلاً...

أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله ﷺ سبايا، وقد هتكت ستورهن، وأبديت وجوههن، تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرقهن أهل المعازل والمناهل، ويتصفح وجوههن الغريب والبعيد، والدني والشريف، ليس معهن من حماتهن حمي، ولا من رجالهن ولي.

وتعاتبه على قوله: ليت أشياخي ببدر شهدوا...

وتقول له: وكيف لا تقول ذلك، وقد نكأت القرحة وأستأصلت الشافة بإراقتك دماء ذرية محمد ﷺ ونجوم الأرض من آل عبد المطلب، وتهتف بأشياخك!

(١) زينب بنت الإمام أمير المؤمنين، علي محمد علي دخیل، ط ١، بيروت، مؤسسة أهل البيت، سنة ١٩٧٩، ص ٥٨.

اللَّهُمَّ خذْ لَنَا بِحَقِّنَا، وَانْتَقِمْ مِمَّنْ ظَلَمْنَا، وَاحْلِلْ غَضَبَكَ بِمَنْ سَفَكَ
دِمَاءَنَا وَقَتْلَ حِمَاتِنَا.

والخطبة طويلة، وقد ردَّ عليها يزيد مستهزئاً بقوله:

يا صيحة تحمل من صوائح ما أهون النوح على النوائح
وعندما يروي الطبري والبلاذري هذه الأبيات، وهما من أقدم
مؤرّخي الإسلام، فلا مجال للشك في انتحالها ووضعها على لسان
ابن شهر آشوب.

وهذه الأبيات واضحة لا لبس فيها، فهو ينكر الوحي والقرآن
والدين الإسلامي. ويعتبر يزيد أن كل ما نزل من وحي هو لعبة
استعملها بنو هاشم للوصول إلى الحكم والسلطة، وهو وإن قتل
سبط النبي وابن بنته، فلم يقتله إلا انتقاماً من بني أحمد الهاشميين،
وأخذاً بثأر بني أمية يوم بدر. *مركز توثيق وتحرير علوم اسلامی*

وقد وصف أحد الشعراء مسلسل التنكيل الذي حلَّ بعثرة النبي
وأهل بيته قائلاً^(١):

أما البتول فقد مضت وبقلبها من فعلهم قبسات وجد مكن
والمرتضى أردوه في محرابه بيمين أشقى العالمين والعن
وبشربة السمّ النقيع عداوة

من كفَّ جعدة قد قضى الحسن السني
واليك عني لا تقل حدّث بما لاقى الحسين فرزؤه قد شقني

(١) المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة، السيد عبد الحسين شرف الدين، ط ١،
النجف، العراق مطبعة النعمان، سنة ١٣٨٦ هـ، ص ١٧٢.

حيث المصائب جمّة لا أدري ما منها أقصّ عليك لو كلّفتني
وبالعودة إلى الكتب التي أرّخت لهذه المرحلة من متقدّمين
ومتأخّرين، وبالمقارنة بين البيئة التي نشأ بها يزيد، واستعراض
صحبه ومستشاريه، مع البيئة التي نشأ بها الحسين، ومن هم
صحبه وأنصاره، نجد أن لا مفرّ من هذا الصدام وهذه النتيجة
المؤلمة. فأميّة جد يزيد الأعلى، «كان جهماً قصيراً دميماً سيء
الطالع، نكداً، ضئيلاً، عمي آخر عمره، وكان يقوده عبده ذكوان.

وكان سارقاً إباحياً عاهراً ضعيفاً، أدنى إلى صفات العبيد منه
إلى صفات الأحرار، ثم هو مشكوك في نسبه، مستعبد منفي،
استعبده عبد المطلب، ونفاه هاشم^(١).

وهذه الصورة عن أميّة والأمويين تناقلتها الأجيال جيلاً بعد
جيل، وردّها الشعراء في قصائدهم وأشعارهم. فوصفهم الشاعر
العالمي بولس سلامة بقوله: (٢).

وتراهم من سورة الخمر صرعى عربدات فمَنكر وشتائم
يكرعون الزقاق بالخمير ملأى مثلما تكرع الحياض البهائم
شهوة إثر شهوة تتلظى في ضروب الزنى ومس المحارم
والخيام الحمراء رأي البغايا حولها الناس كالفراش الحائم
يدفعون الإماء للعهر دفعاً ومن النتن يأكلون المغانم
فسل عن الصفقة الدنيئة صخرأ أي نسل في حماة النتن عائم

(١) هاشم وأمّية في الجاهلية، صدر الدين شرف الدين، ط ١، دار القلم، بيروت، لا تاريخ، ص ١٧.

(٢) عيد الغدير، بولس سلامة، ط ١، مطبعة النسر، بيروت، سنة ١٩٤٩، ص ٣٦.

وفي إحدى رسائله إلى معاوية وصف الإمام علي الفوارق
الاجتماعية والدينية بين بني هاشم وبني أمية.
ومما جاء في هذه الرسالة:

«ومنا النبي ومنكم المكذب (أبو جهل). ومنا أسد الله (الحمزة بن
عبد المطلب)، ومنكم أسد الأحلاف (أبو سفيان). ومنا سيدا شباب
أهل الجنة (الحسن والحسين)، ومنكم صبية النار (ذرية مروان بن
الحكم)، ومنا خير نساء العالمين (فاطمة الزهراء عليها السلام)، ومنكم
حمالة الحطب (أم جميل بنت حرب عمة معاوية وزوجة أبي لهب)^(١).
وكتب الشاعر السوري عدنان مردم بك هذه القصيدة يصف فيها
معاوية فقال:^(٢)

ملك الدهاء ضللت السبيل وأنت الفتى الحذر الداهية
فلم يجدك المكر عند المنون ولم تعنك الأدرع الواقية
سلبت الإمام مواريثه لتتبع شهوتك الفانية
ولو طال أمرك كنت ادعيت النبوة في العصر الخالية

وروى الأصمعي عبد الملك بن قريب، أنه عندما زار القرشيون
ملك اليمن سيف بن ذي يزن، وكان الوفد مؤلفاً من عبد المطلب بن
هاشم بن عبد مناف، وأمّية بن عبد شمس وآخرين. استقبلهم ملك
اليمن مرحباً، وقال لهم بعد خطبة خطبها عبد المطلب جدّ النبي

(١) أدب الشيعة حتى نهاية القرن الثاني الهجري، عبد الحسيب طه حميدة، ط ١، القاهرة،
مطبعة السعادة بمصر، سنة ١٩٥٦، ص ١٢٤.

(٢) العرفان، أحمد عارف الزين، سنة ١٩٥٧، ص ١٣٦.

العربي ﷺ: «مرحباً وأهلاً، وناقاً ورحلاً، ومستنخاً سهلاً، ثم أدنى منه عبد المطلب وقال له: «يا عبد المطلب: إنني مفض إليك من سر علمي أمراً، فليكن عندك مطوياً، حتى يأذن الله فيه، فإنه بالغ أمره. إنني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي اختزنناه لأنفسنا، واحتجزناه، دون غيرنا، خبراً جسيماً، وخطراً عظيماً، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس عامة، ورهطك كافة ولك خاصة. فأجابه عبد المطلب: أيها الملك مثلك سرٌّ فبرٌّ، فما هو فداك أهل الوبر والمدبر، زمراً بعد زمر، قال: إذا ولد بتهامة غلام به علامة، كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة.

وتابع مخاطباً عبد المطلب: هذا حينه الذي يولد فيه، أو، قد ولد، اسمه محمد، بين كتفيه شامة، يموت أبوه وأمه، ويكفله جدّه وعمّه، والله باعته جهاراً، وجاعل له مناً أنصاراً، يعزّ بهم أولياء، ويذلّ بهم أعداء، يعبد الرحمن، ويدحر الشيطان، ويكسر الأوثان، ويخمد النيران. قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف يفعل، وينهى عن المنكر ويبطله»^(١).

وهذا النص المنسوب لسيف بن ذي يزن، أورده الأصمعي في القرن الثاني الهجري، وهو ان كان قابلاً للشك، فهو يعطي في جميع الأحوال الصورة الحقيقية أو الأقرب إلى الحقيقة عن نظرة العرب في الجاهلية والإسلام للدوحة الهاشمية وفروعها وأغصانها.

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام، تأليف الأصمعي، عبد الملك بن قريظ، ط ١، منشورات المكتبة العلمية، بغداد، سنة ١٩٥٩، ص ٥٣.

وقد وصف الشاعر العاملي بولس سلامة هاشم بن عبد مناف فقال: (١)

هاشم يرفد الحجيج ويهدي فضلة الرزق للنسور القشاعم
كفّه تغدق الندى في البوادي قبل أن يحلم السخاء بحاتم
حمل المجد صيته فتمشّى مشية العطر في رفيف النياسم
يحرز المجد بكرة وعشية كلما طاف بالخطيم شرادم
ويتابع شاعر عاملة مصوراً الغيرة والحسد الأميين فيقول:

غار منه أمية فتلظى حسد الذئب للأسود الضراغم
ذلك الأفعوان يقطر سماً كان صلاً فصار جد الأرقام
وعندما يتحدث عباس محمود العقاد عن اختلاف نشأة عائلتي
هاشم وأمّية في الجاهلية، يقول أن أبناء هاتين العائلتين توارث كل
منهم طباع أجداده، فعلي شبه هاشم، والحسين شبه علي، وكذلك
معاوية شبه أمّية، يزيد شبه معاوية، «ولقد تقابلا بكثير من الخلائق
والحظوظ، ولكنهما تفاوتتا في تمثيل أسرتيهما، كما تفاوتتا في غير
ذلك من وجوه الخلاف بينهما، فكان الحسين بن علي نموذجاً
لأفضل المزايا الهاشمية، ولم يكن يزيد نموذجاً لأفضل المزايا
الأموية، بل كان فيه الكثير من عيوب أسرته (٢)، وينتهي العقاد رآيه
في الإمام الحسين عليه السلام، بقوله: «لقد كانت حقيقة الحسين
الشخصية، كفوء لتلك الصورة الرمزية التي نسجت حولها الأجيال

(١) عيد الغدير، م. س. ص ٤٠.

(٢) راجع، الحسين أبو الشهداء، م. س. ص ٢٢.

المتعاقبة قبل أن يرى منه أبناء جيله غير تلك الحقيقة، فكان ملء العين والقلب في خَلْقٍ وَخُلُقٍ، وفي أدب وسيرة، وكانت فيه مشابه من جدّه وأبيه، إلاّ أنّه كان في شدّته أقرب إلى أبيه».

وعندما يصف العقاد شلّة يزيد وأصحابه يقول: «وكان أعوان يزيد جلاّدين وكلاب طراد في صيد كبير، وكانوا في خلائقهم البدنية على المثل الذي يعهد في هذه الطغمة من الناس، ونعني به مثال المسخاء المشوهين، أولئك الذين تمتليء صدورهم بالحقد على أبناء آدم، ولا سيما من كان منهم على سوء الخلق وحسن الأحدث، فإذا بهم يفرغون حقدهم في أعدائه، وإن لم ينشغفوا بأجر أو غنيمة، وشرّ هؤلاء جميعاً هم: شمر بن ذي الجوشن، ومسلم بن عقبة، وعبيد الله بن زياد، ويلحق بزميرتهم على مثال قريب من مثالهم، عمر بن سعد بن وقاص». ويتابع العقاد وصف شلّة الأنس هذه، فيصفهم فرداً فرداً، فيقول: فشمر بن ذي الجوشن، كان أبرص كريح المنظر، قبيح الصورة، ومسلم بن عقبة مخلوق مسمم الطبيعة في مسالّح إنسان، وكان أعور أمغر ثائر الرأس، كأنما يقلع رجله من وحل إذا مشى^(١).

وكان عبيد الله بن زياد متّهم النسب في قریش، لأنّ أباه زياداً كان مجهول النسب، فكانوا يسمّونه زياد بن أبيه، وكانت أمه بغيّ مجوسية، اسمها مرجانة، أخذ عنها النطق الفارسي فكان الكن، إذا قال حروباً يلفظها هروباً، فيضحك الناس عليه.

أما عمر بن سعد بن أبي وقاص، وعده يزيد بن معاوية بإمارة

(١) م. س. ص ٥١.

ولاية الري، وقد نسبوا إليه قوله بدء معركة الطف، وقد تردد عن مقاتلة الحسين: (١)

والله لا أدري وأنني لحائر أفكر في أمري على خطرين
أترك ملك الري والري منيتي أم أرجع مأثوماً بقتل حسين
وفي قتله النار التي ليس دونها حجاب وملك الري قرّة عيني
ويروي الطبري عن أبي مخنف أنه لما أعاد يزيد بن معاوية
السبايا ومعهم زينب عليها السلام إلى المدينة، فلما دخلوها خرجت امرأة من
بني عبد المطلب ناشرة شعرها واضعة كمها على رأسها تلقاهم
وهي تبكي وتقول: (٢)

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى وقتلى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي
وقد لخص المؤرخ المصري الشهير، أحمد بن علي المقرئ
الصراع بين الهاشمين والأمويين في بيتين من الشعر فقال:
عبد شمس قد أضرمت لبني هاشم حرباً يشيب منها الوليد
فإبن حرب للمصطفى وابن هند لعلي والחסنين يزيد
وقد روى المؤرخون بعضاً من شعر الإمام الحسين بن علي
عليه السلام:

(١) راجع، م. س. نفسه، ص ٥٢.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، الجزء السادس، ط ١، القاهرة، المطبعة
الحسينية المصرية، لا تاريخ، ص ٢٢١.

قال عليه السلام يرثي ولده الطفل الرضيع عبد الله عندما قتله جموع بن زياد بسهم، بعد أن زمله وحفر له بسيفه وصلى عليه ودفنه^(١)؛

غدر القوم وقد رغبوا عن ثواب الله رب الثقلين
قتلوا قدماً علياً وابنه حسن الخير كريم الأبوين
حسداً منهم وقال أقبلوا نقتل الآن جيمعاً للحسين
خيرة الله من الخلق أبي ثم أمي فأنا ابن الخيرتين
من له جدٌ جدِّي في الوري وكشيخين فأنا ابن الخيرين
فاطم الزهراء أمي وأبي قاصم الكفر ببدر وحنين
ومن أقواله الحكمة:

فإن تكن الدنيا تقدنفساً فإن ثواب الله أغنى وأنبل
وإن يك من الموت للفتى فقتل امرئ في الله بالسيف أجمل
وإن تكن الأرزاق قسماً مقدراً فترك حرص المرء في الكسب أجمل
وإن تكن الأقوال للترك جمعها فما بال متروك به المرء يبخل
وقال عليه السلام أيضاً:

إذا ماعضك الدهر فلا تجنح إلى الخلق

ولا تسأل الله المغيث العالم الحق

فلو عشت وقد طفت من الغرب إلى الشرق

لما صادفت من يقدر أن يُحمد أو يُشقى

وله:

أغن عن المخلوق في الخالق تغن عن الكاذب والصادق
واسترزق الرحمن من فضله فليس غير الله من رازق

(١) كتاب نور الأبصار، م. س. ص ١٢٨.

من ظنَّ أن الناس يغفونَه فليس بالرحمن بالواثق
وقال أيضاً:

إذا استنصر المرء امرءاً لا ذبه فناصروه والخاذلون سواء
أنا ابن الذي قد تعلمون مكانه وليس على الحق المبين طحاء
أليس رسول الله جدِّي ووالدي أنا البدر إن حلَّ النجوم خفاء
ألم ينزل القرآن خلف بيوتنا صباحاً ومن بعد الصباح مساء
في فصحاء الله أنتم ولاته وأنتم على أربابه أمناء
بأي كتاب أم بآية سنَّة تناولها عن أهلها البعداء
ومن شعره أيضاً:

ذهب الذين أحبَّهم وبقيت فيمن لا أجبُّه
ففي من أراه يسُّبُّني ظهر المغيب ولا أسبُّه
أفلا يرى من أن فعله مما يسير إليه غيبه
حسبي بربي كافياً مما اجتني والبغي حُسبُه
وروت له ابنته سكينه قوله:

لعمرك أنِّي لأحبُّ داراً تكون بها سكينه والرباب
أحبَّهما وأبذلَّ جُلِّ مالي وليس لعاتب عندي عتاب
ولست لهم وإن عابوا معيباً حياتي أو يغيبني التراب

الإمام الرابع: زين العابدين علي بن الحسين (ع):

تروي كتب التاريخ عن الإمام الرابع علي بن الحسين عليه السلام، زين
العابدين، أنَّه كان له من العمر، عندما حصلت فاجعة الطَّفِ إثنًا عشرة
سنة. وكان مريضاً مدنفاً لا يستطيع الحراك والقيام من الخيمة، وبعد أن

قتل والده ورهطه، أخذ أسيراً مع من أخذ من النساء والأطفال إلى الشام.

وقد روى الإمام الأوزاعي أنه «لما أتى بعلي بن الحسين عليه السلام، (زين العابدين)، ورأس أبيه إلى يزيد بالشام، قال يزيد لخطيب بليغ: خذ بيد هذا الغلام فأت به إلى المنبر، وأخبر الناس بسوء رأي أبيه وجدّه، وفراقهم الحق وبنعيمهم علينا، قال، فلم يدع شيئاً من المساويء إلا وذكرها فيهم، فلما نزل، قام علي بن الحسين عليه السلام، فحمد الله محامداً شريفاً، وصلى على النبي صلاة بليغة موجزة ثم قال: يا معشر الناس فمن عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي: أنا ابن مكة ومنى، أنا ابن مروة والصفاء، أنا ابن محمد المصطفى، أنا ابن من لا يخفى، أنا ابن من علا فاستعلى، فجاوز سدره المنتهى، وكان من ربه قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلى بملائكة السماء مثنى مثنى، أنا ابن من أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أنا ابن علي المرتضى، أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن خديجة الكبرى، أنا ابن المقتول ظمأً، أنا ابن المجزوز الرأس من القفا، أنا ابن العطشان حتى قضى، أنا ابن طريح كربلاء، أنا ابن مسلوب العمامة والرداء، أنا ابن من بكت عليه ملائكة السماء، أنا ابن من ناحت عليه الجن في الأرض والطير في الهواء، أنا ابن من رأسه على السنان يهدى، أنا ابن من حرمه من الشام إلى العراق تسبى، أيها الناس، إن الله تعالى وله الحمد، ابتلانا أهل البيت ببلاء حسن، حيث جعل راية الهدى والعدل والتقى فينا، وجعل راية الضلالة والردى في غيرنا، فضلنا أهل البيت بست خصال: فضلنا بالعلم والحلم والشجاعة والسماحة والمحبة والمحلة في قلوب المؤمنين، وأتانا ما لم يؤت أحداً من العالمين من قبلنا.

قال الأوزاعي: فلم يفرغ زين العابدين عليه السلام حتى قال المؤذن: الله أكبر، فقال علي زين العابدين عليه السلام الله أكبر كبيراً فقال المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال علي بن الحسين: أشهد بما شهد به، فلما قال المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله، قال علي بن الحسين: يا يزيد أهذا جدّي أم جدّك، فإن قلت جدّك فقد كذبت، وإن قلت جدّي، فلمَ قتلت أبي وسبيت حرمة وسبيتني؟

وأنهى الإمام زين العابدين عليه السلام كلمته بقوله: (١)

أقادُ ذليلاً في دمشق كأنني من الذبح عبد غاب عنه نصير
وجدّي رسول الله في كلّ مشهد وشيخي أمير المؤمنين أمير
فياليت أُمي لم تلدني ولم أكن يزيد يراني في البلاد أسير
والقصة طويلة يستطيع المطلع أن يطالع عليها في كتب التاريخ (٢).

تسمية الإمام زين العابدين (ع) بالنص:

روي عن الصادق عليه السلام، أن الإمام الحسين عليه السلام، لما سار إلى العراق استودع أم سلمة الكتب والوصية، فلما رجع زين العابدين عليه السلام، دفعتها إليه.

تسلّم الإمام زين العابدين عليه السلام الإمامة، وحمل الأمانة، وما أصعبها، بعد والده شهيد الطّف، الحسين عليه السلام. وكانت إمامته أربعاً وثلاثين سنة، فعاصر من بني أمية في سني إمامته، يزيد بن معاوية، ومعاوية بن يزيد، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، وتوفي

(١) مقتل الحسين برواية أبي مخنف، ط ١، بيروت، مؤسسة الوفاء، سنة ١٩٨٧، ص ١٩٧.

(٢) راجع ابن شهر آشوب، مج ٤، م. س. ص ١٨.

أيام الوليد بن عبد الملك. وقد توفي سنة خمس وسبعين للهجرة في المدينة، وله من العمر سبع وخمسون سنة. ودفن في البقيع بجانب قبر عمّه الحسن بن عليّ، وقد ذكر ابن شهر آشوب، عن أبي جعفر بن بابويه، أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام، قد مات مسموماً بترتيب من الوليد بن عبد الملك^(١).

ومن الألقاب التي اشتهر بها الإمام الرابع عليّ بن الحسين: زين العابدين، وأبو الحسن، وأبو بكر، والإمام السجّاد، ومنه تناسل الأئمة الثمانية الذين اكتمل بهم عقد الإمامة عند الإثني عشرية. كما منه، تناسل أئمة الإسماعيلية الفاطميين، الذين حكموا مصر، والعالم الإسلامي قرنين من الزمن، وبنوا المؤسسات موضوع بحثنا وكتابنا، وكذلك أئمة الزيدية.

روى علي ابن الحسين أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني، أنّ هشام بن عبد الملك حجّ في أحد السنين، فلم يستطع الوصول إلى الحجر الأسود من الزحام، فنصب له منبر وجلس عليه، وطاف به أهل الشام. فبينما هو كذلك، إذ أقبل الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام، عليه إزار ورداء، وقد ظهر بين الناس، أحسنهم وجهاً وأطيبهم رائحة، فجعل يطوف، فإذا بلغ إلى موضع الحجر الأسود، تنحى الناس، وأبعدوا الحجّاج عن الحجر حتى يستلمه هيبة واحتراماً له، فسأل رجل من أهل الشام وليد بن عبد الملك قائلاً: من هذا يا أمير المؤمنين؟ فأجابه الوليد: لا أعرفه، علماً أنّه يعرفه، ولكنه قال هذا

(١) راجع م. س. ص ١٨٨.

الكلام حتى لا يرغب فيه أهل الشام، فقال الشاعر الفرزدق وكان حاضراً: لكني أعرفه، فقال له الشامي: من هو هذا يا أبا فراس، فأجابه شعراً فقال^(١):

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقي الطاهر العلم
هذا ابن أحمد المختار والده صلى عليه إلهي ما جرى القلم
لويعلم الركن من قد جاء يلثمه لخر يلثم منه ما وطى القدم
هذا علي رسول الله والده أمست بنور هداه تهتدي الأمم
هذا ابن سيدة النسوان فاطمة وابن الوصي الذي في سيفه نغم
إذا رآته قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم
ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا
كلتا يديه غياث عم نفعهما تستوكفان ولا يعرفهما عدم
من معشر حبهم دين وبغضهم كفر وقربهم منجى ومعتصم
إن عدا أهل التقى كانوا أئمتهم أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم
وبعد وفاته أعقب كثيراً من الأولاد والذكور، منهم الإمام الخامس
محمد الباقر والد الإمام السادس جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

ومنهم زيد بن علي إمام الزيدية الخامس، ومنه استمرت الشيعة
الزيدية في اليمن حتى يومنا هذا.

(١) مناقب آل أبي طالب، ج ٤، م. س. ص ١٨٣.

الإمام الخامس: محمد بن علي بن الحسين الملقب بالباقر:

يعتبر مؤرخو الشيعة أنَّ الإمام محمد بن علي الباقر، شكّل بداية جديدة لمرحلة جديدة في تاريخ إرساء الفكر الإسلامي الشيعي، وهي مرحلة الانتقال من مهمة تحصين الإسلام من خطر الانحراف والاحتفاظ به كتشريع، إلى مرحلة الحفاظ على الخط الحقيقي للإسلام^(١).

ولد الإمام الباقر في المدينة المنورة سنة سبع وخمسين للهجرة، وقد عاصر جدّه الحسين لأربع سنين، وعاش مع أبيه الإمام زين العابدين السجّاد خمساً وثلاثين سنة. كانت وفاته في السنين الأخيرة من حكم هشام بن عبد الملك، وقد توفي عن عمر ناهز الثماني وخمسين سنة، حيث قضى أيام إمامته في جو مشحون بالظلم والفساد، بعد أن خبر الناس وعرفهم وعرف موافقهم مع جدّه الحسين وأبيه السجّاد عليه السلام، فابتعد عن الحياة السياسية، وتفرّغ لخدمة الإسلام. «عن طريق الدفاع عن أصوله ومبادئه ونشر تعاليمه وأحكامه، ومناظرة الفرق التي انحرفت في تفكيرها واتجاهاتها، بعد أن أنكر الإسلام يميناً وشمالاً، وخضعت لسلطانه أمم وشعوب ذات ماض يزخر بالحضارة والعمران، وقد حدث انقلاب بالتفكير وجميع أسباب الحياة، وبرزت بين ذلك ألوان من النزعات والإتجاهات، التي تجرّ من ورائها الإلحاد والزندقة»^(٢).

(١) راجع: الإئمة الإثنا عشر، عادل الأديب، ط١، الدار الإسلامية، بيروت سنة ١٩٧٩، ص ١٥٥.

(٢) راجع: سيرة الأئمة الإثني عشر، هاشم معروف الحسيني، ط٢ دار القلم، بيروت سنة ١٩٨١، ص ١٩٧.

في هذا الجو المشحون بالصراع العقائدي، انبرى الإمام الباقر للدفاع عن الإسلام والعقيدة الإسلامية، من مفهوم نظرة أجداده للإسلام ولل فكر الإسلامي والفقه والتشريع الإسلاميين، فالتفّ حوله الآلاف من العلماء وطلاب العلم والحديث من شيعته ومن كافة المذاهب الإسلامية.

عندما توفي، ترك من الأولاد سبعة، وهم: الإمام جعفر بن محمد الملقب بالصادق، وعبد الله الأفتح، وعبد الله وإبراهيم، وعليّ وأم سلمة، وزينب. وهو الذي مدحه الشاعر المغربي بقوله: ^(١)

يا بن الذي بلسانه وبيانه هُدي الأنام ونُزل التنزيل
عن فضله نطق الكتاب وبشّرت بقدومه التوراة والإنجيل
لولا انقطاع الوحي بعد محمد قبلنا محمد من أبيه بديل
هو مثله في الفضل إلا أنه لم يأت به برسالة جبريل
كما قال فيه أبو هريرة العجلي:

أبا جعفر أنت الإمام أحبه وأرضى الذي ترضى به وأتابع
أتانا رجال يحملون عليكم أحاديث قد ضاقت بهن الأضالع

مقتل أخيه زيد بن عليّ (ع):

ونحن إذ تطرقنا للحديث عن الإمام زيد بن عليّ بن الحسين عليه السلام، ولقبه عند المؤرّخين زيد الشهيد، فهو لأنه الإمام الخامس عند الشيعة الزيدية، وهم أهلنا في اليمن، وما زالوا على اعتقادهم بإمامته، بعد والده الإمام الرابع زين العابدين عليّ بن الحسين عليه السلام.

(١) راجع: مناقب آل أبي طالب، م. س، مج ٤، ص ١٩٧.

وأما الشيعة الإمامية فيحترمونه ويجلّونه، ويعتبرون خروجه على ملك بن أمية ليس دعوة لنفسه بالإمامة، بل أخذاً بثأر جدّه، ودعماً لإمامة أخيه الباقر.

ويقول العلامة السيد محسن الأمين، أنَّ كثيراً من الشيعة اعتقدت بإمامة زيد، وكان سبب اعتقادهم بذلك، خروجه بالسيف يدعو إلى الرضا من آل محمد، فظنّوه يريد بذلك لنفسه، ولكنه لم يكن يريد لها، لمعرفة باستحقاق أخيه الباقر للإمامة من قبله. ووصيته بها عند وفاته إلى ولده الصادق أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام ^(١).

وعن الشيخ البهائي في آخر رسالته المعمولة في إثبات وجود القائم (عج)، قال: إنّنا معشر الإمامية لا نقول في زيد إلا خيراً.

ويتحدث صاحب بن عباد عن الإمامة وشروطها ووجوبها، ويقول أنّ «أول من جمع صفات الإمامة واستوفى شرائطها وقرن الدعوة إليها بعد الحسن والحسين عليهما السلام، هو أبو الحسن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام، ثم ابنه يحيى بن زيد عليه السلام، ثم من سلك طريقهما وسار سيرتهما وأقام الدعوة، ونهض بالأمر، وتجرّد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومباينة الظالمين، مع اجتماع الأوصاف فيه من ولد الحسن والحسين عليهما السلام» ^(٢).

فالسّاحب بن عباد يّختلف عن الشيعة الإمامية والإسماعيلية

(١) راجع: أعيان الشيعة، محسن الأمين، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت مج٧، سنة ١٩٨٢، ص١٠٨.

(٢) نصرة مذاهب الزيدية، السّاحب بن عباد، ط١، الدار المتحدة، بيروت، سنة ١٩٨١، ص١١٢.

باعته أن صفات الإمامة انطبقت على الحسن والحسين عليهما السلام، وحفيدهما زيد بن علي وولده يحيى، دون اعتقاده بإمامة والده زين العابدين عليه السلام، الإمام السجّاد، حيث اعتبر أن الخروج على الظالم صفة أساسية من صفات الإمامة، فالحسن خرج ولم يوفق، والحسين خرج وقتل، وزيد خرج وقتل، وولده يحيى خرج وقتل.

يروى أبو الفرج الأصبهاني في كتابه «مقاتل الطالبين»، روايات متصلة الإسناد عن جدّه الأول علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: يخرج بظهر الكوفة رجل يقال له زيد في أبهة والابهة الملك، لا يسبقه الأولون ولا يدركه الآخرون، إلا من عمل بمثل عمله، يخرج يوم القيامة هو وأصحابه، معهم الطوامير أو شبه الطوامير حتى يتخطوا أعناق الخلائق، تتلقاهم الملائكة فيقولون: هؤلاء حلف الخلف ودعاة الحق، ويستقبلهم رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول: «يا بني قد عملتم ما أمرتم به، فادخلوا الجنة بلا حساب»^(١).

يقول أبو الفرج الأصبهاني وغيره من المؤرخين، أن أهل الكوفة بدأوا يطالبون زيدا بالخروج والأخذ بثأر جده الحسين عليه السلام، وأقبلوا عليه من كل حدب وصوب يبائعونه، حتى يقال أنه أحصى ديواناً يوجد فيه خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة، خاصة، سوى أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان، والري وجرجان.

وأقام بالكوفة بضعة عشرة شهراً وبدأ يرسل دعائه إلى الآفاق، يدعون الناس إلى بيعته، فتنبّه له الأمويون، وأخذوا يحاصرونه

(١) مقاتل الطالبين، م. س. ص ١٢٠.

ويطبقون عليه، فتخلّى عنه أهل الكوفة، كما تخلّوا عن مسلم بن عقيل وعن جدّه الحسين عليه السلام، فحاصره الأمويون في مسجد الكوفة مع من تبقي من أصحابه، وقد بلغوا مائتين وثمانين رجلاً فقط، من أصل الآلاف المؤلفة التي حضّته على الخروج.

وخرج زيد من المسجد إلى منطقة تدعى الكناسة، وأخذ يجالّد كلاب حراسة بني أمية، عدة أيام وهو ثابت الجنان، حتى رماه أحدهم بسهم فأصابه بجانب جبهته اليسرى، فنزل السهم من الدماغ، فرجع ورجع أصحابه دون أن ينتبه لهم أهل الشام، لأن الوقت كان ليلاً والظلام دامساً، فدخل بيت حرّان بن أبي كريمة في سكة البريد، وانطلق أناس من أصحابه، فجاءوا بطبيب يقال له سفيان مولى لبني دواس، فقال له: إنك إن نزعته من رأسك مت. فقال له زيد: الموت أيسر عليّ مما أنا فيه، فأخذ الطبيب الكلبتين وانتزع السهم. وساعة انتزاعه، مات صلوات الله عليه، فقال القوم أين ندفنه وأين نواريه؟ فقال بعضهم: نلبسه درعين، ثم نلقيه في الماء، وقال بعضهم: لا بل نجتز رأسه ثم نلقيه بين القتلى، فقال ولده يحيى بن زيد: لا والله لا يأكل لحم أبي السباع، واتفقوا أخيراً على حمله إلى محلة العباسية ودفنه فيها.

وانطلقوا إليها وحفروا له حفرتين، بقرب ساقية ماء، ودفنوه في إحدى الحفرتين، وأجروا عليه الماء تمويهاً. ولسوء الحظ كان يراقبهم عبد حبشي يسقي زرعاً في المنطقة، ولم ينتبهوا لوجوده. فرآهم حيث دفنوه. فلما أصبح الصباح. أتى الحكم بن الصلت، فدلّهم على موضع قبره، فاستخرجوه وحملوا جثّته على بعير، وألقي على باب

قصر والي الأمويين في الكوفة، فأمر به فصلب بالكناسة، وصلب معه من أتباعه، معاوية بن إسحاق، وزيايد الهندي، ونصر بن خزيمة العبسي.

ثم قطعوا رأسه، وأرسلوه مع زيد بن زهرة إلى هشام بن عبد الملك، فأعطاه جائزة.

وقال أبو الفرج أن جسده بقي مصلوباً في الكناسة إلى أيام الوليد بن يزيد، حيث أرسل كتاباً إلى واليه في الكوفة يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم: «أما بعد. فإذا أتاك كتابي هذا، فانظر عجل أهل العراق فأحرقه وانسفه في اليمّ نسفاً والسلام».

ويتابع أبو الفرج فيقول: فأمر به يوسف . لعنه الله . عند ذلك خراش بن حوشب، فأنزله من جذعه وأحرقه بالنار، ثم جعله في قواصر، ثم حمّله في سفينة ثم ذرّاه في الفرات»^(١).

وقال المقرئزي: «فلما كان العشي عبى يوسف بن عمر الجيوش وسرحهم، فالتقاهم زيد بمن معه، وحمل عليهم حتى هزمهم وهو يتبعهم، فبعث يوسف طائفة من الماشية، فرموا أصحاب زيد وهو يقاتل حتى دخل الليل، فرمى بسهم في جبهته اليسرى، ثبت في دماغه، فرجع أصحابه وأنزلوا زيدا في داره وأتوه بطبيب، فانتزع النصل، فصاح زيد ومات رحمه الله ليلتين خلتا من صفر، سنة ١٢٢ للهجرة، فقال بعض رجاله: نحز رأسه ونلقيه بين القتلى، فقال ابنه يحيى بن زيد: والله لا يأكل لحم أبي الكلاب، وقال بعضهم

(١) راجع: مقاتل الطالبين، م. س. ص ١٤١.

نطرحه في الماء، وقال بعضهم، ندفنه في الحفرة التي يؤخذ منها الطين، ونجعل عليه الماء، ففعلوا ذلك، وأجروا عليه الماء، وكان معه مولى سندي، فدلّ عليه، وقيل أنّه رأيهم، فدلّ عليه، وتفرّق الناس من أصحاب زيد، وسار ابنه يحيى نحو كربلاء، وتتبع يوسف بن عمر الجرحى، في الدور، حتى دُلّ على زيد في يوم الجمعة، فأخرجه وقطع رأسه، وبعث به إلى هشام بن عبد الملك، فدفع لمن وصل به عشرة آلاف درهم، ونصبه على باب دمشق، ثم أرسله إلى المدينة وسار منها إلى مصر، أما جسده فإن يوسف بن عمر صلبه بالكناسة ومعه ثلاثة ممن كانوا معه، وأقام الحرس على الجثة، فمكث زيد مصلوباً أكثر من سنتين حتى مات هشام بن عبد الملك، وتولى أخوه الوليد من بعده، فبعث إلى يوسف بن عمر أن أنزل زيدا وأحرقه وذرّ رماده في الريح. وكان زيد لما صلب وهو عريان استرخى بطنه على عورته حتى ما يرى من سوّته شيء.

وروى المقرئ: مرّ زيد مرة بمحمد ابن الحنفية (عمه)، فنظر إليه وقال: أعيذك بالله أن تكون زيد بن علي المصلوب بالعراق. وروى أيضاً أن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين، (زين العابدين) عليه السلام، قال سمعت: أبي يقول: اللهم إن هشاماً رضي بصلب زيد، فأصلبه ملكه، وإن يوسف بن عمر أحرق زيدا، اللهم فسلط عليه من لا يرحمه، اللهم أحرق هشاماً في حياته إن شئت، وإلا فأحرقه بعد موته^(١)، وقال لما أخذ بنو العباس دمشق، رأيت يوسف بن عمر بدمشق مقطّعاً على كلّ باب من أبواب دمشق.

(١) راجع: الخطط المقرئية، أحمد بن علي المقرئ، ط ١، دار صادر، بيروت، ص ٤٤٠.

روى المقرئزي أنَّ أول من دعا للبس السواد من الشيعة، كان بسبب مقتل زيد بن علي.

والزيدية في اليمن تنتسب بفكرها وعقيدتها للإمام زيد بن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام. لم يتابع ولده الدعوة لفكره وإمامته، بل بقيت مخبوءة في قلوب شيعته ومريديه حتى سنة ٢٨٤هـ، حيث أتت الوفود من اليمن طالبة يحيى بن القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فحمل راية عمه الإمام زيد وفكره السياسي، علماً أنَّ يحيى هو حسني أي من صلب الحسن بن علي عليه السلام، الإمام الثاني، بينما الإمام زيد هو حسيني أي من صلب الإمام الحسين بن علي عليه السلام الثالث عليه السلام، وقاد يحيى الإمامة، وحمل لواءها في اليمن حسب فكر عمه الشهيد زيد، وتسمى بالإمام الهادي. وقد استمرت الإمامة الزيدية في اليمن، من سنة ٢٨٤هـ، حتى سنة ١٣٨٢هـ، حيث انتهى حكم آخر إمام زيدي، بسبب سيطرة تيار جمال عبد الناصر على اليمن^(١).

وقال فضل ابن العباس الطالبي الهاشمي يرثي زيداً بن علي عليه السلام^(٢).

ألا يا عين لا ترقى وجودي بدمعك ليس ذا حين الجمود
غداة بن النبي أبو حسين صليب بالكناسة فوق عود
يظل على عمودهم ويمسي بنفسي أعظم فوق العمود
تعدى الكافر الجبار فيه فأخرجه من القبر اللحد

(١) راجع: مجلة العرفان، مج ٥٢، صيدا، مطبعة العرفان، سنة ١٩٦٤، ص ١٩٢.

(٢) مقاتل الطالبين، م. س. ص ١٤٩.

فظلوا ينباشون أبا حسين خطيباً بينهم بدم جسيد
وجاور في الجنان بني أبيه وأجداداً هم خير الجدود
فكم من والد لأبي حسين من الشهداء أو عم شهيد
ونحن لم نخرج عن عنوان الكتاب الأساسي، في حديثنا
المقتضب عن الإمام زيد مؤسس الزيدية، وهو الذي ألفوا فيه،
وبالشيعية الزيدية الكتب، ودبجوا المقالات والأبحاث، فحديثنا عن هذا
الفرع الشيعي الخطير، هو جزء أساسي من كتابنا لأن الكتاب يتحدث
عن الفاطميين الشيعة في مصر، ولا مندوحة من تسليط الضوء على
أهم الفرق الشيعية التي ما زالت متواجدة بكثرة، على الساحة
الإسلامية.

الإمام السادس: جعفر بن محمد الملقب بالصادق (ع):

لقد أثمرت كتب التاريخ من ذكر اتصاف الإمام جعفر الصادق
ابن محمد الباقر عليه السلام، ببعد النظر، والتروي في الأمور حتى التنبؤ.
فقد ذكر ابن شهر آشوب، أن أبا عبد الله السفاح أرسل إلى الإمام
جعفر بن محمد، وإلى أبناء عبد الله بن الحسين بن الحسن بن
علي بن أبي طالب عليه السلام، وأبناء محمد بن علي بن الحسين، أخوة
الإمام جعفر، يطلب واحداً منهم ليبايعه بالخلافة، فبدأ بجعفر فلما قرأ
الكتاب عليه السلام، أحرقه وقال: هذا هو الجواب، (أي إحراق
الرسالة)، فلما أتى الكتاب إلى عبد الله بن الحسين وقال: أنا شيخ
ولكن ابني محمد هو مهدي هذه الأمة، وركب وأتى ابن عمه جعفر
الصادق عليه السلام ليسأله رأيه فقال له جعفر عليه السلام: لا تفعلوا فإن الأمر

لم يأت بعد، فغضب عبد الله بن الحسين وقال له: لقد علمت خلاف ما تقول، وإنك ليحملك على هذا الرأي حسدك لابني، فتوجّه الصادق بنظره نحو أبي عبد الله السفاح، وكانت ما تزال الخلافة أموية، وقال لابن عمه عبد الله بن الحسين: لا والله يا ابن العم، ما ذلك يحملني على هذا الرأي، بل الذي يحملني عليه هذا الرجل (السفاح) وأخوته وأبناؤه، فهم كلّهم دونك. وقد قتلهم السفاح جميعاً بعد قيام الدولة العباسية، باستثناء الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

وعندما انتقل الأمر من السفاح إلى أخيه أبي جعفر المنصور، عانى الإمام الصادق منه الأمرين، فقد حاول مراراً استفزازه وإصااق التهم به لقتله، فقد كانت مواقف الإمام الصادق في عصر المنصور، إضافة إلى شهرته التي ملأت الآفاق، تقض مضاجع المنصور، وتنكد عليه عيشته، فوجود الإمام الصادق عليه السلام كان من أخطر المشاكل التي واجهتها دولة العباسيين، لأنهم جبلوا قلوب الناس بالحق على بني أمية، لسوء السيرة التي ارتكبوها مع أبناء علي، وركبوا موجة محبة العلويين والدفاع عن حقهم المسلوب في الخلافة ليحققوا أهدافهم في الإستيلاء على ملك بني أمية.

وقد أكثر كذب التاريخ من ذكر الأذى الذي لحق الإمام الصادق عليه السلام من المنصور.

الإمام الصادق وموقف أئمة مذاهب السنة من مدرسته:

١ - مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان:

كان الإمام أبو حنيفة النعمان من معاصري الإمام جعفر الصادق عليه السلام ومن طلابه وأتباعه. فقد ولد ونشأ في الكوفة سنة ٨٠هـ، ومات في بغداد سنة ١٥٣هـ. وبعد أن اشتهر أمره، استدعاه المنصور للوقوف في مواجهة مدرسة الإمام الصادق عليه السلام وفتاواه، ولكنه بدل أن يقف في وجهه، تتلمذ على يديه وأخذ منه، حتى يقال أنه اشتهر بعلويته ومحبة أهل البيت وروايته الحديث عنهم وعن أستاذه الإمام الصادق عليه السلام. وقد اختلف إليه، وكان يسأله عن كثير من المسائل مع أدب واحترام، ولا يخاطبه إلا بقوله: جعلت فداك يا بن رسول الله، كما أنه روى عنه، وحديث واتصل به في المدينة، مدة من الزمن، وكان ينتصر له ولأهل البيت، ويؤازرهم في جميع مواقفهم، حتى قيل أنه ناصر زيداً بن علي، وساهم في الدعوة إلى الخروج معه، وكان يقول ضاهي خروج زيد خروج رسول الله يوم بدر، كما أنه آزر محمداً بن عبد الله بن الحسن وإخاه إبراهيم، وفي الجملة، أكثرت، كتب التاريخ من ذكر ميل أبي حنيفة لزيد وللشيعة الزيدية ولأهل بيت رسول الله دون خفاء وفي العلن.

وقد دس المنصور السم للإمام أبي حنيفة، حقداً عليه، وكرهاً به، وبأهل البيت بسبب مناصرته لهم^(١).

(١) راجع: الإمام جعفر الصادق والمذاهب الأربعة، أسد حيدر، مج ٢، ط ٢، دار الكتاب العربي، سنة ١٩٦٩، ص ٣١٨.

ب - مذهب الإمام مالك بن أنس:

كذلك يعتبر المؤرخون أنّ الإمام مالك بن أنس، من معاصري الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وأنّه من أنصار مدرسته الفقهية، ومن طلابه، وقد أشاروا إلى انضمامه لجانب العلويين، وأخذ العلم عن الإمام الصادق عليه السلام. وقد أفتى بالخروج مع محمد النفس الزكية، فأهين لهذه الفتوى، وناله الأذى من العباسيين، فتعصّب له قوم وناصروه، وأصبحت له مكانة في المجتمع، فاستغلّ العباسيون هذه المكانة وحاولوا توجيهها بمواجهة فكر ومدرسة الإمام الصادق عليه السلام.

ج - مذهب الإمام الشافعي:

لم يتلمذ الشافعي مباشرة على يد الإمام جعفر الصادق عليه السلام، بل أخذ عن طلابه وتلامذته، فقد ولد سنة ١٥٠هـ، وتوفي سنة ١٩٨هـ، ودفن في مصر، ولكنه كان أكثر أئمة المذاهب الأربعة تعصّباً ومجاهرة في حبه وولائه لأهل البيت. وقد قتل بسبب ولائه ومجاهرته بحب العترة النبوية الطاهرة.

ومن شعره في ضرورة الصلاة على آل بيت رسول الله قوله: (١)

يا آل بيت رسول الله حُبُّكُمْ فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم القدر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له
وقال أيضاً:

أنا شيعي في ديني وأصلي بمكة ثم داري عسقليه
بأطيب مولد وأعزّ فخر وأحسن مذهب يسمو البريه

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، م. س. الجزء الثالث ص ٢٥٠.

وقد رماه أهل السنة بالرفض لمغالاته في حب أهل البيت وأبناء علي وفاطمة عليهما السلام، فقال:

ياراكباً قف بالمحصب من منى واهتف بقاعد خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان اني رافضي
وقال في موضوع اتهامه بالرفض أيضاً:

قالوا ترفض قلت كلا ما الرفض ديني ولا اعتقادي
لكن توليت دون شك خير إمام وخير هادي
إن كان حب الوصي رفضاً فإنني أرفض العباد
وينكر على من يعتبر حب أبناء فاطمة رفضاً فيقول:

إذا في مجلس ذكر وأعلياً وسبطيه وفاطمة الزكية
يقال تجاوزا يقوم هذا فهذا من حديث الرفضية
برئت إلى المهيمن من أناس يرون الرفض حب الفاطمية
د - مذهب الإمام أحمد بن حنبل:

ولد الإمام أحمد بن حنبل في بغداد سنة ١٦٤ هـ، وتوفي فيها سنة ٢٤١ للهجرة. وقد تأخر انتشار مذهبه عن بقية المذاهب، باعتبار صاحبه من رواة الحديث، وليس من الفقهاء. وقد كان أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث، ولذلك لم ينل مذهبه من الانتشار والقبول عند العامة كبقية المذاهب، أو ربما لعدم تخرجه من مدرسة الإمام جعفر الصادق عليه السلام وعدم إظهاره محبة أهل البيت وولائه لهم، فتوقع ضمن منطقة الشام وبعض نجد.

وقد أفتى الإمام أحمد بن حنبل: «بجواز إمامة من تغلب، فإن من

تغلب وإن كان فاجراً (يزيد) تجب طاعته حتى لا تكون فتنة بين المسلمين». ومن أقواله في هذا الصدد: «السمع والطاعة للأئمة، البر والفاجر، ومن ولي الخلافة، واجتمع عليه الناس ورضوا به، ومن غلبهم بالسيف، وسمي أمير المؤمنين^(١)».

وقد أخذ هذا المذهب جرعة في القرن الثامن الهجري على يد ابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية والإثنان مشهوران بعدائهم للشيعة وأهل البيت، خاصة ابن تيمية الذي أفتى بوجوب قتال كل المذاهب الشيعية ورمائها بالكفر والإلحاد والزندقة، ونتيجة عمل الأيوبيين والمماليك والأتراك بفتواه، قُتل الملايين من شيعة أهل البيت، على مرّ العصور.

وكذلك اشتدّ أزر هذا المذهب مرّة أخرى في القرن الثالث عشر الهجري، على يد محمد بن عبد الوهاب النجدي، في الجزيرة العربية، وكان من نتائجها، هجمات متكرّرة من أنصاره آل سعود، على مشهد الحسين عليه السلام في النجف وكربلاء، وسحل وقتل ونهب وتشريد في الوسط الشيعي الجعفري.

وقد تطاحنت هذه المذاهب وتناحرت، وسيطر بعضها وانزاح البعض الآخر. وقد صوّر لنا الزمخشري، تطاحن هذه المذاهب وتناحرها بقوله:

إذا سألوا عن مذهبي لم أبح به وأكتمه، كتمألي أسلم

(١) راجع المذاهب الإسلامية الخمسة، عمر المدني، ط ١، بيروت، الدرا المتحدة للنشر، لا تاريخ، ص ٢٠٤.

فإن حنفياً قلت، قالوا بأنني أبيع الطلى وهو الشراب المحرم
 وإن شافعيّاً قلت، قالوا بأنني أبيع نكاح البنت والبنت تُحرّم
 وإن مالكيّاً قلت قالوا بأنني أبيع لهم أكل الكلاب وهم هم
 وإن قلت من أهل الحديث وحزبه يقولون تيس ليس يدري ويفهم
 وهذا واضح بأن الزمخشري لم يجد ما ينتقد به مذهب الإمام
 جعفر الصادق عليه السلام، بينما ذكر أنّ مذهب أبي حنيفة النعمان يبيع
 شرب الخمر، والمذهب الشافعي يحلّ نكاح البنت إنّ كانت نتيجة
 زنا، وأن الإمام مالك أباح أكل الكلاب خلافاً لما شرّعه الله، وأما أهل
 الحديث فيعني بهم مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وأتباع ابن تيمية
 والوهابيين، فهو يطلق على الواحد منهم لقب تيس، لا يدري ولا
 يفهم.

وقد ردّ أبو علي بن المتوكل، على الشافعي حين أعلن حبه الرفض
 إنّ كان الرفض يعني حب العترة النبوية الطاهرة فقال: ^(١)
 يا ذا الذي أضحى يصول ببدعة وتشيع وتمشعر وتمعزل
 لا تنكرنّ حنبلني وتسننني فعليهما يوم المعاد معولي
 إن كان ذنبي حبّ مذهب أحمد فليشهد الثقلان أنّي حنبلني
 وبالرغم من اتخاذ السلطات من مذهب الحنابلة قاعدة ومنطلقاً
 للطعن على الشيعة، فلم ينج هذا المذهب وصاحبه من تهمة محبة
 العلويين وآل البيت، فقد أرسل المتوكل شرطته لمحاصرة منزل
 الإمام أحمد وداهمته وفتشته بتهمة إيواء العلويين، والتستّر عليهم،

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، مج ٤، م. س. ص ٥١٩.

وفتشته تفتيشاً دقيقاً، ولكنهم انسحبوا منه بعد أن عجزوا أن يجدوا أي دليل^(١).

الإمام جعفر الصادق والتقية:

التقية مصدر من فعل: اتقىته واتقىته تقية بمعنى أخذت الحذر منه، كما في القاموس المحيط للفيروز آبادي.

ويقول الشيخ أحمد رضا النباطي العاملي، أن الخلافات السياسية تزيد الشقّ اتساعاً وبعداً بين الفرق الإسلامية المتنازعة، مما يدفع الفرقة الأكثر، لاستكثار أنصارها ومحاربة أعدائها، بهدف الإستهثار بكرسي السلطة، يدفع أيضاً بالفئة المغلوبة على أمرها، وبسبب ضعفها عن المقاومة، أن تكتّم سرّها وسرّ دعوتها، وتتقيّ عدوّها بهذا الكتمان، بانتظار يوم، يساعدها على إشهار آرائها وأفكارها. هذه هي التقية.

إنّ التمسك بحبال التكتّم للفئة المستضعفة، في مكان كثرت عليها فيه العيون، وعظمت المراقبة، وكبر النكال، هو أمر طبيعي لها، تؤيده العادة ويقبله العقل، لتحفظ به كيانها وتجمع إليه أمرها.

إن الفئة الغالبة إذا استبدّت، وحاولت محو الفئة المغلوبة، وجرّدت سيف سطوتها من غير إنصاف ترجع إليه، ولا عدل يمنعها، وتعقبّتها قتلاً وتشريداً وأتت على آخر أبنائها، فلا حبل يعصم الفئة المغلوبة إلاّ التقية^(٢).

(١) م. س. نفسه، ص ٤٤٥.

(٢) راجع: بحث في التقية، للشيخ أحمد رضا، العرفان، صيدا، مجلد ٣، سنة ١٩١١، ص ٤٩١.

وقد رخص علي بن أبي طالب عليه السلام لأصحابه بها في إحدى خطبه حيث قال: «أما أنه يظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم، مندحق البطن، يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه ولن تقتلوه، ألا وأنه يأمركم بسبّي والبراءة مني، فأما السبّة، فسبّوني، فإنه لي زكاة، ولكم نجاة، وأما البراءة، فإني ولدت على الفطرة، وسبقت إلى الإيمان والهجرة»^(١).

ولولا التقية التي أفتى بها أئمة الشيعة وعلمائوها لما قدر لمذهبهم الإستمرار، ولكانوا تلاشوا بسبب الذبح والقتل والتشريد والصلب والحرق، وقد أثار أحد الشعراء وصف ما أصاب هذه الطائفة من المسلمين من العسف والظلم فقال:

أن اليهود بحبّها النبيها أمنت معرة دهرها الخوان
وذوو المسيح بحبّ عيسى أصبحوا

يمشون زهواً في قرى نجران
والمؤمنون بحب آل محمد يرمون في الأفاق بالنيران
وقال الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان في كتابه
(الإرشاد):

لم يعرف خوف شمل جماعة من ولد نبي ولا إمام ولا ملك زمان،
ولا برّ ولا فاجر، كالخوف الذي شمل ذرية أمير المؤمنين علي عليه السلام.
ولا لحق أحداً من القتل والطرْد عن الديار والأوطان والإخافة والإرهاب،
ما لحق ذرية أمير المؤمنين وولده، ولم يجر على طائفة من الناس من

(١) م. س. نفسه. ص ٤٩٥.

ضروب النكال، ما جرى عليهم من ذلك، فقُتِلُوا بالفتك والحيلة والإحتيال وبني على كثير منهم وهم أحياء، البنيان، وعُذِّبُوا بالجوع والعطش، حتى ذهبت أنفسهم على الهلاك. وأحوجهم ذلك إلى التفرُّق في البلاد، ومفارقة الديار والأهل والأوطان، وكتمان نسبهم عن أكثر الناس. وبلغ بهم الخوف إلى الإستخفاء عن أحبائهم، فضلاً عن الأعداء. وبلغ هربهم من أوطانهم إلى أقصى الشرق والغرب، والمواقع النائية عن العماره. وزهد في معرفتهم أكثر الناس، ولم يختلطوا بهم، مخافة على أنفسهم وذريَّتهم من جبايرة الزمان^(١).

وقد ذكر أحمد صقر، محقق كتاب (مقاتل الطالبين) لأبي الفرج الأصبهاني، أنَّ «الرواة والمؤلفين استجابوا لرغبة عامة في معرفة أخبار الطالبين، فشرعوا يؤلِّفون أخبارهم، ويسطِّرون فضائلهم، ويدبِّجون سيرهم، ويؤرِّخون مقالاتهم»، وعدَّد أسماء الذين ألَّفوا في هذا الموضوع، فناهزوا العشرين مؤرِّخاً^(٢).

وقد أنهى الشيخ أحمد رضا بحثه عن التقية بتلخيص أحكامها في الأمور التالية:

١ - يتبع الرجل التقية إذا كان بين أقوام كفار، يخاف منهم على نفسه وماله، فيداريهم باللسان ولا يظهر العداوة لهم. ولا يجوز أن يتحبَّب ويتودَّد إليهم ويواليهم، شرط أن يضمّر خلاف ما يظهر لهم.

(١) راجع م. س. ص ٧٨٠.

(٢) راجع: مقاتل الطالبين، م. س. المقدمة، ص (ك).

٢ - يجوز إنباع التقيّة ليس في الموالاة والمعاداة فقط، بل أيضاً فيما يتعلق بإظهار الدين، فإذا كان استعماله للتقيّة يؤدي إلى القتل والزنا وغصب الأموال والشهادة بالزور وقذف المحصنات، وإطلاع الكفار على عورات المسلمين، فلا تجوز التقيّة في هذه الحال أبداً. ومن الضروري عدم إتباعها ولو أدى إلى إتلاف النفس.

ولم يقتصر الإيمان بالتقيّة والعمل بها عند الشيعة فقط، بل آمن بها وعمل بها الشوافع والحنابلة من أهل السنة، خاصة في قضية محاربة المعتزلة وخلق القرآن الكريم، من قبل خلفاء بني العباس، وخاصة الخليفة المأمون، حيث صرّحوا له بما يهواه وليس بما يؤمنون به، إتقاء لشره وحفاظاً على أرواحهم وأنفسهم، من تعنّته وتصلّبه إزائهم.

وقد ذكر المسعودي خطبة أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني، حين ألقى القبض على عبد الله بن الحسين بن الحسن بن علي وأخوته وأولاده، وقد أشرنا سابقاً لهذه الحادثة، عندما كاتبهم أبو سلمة الخلال، يطلب من الإمام جعفر الصادق عليه السلام الخروج، فرفض وخرجوا هم، فوقعوا في فخ المنصور، وقد عدّد في هذه الخطبة كلّ المساويء التي كان يلحقها الأمويون بأبناء عمّه الطالبيين. وحذا حذوهم في سبّهم وشتيمهم. وكانت خطبته، خطة عمل مستقبلية لكلّ خلفاء بني العباس في تعقّب ونفي وسلب وحرق الطالبيين^(١).

(١) راجع: مروج الذهب ومعادن الجوهر، م. س. ج ٣، ص ٢٠٠.

وكانت البدع تظهر في عصر كلِّ إمام من أئمة الشيعة، حتى عصر الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ولم يخل من ظهور الملاحدة وأصحاب البدع، كالخطاب محمد بن أبي زينب الأجدع الأسدي، فقد كان «من أجلِّ دعاة، فاستغواه الشيطان وأضلَّه عن سبيل الإيمان، فكفر وادَّعى النبوة، وزعم أنَّ الصادق جعفر بن محمد عليه السلام إله، تعالى الله عزَّ وجلَّ عن قوله وبهتان، واستحل المحارم كلَّها ورخص فيها. وكان أصحابه كلما ثقل عليهم أداء فريضة أتوه فقالوا: يا أبا الخطاب خفف علينا. فيأمرهم بتركها، حتى تركوا جميع الفرائض واستحلُّوا جميع المحارم، وأباح لهم أنَّ يشهد بعضهم لبعض بالزور.

وقال هذا الملحد: من عرف الإمام فقد حلَّ له كلُّ شيء حرم عليه، فبلغ أمره الإمام جعفر بن محمد عليه السلام، فلم يقدر عليه بأكثر من أنَّ لعنه وتبرأ منه، وجمع أصحابه فعرفهم بذلك، وكتب إلى شيعته في البلدان بالبراءة منه، واللعنة عليه، وكان ذلك أكثر ما أمكنه فيه وعظم عليه أمره، واستفظعه^(١).

هذا ما ذكره الداعي إدريس القرشي، وهذا حال كلِّ أئمة الشيعة مع الملاحدة الذين أساءوا للإسلام ولهم. وحالهم مع كلِّ من غالى في عقيدته وولائه للإسلام ولهم. فهم لا يملكون سوى التبرؤ من هؤلاء الغلاة، ورفض دعوتهم، وكشفها وكشفهم على الملأ، ولعنهم ولعن أتباعهم وأنصارهم.

(١) راجع: عيون الأخبار وفنون الآثار، داعي الدعاة، عماد الدين إدريس القرشي، السبع الرابع، ط ١، دار الأندلس، بيروت، سنة ١٩٨٦، ص ٢٨٦.

وفاة الإمام السادس جعفر الصادق (ع) وانقسام الشيعة إلى:

١ - إسماعيلية.

٢ - إمامية إثني عشرية.

عندما توفي الإمام جعفر الصادق (ع)، ترك من الأولاد سبعة ذكور وثلاث بنات وهم الإمام موسى بن جعفر (ع)، وهو الذي انتقلت إليه الإمامة بعد أبيه بتكليف منه حسب رأي الإمامية.

وأسحاق وعلي والإمام إسماعيل الأعرج، وهو الولد الأكبر للإمام جعفر الصادق (ع) حسب رأي الإسماعيلية، وقد توفي في حياة أبيه، كما تنص على ذلك روايات الشيعة الإمامية، وعبد الله والعباس، وأم فروة، وأسماء وفاطمة الصغرى، وروى الشيخ المفيد، أن الإمام إسماعيل، أمه فاطمة بنت الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع)، وربما لهذا السبب سمى الإسماعيليون أنفسهم بالفاطميين، لانتسابهم إلى إسماعيل بن فاطمة، وإلا لكان كل طالبي، حسني كان أم حسيني تسمى بالفاطمية.

الإمام السابع: إسماعيل بن جعفر الصادق (ع):

كتب الزركلي فقال: هو إسماعيل بن جعفر بن محمد الباقر (ع)، الهاشمي القرشي، جدّ الخلفاء الفاطميين، إليه نسبت «الإسماعيلية وهي من فرق الشيعة. في الأصل تميّزت عن الإثني عشرية، بأن قالت بإمامته بعد أبيه، والإثنا عشرية تقول بإمامة أخيه موسى الكاظم (ع)، ولم تذكر كتب التاريخ على أنه كان في حياته شيئاً مذكوراً، توفي في حياة والده. وفي الإسماعيلية من يرى أن

أباه أظهر موته تقيّة، حتى لا يقصده العباسيون بالقتل»^(١).

أما دائرة المعارف الإسلامية فقد جاء فيها تحت مادة الإسماعيلية «فرقة من الشيعة، سُميت بهذا الاسم، لأنها وقفت بسلسلة الإمامة عند إسماعيل، الإبن الأكبر لجعفر الصادق عليه السلام، الإمام السادس. وقد جعلوا الإمامة بعد جعفر لابنه إسماعيل، وكان جعفر قد عين ابنه إسماعيل خلفاً له، لكنه عاد فعين ابنه الثاني موسى الكاظم، لأنّه لقي إسماعيل ثملاً. ولكن الإسماعيلية لم يسلموا بنزع الإمامة عن إسماعيل، لأنّهم كانوا يرون أنّ الإمام المعصوم، إن شرب الخمر، لا تفسد عصمته، وأنه لا يجوز لله أن يأمر بشيء ثم ينسخه على نقيض ما قرّر جعفر عليه السلام. وتوفي إسماعيل في المدينة عام ١٤٣هـ، أي قبل وفاة أبيه بخمسة أعوام، ودفن في مقبرة في بقيع الفرقد». وما أورده دائرة المعارف عن شرب الخمر، لم يرد في كتب التاريخ ولم يذكر المترجم مصادره، وقد أراد جعفر الصادق عليه السلام، أن يؤكّد وفاة ابنه بأقوال شهود عديدين، ولكن أتباع إسماعيل لم يسلموا بموته، وزعموا أنّه كان حياً بعد وفاة أبيه بخمس سنين، وأنه رُئي في سوق البصرة حيث وضع يده على مُقعد فأبرأه. وقد ترك أبناء إسماعيل المدينة، لما لحقهم من الإضطهادات السياسية التي أحاقت بالعلويين. فذهب ابنه محمد إلى أقليم دما وند بالقرب من الرّي وأخوه عليّ إلى الشام وبلاد المغرب»^(٢).

(١) الاعلام، قاموس تراجم، خير الدين الزركلي، م ١، ط ٨، دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٩٨٩، ص ٣١١.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، لا طبعة، لا تاريخ، دار المعرفة، بيروت مج ١، ص ١٨٨.

أما تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي، وهو المؤرخ السنّي الشهير، الذي تخصص في تاريخ الدولة الفاطمية، عن إعجاب ورغبة لا عن إكراه ورهبة فقال: «وحيث انتهينا إلى ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فإنه الغرض، وإليه ينسب الخلفاء الفاطميّون بناة القاهرة فنقول: إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام، مات في حياة أبيه جعفر سنة ثمان وثلاثين ومائة، وخلف من الأولاد محمداً وعلياً وفاطمة»^(١).

ويرى الدكتور محمد كامل حسين، أنّ الشيعة الجعفرية قد انقسمت بعد وفاة جعفر الصادق حوالي سنة ١٤٧هـ، إلى فرقتين، وكان انقسامها بسبب الإمامة، ذلك أنّ الأكثرية العظمى من أتباع المذهب الجعفري نادوا بإمامة موسى الكاظم ابن جعفر الصادق عليه السلام، وسلسلوا الإمامة في الأكبر سناً من عقبه، إلى أن أشيع بأن الإمام الثاني عشر وهو محمد بن الحسن العسكري عليه السلام دخل سرداباً في مدينة سامراء وأنه اختفى في هذا السرداب خوفاً على نفسه من بطش العباسيين، وهو المهدي المنتظر الذي سيعود ويملاّ الدنيا عدلاً...^(٢).

أما الفرقة الثانية التي تفرّعت عن المذهب الجعفري فهي فرقة الإسماعيلية، الذين قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام،

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي، لا طبعة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ج ١، سنة ١٩٦٧، ص ١٥.

(٢) طائفة الإسماعيلية، محمد كامل حسين، ط ١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٥٩، ص ١١.

فنسبت إليه الفرقة. ومن الطريف أن مؤرخي الإسماعيلية وعلماءهم يروون قصة عن سبب انشقاق أتباع جعفر الصادق عليه السلام إلى هاتين الفرقتين.

فقال بعضهم أن جعفر الصادق عليه السلام، نصّ على أن يكون ولده إسماعيل الإمام من بعده. ولكن إسماعيل توفي في حياة أبيه، وبذلك انتقلت الإمامة إلى ابنه محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، لأن الإمامة لا تكون إلا في الأعقاب، ولا تنتقل من أخ إلى أخيه، إلا في حالة الحسن والحسين، أبناء علي بن أبي طالب عليه السلام فقط. أما الأئمة بعد الحسن والحسين، فتنقل من أب إلى ابن، وأولوا الآية القرآنية الكريمة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾، بأن معنى الكلمة هي الإمامة، وأن لا بد أن تكون في الأعقاب دون غيرها، وبما أن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام كان صاحب الحق الشرعي في الإمامة بعد أن نصّ أبوه على ذلك، فلا بد إذن أن تتسلسل الإمامة في ابنه محمد بن إسماعيل الذي كان أكبر سنّاً من عمه موسى الكاظم، فبناءً على التقليد الشيعي القديم، الذي يوجب تسلسل الإمامة في أكبر أبناء الإمام سنّاً، كان محمد بن إسماعيل إذن، أحقّ من عمه موسى الكاظم بالإمامة. على أن أكثر مؤرخي الإسماعيلية يقولون أن قصة وفاة إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام في حياة أبيه، إنما كانت قصة أراد بها الإمام جعفر الصادق عليه السلام، التمويه والتعمية على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، الذي كان يطارد أئمة الشيعة، فخاف جعفر الصادق عليه السلام على ابنه وخليفته إسماعيل، فادّعى موته، وأتى بشهود كتبوا محضراً بوفاته، وأرسل ذلك المحضر إلى الخليفة العباسي، الذي أظهر سروراً

وارتياحاً لوفاة إسماعيل، الذي كان إليه سيؤول أمر إمامة الشيعة، ثم شوهده إسماعيل بعد ذلك في البصرة وغيرها من بلاد فارس، وبناءً على ذلك يرى محمد كامل حسين، أنَّ الإمامة لم تسقط عن إسماعيل بالموت قبل وفاة أبيه، لأنَّه مات بعد وفاة أبيه.

ويقول الكاتب أيضاً نقلاً عن مؤرّخي الإثني عشرية، أنَّ إسماعيل لم يكن بالرجل الذي يصلح للإمامة، فقد كان مدمناً على شرب الخمر، ولوعاً بالنساء، وأنه كان من أصدقاء أبي الخطاب الأسدي الفاسق الملحد، الذي ادّعى ألوهية جعفر الصادق عليه السلام، مما جعل الصادق يتبرأ منه ولا يرضى عن الصلة التي كانت بينه وبين إسماعيل، وأن جعفر أظهر فرحة لموت ابنه إسماعيل، لما كان معروفاً به من فسق.

هذا ما ذكره المؤرّخون المحايدون عن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام، أما المؤرّخون المتحيّزون له ولإمامته كداعي الدعاة إدريس عماد الدين القرشي وعند المؤرّخين المعاصرين أمثال سليم هشي وعارف تامر ومصطفى غالب فهو كما يقول الداعي المطلق إدريس عماد الدين القرشي: «كان لأبي عبد الله الصادق جعفر بن محمد عليه السلام من الأولاد خمسة: إسماعيل، وعبد الله، وأمهما فاطمة ابنة الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ولم يكن جعفر بن محمد تزوّج عليها، ولا اتخذ سرية حتى ماتت فاطمة بنت الحسن، فتزوّج بعدها الإمام الصادق عليه السلام واتخذ أمّهات الأولاد ووُلِدَ له موسى الكاظم عليه السلام، وإسحق، ومحمد، وكان أرفعهم مكانة لديه، وأحبهم إليه ولده إسماعيل، وكان يخصّه دونهم بالتقريب،

ويعظمه عليهم، كما كان يعظم يوسف على أبنائه، يعقوب. ثم أن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام، نصّ على الإمام إسماعيل بن جعفر بالإمامة، وعرف خواص شيعته بأنه الإمام القائم مقامه.

واشترى الإمام جعفر بن محمد عليه السلام جارية تُسمى أم فروة، ووهبها لولده إسماعيل عليه السلام. فاتخذها إسماعيل بن جعفر أمّاً لولده، فولدت له الإمام محمد بن إسماعيل، الذي كان أكبر سنّاً من أعمامه موسى وإسحق ومحمد أولاد الصادق. وكان محمد بن إسماعيل، أكبر من عمّه موسى بثمانين سنين.

وحين انتهى إلى أبي جعفر المنصور، تسليم الإمام الصادق عليه السلام الأمر إلى ولده إسماعيل، وما اختصه به من التعظيم والتبجيل، خاف المنصور أن يستميل الناس عنه، فبعث إلى الصادق عليه السلام وسأله أن يكون إسماعيل مقيماً عنده، وأظهر أن ذلك إثارة له وتشوقاً إليه. وما كان إلا خوفاً منه، لما رأى من كثرة أتباع الصادق عليه السلام، وأهل ولايته، وأن الإمامة قد استقرت بعده في ولده، فلم يجبه الإمام الصادق عليه السلام إلى تسيير ولده إسماعيل ولا آتاه إلى ذلك ولا ساعده عليه.

وجعل الإمام الصادق عليه السلام، يلاطف المنصور خوفاً منه عليه، وسافر إلى العراق بنفسه ثم عاد إلى الحجاز، وستر ولده إسماعيل، فأقام في منزله مستتراً حولاً كاملاً وأربعة أشهر، حتى توفي عليه السلام. ولما توفي الإمام إسماعيل صلوات الله عليه ورضوانه ورحمته وبركاته، في حياة أبيه، أظهر أمره وأعلن وفاته. وحملت جنازة الإمام إسماعيل بن جعفر إلى البقيع.

ونقل الداعي المطلق عن القاضي النعمان واضح أسس ومرتكزات المذهب الإسماعيلي الفاطمي، أنَّ الإمام إسماعيل، لم يفارق الدنيا وينتقل عنها إلى دار الثواب، حتى نصَّ على ولده الإمام محمد بن إسماعيل عليه السلام. وفوض إليه أمره وأقامه مقامه بعلم أبيه الإمام الصادق عليه السلام ^(١).

ويقول داعي الدعاة عماد الدين، أنَّ الإمام إسماعيل ابن جعفر عليه السلام، قد اختص عبد الله بن ميمون القداح، وأقامه حجة له ولابنه محمد بن إسماعيل، دليلاً عليهما وهادياً إليهما بأمر الصادق. ويتابع القرشي قائلاً:

«ولما توفي الإمام الصادق عليه السلام، وقد سبقت وفاة ولده الإمام إسماعيل بن جعفر عليه السلام، تاه كثيرٌ من الشيعة في أولاد الصادق، واختلفت مقالاتهم في المستحق بعده أن يكون الإمام. فقالت طائفة بانتقال الإمامة عن الصادق عليه السلام، إلى ابنه عبد الله بن جعفر الأفتح شقيق إسماعيل، وهؤلاء هم الأفتحية. ولم يعش عبد الله الأفتح بعد أبيه الإمام الصادق عليه السلام غير سبعين يوماً. ولم يدع ولداً ذكراً ولا عقب له.

وطائفة قالت أنَّ الإمام هو محمد بن جعفر عليه السلام، والموسوية قالت بإمامة موسى بن جعفر عليه السلام، وكان أكثر اجتماع شيعة الصادق على موسى الكاظم عليه السلام، وعلى القول بإمامته. وادعى موسى الإمامة لنفسه (القول للداعي المطلق). وقد قيل فيه كما قيل

(١) راجع: عيون الأخبار وفنون الآثار، السبع الرابع، م. س. ص ٣٣٤.

في زيد بن علي بن الحسين عليه السلام، لأن ذلك تقيّة منه على الإمام، وأنه لو ملك الأمر لردّه إلى أهله وأحله في محلّه. وينتهي الداعي المطلق مداخلته بقوله: وبالجملّة من ادّعى الإمامة ممن ليس من أهلها، فقد ظلم نفسه وتعدّى طوره، فهو كابن آدم الذي قتل أخاه، وكابن نوح الذي أبعدّه الله من منفاه، وإن كان ينسب إلى ذرية النبوّة وعقب الإمامة.

ويذكر داعي الدعاة الأئمّة الإثني عشر، حتى يصل لمحمد بن الحسن صاحب العصر والزمان (عج)، فيقول: ويزعمون أنّه حيّ لم يمت، وزعموا أنّه القائم الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملأت جوراً، والحجج عليهم كثيرة طويلة، ولو كان ممكن أحداً من البشر أن يعمر إلى اليوم المعلوم، لكان ذلك محمد عليه السلام، الذي أرسل إلى جميع آدميين، فلما لم يكن ذلك لأحد من البشر، جعل الله بعد النبوّة الوصاية، ثم الإمامة يورثها واحداً بعد واحد، ومن صفوته من خلقه وخيرته من عباده، فهذا هو القول السليم والمقصد الصحيح المستقيم، لا ما ذهب إليه الجهال وتاهوا لأجله في أودية الضلال»^(١).

وقال القرشي في مكان آخر في غيبة المهدي: «أنّ هذا لافكٌ مستبين لأولى الاعتبار، ولو أمكن ذلك للإمام أمكن للنبي عليه السلام، الذي لم يكن الإمام إلّا خلفاً به بعد غيبته، ولو أمكن بقاء النبي عليه السلام لاستغنى عن الإمام مع وجود النبي ودوام مدّته»^(٢).

(١) راجع م. س. نفسه، ص ٣٢٧.

(٢) م. س. ص ٣٢٩.

ويقول في مكان آخر: «وهذا حديث عن الصادق عليه السلام، رواه الخاص والعام، وأورده نشوان ابن سعيد الحميري في كتابه المعروف بشمس العلوم، عن الصادق عليه السلام أن الإمامة لا تمشي إلى الوراء ولا تعود القهقري، فلن ترجع عن إسماعيل بن جعفر بعد أن صارت إليه، ووقع النص عليه، بل جرت في عقبه وثبتت في الإمام محمد بن إسماعيل من بعده، فلما مات الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام بعد ابنه الإمام إسماعيل بن جعفر، صارت الإمامة بنصه وتوقيعه إلى ابن ابنه محمد بن إسماعيل، عرف ذلك من عرفه من المحققين، وجهله من جهله، والشك لا ينقض اليقين، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على رسوله سيدنا محمد وآله الطاهرين»^(١).

ويذكر مؤرخو الشيعة الإمامية، أن أبا الخطاب الأسدي وهو أحد مريدي الإمام جعفر الصادق عليه السلام، والذي خرج عن الإسلام وادعى أن الإمام جعفر الصادق إلهاً، هو الذي غرّر بولده إسماعيل، فطرده الإمام الصادق ومنع ولده من مخالطته^(٢).

يقول عارف تامر وهو أحد أهم مؤرخي الدعوة الإسماعيلية المعاصرين، عن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام: «والده هو الإمام الخامس حسب الترتيب الإسماعيلي للإمامة، جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي، مات سنة ١٢٨هـ، وذلك

(١) م. س. نفسه، ص ٢٥٠.

(٢) راجع: الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي، ط ١، بيروت، دار المعرفة، لا تاريخ، ص ٢٤٧.

(٣) لا يعترف الإسماعيليون بإمامة الحسن ابن علي ويعتبرونه إماماً مستودعاً (احتياطاً).

بموجب محضر رسمي شهد عليه عامل الخليفة العباسي المنصور، ووقفت الإسماعيلية من التدبير موقفاً مؤيداً، فمصادرها تذكر أنّ الإمام إسماعيل لم يمت في حياة والده، وربما استتر في مكان ما. وتؤكد هذه المصادر أنّه توفي في سنة ١٥٨هـ. أما المعلومات عن تحركاته ونشاطاته وثقافته وأعماله فقليلة وغير متوفرة، ولكن يمكن القول: «أنه يكفي أن يكون قد درس في مدرسة الإمام الصادق، لنحكم عليه بأنه كان على جانب كبير من المعرفة والثقافة»^(١).

أما سليم حسن هشي فيقول: «وفي عهد الإمام الصادق عليه السلام، حدث أول انشقاق رئيسي في صفوف الشيعة، وذلك بسبب ما أشيع عن وفاة ولي عهده إسماعيل قبل والده سنة ١٤٥هـ، واختلف أنصاره حول هذا الأمر. فجماعة من الشيعة قالت أنّ الإمام الصادق عليه السلام نصّ على ولده الثاني موسى الكاظم عليه السلام بالإمامة، وهؤلاء يعرفون (بالإثني عشرية)، لأنّ إمامهم الثاني عشر، وهو من صلب موسى الكاظم، اختفى في سامراء، وأنّه ما يزال حياً، وعندما سيعود إلى الظهور ثانية، سيملا الأرض عدلاً، فهو إذن المهدي المنتظر(عج).

بينما رأت جماعة أخرى أنّ الإمامة لا تعود القهقري، ولا تنتقل من أخ إلى آخر، حيث أنّ الإمام جعفر الصادق، كان قد نصّ على إمامة ولده إسماعيل، فلا يجوز النصّ على أخيه موسى

(١) راجع: تاريخ الإسماعيلية، عارف تامر، ج ١ ط ١، دار نجيب الريس، لندن، سنة ١٩٩١، ص ١١٧.

الكاظم عليه السلام، حتى ولو توفي، إذ أن الإمامة يجب أن تنتقل إلى ولده محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام، وهذا هو الذي حدث كما تراه هذه الجماعة التي أصبحت تعرف بالإسماعيلية، لقولهم بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام ^(١).

ونفس القرائن والأدلة والمرويات، ذكرها عارف تامر في كتابه الإمامة في الإسلام، وأصبح ترددها أمراً ممجوجاً وغير مستساغ من القاريء ^(٢).

أما حجة الإمامية فنوجزها بقصيدة للسيد الحميري المتوفي سنة ١٧٣هـ، فالشيعة الإمامية، تقول: أن الأئمة الإثني عشر هم أئمة منصوص عليهم قبل أن يولدوا، وأن كل ما جرى لهم من عذاب وقتل وتشريد، أخبرهم فيه النبي محمد عليه السلام.

والسيد الحميري ذكر هؤلاء الأئمة بأسمائهم قبل أن يولدوا وهو من معاصري الإمام جعفر الصادق وموسى الكاظم عليه السلام.

والشاعر عندما يؤرخ بقصائده، يؤرخ الواقعة كما يحس بها ويؤمن ويشعر، وكما تمليها عليه عواطفه، لا كما يريد أصحاب السلطان، ولا أصدق من قصيدة السيد الحميري التي ذكر فيها أسماء الأئمة الإثني عشر. وكان الحميري معاصراً للإمام السابع، ولم يكن يعرف من هم الخمسة الآتون، لو لم تنص عليهم الأحاديث القدسية التي تناقلها الأئمة، واتراً عن واتر. قال السيد الحميري

(١) راجع: الإمامة في الإسلام، عارف تامر، ط ١، دار الكاتب العربي، بيروت، ص ١٨٠.

(٢) م. س. نفسه، ص ١٨١.

على آل الرسول وأقربيه سلاماً كلما سجع الحمام
أليسوا في السماء هم نجومٌ وهم أعلام عز لا يرامُ
فيامن تحير في ضلال أمير المؤمنين هو الإمام
رسول الله يوم غدير خم أناف به وقد حضر الأنام

ويسمى الإمام الثاني الحسن بن علي عليه السلام:

وثاني أمره الحسن المُرَجَّى له بين المشاعر والمقام

ويشير إلى الإمام الثالث الحسين بن علي بقوله عليه السلام:

وثالثه الحسين فليس يخفى سنا بدر إذا اختلط الظلام

وعن الإمام الرابع زين العابدين عليه السلام:

ورابعهم علي ذو المساعي به للدين والدنيا قوام

وعن الخامس محمد الباقر عليه السلام:

وخامسهم محمدًا رضاه له في المآثرات إذن مقام

والإمام السادس جعفر بن محمد عليه السلام:

وجعفر سادس النجباء بدر ببهجته زها البدر التمام

وعن الإمام السابع موسى الكاظم وهو معاصر له يقول:

وموسى سابع وله مقام تقاصر عن أدانيه الكرام

ويشير إلى الإمام الثامن علي بن موسى الرضا عليه السلام ومدفنه

بطوس، كأن هناك من أنبأه باسمه وبمكان وفاته ودفنه فيقول:

علي ثامن والقبر منه بأرض الطوس إن قحطوا رهام^(١)

(١) رهام: مطر ناعم، يخفف من آلام الجرح، ومن هنا اشتق المرهم.

ويشير إلى الإمام التاسع محمد الجواد فيقول:
وتاسعهم طريد بني البغايا محمد الزكي له حسام
وقد ولد الإمام التاسع سنة ١٩٥هـ، أي بعد وفاة السيد
الحميري بـ ٢٣ سنة، وتوفي الإمام محمد الجواد عليه السلام
سنة ٢٢٣هـ.

ويقول عن الإمام العاشر علي الهادي عليه السلام:
وعاشرهم علي وهو حصن يحن لفقده البلد الحرام
وقد توفي الإمام الهادي بعد ٨٢ سنة من وفاة الشاعر. ويقول
عن الإمام الحادي عشر، الحسن العسكري عليه السلام:
وحادي عشر مصباح المعالي منير الضوء الحسن الهمام
وقد توفي الحسن العسكري عليه السلام سنة ٢٦٠ هجرية أي بعد
وفاة الشاعر بثمانين وثمانين سنة. وينتهي قصيدته بالإشارة إلى
الإمام الثاني عشر، محمد بن الحسن عليه السلام، صاحب العصر والزمان،
منتظراً رجعه فيقول:

وثاني العشر حان له القيام محمد الزكي به اعتصام
أولئك في الجنان بهم مسافي وجيرتي الخوامس والسلام^(١)
وعندما توفي الإمام الحسن العسكري وهو الحادي عشر من
بين الأئمة، كان لولده محمد بن الحسن، من العمر خمس سنوات،
ونحن لن ندخل في متاهات عقلية وفكرية، تقبل بإمامة ولد، له من

(١) الغدير في الكتاب والسنة والادب، عبد الحسين الأميني، مج ٢، ط ١، مؤسسة الاعلمي
للمطبوعات، بيروت، سنة ١٩٩٤، ص ٢٩٥.

العمر خمس سنوات، أو ترفضها، فهي ليست موضوع بحثنا لكننا بعد قراءة هذه القصيدة، نجد أنفسنا في حيرة من أمرنا إذا نظرنا إلى مضمونها نظرة عقلانية، حيث يأبى العقل النبؤات ويرفضها، ويعتبرها من معجزات الأنبياء، أما إذا نظرنا إليها نظرة عقلية، لا إيمانية، لا نستطيع إلا أن نُسلم بها، حيث أن علماء الشيعة الإثني عشرية يسوقون العديد من الروايات عن النبي محمد ﷺ، وعن الإمام الأول عليّ ﷺ، بأسماء والقاب وصفات الأئمة الإثني عشر، من الإمام الأول عليّ بن أبي طالب ﷺ، حتى الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن ﷺ، مهدي هذا الأمة ومنتظرها (عج).

والسيد الحميري الذي عايش الإمام السادس الصادق ﷺ، جعفر بن محمد، وولده الإمام السابع موسى الكاظم ﷺ، وكان لصيقاً بهما محباً لهما حتى التقديس، مؤمناً بإمامتهما إيماناً عميقاً، كان يسمع منهما أسماء الأئمة من ذريتهما.

ونحن لن نغوص في متاهات الفرق الشيعية، ونكتفي بما أوردناه عن الزيدية والإثني عشرية في الصفحات السابقة، كي لا نخرج عن موضوع الكتاب وعنوانه الرئيسي: حضارة مصر في ظل الإسلام الشيعي ومؤسساتها، هذه المؤسسات التي لم تكن تختلف في تنفيذ تكليفها الشرعي عن الفكر الطالبي الشيعي أي اختلاف، لأن هذا الفكر في كل فرقة وشيعة، استند إلى مدرسة الإمام جعفر الصادق ﷺ الفقهية. وكان الشيعة أينما وجدوا، وفي كل عصر ومصر، يطبقون حلال محمد وحرامه، من خلال تفسير جعفر الصادق له.

الإمام الإسماعيلي الثامن: محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق (ع):

كنا قد أشرنا في صفحات سابقة إلى عدم اعتراف الشيعة الإسماعيلية بإمامة الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، ولهذا يعتبرون أنَّ الإمام إسماعيل بن جعفر هو الإمام السادس بينما الإمامية تطلق عليها السبعية نسبة إلى انشقاقهم عنهم في الإمام السابع إسماعيل بن جعفر أو موسى بن جعفر عليه السلام.

لذلك يعتبر الفاطميون أنَّ إسماعيل بن جعفر هو الإمام السادس وولده محمد بن إسماعيل هو الإمام السابع، وبما أنَّ البحث في الصفحات القادمة سوف يتمحور حول أئمة الفاطميين فقط، سنرى لزماً اتباع الترتيم المتبع عند أئمتهم ومؤرخيهم في تسمية الأئمة، في دور الأئمة والخلفاء، وفي دور الخلافة، كي لا نقع في مغالطات مع هؤلاء المؤرخين. وكي لا نترك المتتبع بدل أن نسلط الضوء على هذه الحقبة المظلمة من تاريخ أمتنا وشعبنا في هذا البحر العربي المحيط.

ولد محمد بن إسماعيل في المدينة المنورة سنة ١٣٢هـ، وكان له من العمر ستة عشر سنة ١٦ سنة، عند وفاة والده إسماعيل. وكان عمه موسى الكاظم له من العمر أربع سنوات، وأكد أكثر مؤرخي الإسماعيلية، أنَّه أكبر من عمه موسى الكاظم. وقد عرف عنه أنَّه كان على جانب كبير من الذكاء وبعد النظرة، والنشاط والثقافة الواسعة، وسرعة التنقل والتخفي. وترك محمد بن إسماعيل المدينة بعد وفاة والده، فذهب إلى الكوفة ومنها إلى فرغانة، ثم نيسابور. وعمل على نشر دعوته في الجزيرة العربية، وكافة البلاد الإسلامية. وقد

استطاع التمويه على الخلفاء العباسيين، والإفلات من قبضتهم. وهم المهدي والهادي والرشيد.

كان لقبه المستور، وازداد تستراً بعد أن أعطى الرشيد أمراً بالقبض عليه، ثم أنه رحل إلى الري ومنها إلى نهاوند، وفيها عقد زواجه على ابنة أميرها أبي المنصور بن جوشن. وبعد ذلك توجه إلى تدمر في سوريا، حيث جعلها مركزاً لإقامته ونشر دعوته.

أما الداعي المطلق عماد الدين إدريس القرشي، قال أن الإمام محمد بن إسماعيل، كان له من العمر ست وعشرون سنة، حين قبض والده إسماعيل ابن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، وقد نشأ وترعرع مع أخيه علي في كنف جدّه جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، ولما علم الصادق عليه السلام مما كان أزمع عليه المنصور العباسي في أمر ولده إسماعيل، غيب ابني ولده، محمداً وعلياً، حذراً عليهما من المنصور. ومكثا متغييبين حتى قبض جدهما الإمام الصادق عليه السلام.

ولم يزل محمد بن إسماعيل متخفياً مستتراً بنفسه، ينتقل من بلد إلى بلد، لا يعلم أحد به إلا خواص شيعته، يختلفون إليه ويترددون نحوه لحوائج دينهم، وكتب دعااته ترد إليه، وهو معولهم في جميع أمور دينهم.

ويروي القرشي أن زبيدة زوجة الرشيد، كانت تحب آل البيت وتودهم. وعندما حاول الرشيد أن يأخذ محمد بن إسماعيل رهينة عنده أنفذت له من أخبره، وحذرت من كيد الرشيد، وأعلمته مرامه، فخرج محمد بن إسماعيل إلى الكوفة.

ويروي القرشي أنَّ زبيدة زوجة الرشيد، هي التي اختارت لمحمد بن إسماعيل زوجته فاطمة، ابنة سارة أخت اسحق بن عباس الفارسي، التي أنجبت له ولده عبد الله وارث الإمامة من بعده^(١).

أما عارف تامر، فهو يذكر أنَّ محمداً بن إسماعيل عندما نزل تدمر، اتخذ مهنة طبابة العيون وسيلة للتخفي وأخفى اسمه الحقيقي عن النساء خوفاً من عيون الرشيد وجواسيسه. وادّعى أنَّه من أتباع الإمام محمد بن إسماعيل المستور، علماً أنَّه هو الإمام نفسه، ولكن للمزيد من التخفي، ادّعى هذا الأمر وسمّى نفسه تارة ميمون وتارة القداح، لكن لم يذكر عارف تامر مصادره التي استقى منها هذه المعلومات، ولم يشر إليها.

ويروي محمد باقر المجلسي، ومن باب عرض الخبر وليس من باب التأكيد، «أن فرقة من الشيعة الإمامية قالت أنَّ أبا عبد الله عليه السلام، توفي ونصَّ على ابنه إسماعيل بن جعفر وأنه الإمام من بعده، وهو القائم المنتظر. وقال فريق منهم: أنَّ إسماعيل قد توفي في الحقيقة في زمان أبيه، غير أنَّه قبل وفاته، نصَّ على ابنه محمد وكان الإمام بعده. وهؤلاء هم القرامطة. ونسبهم إلى القرامطة رجل من أهل السواد يقال قرمطويه.

وقال فريق من هؤلاء: أنَّ الذي نصَّ على محمد بن إسماعيل هو الإمام الصادق نفسه عليه السلام، دون إسماعيل، وكان ذلك الواجب عليه، لأنَّه أحق بالأمر بعد أبيه من غيره، لأنَّ الإمامة لا تكون في أخوين

(١) راجع: عيون الأخبار وفنون الآثار، السبع الرابع، م. س. ص ٣٥٢.

من بعد الحسن والحسين عليهما السلام، وهؤلاء الفرق هم الإسماعيلية، وإنما سموا بذلك لإدعائهم إمامة إسماعيل^(١).

وبعد أن تابع الإسماعيليون خطوتهم الإنشقاقية عن الشيعة الإثني عشرية، واستمروا يدعون لإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وولده محمد والأئمة من صلبه. لم يعد باستطاعتنا العودة إلى المراجع الإمامية الإثني عشرية، لأن التفرق، يزيد البعد. واستمرت كل فرقة تدعو لإمامها الذي تعتقد بإمامته. واستمر التباعد في الاعتقاد الإمامي، مع الإبقاء على العقيدة الجعفرية الواحدة الموحدة، التي تنظر إلى كل الأمور الدينية والدنيوية، نظرة واحدة، في الصلاة والصوم والزكاة والخمس والإرث، وكل أساسيات المذهب الإمامي العلوي الجعفري.

ويقول الباحث الإسماعيلي سليم حسن هشي، أن الإمام محمداً بن إسماعيل استقر في فارس لبعض الوقت، وتزوج هناك وانتقل بعدها إلى تدمر، حيث ولد له هناك عدة أولاد وهم: عبد الله، وإسماعيل، وجعفر، وعلي بن الليث، وأحمد والحسين، وقبل وفاته في تدمر سنة ١٩٧هـ، نص على ابنه عبد الله المعروف بالوفاي أحمد ليقوم بالإمامة من بعده^(٢).

(١) بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ط ٢، إحياء التراث العربي، مج ٣٧، سنة ١٩٨٢، ص ١٠.

(٢) راجع في الإسماعيلية، سليم حسن هشي، ط ٢، بيروت لا دار نشر، سنة ١٩٧٥، ص ١٩.

الإمام الإسماعيلي التاسع: عبد الله بن محمد:

يعتبر الوفي أحمد إمام من أئمة الستر، لاشتداد ملاحقة العباسيين لهم، وقد استمرت إمامته من سنة ١٩٧هـ، إلى سنة ٢١٢هـ. استلم الإمامة وهو في تدمر، حيث دفن فيها والده الإمام الراحل محمد بن إسماعيل وقد حدثت بعد ذلك اضطرابات في صفوف الدعاة في عهده، مما جعله يرحل عن تدمر ويسير باتجاه سلمية، ومن ثم إلى معرة النعمان، حيث اعتزل في دير عصفورين. واعتكف على التأمل والتأليف، على أن الدعاة ما لبثوا أن لاموا أنفسهم بعد فقدهم لإمامهم، فانتشروا في الأصقاع يبحثون عنه، إلى أن التقوا به في دير عصفورين، وهناك أقنعوه بالذهاب معهم إلى سلمية بصفة تاجر فارسي. وقد توفي الإمام أحمد في سلمية ودفن فيها سنة ٢١٢هـ، وقبل وفاته كان قد نصّ على إمامة ولده أحمد بن عبد الله المعروف بالنقي أحمد.

أما المؤرخ الإسماعيلي عارف تامر، فيقول عن الإمام عبد الله بن محمد، ولد في بلدة نيسابور سنة ١٧٩هـ، ومن ألقابه: المستور والرضي والناصر والعمار وعبد الله الأكبر، كان كثير التنقل بين نهاوند والأهواز وطبرستان، عرف أنه كان معاصراً للرشيد، وقد أدرك عصر إمامون، سمى جميع دعائه باسمه حتى لا يعرف. عندما خرج من فرغانة إلى الديلم، كان يصحبه أخوه حسين، وفي الديلم، تزوج فتاة علوية وولد له منها «أحمد». انتقل إلى سلمية بعد اختلاف دعائه. وكانت حينها مركزاً تجارياً هاماً وموطناً ثانياً لأسرة العباسيين، وفيها أشاعوا أنه فارسي، غني يعمل بالتجارة وفي

سلمية ألف رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، وتوفي في سلمية سنة ٢١٢هـ، ودفن فيها وضريحه يعرف بالإمام إسماعيل^(١).

ويقول عارف تامر في مكان آخر أنَّ الإمام عبد الله بن محمد، عاش في سلمية بسرية مطلقة، ولكنه لم يتوان عن إرسال دعائه إلى كافة الجهات، وأنَّ في عهده غلب اسم «قرمطي» على كلِّ إسماعيلي، في بلاد الشام. وذلك تحقيراً وانتقاماً. ومع ذلك فإنَّ الناس تهافتوا من كلِّ حذب وصوب على الإنتساب إلى الدعوة الإسماعيلية السرية وخاصة سواد العراق والبحرين وبلاد الخليج^(٢).

أما داعي الدعوة عماد الدين إدريس القرشي، فيقول عن الإمام التاسع عبد الله بن محمد بن إسماعيل: ونصَّ الإمام محمد بن إسماعيل على ولده عبد الله بن محمد، وأشار إليه بالإمامة، وانتقل إلى دار الفوز والكرامة في محل الرضوان ودار المقامة. وقبره سلام الله عليه ورحمته ورضوانه بفرغانة. وقد ذكر أنَّ أئمة الظهور عليهم السلام، حملوا توابيت الأئمة المستورين إلى القاهرة المعزية والله أعلم، فصارت الإمامة في الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل، المقلب بالإمام الرضي^(٣).

(١) راجع: الإمامة في الإسلام، م. س. ص ١٨٢.

(٢) راجع: تاريخ الإسماعيلية، عارف تامر، م. س. ص ١٢٢.

(٣) بينما يطلق عليه الداعي إدريس لقب الإمام الرضي، يطلق عليه عارف تامر، لقب الوفي أحمد، ويطلق عليه نفس اللقب، حسن هشي، ومصطفى غالب، وهم مؤرخون معاصرون، بينما الداعي إدريس هو مؤرخ أقرب إلى المعاصرة للإمام التاسع.

ولما صار الأمر إلى الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل عليه السلام، واشتد طلب بني العباس له في كل ناحية من الأرض، فاستخلف على ولده وغاب، حتى لا يعرفه أحد من حدوده وشيعته، وخرج عليه أحد دعائه المدعو أحمد بن الكيال، فنبذه الإمام ومنع شيعته من الإتصال به، وخاف منه كي لا يدل العباسيين على مكان وجوده، فزاده في الإستتار والإختفاء، وخرج معه اثنان وثلاثون من الدعاة، ونزلوا بلاد الديلم، يدعون الناس إلى طاعة الله سبحانه، وولاية الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل.

وانتشرت دعوة الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل، وقام بها الدعاة، وكثر أهل ولايته في الجهات، ولم يعرف اسمه إلا خواص دعائه والمخلصين في ولايته.

ويشير محمود أمين إلى أن الدعاة سبقوا الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام إلى سلمية واشتروا له دار «أبي فرحة» لقربها من سوق المدينة وبني قصرًا شامخًا وتزوج فيها. وقد كان يظهر هو ودعائه أمام العباسيين بزي التجار حتى إذا انقضت السوق عمدوا إلى دار الإمام قرب السوق فيدخلونها ويحضرون مجالس الإمام بسرية، ينتقلون بعدها إلى الأمصار حاملين معهم تعليمات الإمام إلى أتباعه في شتى أصقاع المعمورة»^(١).

(١) سلمية في خمسين قرنًا، محمود أمين، ط ١، دمشق، دار أسامة، سنة ١٩٨٣، ص ٧٧.

وبعد أن يتحدث الداعي القرشي عن حالة كل أخ من إخوة الإمام عبد الله بن محمد، يقول: ولما سمع الإمام عبد الله، سلام الله عليه، ما جرى على إخوته وولده، خرج من الأهواز، ومعه ولده أحمد بن عبد الله الذي أهله لخلافته إلى سامراء، وأقام بها مدة ثم انتقل منها إلى سلمية وبنى فيها داراً وسكنها وهو في زِيّ التجار، وأخفى اسمه واسم ولده. ولم يعلم الدعاة في أي جهة هو، فاجتمعوا وافترقوا في طلبه. وأقام الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل بقية عمره في سلمية، ونصّ على ولده أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل عليهم السلام، وأشار إليه وكتب إلى دعائه يعرفهم إلى أن ولده أحمد بن عبد الله هو ولي عهده والخليفة القائم بأمره من بعده^(١).

أما الباحث مصطفى غالب فقد ذكر لنا أن الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل قد رتب الدعوة ترتيباً محكماً ونظمها تنظيماً دقيقاً. وفي عهده كانت الأموال والذخائر تنقل إلى السلمية من كل بلد بواسطة الدعاة، وكان قد حفر سرداباً في الصحراء حتى داخل بيت الإمام في السلمية طوله خمسة عشر ميلاً، وكانت الأموال والذخائر تدخل على الجمال فيفتح له باب السرداب في الليل، تنزل فيها بأحمالها عليها، حتى تحط داخل الدار وتخرج في الليل ثم يهال على باب السرداب التراب فلا يدري به أحد^(٢).

(١) راجع: عيون الأخبار وفنون الآثار، السبع الرابع، م. س. ص ٣٥٨.

(٢) تاريخ الدعوة الإسماعيلية، مصطفى غالب، ط ٢، دار الاندلس، بيروت، لا تاريخ، ص ١٤٩.

رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء:

عندما ظهرت رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء بين أيدي الناس في أواخر القرن الرابع الهجري وانتشرت وشاع ذكرها، فلم تكن هي المحاولة الأولى التي عرفها الناس في مجال الشطحات الفلسفية والفكرية، فقد سبقتها أخبار الفلاسفة المتصوفين بعشرات السنين، أمثال معروف بن فيروز الكرخي مولى علي بن موسى الرضا عليه السلام وأبو يزيد البسطامي المتوفي سنة ٢٦١هـ وأبو القاسم الجنيد المتوفي سنة ٢٩٧هـ^(١).

وقد أشار أبو القاسم القشيري كذلك في رسالته التي سُميت بالرسالة القشيرية إلى انتشار الفلسفة وعلم الكلام والتصوف في المجتمع الإسلامي وإلى الإرباكات التي عصفت بهذا المجتمع حيث قال: «اعلموا رحمكم الله أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله ﷺ، إذ لا فضيلة فوقها، فقليل لهم «الصحابة». ولما أدركهم أهل العصر الثاني، سمي من صلب الصحابة «التابعين». ورأوا ذلك أشرف سمة. ثم قيل لمن بعدهم «اتباع التابعين»، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب. فقليل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: «الزهاد والعباد». ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق. فكل طريق ادّعوا أن فيه زهاداً. فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم

(١) راجع: التصوف الإسلامي، البيرنادر، ط١، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، سنة ١٩٦٠، ص ٧٠.

عن طوارق الغفلة باسم التصوف. واشتهر هذا الاسم بهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة»^(١).

فإذا كانت الأجواء ملائمة لتأليف هذه الرسائل.

فمن هو مؤلف الرسائل؟

يقول الباحث الإسماعيلي سليم حسن هشي، أن رسائل إخوان الصفاء تنسب للإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل التي ظهرت في تلك الفترة أي سنة ٢١٢هـ.

ويؤكد هذا الأمر عارف تامر، حيث يقول أن الإمام عبد الله ابن محمد بن إسماعيل عاش في سلمية، في سرية تامة ومطلقة، ولكنه لم يتوان عن إرسال دعوته إلى كافة الجهات، كما أنه أخذ بتأليف كتاب «رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء».

وفي مقدمة كتاب «جامعة الجامعة» وهي الرسالة ٥٢ من رسائل إخوان الصفاء يعود عارف تامر ويؤكد أن مؤلفي الرسائل هم الدعاة عبداً لله بن حمدان، وعبد الله بن سعيد، وعبد الله بن ميمون القداح، وعبد الله بن مبارك، ويشير إلى أنه أخذ الخبر من كتاب فصول وأخبار للمؤرخ الإسماعيلي نور الدين أحمد المتوفي سنة ٨٨٥هـ^(٢).

أما مصطفى غالب فإنه يقول إن طائفة من علماء الإسماعيلية

(١) الرسالة القشيرية، زكريا الأنصاري، ط١، دمشق، لا دار نشر لا تاريخ. الجزء الرابع ص٧٧.

(٢) راجع: جامعة الجامعة، تحقيق عارف تامر، ط٢، بيروت، دار مكتبة الحياة، سنة ١٩٧٠، ص١٤.

اجتمعت وألفت اثنتان وخمسين رسالة فلسفية، عرضوها على الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل، الملقب بالوفي أحمد، فسماها رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، ولخصها برسالة واحدة وسماها «الرسالة الجامعة». وألف رسالة أخرى جمعت علوم جميع الرسائل وسماها «جامعة الجامعة».

أما داعي الدعاة عماد الدين إدريس القرشي فيقول: أن الذي ألف «رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء» هو ولده الإمام التاسع التقي أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل، وليس والده الإمام الثامن عبد الله، ويقول الداعي إدريس أن الإمام التقي أحمد، جمع فيها من العلوم والحكم والمعارف الإلهية والفلسفية والشرعية وأظهر فيها الفضائل النبوية، ودل فيها على فضل نبينا محمد ﷺ، وعالي شرفه، وما خصه الله في المنزلة الرفيعة به، وجعل ذلك مضمناً في رسائله وواضح براهينه ودلائله، وأبان المنهج وفتح كل باب من الحكمة مرتج، وذلك ما يعجز عن الإتيان بمثله كل الخلق، إلا من اصطفاه الله تعالى من رسله وأمدّه بوحيه. أو من كان من شجرة النبوة وأخذ الكتاب بالقوة، وأخذ علمه عن آبائه الطاهرين الآخذين له عن الوصي الذي تعلم من رسول الله ﷺ ألف باب، وانفتح له من كل باب ألف باب. ومن نظر إلى هذه الرسائل الموصوفة نظراً عقلياً، وكان يتصفح ما فيها جلياً، عرف أن تلك الثمرات لا تخرج إلا من شجرة النبوة وأنصار الإمامة، ولا تكون إلا ممن خصه الله من التأييد والكرامة^(١).

(١) راجع: عيون الأخبار وفنون الآثار، السبع الرابع، ص ٣٦٧.

إن من يقرأ مداخلة الداعي المطلق عماد الدين إدريس، عن رسائل «إخوان الصفاء وخلان الوفاء» يظن أنها من إنتاج الفكر العلوي الطالب، وإنها أحد إفرازات علوم أهل البيت الإنسانية، وهو المتوفي في أواخر القرن التاسع الهجري، أي بعد ظهور وتأليف الرسائل بأربعمئة سنة.

ولكن بالعودة إلى كتابات المؤرخين والمحللين المعاصرين وهم موضوعيون في تحاليلهم ودراساتهم. سنجد أن هذه الرسائل لا علاقة لها بالفكر العلوي الطالب، وأنها تستمد أفكارها ومطاراتها ومقارباتها من كل الأفكار والأديان والمذاهب والنزعات.

يقول السيد حسن الأمين في الموسوعة الإسلامية الشيعية: «أن جماعة إخوان الصفاء نشأت في البصرة في القرن الرابع الهجري، وكان لها فروع في بغداد وتناول أعضاؤها الرسائل العلمية التي عرفت باسم «رسائل إخوان الصفاء». وقد اشتهر أعضاؤها بالآراء العلمية الحرة»^(١).

ويشير السيد حسن أن جماعة الإخوان ذكروا، أن مصادر علومهم أخذوها من كتب مختلفة وهي كتب الحكماء من الرياضيات والكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل والقرآن الكريم والكتب الطبيعية وتحوي صور الموجودات من أفلاك وبروج وكواكب، والكائنات من نبات وحيوانات ومعادن. وقد أشار منير مغنية الذي ساهم في هذا

(١) راجع: دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، حسن الأمين، مج ٢، ط ٥، دار التعارف، بيروت سنة ١٩٩٥، ص ٢٣٦.

البحث أنهم قالوا صراحة أن من يعرف الله حق المعرفة لا يحتاج إلى الرسل، وأنهم أخذوا من جميع المذاهب والأديان، وقالوا بصلاحيّة دمجها وأخذ لبابها»^(١).

وهذا الطرح هو بعيد كلّ البعد عن الفكر الشيعي الجعفري الإسماعيلي، وهو أقرب إلى طروحات مذهب الموحّدين الدروز، المنشقّين عن الشيعة الإسماعيلية، هذا المذهب الذي ظهر في نفس الحقبة التي ظهرت فيها رسائل إخوان الصفاء.

أما عبد الكريم خليفة فيقول: «أنّ جماعة من علماء البصرة ألفوا رسائل إخوان الصفاء في أواسط القرن الرابع بعد الهجرة وأن أول من قال بهذا الرأي أبو حيّان التوحيدي في كتابه الإمتاع والمؤانسة»^(٢).

ويحدد عبد الكريم خليفة ظهورها بسنة ٣٧٣هـ

ويقول منير مغنية أنّ إخوان الصفاء يأخذون من كلّ المذاهب ويقولون أنّ الحلّ الصحيح هو الجمع بين كلّ الأديان والمذاهب والفلسفات. ولقد بنوا فلسفتهم على نهج الفيلسوف اليوناني فيثاغوراس وآرائه.

وقد جاء في مقدمة كتاب «رسائل الحكمة» عند الدروز أنّ للعقيدة الدرزية مصادر عديدة غير الإسلام والقرآن، فهي تعتمد على أنبياء اليهودية والتوراة، وتأخذ من المسيحية والأناجيل، وتجل الفلسفة

(١) م. س. ص ٢٤٢.

(٢) إخوان الصفاء وخلان الوفاء، عبد الكريم خليفة، ط ١، حلب المطبعة العصرية، سنة ١٩٤٩، ص ١٧.

اليونانية، فتقدس حكمائها كفيثاغوراس وأفلاطون وأرسطو وأفلوطين وسواهم، ولها قرابة من صوفية الهند وروحانية أديانها، كما لها من فلاسفة المسلمين كالفارابي أكثر من أثر وأبعد من تأثير»^(١). ففي الرسالة ١٦، الموسومة بالرضى والتسليم إلى كافة الموحدين، نجد تقارب الرسائل الدرزية من رسائل إخوان الصفاء، إلا أنَّ الأولى مفصلة ومركبة على قياس الحاكم بأمر الله الفاطمي، ومن أجله ومن أجل إثبات حلول اللاهوت في ناسوته. فقد جاء فيها حيث كان حمزة بن علي يخاطب أحد الموحدين: «فإن كنت تدعي الإيمان، فأقر لي بالإمامة كما أقررت بالأول، حتى تخاطب أصحاب الزبور من زبورهم، وأصحاب التوراة من توراتهم، وأصحاب القرآن من التنزيل، وأصحاب الباطن من نفس التأويل وأصحاب المنطق من الآفاق والأفلاك والدلائل العقلية، ومن أنفسهم حتى يبين لكل واحد منهم عوار ما في يده من دينه، وتصح عبادة مولانا «الحاكم» جل ذكره وتوحيده»^(٢).

وقد قسّمت الرسالة ٣٦ من كتاب الحكمة، العلوم إلى خمسة أقسام: قسمان منها للدين، وقسمان منها للطبيعة، والقسم الخامس وهو أجلها وأعظمها قدراً، وهو القسم الحقيقي الذي هو المراد وإليه الإشارات، ومن أجله قامت الدار وظهر ما بين أهلها مولانا الحاكم^(٣). ويعني كاتب الرسالة أنَّ القسم الخامس من العلوم هو علم معرفة الله أو معرفة مولاه الحاكم بأمر الله.

(١) رسائل الحكمة، مج ١، لا طبعة، لا دار نشر، سنة ١٤٠٠هـ، ص ١٦.

(٢) م. س. ص ١٨٢.

(٣) م. س. رسالة تقسيم العلوم وإيثار الحق وكشف المكنون ص ٢٦٠.

ويقول أنَّ العلم الأول هو العلم الظاهر، أو علم الإسلام التقليدي السنِّي، والعلم الثاني هو العلم الباطن، أو علم الشيعة الإسماعيلية أو علم التأويل، والعلم الثالث هو علم طب الطبيعة ومعرفة حركاتها وسكناتها وتقلُّباتها. والعلم الرابع هو علم طب الحيوان الناطق الذي هو الإنسان.

وكما كانت رسائل إخوان الصفاء تقدِّس الأعداد، كذلك كانت رسائل الحكمة عند الموحِّدين الدروز، تقدِّس الأعداد أيضاً، فقد جاء في الرسالة الواحدة والأربعين نقلاً عن المعز لدين الله: «أنا سابع الأسبوعين والواقف على البيعتين ولا أسبوع بعدي». ويقول كاتب الرسالة أنَّ الأيام سبعة فإذا انتهى العدد إلى آخرها، عاد وتغيَّر ورجع إلى الأول وهذا دليل على أنَّ الأسابيع إذا انتهت حدث غيرها، وكذلك السموات سبع والأرضون سبع والأقاليم سبعة وطول الإنسان بشبره سبعة أشبار، وكذلك النطقاء سبعة والأسس سبعة، وبين كلِّ ناطق وناطق سبعة أئمة^(١).

أما الدكتور حسين مونس فإنه يرى أنَّ رسائل إخوان الصفاء «دائرة معارف من طراز فريد في بابه في تاريخ الثقافة البشرية، ألَّفَتْها جماعة من الأصدقاء، كلُّهم فلاسفة يدينون برأي واحد في تفسير الكون وحقيقته وظواهره والعقائد وأصولها وما إلى هذه من مسائل الفلسفة التي شغلت أذهان الناس في القرون الوسطى. كانوا جماعة سرية، لم يفصحوا عن أسمائهم أو عن حقيقة اتجاههم،

(١) م.س. رسالة الوصايا السبع، ص ٣١٧.

واكتفوا بأن سمّوا أنفسهم «إخوان الصفاء وخلان الوفاء» وقد عاشوا خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. والغالب أنّهم فرغوا من رسائلهم سنة ٣٧٢هـ، وواضح من رسائلهم أنّهم كانوا شيعة إسماعيلية وأن هدفهم من تحرير هذه الرسائل هو الدعوة لمذهبهم هذا، عن طريق العلم والفلسفة^(١).

وبعد هذه المطارحات والمقاربات، نرى أنّ لا الإمام الرضي عبد الله بن محمد بن إسماعيل ولا ولده الإمام التقي أحمد بن عبد الله ألفا الرسائل، لأن الفارق الزمني بين ظهور وانتشار هذه الرسائل وبين وفاتها يبلغ المائة والخمسين سنة، كما أنّ مؤلّفي هذه الرسائل ليسوا من الشيعة الإسماعيلية الذين حكموا العالم الإسلامي في فترة تأليفها. بل هم من الخارجين على الإسلام وعلى الشيعة وعلى التشيع إسماعيلياً فاطمياً كان، أو إمامياً، أو زيدياً، لأن أدبيات الشيعة الإسماعيلية والإمامية، حتى الزيدية، لم تخرج في ظاهرها أو في باطنها عن أدبيات الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام، الذي كتب في كلّ العلوم العقلية والنقلية والظاهرة والباطنة والتأويل والتنزيل. وعند معالجتنا لفترة أئمة الظهور، أو الخلفاء الفاطميين، سوف نستعرض خطبهم وأقوالهم وأشعارهم ورسائلهم وسجّلاتهم ومراسيمهم، وسوف نرى أنّها لم تخرج عن أسس الإسلام الشيعي التي وضعها الإمام الصادق عليه السلام.

وتحديد ظهور هذه الرسائل في أواخر القرن الرابع الهجري يجعلها

(١) راجع: دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، م.س. ص ٢٣٩.

على تماس مع رسائل الحكمة عند الدروز، والبالغة مائة وإحدى عشرة رسالة، فالحاكم بأمر الله الفاطمي، إله الموحدين الدروز «ظهر للبشر مثلهم وتجلي بينهم بصفة إمام، (حسب زعمهم)، وخليفة معاً سنة ٣٨٦هـ^(١)، «أي في نفس الحقبة التي ظهرت فيها الرسائل. فإن لم يكن فلاسفة الموحدين الدروز هم أنفسهم، الذين وضعوا رسائل إخوان الصفاء، فعلى الأقل، تعتبر هذه الرسائل مقدّمة لزعزعة إيمان الناس بأهل البيت وبعلمومهم الإنسانية، تلك الرسائل التي جاءت مفصلة تفصيلاً جيداً على قياس الحاكم بأمر الله الفاطمي.

وقد أشار أبو حيان التوحيدي في إحدى رسائله إلى الوزير صمصام الدولة أنّ مؤلّفي الرسائل كتموا فيها أسماءهم وبثّوها في الوراقين، وهبّوها للناس، وحشّوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية لكي يتقبّلوها^(٢).

وسنرى لاحقاً أنّ الحاكم بأمر الله الفاطمي لا علاقة له بهذه الرسائل لا من قريب ولا من بعيد.

وإن كان الداعي المطلق إدريس القرشي قد أكّد في كتابه أنّ الإمام التقي أحمد بن عبد الله هو الذي ألفها، فلا نستطيع أخذ تأكّيده مصدراً محايداً، لأن الداعي توفي بعد ستمائة وخمس وعشرين سنة من وفاة الإمام التقي أحمد، والبعد الزمني من الحدث ومؤرخه يربك

(١) راجع: أضواء على مذهب التوحيد، توفيق سلمان، ط١، دار الف ليلة وليلة، بيروت، سنة ١٩٥٧، ص ٩.

(٢) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ط١، بيروت مكتبة الحياة، ج ٢، لا تاريخ، ص ٥.

الواقعة والحدث، ويصعب تأكيدها، خاصة إذا كان للمؤرخ هوى وعاطفة في تأريخها، لذلك لا نستطيع الركون إلى ما أورده الداعي القرشي عن هذه الرسائل.

الإمام الإسماعيلي الفاطمي العاشر أحمد بن عبد الله القتي:

يقول عارف تامر في كتابه تاريخ الإسماعيلية: «أنَّ الإمام ولد في سلمية سنة ١٧٩هـ. وتوفي في مصياف سنة ٢٢٥هـ. عن ست وأربعين سنة، أما في كتابه الإمامة في الإسلام، فيقول أنه ولد في سلمية سنة ١٩٨هـ. وتوفي في مصياف سنة ٢٦٥هـ. عن سبع وستين سنة. وقد عاصر ثورة بابك الخرمي وعمل على ضم فلولهم إلى الإسماعيلية، مما حدا بالمؤرخين إلى إلصاق تهمة الخرمية على شيعته وأصحابه ودعاته.

ويقول عنه أيضاً أنه اعتمد التجارة مهنة له، واتخذها ستاراً لإخفاء مهمته وشخصيته، خاصة عند تنقلاته. لقَّبه أتباعه بالوفاي، عاصر المأمون العباسي واشترك في إثارة الناس عليه. وكان يقضي فصل الصيف في مدينة مصياف، وقبل موته أوصى أن يدفن فيها. وفي عهده بلغت الدعوة الإسماعيلية أوج عزّها وازدهارها، وأقبل الناس من كلّ فوج على الإنتساب إليها^(١).

أما المؤرخ مصطفى غالب فيقول أنَّ سلمية في عهده أصبحت مركزاً لنشر دعوته في الأقطار المجاورة، حيث ازدهرت الدعوة

(١) راجع: تاريخ الإسماعيلية، م.س. ج ١، ص ١٢٢.

الإسماعيلية ازدهاراً عظيماً وخاصة في سوريا واليمن والمغرب، وأنَّ الدعوة الإسماعيلية وصلت في عهده إلى درجة عظيمة من الرقي والنجاح والإزدهار، وهذا ما ساعد على تأسيس الخلافة الإسماعيلية في المغرب، التي كانت مقدّمة للخلافة الفاطمية الكبرى في القاهرة، التي بدأ بتأسيسها حفيده «الإمام محمد عبيد الله المهدي» التي استمر على أريكتها ثلاثة من الأئمّة الفاطميين ثم انتقل الرابع وهو الإمام المعزّ إلى القاهرة»^(١).

أما الداعي المطلق، إدريس القرشي فيذكر أنَّ الدعوة قويت أيام الإمام أحمد بن عبد الله، واشتهرت. وأعلن بها الدعاة فظهرت. ولم يعرف صاحبها الذي كانت الدعوة إليه، وإمام أهلها الذين يعولون عليه. والجبابرة العباسية على الأرض متغلبون، وبقطع العترة النبوية مطالبون. وكان الإمام أحمد بن عبد الله ينتقل تحت الستر والتقية، تارة إلى الكوفة والديلم، وتارة إلى السلمية، يظهر بزي التجار، ويخفي فضله، فلا يعرفه إلا الأخيار.

ورزق الإمام أحمد بن عبد الله ولداً سمّاه الحسين، وهو أول أولاده، ولم يزل يرفعه في المراتب العلمية ويرقيه ويختّصه، ويجتبيه ويعلمه من علمه الذي استقاه عن آبائه الطاهرين، عن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام، عن محمد سيد المرسلين صلى الله عليه وآله، عن جبرائيل الروح الأمين، حتى إذا بلغ سعيه، وأكمل هديه، ورآه أهلاً أن يكون الخليفة بعده، وأن يولّيه عهده، سلّم الأمر إليه وأقامه، ونصّ

(١) راجع تاريخ الدعوة الإسماعيلية، مصطفى غالب، م. س. ص ١٥٣.

بالإمامة عليه، وأشعر بذلك جميع دعائه، وخلفاء أوليائه، وانتقل إلى دار القرار، ولحق بأولياء الله من آبائه الأطهار، وكان قبره بسلمية، صلوات الله ورحمته ورضوانه عليه، وعلى آبائه الطاهرين، وعقبه الأكرمين المصطفين، على العالمين^(١).

الإمام الإسماعيلي الفاطمي الحادي عشر، الحسين بن أحمد الملقب برضي الدين:

إنَّ كلَّ المصادر الحديثة والمتقدِّمة تطلق عليه لقب رضي الدين، بينما يطلق عليه الداعي إدريس القرشي لقب الزكي، وهم لا يختلفون على اسمه واسم أبيه وجده. ولد الإمام الحسين بن أحمد في مصيف سنة ١٩٨هـ. وكان يمارس نشاطه ودعوته من سلمية. كان يطلق عليه لقب الأهوازي والتقي. وقد عرف بين الناس بإسم حسين الأهوازي، وكان يدعى بأنه داع لإمام مستور من نسل الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام وليس هو الإمام.

التقى في الكوفة بأبي القاسم بن الفرج بن حوشب الملقب بمنصور اليمن وعلي بن الفضل، وكانا من الشيعة الإثني عشرية، ويدعوان لإمامة محمد بن الحسن صاحب العصر والزمان عليه السلام، فتمكَّن من التأثير عليهما، وإحضرهما إلى سلمية، ثم جهَّزهما وسلَّحهما بالفكر الشيعي الإسماعيلي. وأرسلهما إلى اليمن سنة ٢٦٨هـ. للدعوة له.

(١) راجع: عيون الأخبار وفنون الآثار، السبع الرابع، م. س. ص ٣٩٢.

أما الداعي المطلق إدريس القرشي فيقول: أنه بعد أن أرسل علي بن الفضل وأبا القاسم فرج بن حوشب إلى اليمن، فقد فتح الله على يدهما كثيراً من أقطار اليمن. ولما تمكنت الدعوة، وظهر أمرها باليمن، أرسل الإمام، الحسين بن أحمد بن زكريا المكنى «بأبي عبد الله الشيعي» إلى أبي القاسم داعي اليمن، وطلب منه أن يتمثل أوامر الفرج بن حوشب، وبعدها طلب منه الانتقال إلى المغرب لبث الدعوة هناك^(١).

وفي عهد الإمام حسين بن أحمد، دبّ الوهن في جسم الدولة العباسية، واشتعلت الثورات والإضطرابات من كل جانب، وكان أول من أعلن إستقلاله عنها أحمد بن طولون، الذي أسس الدولة الطولونية بمصر. وقد أشار المؤرخ عارف تامر أن الإمام الحسين بن أحمد، التقى أثناء وجوده بسواد الكوفة، حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط، وبعد أن توصلت أواصر الصداقة بينهما، تمكن من التأثير عليه وإدخاله في دعوته^(٢). بينما نرى في الصفحات القادمة أن القرامطة كانوا أعداء الدولة الفاطمية في مصر وهم أول من تصدى لها ولخلفائها وقادتها.

ويقول مصطفى غالب، أن الإمام الحسين بن أحمد، وجّه أبا عبد الله الشيعي إلى المغرب، لبث الدعوة هناك. فما كان منه إلا أن خرج من اليمن إلى مكة، والتقى بعض رجالات كتامة المغاربة، وارتحل معهم إلى المغرب، حيث حقق إنتصارات باهرة في بث

(١) راجع: م. س. ص ٤٠٢.

(٢) تاريخ الدعوة الإسماعيلية، عارف تامر، م. س. ص ١٢٢.

الدعوة الشيعية الفاطمية، التي أدت إلى إعلان أول خلافة شيعية في التاريخ الإسلامي.

وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاة الإمام الحسين بن أحمد، فقال مصطفى غالب، أنه توفي سنة ٢٨٩هـ. ويقول سليم حسن هشي أنه توفي سنة ٢٦١هـ. أما عارف تامر فإنه يقول أنه توفي سنة ٢٦٥هـ. وقبل وفاته ذكرت كتب التاريخ أنه عهد بالإمامة لولده محمد بن الحسين الملقب بالمهدي.



الباب الثاني:

الإمام الفاطمي الثاني عشر عبيد الله المهدي

إعلان أول خلافة شيعية في المغرب، والانتقال من دور الستر إلى دور الظهور:

بالعودة إلى كتب الإسماعيلية القديمة والحديثة، نجد أن كل الأحاديث التي رواها الشيعة الإمامية الإثنا عشرية عن الإمام محمد بن الحسن، المهدي المنتظر، نقلاً عن النبي محمد ﷺ، وعن أجداده الأئمة المعصومين، ذكرها الشيعة الإسماعيلية بنفس الأسانيد ونفس النصوص، ولكنهم عنوا بها عبيد الله المهدي إمامهم الثاني عشر، ونفوا روايتها عن محمد بن الحسن العسكري (عج).

أما الإمام الفاطمي المهدي، محمد عبيد الله، فقد ذكرته كتب التاريخ العربية والإسلامية، وتحدثت عنه بغزارة، إنه إليه تنسب أول وأعظم خلافة إسلامية شيعية، حكمت العالم العربي مدة قرنين ونيف من الزمن، فإذا أطلقوا عليهم لقب العبيديين فلعبيد الله المهدي نسبوا، وإن أطلقوا عليهم لقب الفاطميين، فلفاطمة الزهراء ﷺ كان انتسابهم.

ذكره ابن خُلُكان في وفياته فقال عنه: «أبو محمد عبيد الله الملقَّب بالمهدي، نسبه تارة إلى الإمام موسى بن جعفر، وهذا خطأ وطوراً إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر، وهذا ممكن.

وقال عنه أنه عبيد الله بن التقي بن الوفي بن الرضي وهؤلاء الأئمة الثلاثة يقال لهم الأئمة المستورون في ذات الله، الرضي المذكور هو ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام، والتقي هو الإمام الحسين، والوفي هو الإمام أحمد، والرضي هو الإمام عبد الله،^(١) وقد أشار إليهم سابقاً. ويقول ابن خُلُكان، أنهم استتروا خوفاً على أنفسهم من دولة بني العباس.

ويؤكد ابن خُلُكان نسبه تارة ويشكك طوراً، فيقول أن اسمه سعيد ولقبه عبيد الله وزوج أمه الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القدّاح، وسمي قدّاحاً لأنه كان كحّالاً يقدح العين إذا نزل فيها الماء. ويضيف ابن خُلُكان أما المهدي لما وصل إلى القيروان، اعتقله صاحبها اليسع وقتله في السجن. وعندما وصل الداعي الفاطمي أبو عبد الله الشيعي لينقذه من سجنه، وجده مقتولاً. ووجد رجلاً مسجوناً معه، فأجبره أن يقول عن نفسه (أي الرجل) أنه المهدي، والناس كانت لا تعرف أئمة الإسماعيلية إلا من خلال دعائها.

وهذا الكلام الذي وصفه ابن خُلُكان، لا يخرط في ذهن، ولا يدخل في عقل، فليس من المعقول أن يكون قيام أكبر دولة إسلامية شيعية، يتم على يد رجل مجهول، وكيف يقبل العقل هذا الحشو،

(١) راجع: وفيات الأعيان، ابن خُلُكان، مج ٣، ط ١، دار الثقافة، بيروت، سنة ١٩٧٠، ص ١١٧.

فعلى الأقل أن الرجل المسجون معروف من سجنانيه ومن أهل البلدة المسجون فيها، وكيف استطاع هذا الرجل أن يرتد إلى أبي عبد الله الشيعي فيما بعد ويقضي عليه.

ويقول ابن خلكان أن المهدي عبيد الله هو أول من قام بأمر الخلافة من أهل بيت النبوة، و«ادّعى الخلافة» بالمغرب. وكان داعيته أبا عبد الله الشيعي. ولما استتب له الأمر قتله وقتل أخاه وبنى المهدي في إفريقيا، وفرغ من بنائها سنة ٣٠٨هـ. وكانت ولادته سنة ٢٦٠هـ. بسلمية، ودّعي له بالخلافة على منابر رقادة بالقيروان يوم الجمعة الواقع في ٩ ربيع الآخر سنة ٢٩٧هـ. وتوفي سنة ٣٢٢هـ. بالمهدية. وقد أنهى ابن خلكان الحديث عنه بكلمة، «رحمه الله تعالى»، وهذا ما لم يفعله غيره من المؤرخين المشاركة على حد قول المقرئ.

أما ابن أبيك الدواداري فهو يقول عن عبيد الله المهدي، «أنه كان يهودياً من أهل سلمية وكان حذاداً واسمه سعيد، فلما دخل المغرب تسمى عبيد الله، وزعم أنه علوي فاطمي وادّعى نسباً ليس بصحيح ثم تسمى بالمهدي. وكان زنديقاً خبيثاً، عدواً للإسلام، يتظاهر بالتشيع، حريصاً على إزالة الملة الإسلامية. ودليل ذلك قتله للفقهاء والعلماء والأئمة والمحدثين والصالحين. قتل منهم عدة كبيرة. وكان قصده إعدام الدين من الوجود لتبقى العالم كالبهائم فيتمكن من إفساد عقولهم واعتقاداتهم»^(١).

(١) راجع: الذرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، ابن أبيك الدواداري، مج ٦، ط ١، منشورات المعهد الألماني، القاهرة، سنة ١٩٦١، ص ٦.

ونشأت ذريته بأجمعها على ذلك، مبطنون به، ويجهرون به إذا أمكنهم. ولم تزل الدعاة لهم مبعوثون في الأرض والبلاد، يضلّون من أمكنهم إضلاله. ومن دعائهم، الذين يعرفون بالقرامطة، الخارجين عن دين الإسلام، ومن دعائهم أيضاً من أضلّ عدة طوائف من سائر الأرض شرقاً وغرباً، ومنهم الدرزية والحشيشية وغيرهم.

هذا الكلام الذي وضعه الدواداري خدمة لمماليك بني أيوب الجاهلين للإسلام، أتباع، شمس الدين أحمد ابن تيمية، لا يستند إلى سند تاريخي، فهو لو عرف أسماء الفقهاء والصلحاء والمحدثين الذين قتلهم عبيد الله المهدي لكان ذكرهم بأسمائهم. ولو يملك نصوصاً أو خطباً له وفيها خروج عن الإسلام الطاهر النقي، إسلام جعفر الصادق وعليّ السجّاد لكان أثبتته. ولكنه ساق هذا الكلام على عواهنه، لقبض المزيد من المال من أصحاب السلطان وأعداء القرآن.

وسوف نوفي موضوع القرامطة والدرزية والحشيشية حقّه في الوقت المناسب، حسب التسلسل التاريخي لكلّ منها.

أما الداعي المطلق إدريس القرشي فيقول أنّ أبا عبد الله الشيعي الداعي الفاطمي، وصل إلى قبيلة كتّامة قبل عبيد الله المهدي، وكان وصوله إليها سنة ٢٨٠هـ، وأخذ يدعو للإمام المهدي، فأقبل عليه الناس من كلّ مكان، وجلس لهم يحدثهم بظاهر علم الأئمة عليهم السلام، وفضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والأئمة من ولده عليه السلام، فإذا رأى الواحد منهم بعد الواحد قد لقّن عنه، أخذ عليه العهد وأدخله صفوف الدعوة الهادية المهدية، ويقول داعي الدعاة: أنّ أبا عبد الله الشيعي استولى على عامة كتّامة، وانتشرت الدعاة فيها

من قبله، ولم يبق فيها إلا من دخل في دعوته راغباً أو راهباً، وذلك بعد أن كانت له وقائع كثيرة وأخبار مشهورة، قمع بها المعتدين، وأدخل الناس طوعاً أو كرهاً في الدين، وأمر بالعدل وأجرى من أتبعه على الحق، وأمرهم بإقامة الشريعة، ونهى عن الظلم. ولم يكن عنده في شيء من ذلك هوادة ولا رخصة، فاستقامت الأحوال ومهد الطريق لوصول الإمام الخليفة عبيد الله المهدي^(١).

أما ابن الأثير فقد قال في تاريخه: «إنه محمد بن عبد الله بن ميمون بن إسماعيل بن جعفر، وأن من ينسبه لهذا النسب، يجعله عبد الله بن ميمون القداح الذي تنسب إليه القداحية»، وقال أيضاً: «فضلاً عن بعض علماء النسب: «إنه عبد الله بن محمد بن إسماعيل الثاني بن أحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وكان ابن الأثير محايداً في عملية الطعن في نسب عبيد الله المهدي، إذ قال أن العلماء قد اختلفوا في صحة نسبه، وذهب كثير من العلويين العالمين بالأنساب إلى موافقتهم أيضاً واستشهد على صحة نسبه بقصيدة الشريف الرضي التي جاء فيها:

ما مقامي على الهوان وعندي مَقُولٌ صارمٌ وأنفٌ حميٌّ
ولنا عودة لهذه القصيدة وما جرى للشريف الرضي بعدها لاحقاً^(٢).

ويروي ابن الأثير عدة روايات دون أن يؤكد الواحدة أو ينفي

(١) راجع: عيون الأخبار، السبع الخامس، م. س. ص ٦١.

(٢) راجع: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، مج ٦، ط ١، دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٧٠، ص ١٢٤.

الأخرى، بل يترك للقارئ حق الحكم، ومن هذه الروايات أنه لما تُوفِّي عبد الله بن ميمون القداح، ادعى أولاده أنهم من نسل عقيل ابن أبي طالب وأن أحدهم وهو الحسين بن محمود بن عبد الله بن ميمون القداح، سار إلى سلمية حيث ترك جدّه القداح ودائع وأموال فيها، فاستلم هذه الودائع وكاتب الوكلاء والدعاة، وادّعى أنه الوصي وصاحب الأمر. وذكر الدعاة في حضرته أن بسلمية امرأة يهودي مات عنها وتركها، ومعها ولد يفوقها جمالاً. وأكثروا في وصفها ووصف الولد. فحسن موقعها في قلبه وأحبّها وأرسل دعائه لها، فخطبها وتزوّجها وتعهّد ولدها بالأدب والعلم. ويقول ابن الأثير: أن البعض يقول أن عبید الله المهدي هو ابن اليهودي الحداد زوج الإمراة، وعندما كبر هذا الولد وترعرع في كنف أهل الدعوة، تزوج من ابنة أبي الشلعل العلوي الإسماعيلي شقيق الحسين المذكور، وجعل لنفسه نسباً، وهو عبد الله ابن الحسين بن علي بن محمد بن موسى بن جعفر الصادق. ويعقب ابن الأثير بقوله: «وبعض الناس يقولون وهم قليل أن عبید الله هذا من ولد القداح، وهذه الأقوال فيها ما فيها. فيا ليت شعري، ما الذي حمل أبا عبد الله الشيعي وغيره ممن قام في إظهار هذه الدعوة، حتى يخرجوا هذا الأمر من أنفسهم ويسلموه إلى ولد يهودي»^(١)، وقد كان ابن الأثير أكثر موضوعية من غيره من المؤرخين المشاركة في طرحه هذا التساؤل على القارئ.

(١) راجع: م.س. نفسه، ص ١٢٤.

وعندما نقرأ ما كتبه الحافظ ابن كثير عن عبيد الله المهدي، نضحك ونهزأ من تناقضه في القصة الواحدة حتى في السطر الواحد، حيث يقول عنه في معرض ذكر من توفي في سنة ٣٢٢ هـ.

وفيهما كان موت المهدي صاحب إفريقية، أول الخلفاء الفاطميين الأدعياء الكذبة، وهو أبو محمد عبيد الله المدعي أنه علوي، وتلقب المهدي، وبنى المهديّة، ومات بها عن ثلاث وستين سنة، وكانت ولايته منذ دخل رقاده وادعى الإمامة، أربعاً وعشرين سنة، وشهراً وعشرين يوماً، وقد كان شهماً شجاعاً ولما مات، قام بأمر الخلافة من بعده ولده القاسم الملقب بالخليفة القائم بأمر الله^(١).

التناقض واضح في بداية التعريف عن المهدي ونهايته، فليس من الممكن أن يكون من الأدعياء الكذبة وفي نفس الوقت شهماً وشجاعاً.

أما ابن العماد الحنبلي فيخلط بين عبيد الله المهدي، وزكرويه القرمطي فقال: «أن زكروية كان يدعي أنه من أولاد علي رضي الله عنه وكان يكاتب أصحابه بالطريقة التالية:

«من عبيد الله بن عبد الله المهدي، المنصور بالله، الناصر لدين الله، القائم من ولد رسول الله، إلى آخره»^(٢). ويقول ابن العماد أن زكرويه هذا، المفترض أن يكون على حسب زعمه قتل سنة ٢٩٠ هـ، ويعود ويقول في نفس الصفحة، أن عبيد الله المهدي دخل في هذه

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، مج ١١، مكتبة المعارف، بيروت، سنة ١٩٩١، ص ١٢٩.

(٢) شذرات الذهب عن أخبار من ذهب، مج ١٤، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لا تاريخ، ص ٢٠٢.

السنة نفسها أي ٢٩٠هـ. المغرب متنكراً واستولى عليها وهو المنتسب إلى الحسين بن علي كذباً وكان باطني الاعتقاد.

أما شيخ المؤرخين، تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، يورد في كتابه (الخطط المقرئية) كل ما أورده المؤرخون العرب والمسلمون من مشاركة ومغاربة في أصل ونسب عبيد الله المهدي. وينهي مداخلته عن هذه الأقوال برأي يتسم بالموضوعية والترفع عن المذهبية. حيث قال: «وهذه أقوال إن أنصفت تبين لك أنها موضوعة، فإن بني علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قد كانوا إذ ذاك في وفر العدد وجلالة القدر عند الشيعة، فما يحمل شيعتهم على الإعراض عنهم والدعاء لابن مجوسي أو لابن يهودي، فهذا مما لا يفعله أحد، ولو بلغ الغاية في الجهل والسخف، وإنما جاء ذلك من قبل ضعف خلفاء بني العباس، عندما غصّوا بمكان الفاطميين، فإنهم كانوا قد اتصلت دولتهم نحواً من مائتين وسبعين سنة وملكوا من بني العباس بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والحرمين واليمن. وخطب لهم ببغداد نحو أربعين خطبة. وعجزت عساكر بني العباس عن مصاولتهم، فلاذت حينئذ بتنفيذ العامة عنهم، بإشاعة الطعن في نسبهم وبث ذلك عنهم خلفائهم، وأعجب به أولياؤهم وأمراء دولتهم الذين كانوا يحاربون عساكر الفاطميين، كي يدفعوا بذلك عن أنفسهم وسلطانهم معرة العجز عن مقاومتهم ودفعهم. عما غلبوا عليهم في ديار مصر والشام والحرمين»^(١).

(١) الخطط المقرئية، م.س. مج ١، ص ٢٤٨.

ويعود المقرئ ويؤكد صحّة نسب عبيد الله المهدي بحجج دامغة وأقوال ساطعة في كتابه: إتحاظ الحنفا بأخبار الإئمة الفاطميين الخلفاء، ولنا عودة إليها في الفصول اللاحقة.

ومن المؤرّخين المعاصرين الذين اتصفوا بالموضوعية المؤرّخ حسن إبراهيم حسن، الذي قال ان «عبيد الله المهدي، ظل في حبس اليسع بن مدرار في سجلماسة حتى وصول الداعي أبي عبد الله الشيعي من القيروان، فهرب اليسع بن مدرار من سجلماسة ليلاً وحمل معه أمتعته وأقاربه، فوصل أبو عبد الله وأطلق سراح عبيد الله المهدي في السابع من رجب سنة ٢٩٦هـ»^(١).

بينما يذهب عارف تامر لأنّ يقول أنّ عبيد الله المهدي ليس الإمام الثاني عشر الأساسي بل هو إمام مستودع (احتياط) ويعزي السبب لوفاة الإمام الحقيقي وهو علي بن الحسين عليه السلام الذي ولد سنة ٢٥٢هـ وتوفي سنة ٢٨٣هـ، وترك ولداً صغيراً وهو الخليفة الثاني القائم بأمر الله، يقول عارف تامر، ان عبيد الله المهدي هو ابن عم الإمام الحادي عشر علي بن الحسن ولقبه «المعلّ». وأنه حمل الأمانة حتى كبر القائم فأعادها إليه»^(٢).

ويؤكد هذا اللقب للإمام المعلّ أيضاً وخبر عمه عبد الله المهدي سليم أبو اسماعيل المؤرّخ الدرزي المعروف، غير أنّه يعتبره الإمام الرابع من أئمة السّتر الدرزي وليس الإمام الخامس ويعتبر عبيد الله

(١) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن، ط١٢، بيروت، دار الجيل، الجزء ٣، سنة ١٩٩١، ص ١٥٢.

(٢) راجع: عبيد الله المهدي، عارف تامر، ط١، بيروت، دار المسيرة، سنة ١٩٩٠، ص ٣٤.

المهدي الإمام الخامس ولا يعتبره الخليفة الأول، بل يعتبر «المعلّ» الخليفة الأول (القائم)^(١).

داعي الدعاة أبو عبد الله الشيعي مهندس الدولة الفاطمية في المغرب:

هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمود بن زكريا المعروف بالشيعي، القائم بدعوة عبيد الله المهدي، وقد أكترت كتب التاريخ ذكر قصّته ونجاحه في السيطرة على بلاد المغرب قاطبة، ويقول ابن خلكان أنّه دخل إفريقيا وحيداً بلا مال أو رجال، ولم يزل يسعى إلى أن تملكها وطرد أميرها مضر بن زيادة الله، آخر ملوك بني الأغلب إلى المشرق، ولما مهّد البلاد والعباد، لإمامه المهدي عبيد الله بن الحسين، وأقبل المهدي إلى المغرب، لكنه عجز عن الوصول إلى منطقة حكم داعيه إبي عبد الله، فتوجّه إلى سجلماسة، فاعتقله حاكمها اليسع بن مدرار، وسجنه. فعلم الداعي أبو عبد الله بوقوع إمامه المهدي في الأسر، فأسرع إليه وأخرجه من الأسر والإعتقال وفوّض أمر البلاد إليه. وأعلن خلافته من رقّادة، مما أوقعه في لوم أخيه الكبير الداعي أحمد «أبو العباس»، وقال له: «تكون أنت صاحب البلاد والمستقلّ بأمورها، وتسلمها إلى غيرك، وتبقى من جملة الاتباع، وكرّر عليه القول، فندم أبو عبد الله على ما صنع، وأضمر الغدر، واستشعر منهما المهدي ما أضمره، فدنّس عليهما من قتلها في ساعة واحدة»^(٢).

(١) راجع: الدروز، سليم أبو اسماعيل، ط١، بيروت، مطابع فضول، سنة ١٩٦٠، ص ١٤١.

(٢) راجع: ابن خلكان، مج ٢، م. س. ص ١٩٢.

أما ابن الأثير فقد أوضح أسباب قتل «أبو عبد الله الشيعي»، فقال: «وسبب ذلك أن المهدي لما استقامت له البلاد، ودانت له العباد وباشر الأمور بنفسه، كف يد أبي عبد الله الداعي، وأخيه أبي العباس، فدخل أبا العباس الحسد وعظم عليه التوقف عن الأمر والنهي، والأخذ والعطاء، فأقبل يحط من قدر المهدي في مجلس أخيه أبي عبد الله، وأخوه ينهاه ولا يرضى فعله، فلا يزيده ذلك إلا لجاجا، ثم أنه أظهر أبا عبد الله على ما في نفسه من حقد على المهدي وقال له: ملكت أمراً فجئت بمن أزالك عنه، وكان الواجب عليه أن لا يسقط حقدك. ولم يزل يحرضه على المهدي، حتى أثر في قلب أخيه. وقال أبو عبد الله يوماً للمهدي: لو كنت تجلس في قصرك وتتركني مع كتامة أمرهم وأنهاهم، لاني عارف بعباداتهم، لكان أهيب لك في أعين الناس. وكان المهدي قد وصلت له أخبار تحريض أخيه عليه، فتحقق ذلك له، ولكنه ردّ رداً لطيفاً. وأخذ أبو العباس يحرض المقدمين على خليفته، حتى وصل الأمر للتشكيك بنسبه. ومما قال في مجالسه السرية: أن هذا ليس الذي كنا نعتقد طاعته، وندعو إليه، لأن المهدي يختم بالحجة ويأتي بالآيات الباهرة، وكل ذلك كان يصل للمهدي، فأخذ قوله بقلوب كثير من الناس، حتى أتى أحد مشايخ كتامة يسأل المهدي قائلاً: إن كنت المهدي فإظهر لنا آية فقد شككنا فيك، فقتله المهدي. ويروي ابن الأثير الأمور التي أوصلت إلى مقتل أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس. ويذكر أن المهدي قد دفنه وصلى عليه وقال: رحمك الله يا أبا عبد الله، وجزاك خيراً بجميع سعيك»^(١).

(١) راجع: الكامل في التاريخ، مج ٦، م ٥، ص ١٢٤.

أما داعي الدعاة عماد الدين إدريس القرشي، فيقول أنه لما خرج أبو عبد الله إلى سجلماسة، انصرف الأمر بأجمعه إلى أخيه أبي العباس، وحين قدم المهدي عليه السلام، مالت إليه العيون، وانقلبت إلى تحقيق فضله الظنون، وظهر فضله على أبي عبد الله وأبي العباس، فتدخل أبا العباس الحسد، ولزمه ما لزم من ضلّ وعند، فاستنزله الشيطان، وأخرجه من الإيمان، فنكث عهده وخان ربّه، وفارق حزب الله، واختار الشيطان وحزبه، وأخذ يطعن على ولي الله، ويزري عليه، ويروي بقية القصة التي رواها أغلب المؤرخين المسلمين، والتي انتهت بقتله وقتل أخيه أبي العباس^(١).

ويؤكد المقرئ نفس الأسباب التي أدت إلى مقتله فيقول: «كان سبب قتله أن المهدي لما استقامت له البلاد، باشر الأمور بنفسه وكف يد أبي عبد الله الشيعي، ويد أخيه أبي العباس، فدخل أبا العباس الحسد وعظم عليه الفطام، عن الأمر والنهي، والأخذ والعطاء، فأقبل يزري على المهدي في مجلس أخيه ويتكلم فيه، وأخوه ينهاه، ولا يزيده ذلك إلا لجأجأ، فأدى ذلك إلى قتلها»^(٢).

وليست هي المرة الأولى، التي يؤدي حب السلطة، إلى تخاصم الحزب الواحد والحلف الواحد، فحب السلطة والسيطرة والجاه والسلطان، يخلق العداوة بين الأخ وأخيه، والإبن وأبيه، فالمنصور الدوانيقي قضى على أبي مسلم الخراساني، والرشيد قضى على

(١) راجع: عيون الأخبار، السبع الخامس، م. س. ص ١١٧.

(٢) اتعاظ الحنفا، بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، م. س. مج ١، ص ٦٧.

البرامكة، والمأمون قضى على الأمين، فلا عجب إذا عبید الله المهديّ
قضى على أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس.

الخليفة الثاني محمد بن عبید الله المهديّ القائم بأمر الله الفاطمي:

هو أبو القاسم محمد بن عبید الله المهديّ، ولد في سلمية سنة
٢٧٧ للهجرة وكان اسمه فيها عبد الرحمن، فلما صار بالمغرب
سُمِّيَ محمّداً. بويع له بالخلافة سنة ٣٢٢هـ، وكان له من العمر
خمس وأربعون سنة، حكم ١٢ سنة وتوفي بالمهدية سنة ٣٣٤هـ.

وقد حدثت عدة أمور خطيرة في عهد الخليفة الثاني القائم، أهمها
خروج أبي يزيد الخارجي على الدولة الفاطمية، وتهديده إياها
بالإقتلاع والإجتثاث، وغزوه الشاطيء الإيطالي، واحتلاله مدينة
جنوة، وتركها بعد نهبها، والأمر الأهم، نزوله الإسكندرية ومحاولة
الدخول إلى مصر.

محنة أبي يزيد الخارجي: (صاحب الحمار):

ينتمي مخلص بن كيداد أبو يزيد إلى قبيلة زناته المغربية، كان
يؤمن بتكفير أهل الإسلام كلّهم ويبيع لأصحابه الدماء والأموال
والخروج على السلطان، فتبعه جماعة يعظّمونه. وكان أول ابتداء
أمره سنة ٣١٦هـ، أيام المهديّ فكثرت أتباعه وتزايدت شوكته،
ووقف للخليفة القائم في كلّ البلدات والمدن الإفريقية. وهزم
جيوشه وفتح مدنه وحاصره من كلّ ناحية. وعندما دخل مدينة
مرمجة، أهداه أحد الأهالي حماراً أشهب مليح الصورة، فركبه. منذ

ذلك اليوم وصار يعرف بصاحب الحمار. وكان قصيراً أعرج قبيح الصورة.

وبدأ الخليفة الفاطمي القائم بجيش الجيوش ويجهزها بالعتاد والعديد، ويرسلها جيشاً تلو الآخر لقتاله، فأرسل له جيشاً بقيادة القائد بشرى، فهزم هذا الجيش وملك مدينة باجة وحرقها ونهبها، وقتل الأطفال، وأخذ النساء وكتب إلى القبائل المغربية يدعوها لمبايعته فأتوه خوفاً من شره. فعمل الرايات والبنود وآلات الحرب وبدأ أمره يستعظم وبدأ خطره يهدد الوجود الفاطمي الشيعي بأكمله.

وجمع أبو يزيد الخارجي، صاحب الحمار، جيشاً من مئة ألف مقاتل وسار نحو رقادة والقيروان، عقر دار القائم الفاطمي، فاحتلها وقتل من أهل القيروان خلقاً كثيراً ودخلها عسكرياً ونهبوها وقتلوا من بقي من أهلها وقتلوا عامل القائم الفاطمي فيها.

ويروي ابن الأثير: «أن علماء القيروان خرجوا إلى أبي يزيد، فسلموا عليه وطلبوا منه الأمان، فمأطلمهم، وأصحابه يقتلون وينهبون ويعبثون فساداً في المدينة، فعادوا الشكوى وقالوا: خربت المدينة فقال لهم: وما يكون؟ خربت مكة وبيت المقدس، ثم أمر بالأمان^(١). ولكن جنوده استمرّوا بالنهب والسبي، ووصل الخبر إلى القائم الفاطمي المحاصر بالمهدية، فبدأ يجمع الجموع وبتحصين أسوارها. ويقول ابن الأثير أن أبا يزيد الخارجي صاحب الحمار، أقام في القيروان شهرين وثمانية أيام، وهو يبعث السرايا إلى كل ناحية،

(١) راجع: الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ٣٠٤.

فيقيمون ويعودون، وفتح مدينة سوسة وهو في طريقه إلى المهديّة، فقتل الرجال وسبى النساء وأحرق المدينة، وشقّت عساكره فروج النساء وبقرّوا البطون، وحتى لم يترك في أفريقيا موضعاً معموراً، ولا سقفاً مرفوعاً، فهرب جميع من بقي في القيروان حفاة عراة. ومن تخلّص من السبي مات جوعاً وعطشاً، ووصلت الأخبار إلى الخليفة القائم، فكاتب زيري بن مناد، سيّد صنهاجة وإلى سادات كتّامة وقبائل لواته، ودعاهم لبحث هذا الخطر العظيم في المهديّة فتأهبوا للمسير إلى القائم^(١).

يقول ابن الأثير أنّ أبا يزيد حاصر المهديّة وشن عليها الهجوم تلو الآخر، وكثّر خروج الناس من الجوع والغلاء، ففتح الخليفة القائم الأهرات التي عملها والده المهديّ لمثل هذه الأيام، وفرّق ما فيها على رجاله، وعظم البلاء على الرعية حتى أكلوا الدواب والميتة. وخرج من المهديّة من جراء هذه الحروب أكثر السوقة والتجار، ولم يبق بها سوى الجند، فكان جنود أبي يزيد الخارجي يتلقّون الخارجين من المهديّة ويقتلونهم ويشقّون بطونهم. وبعد حصار للمهديّة استمر أكثر من سنة، اختلف أصحاب أبي يزيد فيما بينهم، فغادر بعضهم والتحق بالخليفة القائم، مما أضعف جيشه وتم أسر بعض عساكره، فترك المهديّة وهرب إلى القيروان.

ويقول المقرئزي: أنّ أبا يزيد بعد أنّ ترك المهديّة وهرب إلى القيروان، بعث عسكره إلى تونس، فدخلوها بالسيف ونهبوا جميع ما

(١) راجع: م.س. نفسه، ص ٣٠٤.

فيها، وسبوا النساء والأطفال، وقتلوا الرجال، وهدموا المساجد، والتجأ كثير من الناس إلى البحر فغرقوا، فسير الخليفة القائم عسكرياً للقتال وللدفاع عن تونس، فهزم عسكر أبي يزيد وقُتل منهم خلق كثير^(١).

وقد تبسط ابن الأثير كثيراً في وصف الحروب التي استمرت أكثر من سنتين وجلبت الدمار والخراب والقتل والنهب على الفاطميين، ولم تنته هذه المحنة، إلا بعد أن أعد الخليفة القائم للأمر عدته، ولبس عدة الحرب وتهيئ للطعن والضرب بنفسه، حيث قاد الجيوش. وتوالت الوقعات، فحصلت وقعة في القيروان لأبي يزيد مخلد بن كيداد، سبى ونهب وشتت جيوش القائم، وعاد القائم وجمع جموعه في تونس، فانكسرت العساكر الشيعية أمام عسكر الخارجي وتكررت الحرب بينهم، لأن المؤمن بقضيته يختلف عن الجندي الذي أتى للسلب والنهب، فعاد الخليفة القائم وشن عليهم هجوماً فهزمهم وقتلوا قتلاً ذريعاً وأخذت أثقالهم، وانهزم قائدهم أيوب بن أبي يزيد الخارجي إلى القيروان، فعظم ذلك على والده وجمع الجموع وبعثها لولده. وتوالت بينهم وبين العساكر الشيعية الحروب فكانت كراً وفرّاً، مرة للخوارج ومرة للفاطميين الشيعة. وسار القائم بجيوشه إلى سوسة، فلحقه أبو يزيد الخارجي وحاصرها حصاراً شديداً وعمل عليها الدبابات والمنجنيقات، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً، والقائم يراقب الأمور من المهدية^(٢).

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، م.س. ص ٨٠.

(٢) راجع: اتعاظ الحنفا، مج ١، م.س. ص ٨٢.

وفاة الخليفة القائم قبل القضاء على أبي يزيد الخارجي:

تولى الخليفة الثاني أبو القاسم، محمد بن المهدي، القائم بأمر الله في ١٣ شوال سنة ٣٣٤هـ، شؤون الخلافة. وكان نقش خاتمه بنصر الدائم - ينتصر الإمام أبو القاسم.

وكان القائم قد حاول الوصول إلى مصر هدف الفاطميين الأول، وقد ذكر الداعي القرشي أول خطبة لخليفة فاطمي في الإسكندرية وهي للخليفة القائم، كان قد خطبها على منبر جامع الإسكندرية وهي لا تخرج في مضمونها وتوجهها عن الفكر الشيعي الجعفري. ومما جاء في هذه الخطبة:

بسم الله الرحمن الرحيم، الله أكبر، الله أكبر، ولا إله إلا الله والله أكبر، لا حكم إلا الله، ولا طاعة لمن عصى الله، ألا لعنة الله على الظالمين، الذين يصدّون عن سبيل الله، ويبغونها عوجاً، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، الحمد لله الخلاق العليم المدبر الحكيم، الذي له مقاليد السماوات والأرض، وهو على كلّ شيء قدير، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم، ولا خمسة إلا وهو سادسهم. أينما كانوا، أحاطت بهم قدرته وعلمه، إلا بما شاء. وهو الأول قبل كلّ أوان وزمان ومكان، وغاية ونهاية. وهو اللطيف الخبير الذي خلق السماوات بغير عمد ترونها، ففلق مصابيحها وأضاء شمسها، وأنار قمرها، والأرض بعد ذلك دحاًها وفجّر ينابيعها وأخرج منها ماءها ومرعاها. فسبحان الذي لا يدّل عليه إلا بآياته، وما فطر من أرضه وسمواته، وتكامل رسله إلى الأمم كافة من عباد...

هلموا عباد الله إلى الله تعالى في كتابه. قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. فجعل الطاعة فريضة ووصل بها طاعة ولادة أمره، فهم القائمون لله بحق. والداعون إليه من رغب إلى طاعته. واستخصهم بالإمامة التي هي أعظم الدرجات بعد النبوة، وفرض على العباد حقوقها وأمرهم بأدائها وجعلها موصولة بطاعته. وضاعف لهم الثواب بقدر ما والوا من أمروا بولايته. وليس على الإمام أن ينقص الرعية حقها، ولا للرعية أن تنتقص حق إمامها. فمن حق الرعية على إمامها إقامة كتاب الله جل ثناؤه، وسنة نبيه ﷺ، والأخذ لمظلومها من ظالمها، ولضعيفها من قويها. ولوضيعها من شريفها، والتفقد لمعاشها». وأنهى خطبته بقوله: «اللهم صلي على المهديّ بإذنك عبد الله بن محمد أمير المؤمنين (والده) كما صليت وباركت على الخلفاء الراشدين والمهديين، اللذين قاموا بالحق وبه يعدلون، اللهم كما جعلته للدين غياثاً (يعني نفسه أي القائم) وللعباد ملجأً وملاذاً، فأقر به أعين المؤمنين وانصره على أعدائك العصاة الفاسقين، الكفرة المارقين الظالمين، إله الحق رب العالمين، اللهم انصر جيوشنا وسرايانا في مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها، وسهلها وجبلها.

اللهم العن أعداءك وأهل معصيتك من الأولين والآخرين، وقوم نوح الظالمين، إنهم كانوا قوماً فاسقين، وعاداً وثموداً والناكثين العارفين والمخالفين والمبتدعين والمرجثين، والقاعدين عن الجهاد مع أمير المؤمنين: اللهم انصر الحق وطلابه، وأذل

الباطل وأحزابه، إنك أنت العزيز الحكيم»^(١).

والمطلع على هذه الخطبة يجد أنها مأخوذة من عهد جده علي بن أبي طالب عليه السلام، لواليه علي مصر مالك بن الأشتر النخعي.

فبالعودة لعهد ابن الأشتر ومقارنته مع هذه الخطبة، نجد أنها تنهل من منهل، وتعلّ من أدبياته، فكيف لنا بتأويل ما استعصى من كلماتها وليس بها أي لفظ عاص أو مغلق، فهي ظاهرة المعنى، واضحة المبنى، لا لبس فيها ولا عجمة، ولا تحتمل التأويل ولا التعليل. فهي من موروثات الإمام علي الفكرية، وجامعة الإمام جعفر الصادق الفقهية. وقال فيه أيوب ابن إبراهيم مادحاً^(٢):

يا ابن الإمام المرتضى وابن الو

ضي المصطفى وابن النبي المرسل

الله أعطاك الخلافة وأهلباً ورآك للإسلام أمانع معقل

نلت الخلافة وهي أعظم رتبة نيلت وليست من عُلاك بأفضل

فمنعت حوزتها وحطت حريمها بالمشرفية والوشيج الذبل

وبينما ذكر الداعي القرشي نزول القائم بأمر الله الإسكندرية

وإلقاءه خطبة في جامعها، نجد ابن خلدون يذكر نزول قائد جيوشه

زيدان في الإسكندرية دون الإشارة لنزول القائم^(٣).

(١) عيون الأخبار، السبع الخامس، م.س. ص ١٢١.

(٢) اتعاظ الحنفاء، مج ١، م.س. ص ٨٦.

(٣) اتعاظ الحنفاء، م.س. ص ٨٨.

الخليفة الثالث أبو الطاهر أسماعيل الذي تلقب بالمنصور:

ولد بالمهدية سنة ٣٠٣ للهجرة وبويع له بالخلافة والإمامة سنة ٣٣٤ للهجرة، قال عنه المقرئزي أنه «كان فصيحاً بليغاً خطيباً حاد الذهن، حاضر الجواب، بعيد الغور، جيد الحدس، يخترع الخطبة لوقته»^(١).

وقال عنه ابن كثير: «كان عاقلاً شجاعاً فاتكاً، قهر أبا يزيد الخارجي الذي كان لا يطاق شجاعة وإقداماً وصبراً. وكان فصيحاً بليغاً يرتجل الخطبة على المنبر في الساعة الراهنة»^(٢).

وقال المقرئزي أنه قام بالأمر بعد أبيه وكنم موته خوفاً من أن يعلم أبو يزيد، لأنه كان على مقربة من سوسة، فأبقى الأمور على حالها ولم يتسم بالخليفة ولا غير النسكة ولا الخطبة ولا البنود، وبقي كذلك حتى فرغ من أمر أبي يزيد، فلما فرغ منه، أظهر موت أبيه وتسمى بالخلافة وعمل آلات الحرب.

نهاية الخارجي أبي يزيد وانتعاش الدولة الفاطمية بنهايته:

عندما مات القائم، وكنم المنصور موته، عمل المراكب وشحنها بالرجال وسيرها إلى سوسة لمحاصرة الخوارج، وسار بنفسه على رأس الجيش، وواقع أبا يزيد وهزمه هو وأصحابه، وأحرقوا خيامه، فهرب مع جماعته جوعاً وعطشاً. وحاول أبو يزيد دخول القيروان،

(١) تاريخ ابن خلدون، مج الرابع، ط ١، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، سنة ١٩٧١، ص ٤٠.

(٢) البداية والنهاية، مج ١١، م. س. ص ٢٢٦.

فمنعه أهلها وطردوا عامله منها. فهرب إلى مدينة سببية، وهي على بعد يومين من القيروان.

ودخل المنصور الفاطمي سوسة ونادى بالأمان، ثم تابع سيره إلى القيروان وأمن أهلها على أنفسهم وأموالهم. ووجد بالقيروان حرماً وأولاداً لأبي يزيد، فحملهم إلى المهديّة وعمل بأخلاقه وأخلاق جدّه الحسين عليه السلام، فأجرى عليهم الأرزاق، ولم يعاملهم معاملة الأسرى.

وكان أبو يزيد الخارجي قد عاد وجمع فلوله، وحاصر القيروان، فتلّقه الخليفة المنصور، وواقعه، وبأشر بنفسه القتال، وجعل يحمل على الخوارج يميناً وشمالاً، ومعه نحو خمسمائة فارس، وأبو يزيد في قدر ثلاثين ألف خارجي، فانهزم أصحاب المنصور هزيمة عظيمة حتى دخلوا خندق القيروان وبقي الخليفة في نحو من عشرين فارساً، فقصده أبو يزيد يريد قتله، فلما رآه الخليفة، شهر سيفه وثبت مكانه، وحمل بنفسه على أبي يزيد حتى كاد يقتله، فولّى أبو يزيد هارباً، وقتل المنصور منهم من أدركه، وتلاحقت به العساكر، فقتل من أصحاب أبي يزيد خلقاً كثيراً، وعلّق المقرئ على هذه المعركة بقوله: «وكان يوماً من الأيام المشهودة التي لم يكن فيما مضى من الأيام مثله، وعاین الناس من شجاعة المنصور ما لم يظنّوه، فزادت مهابته في قلوبهم»^(١).

وحاول صاحب الحمار رأس الفتنة أبو يزيد، أن يعود لمحاصرة القيروان أكثر من مرّة، فلم يخرج إليه أحد. وقام المنصور وأعلن

(١) اتعاظ الحنفا، مج ١، م.س. ص ٨٢.

جائزة لمن يأتي برأس هذا الصلّ وأعلن: «من أتى برأس أبي يزيد - فله عشرة آلاف دينار». وأذن للناس في قتاله، وكانت كراً وفرّاً، وكثرت القتلى بين الفريقين. ثم أن أبا يزيد بعث إلى المنصور يسأل حرمه وعياله الذين خلفهم بالقيروان، فسير المنصور إليه عياله مكرّمين، بعد أن وصلهم وكساهم، فلما وصلوا إليه بعث له: «إنما وجهتهم خوفاً مني» وأما الخليفة المنصور لم يوجههم خوفاً منه بل عمل بأصله، وأصل آبائه وأجداده، الذين جبلوا على حبّ الإنسان وعدم أخذ البريء بالمذنب، والمطيع بالعاصي.

وهلّ شهر المحرم سنة ٣٣٥ للهجرة فزحف الخارجي ابن كيداد على القيروان، ودار القتال بين جيوش الشيعة، وعسكر الخوارج، وكلّهم من البربر الذين لا يعرفون من الإسلام غير السلب والنهب والقتل وفضح الحرائر، وكان بينهما قتال ما سمع بمثله، وحملت البربر على المنصور، وحمل عليه وجعل يضرب فيهم، فانهزموا من أمامه بعد أن قتل منهم خلقاً كثيراً.

ولما انتصف شهر المحرم، أعلن الخليفة المنصور التعبئة العامة في صفوف عسكره، فجعل على ميمنته العساكر الإفريقية وعلى ميسرته أبطال كتّامة، وركب هو في القلب بعبيده وخاصته وقادة جيوشه، ونازل الخوارج، فوقع بين الفريقين قتال شديد وحمل أبو يزيد على ميمنة المنصور، وبها الأفارقة، فهزّمهم، فهاجم عليه المنصور وقال له: «هذا يوم الفتح! إن شاء الله تعالى»^(١). وحمل فيمن

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، مج ١، م.س. ص ٨٤.

معه حملة رجل واحد، فانهزم الخارجي أبو يزيد وانهزم وراءه أصحابه، وقد قتل منهم ما لا يعد ولا يحصى لكثرتهم، وتركوا أثقالهم ومنهوباتهم، وفرّ صاحبهم أبو يزيد على وجهه، وقال المقرئ: إنّ الرؤوس التي حملها أطفال القيروان بعد أن فصلوها من جثث خوارج البربر ونقلوها إلى ساحة البلد، بلغت عشرة آلاف رأس.

وأخذ أبو يزيد يفر من بلد إلى بلد، ومن موقع إلى موقع والخليفة المنصور يتتبعه بنفسه حتى آل على نفسه أن لا يخلع عدة الحرب إلا بعد القضاء على هذا الخارجي الناصبي الذي ناصبه العداء وناصب جدّه علي بن أبي طالب عليه السلام، واستمر هذا الخارجي ينتقل متخفياً، حتى وصل إلى جبل البربر، وأهله كلّهم خوارج، فعاد وجمع الجموع وواقع العسكر الشيعي بقيادة المنصور فهزم الميمنة فحمل عليه المنصور بنفسه، فانهزم، فتتبعه الخليفة إلى جبال وعرة وأودية عميقة خشنة المسلك، صعبة المرتقى، فحاول المنصور اللحاق به، ولكن أصحابه منعه من متابعة السير وراءه، وقالوا له أنّه لم يسلكها جيش قط قبله.

فوقف المنصور عن اللحاق به وكلف الأمير زيري بن مناد الصنهاجي بمتابعة أخبار هذا الخارجي، فأتاه زيري بعساكر صنهاجة، وأتاه بأخبار هذا الخارجي ومكان اختبائه.

ومرض المنصور لفترة، وبعد أن شفي رحل إلى مدينة مسيلة، فإذا أبو يزيد قد سبقه إليها، بعد أن سمع بمرض الخليفة فتصدّى له المنصور، فهرب منه محاولاً الوصول إلى بلاد السودان. وجرت معركة بينه وبين زيري بن مناد، حيث طعنه زيري وألقاه عن فرسه، لكن أصحابه خلّصوه من هذه الواقعة وهربوا به إلى قلعة كتّامة، وهي قلعة منيعة فاخترأ بها.

وقد جرت عدة معارك بينه وبين عساكر المنصور عندما حاصروا القلعة وأحرقوا منقذها، وهرب أصحابه عنه لكنه لم يتمكن من الهرب ليلاً، وقد كان أعرج قبيح المنظر، ولشدة تعبته لم يستطع متابعة الهرب، فحمّله ثلاثة من أصحابه، لكنه وقع من مكان صعب، فأُسِرَ وحُمِلَ إلى المنصور يوم الخامس والعشرين من المحرم سنة ٣٣٥هـ وبه جراحات، فلما رآه الخليفة مأسوراً مهاناً ذليلاً، سجد شكراً لله، وقد قدم به الناس وهم يكبرون حوله، فأقام في أسر المنصور، حيث جعل له قفصاً حديدياً ووضع معه قردين يلعبان معه ويأكلان من أكله، ليكون عبرة لكل من خرج على الإسلام وناصب العداء لآل بيت رسول الله ﷺ، وأمر بسلخ جلده وحشاه تبناً، وكتب إلى سائر بلاد الخلافة بالبشارة.

وقد مدحه داعي الدعاة جعفر بن منصور اليمني بقصيدة يهنئه بالنصر على الخوارج وقتل رئيسهم أبا يزيد فقال: (١)
الحمد لله هذا الفتح والظفر هذا الذي كان للإيمان ينتظر
فاستبشروا يا رجال الدين وانتدبوا

لحرب قوم هم ضلّوا وهم كفروا
وأيقنوا إنّ جند الله غالبهم

وأينما حلّ للإيمان ينتظر
سيهزم الجمع إذ جاءوا الحربيكم والمارقون فقد خابوا وقد خسروا
فإن وعد أمير المؤمنين لكم حقّ به جاءت الآيات والسور

(١) عيون الأخبار، السبع الخامس، م. س. ص ٢٠٦.

عن جده المصطفى الهادي وحيدرة
وآله الغر، جاء العلم والجفر
فلا تملّوا ولا عن حربهم تهنّوا
وإن بغوا وطفوا في الكفر أو أشروا
واستنصروا الله وأحموا عن حريمكم
ودينكم وانهضوا للقوم وابتدروا

خطبة المنصور يوم عيد الفطر، لا تخرج عن أدبيات الشيعة:

قال القاضي النعمان في كتاب المجالس والمسائرات:

لما كان يوم الفطر، خرج المنصور بالله أبو الطاهر إسماعيل، وقد
حفّ به بنوه، وإخوته وشيعته وأولياؤه وأهل دولته، والناس يرفعون
أصواتهم بالدعاء له، والأعلام تنشر والطبول تُضرب، والمسرة قد
ملأت القلوب، وأثلجت الصدور، فأنتهى إلى المصلّى وصلى صلاة
العيد، وقام عليه السلام خطيباً فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله الذي أحسن إلينا «قضائه»،
وأفضى علينا بالجزيل من عطائه، أحمدته حمداً من شكر حسناه، وآثر
في الأمور كلّها رضاه، وأستعينه استعانة من لا يرجو غيره، ولا يثق
بسواه ولا يتوكّل إلّا عليه في أولاه وأخراه، وأشهد أنّ محمداً عبده
ورسوله، اصطفاه لوحيه، واختاره لتبليغ رسالته، فبعثه داعياً بالحق،
وشاهداً على الخلق، فبلغ رسالة ربه، ونصح لعباده، وجاهد في
سبيله، صلى الله عليه، نبياً مصطفى، ورسولاً مرتضى، وعلى آله
سلامه ورحمته وبركاته.

عباد الله: إنَّ يومكم هذا يوم عید شرفه الله وعظمه، وفضله
وكرمه، واختتم به شهر رمضان، وافتتح به حج بيت الله الحرام،
وبعد وعظ وإرشاد تابع قائلًا: الحمد لله منبع النعماء، وكابت الأعداء
ومستحق الشكر والثناء، وصلى الله أفضل صلواته على أفضل
أنبيائه، محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى آله الطيبين
الطاهرين، اللهم «صلي» على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمدًا
وآل محمد، وبارك محمدًا وآل محمد، كأفضل صلواتك وبركاتك،
ورحمتك على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

اللهم صلي على شمس الهدى الذي بضياؤه أشرق الإسلام
وانجاب الظلام وعز الدين، وتمت النعمة على المؤمنين، عبيد الله أبي
محمد الإمام، أمير المؤمنين المهدي بالله ابن المهديين، الكريم ابن
الأكرمين، صلى الله وملائكته عليه وأكرم مثواه، في المقام الكريم
والنعيم المقيم، اللهم صلي على ولي الأمر (يعني نفسه)، ووارث
المجد والعز، الذي أعظمت عليه منتهك، وأسبغت عليه نعمتك، وألبسته
حلل الكرامة، وتوجته تاج البهاء والإمامة، وجمعت له خلافة الأنبياء،
والأوصياء المهديين، والأوصياء المنتجبين^(١).

والمتصفح لسطور هذه الخطبة يجدها لا تختلف أي اختلاف عن
خطبة أئمة الشيعة، في التوجه والنص والمضمون. خالية من
المعميات والأحاجي، واضحة المقصد، تعتمد على الأحاديث النبوية
الشريفة، وعلوم أهل البيت، والآيات القرآنية، لا تأويل فيها ولا تبديل
لسنة الله ونبيه، وسنة الأئمة المعصومين.

(١) المجالس والمسائرات، القاضي النعمان، ص ١١٢، وعيون الأخبار، السبع الخامس،
ص ٢٢٤.

وفاة الخليفة الثالث المنصور أبو الطاهر إسماعيل:

بعد أن فرغ المنصور من حروب الخوارج وقتله رأس الفتنة أبا يزيد مخلد بن كيداد، يقول ابن الأثير، أنه شعر بالراحة، فعهد إلى ابنه معدّ (المعزّ)، بولاية العهد والإمامة، ولمّا كان رمضان خرج متنزّهاً إلى مدينة جلولاء، وهو موضع كثير الثمار، وفيه من الأترج (الليمون الحامض أو الكباد، وهي من فصيلة الليمون كبيرة الحجم)، ما لا يرى مثله في عظمته. فحمل منه إلى قصره، وكان للمنصور جارية محظية عنده. فلما رآته استحسنته، وسألته أن تراه في أغصانه، فأجابها إلى ذلك ورحل بها إليه، وأقام بها هناك أياماً ثم عاد إلى المنصورية، فأصابه في الطريق ريح شديد، وبرد قارص ومطر دام عليه عدة أيام، فصبر وتجلّد، فكثرت الثلج، فمات بعض من جماعته وحرّاسه، واعتلّ المنصور من جرّاء هذا البرد علّة شديدة أدّت إلى وفاته^(١).

وقد اعتمد المقرئني نفس النصّ الذي ذكره ابن الأثير دون تجنّ أو شماتة، بينما يعزو صلاح الدين ابن أيبك الصفدي وفاته إلى عقاب إلهي، لأنّه أحد الخلفاء الباطنية حيث يقول: «إنّ الله أمطر عليه برداً كثيراً وسلّط عليه ريحاً عظيمة، فخرج منها إلى المنصورية، فاشتدّ عليه البرد، فأوهن جسمه ومات أكثر من معه، ووصل إلى المنصورية، فاعتلّ بها ومات يوم الجمعة آخر شوال سنة ٣٤١ للهجرة^(٢)».

(١) الكامل في التاريخ، مج ٦، م.س. ص ٣٤١.

(٢) الوافي بالوفيات، ابن أيبك الصفدي، ط ٢، المعهد الألماني، بيروت، سنة ١٩٩٣، ص ٢٠٣.

فتح مصر على يد الخليفة الرابع معد ابن المنصور، أبو تميم المعز لدين الله الفاطمي:

عندما يريد القاريء البحث عن أصول تاريخ الفاطميين الشيعة في أمّهات الكتب، يجد صعوبة كبيرة في إشباع نهمه ومعرفة هذا التاريخ قبل وصولهم إلى القاهرة، ولكن بعد بنائهم القاهرة ومؤسساتها، سلّط المؤرّخون الأضواء عليهم، لانبهارهم وإعجابهم بنظمهم ورسومهم ومؤسساتهم، فتجد المؤرّخين المشاركة، وبالرغم من طعنهم بنسبهم ولعنهم في كلّ كتبهم، لم يستطيعوا إخفاء هذه القفزة النوعية الرائعة في تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية، لذلك بدأنا نجد المعلومات المكثّفة في كتب التاريخ الإسلامي، من مشاركته ومغاربته. وقبل الكلام عن فتح مصر، سنتحدث عن أمرين مهمّين وهما: التشيع في مصر قبل الفاطميين وجوهر الصقلي.

التشيع في مصر قبل الفاطميين:

إنّ أول من أدخل التشيع إلى مصر هو مالك بن الأشتر والي مصر من قبل الخليفة الرابع علي بن أبي طالب عليه السلام. وكان مالك من أقرب شيعته ومن أقرب المقرّبين إليه، لكن معاوية بن أبي سفيان أرسل من دسّ له السمّ في شراب العسل وهو في السويس، فمات هناك^(١). فخلفه الصحابي الجليل محمد بن أبي بكر، فأخذ البيعة لعلي عليه السلام من المصريين، وخاصة من أنصار بني أمية، وهدم بيت كلّ من رفض

(١) راجع: مصر في العصور الوسطى، علي إبراهيم حسن، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٦٤، ص ٥٤.

المبايعة ونهب أمواله وأذى أولاد المصريين وحبسهم، فلم يسكت أصحاب معاوية عن هذا الأمر فلجئوا إليه، فأرسل لهم عمرو بن العاص على رأس جيش من أهل الشام، فحاصر القسطنطينية، عاصمة مصر آنذاك، واعتقل محمداً بن أبي بكر وقتله، ووضع جثته في جيفة حمار، ثم أحرقها بالنار، وقطع دابر التشيع لعلي وأهل بيت رسول الله منها.

وكما أن التشيع كان قد انتشر في جبل عامل وبرز الشام على يد الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري. يقول المقرئ صاحب الخطط: «أن أبا ذر وصل مصر على عهد عمر بن الخطاب مع عمرو بن العاص وعبادة بن الصامت وأبي الدرداء، وأنه نزل منزلاً غربى المصلى الذي يلي مسجد عمرو، مما يلي البحر في الإسكندرية^(١)، كذلك يبدو أن أبا ذر كان له يد في بث التشيع لعلي وأهل بيته في القطر المصري. ولم يذكر المقرئ مدة إقامته كما لم يشر إلى مواقفه، بل جاءت الإشارة يتيمة تحتاج إلى المزيد من إلقاء الضوء عليها لأهميتها.

وجاء العهد الأموي، فلم يخل من ثورات شيعية طالبية بقيادة العديد من الطالبين، وبعد سقوط الدولة الأموية وقيام دولة بني العباس، ظهرت دعوة بني الحسن بن علي في مصر. وتكلم الناس بها، وبائع كثير منهم لعلي بن محمد بن عبد الله، وكان أول علوي قدم مصر، وقام بأمر دعوته خالد بن سعيد بن جيش الصوفي.

واستمرت الشيعة بمصر تتحرك بملء إرادتها، حتى ورد كتاب المتوكل على الله إلى واليه بمصر، يأمر فيه بإخراج آل أبي طالب من

(١) راجع: الخطط المقرئية، ج ١، م.س. ص ١٦٧.

مصر، إلى العراق فأخرجوا في رجب عام ٢٣٦ للهجرة. ولما مات المتوكل وخلفه المستنصر أرسل إلى واليه في مصر يزيد بن عبد الله أن يتتبع «الروافض» و«العلويين» فلا يسمح لعلوي بامتلاك ضيعة، ولا أن يركب فرساً، وأن لا يتخذ من العبيد أكثر من واحد. ومن كان بينه وبين أحد الطالبين خصومة، تقبل حجة الخصم ولا يقبل قول الطالبين»^(١).

ولكن بالرغم من كل هذه الإجراءات التعسفية، لم يستطع الأمويون والعباسيون انتزاع التشيع وأصوله من قلوب وعادات الناس، فقد نقل المقرئ عن أبي عمرو الكندي صاحب كتاب (أمراء مصر) قوله: «ولم يزل أهل مصر على الجهر بالبسملة في الجامع العتيق إلى سنة ٢٥٣هـ. قال: «ومنع أرجون صاحب شرطة مزاحم بن خاقان أمير مصر من الجهر بالبسملة في الصلوات بالمسجد الجامع، وأمر الحسين بن الربيع إمام المسجد بتركها. وذلك في شهر رجب سنة ٢٦٣هـ»^(٢).

وثار بعدها عبد الله بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان يلقب بابن الأرقط، في ثغر الإسكندرية، فالتفت حوله الجموع، ووقعت بينه وبين عسكر يزيد بن عبد الله عدة معارك، انتهت بانكساره واستسلامه ليزيد، فأسره وأرسله إلى العراق^(٣).

(١) راجع الشيعة في مصر، صالح الورداني، ط ١، القاهرة، مكتبة مدبولي، سنة ١٩٩٢، ص ٢٤.

(٢) الخطط المقرئية، ج ٢، م.س. ص ٢٢٤.

(٣) م.س. نفسه، ص ٢٢٨.

ثم تابع الثورة الطالبية بعده في مصر، بغا الأكبر ابن طباطبا العلوي الطالبي، فقتل. وحمل رايتها بعده، أخوه بغا الأصغر، أحمد بن طباطبا، وكانت حينها، إمارة مصر قد آلت إلى أحمد بن طولون، فقتله وحمل رأسه إلى القسقاط، عاصمة مصر آنذاك.

ولم تهدأ الثورات العلوية بمصر على عهد ابن طولون، فقام ابن الصوفي العلوي الطالبي من نسل محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب بالثورة على ابن طولون، وحقق بعض الانتصارات عليه ولكنه تخلى عنه بعض أتباعه، فهزمه ابن طولون في أخميم، فتراجع وجمع قواته من جديد، فانهزم إلى أسوان، وهرب منها إلى عيذاب على البحر الأحمر ومنها ركب البحر إلى مكة، فاعتقل قبل أن يصل إليها وأعيد إلى القسقاط، فسجنه ابن طولون فترة ثم أطلقه، وأرسله إلى المدينة حيث مات فيها.

وروى المقرئ في خطه، أنه في إمارة هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون، «أن رجلاً من أهل مصر أنكر أن يكون أحد خيراً من أهل البيت، فوثبت عليه العامة وضربته بالسياط، يوم الجمعة في جمادي الأولى سنة ٢٨٥هـ»^(١).

وكان المقرئ قد أشار إلى قيام الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام، بإرسال الدعاة إلى المغرب وهما «الهلواني وأبو سفيان» سنة ١٤٥ للهجرة وقال لهما: «إنكما تدخلان أرضاً بوراً لم تحرث قط، فاحرثاها وكزماها وذلاها حتى يأتي صاحب البذر،

(١) راجع الخطط المقرئية، ج ٢، م.س. ص ٣٤٠.

فيضع فيها حبه، فما يزالان يدعوان الناس لطاعة آل البيت، وصاروا شيعة لهم، إلى أن دخل إليهم صاحب البذر أبو عبد الله الشيعي بعد مائة وخمس وثلاثين سنة. وكان من أمره ما كان»^(١).

وفي سنة ٣٠١ للهجرة، قام الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي بمحاولة لفتح مصر، فجهز العساكر المغربية مع ولده وولي عهده، أبي القاسم محمد، فوصلوا إلى برقة واستولوا عليها، وساروا إلى الإسكندرية والفيوم، وضيّقوا على أهلها، فبعث المقتدر العباسي مؤنساً الخادم بجيش كثيف، فحاربهم وأجلاهم عن مصر إلى المغرب.

ولم تفتقر هذه الهزيمة من عزيمة المهدي، فعاد الكرة وأرسل في السنة الثانية (٣٠٢هـ)، أسطولاً بحرياً بقيادة حباسة، فدخل الإسكندرية واحتلّها، ثم سار منها يريد مصر. فعاد المقتدر وأرسل مؤنساً الخادم إلى الإسكندرية، ومدّه بالسلاح والاموال والرجال، فالتقى بحباسة، وجرت بين الفريقين حروب كثيرة ووقعات متتالية، فقتل فيها من الفريقين جمع عظيم، وانتهت بانتهاء جيش الفاطميين الشيعة عن مصر وعودة القائد حباسة إلى المغرب. وقد قُدر عدد القتلى من جيش الفاطميين في هذه الواقعة بسبعة آلاف مقاتل مما دفع بالمهدي إلى إنزال عقوبة الإعدام بقائده حباسة، لجبنه وتهاونه وقلة درايته العسكرية بفتح مصر^(٢).

ولم تمنع هذه الهزائم المتكررة المهدي وولده أبا القاسم من

(١) اتعاظ الحنفا، ج ١، م.س. ص ٤١.

(٢) راجع اتعاظ الحنفا: مج ١، م.س. ص ٩٦.

تكرار المحاولة لفتح مصر، وأخذاً يعدّان العدّة ويجهبّان الجيوش للعودة إليها. ولكن كثرة الثورات والخوارج والمحن التي حلّت بدولتهم، أجلّت هذه العودة، ولكنّها لم تتم، لا على عهده ولا على عهد ولده أبي القاسم، لأنّ خروج السفيناني صاحب الحمار، مخلص بن كيداد عليهما، جعلهما يقضيان مدة خلافتهما في حربيه وقتاله واستئصال شأفته، وبقيت مصر تنتظر ظروفاً جديدة تجعلها محطة تجاذب بين الطامعين بوصلها.

الخليفة المعزّ يحاول فتح مصر على عهد كافور الإخشيدي:

يقول المقرئ في كتابه اتعاظ الحنفا «أن المعزّ لدين الله الفاطمي بدأ يعدّ العدّة لفتح مصر، فأمر بحفر الآبار في طريق مصر وأن يبني له في كلّ منزلة قصرًا ففعل ذلك»^(١).

وكانت حالة مصر مهيأة لدخول آية قوة جديدة إليها، فقد مات الإخشيد صاحب مصر من قبل العباسيين سنة ٣٣٤هـ. في فلسطين ودفن في بيت المقدس، وخلفه ابنه الأكبر أبو القاسم أنوجور وهو في الخامسة عشرة من عمره، فقام بتدبير أموره وأمور مصر، أبو المسك كافور الإخشيدي. وكان كافور عبداً مخصياً مملوكاً لأحد أهالي مصر، فاشتراه منه مؤسس الدولة الإخشيدية في مصر، محمد بن طغج وكان إذ ذاك من كبار قواد الدولة الطولونية، وقد ذكر ابن خلكان، أنّ الإخشيد اشتراه بثمانية عشر ديناراً وقد كان أسود اللون بصّاصاً، ولكنه كان

(١) م.س. نفسه، ص ٩٦.

كريماً يحب الخير. حكم مصر لأكثر من سنتين ونصف. وخطب له في مصر والشام واليمن ومكة^(١).

وبعد أن بسط كافور نفوذه على مصر والشام واليمن ومكة أرسل له الخليفة العباسي الخلع وأطلق عليه لقب «أبو المسك»، فكان من أثر ازدياد هذا النفوذ، أن انقسم العسكر المصري إلى قسمين: الكافورية وهم أنصار الأستاذ كافور، والإخشيدية وهم أنصار أبي القاسم أنوجور. ومات أنوجور سنة ٣٤٩هـ. ولم يتجاوز التاسعة والعشرين، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن كافور قد دبّر أمر وفاته بالسم، وأقام كافوراً أخاه أبا الحسن علي بن الإخشيد مكانه، وقد كان له من العمر ثلاث وعشرون سنة، ولم يكن لهذا الأمير الجديد أي شيء من الحكم مع كافور، فقد استبدّ أبو المسك بالحكم دونه، وعيّن له كما كان قد عيّن لأخيه أبي القاسم أنوجور من قبل مرتباً قدره أربعمئة ألف دينار سنوياً، ومنع الناس من الدخول إليه^(٢). واستمرت ازدواجية الحكم في مصر حتى سنة ٣٥٥هـ، إذ توفي علي بن الإخشيد، فاستفرد أبو المسك كافور بحكمها.

ولم يكد كافور يستولي على ولاية مصر منفرداً في هذه السنة، حتى أرسل له المعزّ لدين الله الفاطمي جيشاً لغزوها، فلما وصلت الجيوش الفاطمية إلى منطقة الواحات، جهّز لهم كافور جيشاً كبيراً تصدّى لهم وكسرهم وقتل عدداً كبيراً منهم.

(١) راجع: ابن خلكان، مج ٤، ص ١٠٠.

(٢) راجع النجوم الزاهرة، مج ٤، م. س ٨ ص ٥.

وكان دعاة الفاطميين قد وصلوا إلى مصر ودقوا أبواب قصر كافور، فاستقبلهم سلماً ونقاشاً فكرياً فكانوا يدعونه إلى طاعة المعزّ ويناقشونه أمام قوّاده وعساكره من كافورية وإخشيدية وكان يستمع إليهم. حتى كان من أثر ذلك أن مال إلى المذهب الفاطمي الكثيرون من الكتّاب والجنود الإخشيدية والكافورية^(١).

فمن هنا نرى أنّ فكرة التحوّل من التسنن إلى التشيع ومن العباسيين إلى الفاطميين، بدأت تختمر في أذهان وعقول المصريين.

أما المقرئزي وهو أكثر المؤرخين موضوعية وأقلهم تحيزاً للعواطف، فقد قال عن كافور حين تحدّث عنه في خطه: «كان عبداً أسوداً خصباً مثقوب الشفة السفلى بطيناً، قبيح القدمين، ثقل البدن، جلب إلى مصر وعمره عشر سنين سنة ٣١٥هـ.

وتابع المقرئزي قائلاً: وقدمت عليه دعاة المعز لدين الله من بلاد المغرب يدعونه إلى طاعته فإلطفهم. وكان أكثر الإخشيدية والكافورية وسائر الأولياء والكتّاب، قد أخذت عليهم البيعة للمعزّ، وقصر مد النيل في أيامه فلم يبلغ تلك السنة سوى إثني عشر ذراعاً وأصابع، فاشتدّ الغلاء وفحش الموت في الناس حتى عجزوا عن تكفينهم ومواراتهم، وأرجف بسير القرامطة إلى الشام، وبدأت، غلمانته تتنكّر له، وكانوا ألفاً وسبعين غلاماً تركياً، سوى الروم والمولدين»^(٢).

(١) تاريخ جوهر الصقلي، علي إبراهيم حسن، ط١، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، سنة ١٩٦٣، ص ٢٢٢.

(٢) الخطط المقرئزية ج ٢، ص ٢٦.

وبالرغم من التحدّث عن كرمه، فقد حدّثنا المقرئزي عن تمنّعه عن دفع رواتب حرّاسه وصبيانّه، بالرغم من أنّه حين توفي وجد في خزائنه ٧٧٠ ألف دينار عيناً (ذهباً خالصاً)، ومن الدنانير الورقية والجواهر والعنبر والطيب ما قوّمه خازنو بيت المال بقيمة ستمائة مليون دينار (ستمائة ألف ألف دينار)، ويقول المقرئزي أنّه مات من غير وصية، ولا صدقة جارية (جامع أو مدرسة) ولا ماثرة يذكر بها. ودعي له على المنابر بالكنية التي كنّاه بها الخليفة، وهي أبو المسك، أربع عشرة جمعة. وبعد موته، اختلّ الأمن في مصر وكادت تُدمّر، حتى قدمت جيوش المعز على يد القائد جوهر، فصارت مصر دار خلافة بعد أن كانت دار ولاية، وقد دفن في بيت المقدس وكُتب على قبره هذان البيتان:

ما بال قبرك يا كافور منفرداً بصائح الموت بعد العسكر اللجب
يدوس قبرك من أدنى الرجال وقد
كانت أسود الشرى تخشاك في الكُتُب
ووجد أيضاً:

انظر إلى غير الأيام ما صنعت أفنت أناساً بها كانوا وما فنيت
دنياهم أضحكت أيام دولتهم حتى إذا فنيت ناحت لهم وبكت
ولما مات كافور اجتمع رجال البلاط في مصر، ولّوا أبا الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد، وكان في الحادية عشرة من عمره، واتفق أن جاء إلى مصر ابن عمه أبو محمد الحسن ابن عبد الله أخي الإخشيد، فاراً من وجه القرامطة، فأمره المصريون على الجيش، فما كان منه إلا أن استبدّ بأمر مصر وقبض على الوزير جعفر بن الفرات (ابن حنّابة)،

واستولى على أمواله ونهب دياره وقصوره وحملها وعاد بها إلى الشام، مكتفياً بما نهبه من هذا الأمير، واستمرّ ابن الفرات بإدارة شؤون البلد محاولاً التوفيق بين أجنحة الدولة، ولكن كسر شوكته من قبل الحسن ابن عبد الله الإخشيد، أدّى إلى خرق ناموس هيئته والإستهتار به من قبل الكافورية والإخشيديّة، حتى وصلت حالة البلاد إلى الفوضى التامة، وعجز معها هذا الوزير عن إقرار الأمن وتخفيف ما حل بالأهلين من المصائب والويلات.

«من هنا نرى أنّ حالة الضعف والبؤس التي وصلت إليها مصر، وعجز العباسيين عن إرسال الجيوش لصد الأعداء عنها، قد مهّد السبيل أمام المعزّ الفاطمي لفتح مصر، ذلك الأمر الذي تمّ على يد جوهر الصقلي»^(١).



جواهر الصقلي يفتح مصر:

كنا قد أشرنا إلى ثورة مخلص بن كيداد الخارجي على الدولة الفاطمية الفتية، وقد كان من أهم نتائجها إفراغ بيوت مال هذه الدولة من المال، وقتل الرجال، ونقص العتاد والسلاح، وقد أدّت كلّ هذه الأمور إلى تأخير فتح مصر إلى عهد المعزّ لدين الله معذّ، فقد حاول المحاولة الأولى ووصل جيشه إلى الواحات، ولكن جيوش كافور صدّته إلى المغرب، ولم يسمح له بالدخول إلى مصر.

ونقل ابن تغري بردي أبو المحاسن، عن القفطي: «أنّ المعزّ كان قد عزم على تجهيز عسكر إلى مصر، فسألته أمّه تأخير ذلك لتحجّ

(١) تاريخ جوهر الصقلي، م. س. ص ٢٥.

خفية، فأجابها، وحجّت، فلما وصلت إلى مصر أحسّ بها كافور الإخشيدي، الأستاذ، فحضر إليها وخدمها، وحمل إليها الهدايا، وبعث في خدمتها أجناداً، فلما رجعت من حجّها منعت ولدها من غزوه بلاده، فلما توفي كافور بعث المعزّ جيوشه فأخذوا مصر^(١).

ولا نظن أنّ زيارة أم المعزّ يمكن أن تؤدي إلى إقناعه بتأخير ما وطّد نفسه عليه وورثه عن أبيه وجدّه، وليست هذه المعلومة إلا من قبيل إعطاء التاريخ نكهة مميّزة من قبل القفطي وابن تغري بردي.

أما عن حياة جوهر الصقلي، فقد أكثر كُتب التراجم والتاريخ من التحدّث عنه وعن نشأته، فهو من صقلية، إحدى جزر دولة الروم (اليونان). وقد ظلت صقلية موطن جوهر الأصلي تحت حكم الروم حتى فتحها الأغالبة سنة ٢١٢هـ. ومن حينها انتقل معظم سكّانها من دين النصرانية إلى دين الإسلام وبنيت فيها المساجد، ودور العلم الكثيرة، وقد شبّ جوهر في حجر الدولة الفاطمية ببلاد المغرب بين موالى المعزّ الفاطمي، وقد اختصّه المعزّ من بين كلّ مواليه وكنّاه بأبي الحسين، وقربّه إليه، لما توسّمه فيه من الإخلاص للدين ولأهل البيت، ولمواهبه الفذة وثقافته الواسعة التي أخذ منها بأوفى نصيب.

وقد استمر جوهر يتدرّج في السلك الوظيفي ببلاد المغرب، حتى اتخذ المعز سنة ٣٤١هـ، كاتباً له، ولُقّب منذ ذلك الحين «بجوهر الكاتب» وهي السنة التي ولي فيها المعزّ الخلافة، وقد كانت وظيفة الكاتب من المناصب العالية في الدولة الفاطمية، وكان الخلفاء لا

(١) النجوم الزاهرة: م ٤، ص ٧٥.

يسندونها إلا لمن أنسوا فيهم الكفاءة والقدرة على معالجة الأمور، كما كانت الخطوة الأولى باتجاه الوزارة - أو رئاسة مجلس الوزراء في أيامنا هذه.

واستمرّ جوهر كاتباً لدى الخليفة المعزّ حتى سنة ٣٤٧هـ، فرّقاه إلى منصب الوزارة، وهو الأديب العفيف الخبير بالنفوس والنصوص.

وكانت أول تجربة عسكرية لجوهر سنة ٣٤٧هـ، حيث أرسله المعزّ على رأس جيش كثيف، يضمّ رجالات المغرب، لفتح ما تبقى من هذه البلاد، فسار إلى تاهرت واستولى عليها، ثم إلى فاس ثم سجلماسة، حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسي، وسبته ومليلة، وعاد إلى المعزّ بعد أن أخضع بلاد المغرب كلّها للسلطة الفاطمية. ودانت له ولمذهب الشيعة الإسماعيلية بالطاعة والوفاء، فعظم شأن جوهر عند المعزّ، واختاره لقيادة الحملة التي جهّزها لفتح مصر، ولقّبه «بالقائد»^(١).

بنت الإخشيد سحاقية تجامع النساء:

عندما يزداد الثراء في المجتمعات، يكثر الفسق والفجور، ويحلّ الإنحلال الديني محلّ الالتزام به، وتفتر عزيمة الجهاد والذبّ عن الدين، وقد أورد المقرئزي، أنّ أمّ المعزّ لدين الله، أمّ الأمراء، وجّهت بصبيّة ربّتها لتباع بمصر، فطلب فيها الوكيل ألف دينار، فجاءت امرأة شابة على حمار، ولم تزل تتشاطر عليه حتى اشترتها منه بستمئة دينار، فقال له أحد تجار السوق: يا مغربي: هذه بنت

(١) تاريخ جوهر الصقلي، ص ١٦.

الإخشيد، اشترت الجارية منك لتتمتع بها وهي ست كافور، فلما عاد الوكيل، أخبر المعزّ بهذه الواقعة، فأمر الخليفة بإحضار الشيوخ والقواد ووجهاء دولته، والوكيل، فروى لهم خبر الجارية مع بنت الإخشيد وقال لهم المعزّ: «يا إخواننا انهضوا إليهم، فلن يحول بينكم وبينهم شيء، وإذا كان قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات ملوكهم تخرج وتشتري لنفسها جارية تتمتع بها، فقد ضعفت نفوس رجالهم، وذهبت الغيرة منهم، فانهضوا بنا إليهم»^(١).

وإقدام بنت الإخشيد على السحاق هي نادرة شاذة وليست ظاهرة في المجتمع المصري، ولكنها كانت إشارة من الإشارات التي اتخذها المعزّ حجة لدعوة قواده وأهل دولته لغزو مصر، فمصر لم تخل من الرجال مدى الدهر، وحين كانت الأمة العربية والإسلامية تخلو من الرجال، كانت مصر تسدّ مسدّ الأمة كلها، فمعركة عين جالوت، وتجاوز خط بارليف، ما زالا شاهدين على عظمة مصر وأهل مصر.

المعزّ يجهز الحملة لفتح مصر:

قال المقرئزي: «لما عزم المعزّ على الرحيل إلى مصر، أتاه بلُكين بن زيري بن مناد الصنهاجي بألف جمل من إبل زناتة، فسبك الدنانير على شكل الطواحين وجعل على كلّ جمل قطعتين، في وسط كلّ قطعة ثقباً تجمع به القطعة إلى الأخرى، فاستعظم ذلك الجند والرعية، وصاروا يقفون في الطرقات لرؤية بيت المال المحمول»^(٢).

(١) اتعاظ الحنفاء، ج ١، ص ١٠٠.

(٢) م. س. ص ١٠٠.

وقال أيضاً أنه لم وردت النجب من مصر بموت كافور الإخشيدي، استدعى المعزّ صاحب بيت المال أبا جعفر بن حسين بن مهذب، فوجد المعز في وسط القصر، جالساً على صندوق، وبين يديه ألوف من الصناديق المبددة في صحن القصر، فقال له المعز: هذه صناديق مال، وقد شذّ عني ترتيبها، فانظرها ورتبها، قال ابن مهذب: «فأخذت أجمعها إلى أن صارت مرتبة وبين يدي جماعة من خدام بيت المال والفراشين، وأنفذت إليه أعلمه، فأمر برفعها في الخزائن على ترتيبها، وأن يعلّق عليها وتختم بخاتمه، وقال لابن المهذب: قد خرجت عن خاتمنا وصارت إليك «ففعّل». وكانت جملتها أربعة وعشرين مليون دينار (ألف ألف)، وكان ذلك في سنة ٣٥٧هـ، فأنفقها أجمع على العساكر التي سيرها إلى مصر في سنتي ثمان وخمسين وتسع وخمسين، مع القائد جوهر^(١). هذا غير الذي أرسله بلّكين بن مناد من أحمال طواحين الذهب، فكانت جملتها أحمال ثلاثة آلاف جمل من سبائك ذهبية ومن دنانير ذهب عينا.

وكان المعزّ يثق بقائده جوهر ثقة كبيرة، وكان عنده حدس وتنبؤ، بأن مصر سوف تفتح على يديه، فهو حين أرسله لفتح مدينة رقادة بالمغرب، وقف لتوديع الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر قائلاً له: «والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر، ليدخلن إليها بالأردية من غير حرب، وينزلن في خرابات ابن طولون ويبني مدينة تقهر الدنيا»^(٢).

وهذه الإشارة إلى بناء مدينة محل خرابات ابن طولون تقهر

(١) اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٩٦.

(٢) تاريخ جوهر الصقلي، م.س. ص ٢٨.

الدنيا، تدلّ على ان اسم «القاهرة» كان مقرراً في نفس وعقل المعزّ قبل وصول جوهر، وإذا كان جوهرأ قد سمّاها القاهرة، فبناءً على رغبة وأوامر الخليفة الرابع، المعزّ لدين الله.

وقال ابن تغري بردي: كان قد انخرم نظام مصر بعد موت كافور الإخشيدي، فقلّت الأموال عن الجند، فكتب جماعة منهم إلى المعزّ لدين الله معدّ، وهو بالمغرب يطلبون قدومه ليسلموا إليه مصر، فجهز المعزّ جوهرأ بالجيوش والسلاح في نحو مائة ألف فارس، فسار جوهر حتى نزل بجيوشه إلى تروجة قرب الإسكندرية، وأرسل إلى أهل مصر، فطلبوا منه الأمان، فأجابهم جوهر إلى ذلك وكتب لهم عهداً بذلك، فعلم الإخشيديّة بهذا الاتفاق، فتأهبوا لقتال جوهر، فجاءتهم من عند جوهر الكتب والعهود بالأمان، فاختلفت كلمتهم، ثم قرّروا القتال وتوجّهوا نحو الجيزة ووقع القتال بينهم، ووصل الجيشان إلى منية الصيادين ووقع القتال، فقتل كثير من الإخشيديين وانهزم الباقون، ثم أرسلوا يطلبون الأمان من جوهر بعد انهزامهم، فأمنهم^(١).

أما المقرّيزي فيقول أنّه لما «قربت عساكر جوهر من الإسكندرية، جمع الوزير أبو الفضل، جعفر بن الفضل بن محمد بن الحسن بن الفرات، الناس وشاورهم، فاتفقوا على مراسلة جوهر، وأن يتشرّطوا عليه شروطاً وأنهم يسمعون له ويطيعونه، ثم اجتمعوا على محاربته، ثم انحلّ ذلك الاتفاق، وعادوا إلى المراسلة بالصلح.

(١) راجع النجوم الزاهرة، مج ٤، ص ٣٢.

وكانت رسل جوهر ترد سرّاً إلى ابن الفرات، ثم اتفقوا على خروج أبي جعفر مسلم الحسيني الطالبي، وأبي إسماعيل الرّسي ومعهما القاضي أبو طاهر وجماعة من الأعيان، فبرزوا إلى الجيزة في الثاني عشر من رجب، ولم يتأخّر عن تشييعهم أحد، لا قائد ولا كاتب ولا عالم، ولا شاهد، ولا تاجر. وساروا والتقوا جوهر بترؤّجة، ووافقوه واشتروطوا عليه، فأجابهم إلى ما التمسوه، وكتب لهم كتاباً بذلك^(١).

وتبدو إشارة المقرّيزي إلى ممثلي طبقات المجتمع المصري أنّها تدلّ على موافقة كلّ الشعب المصري على الدخول في طاعة الفاطميين الشيعة، ونحن نعلم أنّه لو كان المصريّون يكتّون الكره لأهل بيت رسول الله، لما قبلوا بدخول الفاطميين إليها. وهذه الإشارة خير دليل على بقاء التشييع في نفوس الشعب المصري طيلة القرون الثلاثة السابقة على عودة أهل بيت رسول الله إليها، كي يحكموها ويحكموا العالم العربي والإسلامي، من خلالها ومن خلال شعبها.

كتاب أمان جوهر لشعب مصر:

وكتب جوهر كتاب أمان لأهل مصر، هذا نصّه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من جوهر الكاتب، عبد أمير المؤمنين المعزّ لدين الله، صلوات الله عليه، لجماعة أهل مصر الساكنين بها من أهلها ومن غيرهم، أنّه قد ورد ممن سألتموه التّرسّل والإجتماع معي وهم: أبو جعفر مسلم الشريف الحسيني، (أطال الله بقاءه).

(١) راجع اتعاظ الحنفا، مج ١، ص ١٠٢.

أبو إسماعيل الرّسّي (أيّده الله) ^(١).

أبو الطيب الهاشمي (أيّده الله).

أبو جعفر أحمد بن نصر، (أعزّه الله).

والقاضي (أعزّه الله).

وذكروا عنكم أنكم التمستم كتاباً يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم، فعرفتم ما تقدم به أمر مولانا وسيّدنا أمير المؤمنين، صلوات الله عليه، وحسن نظره فيكم.

فلتحمّدوا الله على ما أولاكم، وتشكّروه، على ما حماكم، وتدابوا فيما يلزمكم، وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم، العائدة بالسلامة لكم، وبالسعادة عليكم، وهو أنّه، صلوات الله عليه، لم يكن إخراج العساكر المنصورة، والجيوش المظفّرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم، إذ قد تخطفتكم الأيدي، واستطال عليكم المستذلّ، وأطمعته نفسه بالإقتدار على بلدكم، والتغلّب عليه غيركم من أهل بلدان المشرق، وتأكّد عزمه واشتدّ كلبه ^(٢)، فعاجله مولانا وسيّدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، بإخراج العساكر المنصورة وبإبادة الجيوش المظفّرة دونكم، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق، الذين عمّهم الخزي، وشملتهم الذلّة واتصل عندهم الخوف، وكثرت استغاثتهم وعظم ضجيجهم وعلا صراخهم، فلم يغثهم إلا من

(١) أبو إسماعيل الرّسّي، وقد أوردته بعض المراجع النّرسی (بالنون) وأظنّ أنّه (المرسي) بالميم.

(٢) كذا قد أشرنا في الصفحة ١٨٥ إلى مجيء أخي الأخشيّد من الشام ونهبه بيوت جعفر بن الفرات وقصور الأعيان والتجار المصريّين.

أبكى عينه ما نالهم، وأسهرها ما حلّ بهم، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وآثر إقامة الحج الذي تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه، للخوف المستولي عليهم، وإذا لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم، وإذا قد أوقع بهم مرة بعد أخرى، فسفكت دماؤهم وابتزّت أموالهم، مع اعتماد ما جرت به عادته من إصلاح الطرقات، وقطع العابثين بها ليتطرق الناس آمنين، ويسيروا مطمئنين، ويتحفوا بالأطعمة والأقوات، إذ كان قد انتهى إلى مسامع أمير المؤمنين، صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها، إذ لا زاجر للمعتدين ولا دافع للظالمين.

ثم تجديد السكّة، وصرفها إلى العيار الذي عليه السكّة الميمونة المنصورية المباركة وقطع الغشّ منها، إذ كانت هذه الخصال الثلاث، هي التي لا يتسع لمن ينظر في أمور المسلمين إلا إصلاحها واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها.

ومما أوعز به مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، إلى عبده جوهر نشر العدل، وبسط الحق، وحسم الظلم، وقطع العدوان، ونفي الأذى ودفع المؤن، والقيام بالحق، وإعانة المظلوم مع الشفقة والإحسان وجميل النظر وكرم الصحبة، ولطف العشرة، وافتقاد الأحوال وحياطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم، وحين تصرفهم في أوان ابتغاء معاشهم، حتى لا تجري أمورهم إلا على ما لمّ شعثهم وأقام أودهم وأصلح بالهم، وجمع قلوبهم وألف كلمتهم على طاعة وليّه (جوهر) وطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وما أمر به مولاه (جوهر)، من إسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضي صلوات الله عليه، بإثباتها عليكم.

وأن أجريكم في الموارِيث، على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ،
وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية
من المتوفى بها، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال.

وأن أتقدم في رم (ترميم) مساجدكم وتزيينها بالفرش والإيقاد
وأن أعطي مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها (أئمة الجوامع)
أرزاقهم وأدرها عليهم، ولا أقطعها عنهم، ولا أدفعها إلا من بيت المال.

وإذا كان الإسلام سنة واحدة، وشرعية متبعة، وهي إقامتكم على
مذهبكم، وأن تتركوا ما كنتم عليه من أداء الفروض في العلم،
والإجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه
سلف الأمة من الصحابة، رضي الله عنهم، والتابعين بعده، وفقهاء
الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم، وأن يجري الأذان
والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام ليلته، والزكاة والحج،
والجهاد على أمر الله وكتابه، وما نصّه نبيه ﷺ، في سنته، وإجراء
أهل الذمة على ما كانوا عليه.

ولكم عليّ أمان الله التام العام، الدائم المتصل، الشامل الكامل،
المتجدد المتأكد على الأيام وكروار الأعوام، في أنفسكم وأموالكم
وأهلكم، ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم.

وعلى أنه لا يعترض عليكم معترض، ولا يتجنى عليكم متجنّ،
ولا يتعقب عليكم متعقب، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون
ويُدبُّ عنكم، ويمنع منكم فلا يتعرّض إلى أذاكم، ولا يسارع أحد في
الإعتداء عليكم، ولا في الإستطالة على قوياتكم، فضلاً عن ضعيفكم،
وعلى أن لا أزال مجتهداً فيما يعمكم صلاحه، ويشملكم نفعه، ويصل

إليكم خيره، وتتعرفون بركته، وتغتبطون معه، بطاعة مولانا وسيّدنا
أمير المؤمنين صلوات الله عليه.

ولكم عليّ الوفاء بما التزمته، وأعطيتكم إياه، عهد الله وغليظ
ميثاقه وذمّته، وذمّة أنبيائه ورسله، وذمّة الأئمة موالينا أمراء
المؤمنين، قدّس الله أرواحهم، وذمّة مولانا أمير المؤمنين، المعزّ لدين
الله صلوات الله عليه، فتصرّحون بها وتعلنون بالإنصراف إليها،
وتخرجون إليّ وتسلمون عليّ، وتكونون بين يديّ إلى أن أعبّر
الجسر، وأنزل بالمناخ المبارك، (حيث تناخ الخيل)، وتحافظون من
بعد، على الطاعة، وتثابرون عليها، وتسارعون إلى فروضها، ولا
تخذلون ولياً لمولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وتلزمون ما
أمرتكم به، وفقكم الله وأرشدكم أجمعين^(١).

والمتمعّن في هذا العهد الذي أعطاه جوهر لأهل مصر، يجد أنّه لا
يختلف عن العهد الذي طلب الإمام عليّ عليه السلام من واليه على مصر مالك بن
الاشتر إعطائه لأهل مصر، ونوجز أهم النقاط التي ذكرها جوهر في عهده
والتي كانت سبباً لمجيئه من قبل الخليفة المعزّ إلى مصر وهي:

١ - حماية الشعب المصري وحماية أعراضهم وممتلكاتهم من تعديات
المشاركة التي كانت قد بدأت، بعد وفاة كافور الإخشيدي.

٢ - الوصول إلى المشرق للجهاد في سبيل الإسلام.

٣ - إقامة الحج الذي تعطل، وأهمّل الناس فروضه وحقوقه بسبب، قطاع
الطرق الذين ينهبون قوافل الحجاج دون احترام للحج وللحجيج.

(١) اتعاظ الحنفا، م ١، من ص ١٠٤، إلى ص ١٠٦.

- ٤ - إصلاح الطرق بعد تعطيلها.
- ٥ - إعادة البحبوحة والأمن والأمان بين الناس.
- ٦ - تجديد السكة ومنع التزوير والغش.
- ٧ - وعد بتأمين الأمن ليلاً نهاراً.
- ٨ - إسقاط الرسوم الجائرة وإيفاء الرسوم الشرعية التي فرضها الإسلام.
- ٩ - منع مصادرة أموال من لا وريث له، والوعد بتنفيذ الشرع الإسلامي في هذا المجال.
- ١٠ - التأكيد على ترميم المساجد ودور العلم وصرف الرواتب للقيمين عليها وتأمين ميزانية إنارتها من بيت مال المسلمين.
- ١١ - ترك كل إنسان على مذهبه وعدم إجبارهم في الدخول في مذهب الشيعة الإسماعيلية.
- ١٢ - ترك أهل الذمة على حالهم وعدم التعرض لهم ولكنائسهم وبيعتهم.
- وذلك جوهر عهد الأمان بخط يده بهذه الجملة:
- «كتب هذا الأمان على ما تقدّم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين، صلوات الله عليه، وعلى الوفاء بجميعه لمن أجاب من أهل البلد وغيرهم على ما شرطت فيه، والحمد لله رب العالمين، حسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين»^(١).
- وطلب جوهر من أعيان مصر التوقيع كشهود على العهد، فوقّع عليه كل من:

(١) اتعاظ الحنفا، م ١، ص ١٠٧.

- أبو جعفر مسلم بن محمد بن عبيد الله الحسيني الطالبي.
- أبو إسماعيل إبراهيم بن أحمد الرّسّي الحسني الطالبي.
- أبو الطيب العباس بن أحمد الهاشمي.
- القاضي أبو الطاهر محمد بن أحمد وابنه أبو يعلى محمد بن محمد.
- محمد بن مهلب بن محمد.
- عمرو بن الحرث بن محمد.

ويروي المقرئزي، أنّه ما أن عاد الوفد المصري الذي أخذ عهد الأمان من القائد جوهر، حتى انتفض الأخشيدي عليه، وأعلنوا الحرب على الفاطميين، وأنّه جرت عدّة وقعات فيما بينهم، آلت إلى انهزامهم وطلبهم الأمان من جديد. ويشير المقرئزي إلى أن جوهر لم ينكث عهده، ولم ينكّل بالناكثين من الأخشيديّة، وطلب من الوزير جعفر بن الفرات «الإحتياط على دور الهاربين إلى أن يرجعوا إلى الطاعة ويدخلوا بما دخلت فيه الجماعة» فاستبشر الناس بهذا القرار وباتوا على هدوء وطمأنينة^(١).

ودخل جوهر مصر وأقبلت العساكر، فعبرت الجسر ودخلت أفواجاً أفواجا، ومعهم صناديق المال محمّلة على البغال، ويقال أنّ المال كان في ألف وخمسمائة صندوق. وأناخ هو وعسكره في المناخ الذي رسمه له المعزّ كموقع للقاهرة، فاخترّ موقع القصر واستقرّ هو وعسكره في هذا المناخ سبعة أيام.

وجاءته اللطاف والهدايا من أعيان مصر، فرفضها ولم يقبل إلا

(١) اتعاظ المنفا، م ١، ص ١١٠.

هدايا الشريف مسلم بن محمد بن عبيد الله الحسيني الطالبي.
وذكر المقرئ عدّة أمور ووقائع وطوالع فلكية، دفعت بالمعزّ
لدين الله لتسمية المدينة الجديدة «القاهرة»^(١).

إذاعة عدة قرارات وبلاغات فاطمية شيعية من على منابر جوامع مصر:
توزيع المال على الفقراء:

١ - قال المقرئ نقلًا عن ابن زولاق: أنّه لما أصبح جوهر في
مصر أنفذ عليّ بن الوليد القاضي، لعسكره، وبين يديه أحمال
مال ومناد ينادي: من أراد الصدقة فليحضر إلى دار أبي جعفر
(مسلم بن عبيد الله الشريف الحسيني)، فاجتمع خلق من
المستورين والفقراء، فصاروا بهم إلى الجامع العتيق ففرّق فيهم.

خطبة يوم الجمعة مكتوبة: *مركز تحقيقات مكتبة آية الله العظمى*

٢ - ولما كان أول جمعة بعد دخول جوهر وهو يوم الجمعة لعشر
بقيين من شعبان سنة ٣٥٨ للهجرة، فنزل جوهر مع عسكره
للصلاة في الجامع العتيق، وألقى خطبة الجمعة، هبة الله بن
أحمد بن عبد السميع بن عمر العباسي، وهو يلبس البياض وهو
لبس الفاطميين الشيعة، فلما بلغ إلى الدعاء، سحب رقعة من
جيبه وقرأ التالي:

«اللّهم صلّ على عبدك ووليّك، ثمرة النبوة، وسليل العترة الهادية
المهدية، عبد الله الإمام معدّ بن تميم، المعزّ لدين الله، أمير المؤمنين،

(١) راجع اتعاظ الحنفا، م ١، ص ١١٢.

كما صليت على أنبيائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين، اللهم ارفع درجته، واعلُ كلمته، وأوضح حجته، واجمع الأمة على طاعته والقلوب على موالاته وصحبته، واجعل الرشاد في موافقته، وورثه مشارق الأرض ومغاربها، وأحمد مباديء الأمور وعواقبها، فإنك تقول وقولك الحق: «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن ﴿الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾» [سورة الأنبياء الآية: ١٠٥].

فقد امتعض لدينك، ولما انتُهِك من حرمتك، ودرس من الجهاد في سبيلك، وانقطع من الحج إلى بيتك وزيارة قبر رسولك ﷺ، فأعدَّ للجهاد عدته، وأخذ لكل خطب أهبته، فسير الجيوش لنصرتك وانفق الأموال في طاعتك، وبذل المجهود في رضاك، فارتدع الجاهل وقصر المتطاول، وظهر الحق وزهق الباطل، فانصر اللهم جيوشه التي سيرها، وسراياه التي انتدبها لقتال المشركين، وجهاد الملحدين، والذب عن المسلمين، وعمارة الثغور والحرم، إزالة الظلم والتهم والنهم، وبسط العدل في الأمم.

اللهم اجعل راياته عالية مشهورة، وعساكره غالبية منصوره واصلح به وعلى يديه، واجعل لنا منك واقية عليه»^(١).

الإفطار بغير رؤية:

٣ - وما أن أهل شهر رمضان، حتى علم المصريون أن الفاطميين لا يفطرون على رؤية الهلال، فرمضان عندهم حتماً ثلاثون يوماً، فلا

(١) اتعاظ الحنفاء، م١، ص ١١٤.

موجب لرؤية الهلال، ولم يجبروا المصريين على اتباع شريعتهم، فأفطر جنودهم وعسكرهم ولم يفطر أهل مصر، وصلى جوهر صلاة العيد في الجامع العتيق مع عسكره من كتّامه وصنهاجة ولواته، ولم يصلّ المصريون، بل انتظروا إلى اليوم التالي حيث أفطروا وصلّى بهم رجل هاشمي وأقام بهم الخطبة.

وفي شهر ذي الحجة من السنة نفسها ٣٥٨هـ، أصدر جوهر أمراً أن يزداد في الخطبة الأسبوعية على منابر المساجد، العبارة التالية: «اللهم صلّ على محمد النبي المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول، الذين أذهبت عنهم الرجس، وطهرتهم تطهيراً، اللهم صلّ على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين»^(١).

٤- جوهر يحدد مسار صلاة الجمعة:

يقول المقرئ أن جوهرأ منع قراءة ﴿سُبْحَ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ في صلاة الجمعة.

كما وأنه منع التكبير بعد صلاة الجمعة أيضاً^(٢).

٥ - جوهر لا يرخّص لأي عمل بدون شريك مغربي:

ذكر المقرئ أن جوهرأ لم يدع عملاً إلا وجعل فيه مغربياً شريكاً فيه.

(١) م.س. نفسه. ص ١١٧.

(٢) م.س. ص ١١٩.

٦ - جوهر يلزم الجهر بالبسملة والقنوت في الصلاة والأذان بحَيَّ على خير العمل في كلِّ مساجد القاهرة:

قال المقرئزي: وفي يوم الجمعة لثمان خلون من جمادي الأولى سنة ٣٥٩هـ، صلى جوهر الجمعة في جامع ابن طولون، وأذن المؤذن، بحَيَّ على خير العمل، وهو أول ما أذن به في مصر، وصلى به عبد السميع بن عمر العباسي الجمعة، فقرأ سورة الجمعة «وإذا جاءك المنافقون» وقنت في الركعة الثانية (القنوت هو الوقوف أثناء الصلاة، وهو مرفوض من قبل أهل السنة)، وانحطَّ إلى السجود، ونسي الركوع، فصاح به علي بن الوليد، قاضي عسكر جوهر: «بطلت الصلاة، أعد ظهراً أربعاً»^(١). ونسي عبد السميع العباسي الركوع، لأنَّه قنت ولم يكن قد تعود على القنوت في الصلاة، لأنَّ السنة يعتبرونها بدعة، فيما الشيعة يقولون أنَّهم يتبعون سنة أهل بيت رسول الله ﷺ في تطبيق أحكام الإسلام، وأنَّ الإمام علي عليه السلام كان يقنت في الصلاة.

ثم أذن بحَيَّ على خير العمل في سائر مساجد القاهرة وأنكر جوهر على عبد السميع العباسي أنَّه لم يجهر بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، جزءاً أساسياً من كلِّ سورة، ولا قرأها في الخطبة، والشيعة بكل فرقهم من إمامية وزيدية وإسماعيلية يعتبرون بسم الله الرحمن الرحيم جزءاً أساسياً من كلِّ سورة ويعتبرون الصلاة باطلة، إذا لم تبدأ كل آية من آياتها بها جهرًا.

ولما أتت صلاة الجمعة التالية، صلى عبد السميع العباسي بالناس وبدأ آياته بالبسملة جهرًا.

(١) اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ١٢٠.

٧ - وهل شهر المحرم:

لسنة ٣٥٩هـ، فعَمَّ جَوهَر على الأسواق قراراً يقضي بمنع بيع الذبائح المشوية بدون سلخ، وألزم القصابين وأصحاب المطاعم بسلخ الذبيحة ومن ثم بيعها نيّة أو مشوية.

ويبدو من هذا القرار أنّ شواء الذبيحة بشعرها وبعرها كانت عادة مستجدة على المصريين والمسلمين، فلم يشر إليها أي مؤرخ من مؤرخي الإسلام، لذلك أقدم المحتسب من قبل جَوهَر على منعها والمعاقبة عليها.



القرامطة على أبواب القاهرة

بالعودة إلى كتب التاريخ العربي والإسلامي بحثاً عن تاريخ القرامطة، نجد صعوبة كبيرة في تتبع أخبارهم وأصولهم وامتداداتهم القبلية والعرقية، وأكثر المؤرخين ينسبونهم إلى عبد الله بن حمدان قرمط، وهو من دعاة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. والذي أدى إلى إرباك نسبهم ونسب الأئمة الإسماعيلية، هو أتباع هؤلاء الأئمة ودعاتهم أساليب معقدة في انتسابهم، تقيّة وتخفيّاً من بطش العباسيين، فالإمام المستور عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، كان قد شكّل مجلساً من أربع دعاة، وكل واحد منهم يتسمّى بإسم عبد الله وهم: عبد الله بن ميمون القداح، ووالد هذا الأخير كان من دعاة الإمام الصادق جعفر بن محمد، ومن أتباعه ومريديه، وعبد الله بن سعيد بن الحسين الأهوازي، وعبد الله بن المبارك، وعبد الله بن حمدان. ولولا هذا التستر والتخفي الشديد، لما استطاعت الدعوة الإسماعيلية الشيعية الإستمرار والانتصار، وما توصّلت لبناء دولتها في مصر والمغرب العربي.

يقول ابن أبيك الدواداري: إنّ القرامطة ينتسبون إلى حمدان

قرمط، بن الأشعث، الذي تحالف مع عبد الله بن الحسين الأهوازي، على بث الدعوة الإسماعيلية من قبل أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح في العراق وسواد الكوفة، ويذكر الدواداري أنَّ الشيعة والمعتزلة كانوا أول التأثيرين على هؤلاء الدعاة مما يعني أن لا علاقة للدعوة الشيعية بهم. ولو كانوا من دعاة الإسماعيلية حقاً، لما كان هناك خلاف بينهم، وبين الفرق الشيعية الأخرى^(١).

أما الطبري، فهو بعد أن يروي قصة «كرميته» مع مهران زكرويه يقول: «ثم فشا أمر القرامطة ومذهبهم وكثروا بوادي الكوفة. ووصل خبرهم إلى السلطان وأنهم قد أحدثوا ديناً غير الإسلام وأنهم يرون السيف على أمة محمد إلا من بايعهم على دينهم». ويقول الطبري عنهم أيضاً: «وكانوا فيما حكوا عن هؤلاء القرامطة من مذهبهم أن جاؤا بكتاب فيه «بسم الله الرحمن الرحيم» وأن داعيتهم هو المسيح وهو عيسى وهو الكلمة وهو المهدي، وهو أحمد بن محمد بن الحنفية، وهو جبريل. وذكروا أن المسيح تصور لداعيتهم الفرج بن عثمان في جسم إنسان، وقال له: إنك الداعية، وإنك الحجة وإنك الناقة وإنك الروح القدس، وإنك بن زكرياء، وعرفه أنَّ الصلاة أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان قبل غروبها. وأن الأذان في كل صلاة هو: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، أشهد أنَّ لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ موسى رسول الله، وأشهد أنَّ عيسى رسول الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله، وأشهد أنَّ أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله، والحج إلى بيت المقدس، والقبلة إلى بيت المقدس، ويوم الجمعة ويوم الإثنين لا يعمل

(١) راجع الدرر المضية، مج ٧، م.س. ص ١٩.

فيهما شيء، وأن الصوم يومان في السنة وهما المهرجان والنوروز، وأن النبيذ حرام والخمر حلال، ولا غسل من جنابة إلا الوضوء كوضوء الصلاة، ولا يؤكل كل ذي ناب ولا كل ذي مخلب»^(١).

لكن صاحب الدرّة المضيّة يقول، أن عبد الله بن الحسين الأهوازي، تعرّف على حمدان قرمط في سواد الكوفة، وقال أنه كان يكنى بقرمط لأنه كان رجلاً قصير القامة، ورجلاه قصيرتان وخطوه متقاربا، فلقب بقرمط.

ويذكر صاحب الدرّة المضيّة بعض المداخلات الفلسفية والكلامية التي دخل بها الأهوازي على قرمط وأقنعه بالدعوة الإسماعيلية، والكل يعلم أن الحقبة الزمنية التي تفصل بين ظهور القرامطة ووفاة الدواداري تناهز الخمسمائة سنة، مما يجعل أحداثها عرضة للشك والتدليس، وخاصة أنه ألف كتابه عن القرامطة والفاطميين في العصر المملوكي المتحامل على الشيعة والتشيع.

أما ابن الأثير، فهو حين يتحدث عن حوادث سنة ٢٧٨هـ، يشير فيها إلى أنه «تحرك فيها بسواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطة، وكان ابتداء أمرهم فيما ذكر أن رجلاً منهم قدم من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة بموضع يقال له النهرين، يظهر الزهد والتقشف ويسفّ الخوص (دقيق النخل المطحون)، ويأكل من كسب يده، ويكثر الصلاة، فأقام على ذلك مدة، فكان إذا قعد إليه رجل، ذاكره أمر الدين وزهده في الدنيا، وأعلمه أن الصلاة المفروضة على الناس خمسون

(١) تاريخ الامم والملوك، محمد بن جرير الطبري، ط ١، القاهرة، المطبعة الحسينية المصرية، لا تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٣٩.

صلاة في كل يوم وليلة، حتى فشا ذلك عنه، ثم أعلمهم أنه يدعو إلى إمام من آل بيت رسول الله ﷺ، فلم يزل على ذلك حتى استجاب له جمع كثير وكان اسمه كرميئة، ومعناها باللهجة النبطية، أحمر العينين، وخفف لفظه، فقل قرمط، وكان اسمه حمدان^(١).

ويتحدث ابن أيبك الدواداري عن أمانة الحسين الأهوازي وثقة الناس به فيقول: «وكل ما كان يفعله هذا الخبيث من الثقة والأمانة وإظهار الخشوع والنسك، إنما كان حيلة ومكرًا وخديعة وغشًا، وليس هو من أهل ذلك كله، فلما حضرته الوفاة، جعل مكانه حمدان قرمط، فأخذ على كثير من أهل السواد (الكوفة)، وكان ذكياً خبيثاً، وكان من أهم دعائه مهرويه بن زكرويه وصهره عبدان»^(٢).

ويقول الدواداري، أن حمدان قرمط نشر الدعاة في أنحاء العراق وفي بني رفاعه وضبيعه، «فلم يكذ يتخلف رفاعي ولا ضبعي، ولم يبق في البطون المتصلة بالكوفة بطن إلا ودخل في الدعوة منه ناس كثير، وكذلك من بني عايش وذهل وغيرهم، وبني عنتر وبني تيم الله وبني ثعل وغيرهم. وكانوا أكثر من في سواد الكوفة وما يقاربهم، وفيهم نفر من بني شيبان»^(٣).

تري، أيعقل أن يستطيع رجل خبيث ماهر مارق عن الإسلام أن يلعب بعقول شعب بأكمله؟ أم أن حمدان قرمط هذا، كان فعلاً مسلماً شيعياً إسماعيلياً، استطاع بزهد وحب لآل بيت رسول الله ﷺ،

(١) الكامل في التاريخ، مج ٦، م.س. ص ٧٠.

(٢) الدرر الضية، ص ٤٦.

(٣) م.س. نفسه، ص ٤٨.

جذب هذه الآلاف المؤلفة من قبائل سواد الكوفة والعراق ووصلت دعوته حتى البحرين والبصرة، كما أنه لا مانع من أن يبدأ القرمطي بالدعوة لآل البيت عليه السلام، ومن ثم الخروج عن طاعتهم كما حدث مع أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس. لكن النجاح الذي حققه حمدان قرمط، لما كان تم وتحقق لو لم يرتكز إلى قاعدة فكرية صلبة، وهي علوم أهل البيت عليه السلام، وفكر الإمام جعفر بن محمد عليه السلام.

بعض القرارات القرمطية في مجتمع الكوفة الجديد: (الماركسية):

١ - قرر حمدان قرمط أخذ الفطرة عن كل إنسان يوم عيد الفطر، وهي عادة ما زالت متبعة حتى أيامنا هذه في جبال عاملة، ندفعها للفقراء عن جميع أفراد العائلة وتحدد عن كل فرد بقيمة إطعام مسكين ليوم واحد، وتقدر زمن كتابة هذه السطور بعشرة آلاف ليرة لبنانية أو سبعة دولارات أميركية أو مد قمح، وقد حدد حمدان قرمط هذه الفطرة بدرهم واحد عن كل إنسان.

٢ - يقول صاحب الدرة المضية، أنه الحق هذا القرار بقرار آخر يقضي بأخذ دينار واحد عن كل إنسان جنب، (جامع زوجته) ولم يغتسل وهذا غير معقول، فكيف من أجنب يذهب إلى حمدان أو دعااته ليعترف لهم بالجنابة.

٣ - يقول الدواداري أن حمدان قرمط فرض على مجتمع الكوفة ضريبة «البلغة» وهي سبعة دنانير في السنة، مقابل أكلة شهية مصنوعة من الحلوى، وزعم أنه طعام أهل الجنة.

٤ - ثم فرض عليهم خمس ما يملكون وما يكتسبون وتلا عليهم قوله

تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٤١] فبادروا وقوموا جميع ما يملكونه وأدوا ذلك إليه، فكانت المرأة تخرج خمس ما تغزله والرجل يخرج خمس ما يكسبه.

٥ - ويقول الدواداري، أنه لما تمّ له ذلك واستقرّ، فرض عليهم الإلفة، وهو أن يجمعوا أموالهم في موضع واحد وأن يكونوا فيه أسوة واحدة لا يضل أحد منهم صاحبه وأخاه في ملك يملكه، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٣] وعرفهم أن لا حاجة لهم بأموال تكون معهم لأن الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم، وقال لهم: هذه حجّتكم التي احتججتم بها ليعلم كيف تعملون. ثم أمرهم بشراء السلاح وإعداده^(١).

ويقول الدواداري أن حمدان قرمط «أقام في كلّ قرية رجلاً مختاراً من ثقاتهم، فجمع عنده أموال أهل قريته، من بقر وغنم وحلي ومتاع وغيره، وكان يكسو عاريهم، وينفق عليهم ما يكفيهم، فلا يبقى فقيراً بينهم ولا محتاجاً ضعيفاً، وأخذ كلّ رجل منهم بالإنكماش في صناعته (الإهتمام)، والكسب بجهد، ليكون له الفضل في رتبته، فجمعت إليه المرأة كسبها من مغزلها، والصبي أجرة نظارته وحراسته فلم يملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه»^(٢).

(١) راجع الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، ص ٥٠.

(٢) م. س. ص ٥١.

وعندما يقرأ واحدنا هذا النص، يزداد إعجاباً بهذا المجتمع الإشتراكي الذي سبق عصره بألف ومائة سنة، ويتساءل: هل استطاع حمدان قرمط بناء هذا المجتمع وتكوينه، بشكله القميء وقصر رجليه وتقارب خطوتيّه؟ أم أنّه كوّنّه وبناه، استناداً لفكر الإمام عليّ عليه السلام الذي استعجب من الفقير الذي جاع كيف لا يخرج إلى الناس شاهراً سيفه؟ أم استناداً لفكر الإشتراكي الأول في الإسلام أبي ذر الغفاري، الذي نادى بمساواة الفقراء بالأغنياء؟ إنّ حمدان قرمط لم يستطع بناء هذا المجتمع المتماسك إلا من خلال عقيدة إسلامية شيعية جعفرية صافية نقية. وإلا كيف قبل هؤلاء الناس التخلّي عن كلّ ملذات الحياة المادية وحب الملكية الخاصة؟ لو لم يكن قد اقتنع كلّ منهم بالحياة الثانية، بالقرب من الحسين عليه السلام وأبناء الحسين عليه السلام، ولولا هذه القناعة، لما اكتفى كلّ منهم بسيفه وسلاحه، وتخلّى عن كلّ ملذات الدنيا وأطاييها، كما اكتفى الحسين عليه السلام بسيفه ووقف في وجه الطغمة الأموية المستبدّة.

لكن المؤرّخين، كلّهم كانوا يعملون بتوجيه من السلطات الحاكمة: أمويون، عباسيون، أيوبيون، مماليك، عثمانيون، على مرّ التاريخ الإسلامي، دَنَسُوا هذه التجربة الفريدة من نوعها والتي سبقت عصرها وعصور الغرب الأوروبي بمئات السنين، فأرخواها بعواطفهم وانتماءاتهم المذهبية، لا من خلال واقعيتها، فكتب ابن الأثير ونقل عنه الدواداري وَدَلَسَ وقال أنّ حمدان قرمط «لما استقام له ذلك كله، أمر الدعاة، أنّ يجمعوا النساء في ليلة معروفة ويختلطن بالرجال ويتراكن ولا يتفارقن، فإنّ ذلك من صحة الورد

وعظم الإلفة بينهم، فإما بذل الرجل لأخيه امرأته متى أحب»^(١).

ونحن نرفض هذه الافتراءات، لأننا وإن كنا من أبناء القرن الواحد والعشرين، فما زالت نفوسنا تغلي بالحمية العائلية والعصبية الجاهلية التي تحمي العرض من بنت وأم أو زوجة أو أخت، فكيف وقد تشبّع هؤلاء الناس بالإسلام والفكر الإسلامي، ومنذ أن يخلق واحد منهم في المهد حتى يصل إلى اللحد، يموت ولا يقبل أن تمس أمه أو أخته أو زوجته وابنته بسوء، فكيف استطاع حمدان قرمط أن يقنع أشخاص هذا المجتمع بأكمله أن يسلم الرجل أمه وأخته وزوجته، وابنته للغريب، ولم يكن بينهم من يمتنع أو يعترض. فهذه كلها ترهات وتخريصات مؤرّخي التحامل المذهبي الأعمى، الذي أغلق عقولهم وعيونهم عن الحق والحقيقة. والدواداري نفسه يرفض نسبة هذه الأفعال للإمام محمد بن إسماعيل حين يقول:

«وكان مبتدأ هذه الدعوة الخبيثة، لمحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، بزعمهم ولم يكن له والله في ذلك منها شيء قل ولا جل».

ونحن نتساءل عن مصدر معلومات الدواداري، خاصة أن الطبري كان معاصراً لهذه الأحداث، وقد تحدّث عن القرامطة وفنّد مزاعمهم وأصول مذهبهم المتصل بأحمد بن محمد بن الحنفية، ولكنّه لم يشر إلى عملية الخلوة والإختلاط والتراكب.

وقد حفل التاريخ الإسلامي بالإلحاد والملاحدة، وكل من يبطل الصلوات الخمس وصلاة الجمع وصوم رمضان والحج إلى بيت الله

(١) م. س. نفسه، ص ٥١.

الحرام والشهادتين، فهو ملحد خارج عن الإسلام، وجب قتله، هذه هي أصول الدين الإسلامي. أما إذا اختلف المسلمون في تنفيذ وتطبيق هذه الأصول، وكل له حجته ودليله التاريخي في طريقة التنفيذ، فلا يعني هذا الاختلاف مروقاً عن الدين أو إلحاداً. وقد حفل التاريخ الإسلامي بالكثير من حالات المروق والإلحاد والردة. ونحن لن ندافع عن هؤلاء المارقين والمرتدين، فإذا كان حمدان قرمط قد خالف الشعائر الإسلامية، فهو أول مارق ومرتد في الإسلام، ولكن كل كتب التاريخ التي أرخت له ولحركته، أخذ متأخرها عن متقدمها وكلهم ينتمون إلى مذهب الطبقة الحاكمة في عصره والمعادي للشريعة والتشيع، دون أن يتقدم مؤرخ واحد ويناقش أصول هذه الحركة الفكرية وما نتج عنها من تصرفات وتنظيمات على صعيد المجتمع، لذلك لا نستطيع إلا مناقشة أحكامها قبل الإنجرار وراءها.

وقد اختص المقرئ أكثر من غيره من المؤرخين بالتحدث عن القرامطة والفاطميين، فذكر أن عبدان زكرويه بن مهرويه الذي أقنع حمدان قرمط بالدعوة الإسماعيلية، مات وترك حمدان يدعو الناس. وأوصاه بأولاده وهم سبعة، فاستمر حمدان قرمط بالدعوة إلى جانب أولاد عبدان زكرويه. ولما مات الإمام المستور الزكي الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، أوصى لولده عبيد الله المهدي بالإمامة. ويقول المقرئ أن: «قرمط كان يكاتب من بسمليه، فلما مات من كان أماماً في وقته، وخلفه ابنه من بعده، كتب إلى قرمط، فأنكر منه أشياء واستراب وبعث ابن مليح أحد دعاة ليعرف الخبر، فامتنع (?)». فأنفذ إلى عبدان (زكرويه بن مهرويه)، فعرف موت الذي كانوا يكاتبونه، فسأل

ابنه (عبيد الله المهدي)، عن الحجّة، ومن الإمام الذي يدعو إليه، فقال الإبن (عبيد الله المهدي): ومن الإمام؟ فقال عبدان (زكرويه بن مهرويه): محمد بن إسماعيل بن جعفر صاحب الزمان. فأنكر (عبيد الله المهدي) ذلك وقال: لم يكن إمام غير أبي وأنا أقوم مقامه. فرجع عبدان (زكرويه بن مهرويه) إلى قرمط وعرفه بالخبر. فجمع الدعاة وأمرهم بقطع الدعوة لصاحب سلمية حنقاً وقال لهم: «لاحق لمحمد بن إسماعيل في هذا الأمر ولا إمارة». فقطعوها من ديارهم ولم يمكنهم قطعها من غير ديارهم، لأنها امتدت في سائر الأقطار. ومن حينئذٍ قطع الدعاة (القرامطة) مكاتبه الذين كانوا بسلمية»^(١).

ويتابع المقرئ حديثه فيذكر كيف أنّ حمدان قرمط تأمر على عبدان زكرويه بن مهرويه وقتله، رغم أنّ الأخير قد أوصى له بزعامة الدعوة، وكيف أنّ أبناء زكرويه السبعة قد انتشروا في العراق وبر الشام وكل يدعي أنّه من صلب الإمام محمد بن إسماعيل وأنه الإمام الحجّة والقائم وتسمّوا بأسماء عديدة منها: المدثر وصاحب الشامة وصاحب الخال، وصاحب الجمل وصاحب الناقة، مما يثبت أنّ الدعوة القرمطية انطلقت من أسس شيعية إسماعيلية صحيحة، وانتهت بالخروج الكلي عن الفكر الإسماعيلي الشيعي الجعفري، حتى انتهت في نفق الردة والإلحاد.

وقد أفرد المقرئ في فصله كاملاً عن القرامطة في كتاب اتعاظ الحنفا، وتحدث عن نشأتهم منذ سنة ٢٧٨هـ حتى وقوفهم على أبواب القاهرة، يحاربون جوهرًا والخليفة المعزّ وابنه عبد الله العزيز.

(١) راجع اتعاظ الحنفا، م.س. ص ١٦٨.

وعندما تحدّث عن حصارهم للقاهرة قال: «طرح القرمطي الحسن بن أحمد بن زكرويه مراكبه في البحر وشحنها بالمقاتلة وسيّرها إلى تَنيس وغيرها من سواحل مصر، وجمع من قدر عليه من العرب وغيرهم وتأهب للمسير إلى مصر».

وأكد المقرئزي افتضاح أمرهم واختلافهم مع الفاطميين الشيعة حكام المغرب ومصر فتابع قائلاً: «وهذا وبعد أن أخذ القرامطة يخرقون بالمهدي ويوهمون الناس أنّه صاحب المغرب، وأن دعوتهم إليه، وأنهم يرسلون الإمام المنصور إسماعيل بن محمد القائم بن عبد الله (والد المعز)، ويظهرون إلى أكابر أصحابهم أنّهم من أصحابه، افتضح أمرهم وكذبهم بمحاربة القائد جوهر لهم وقتله كثيراً منهم»^(١).

وإذا كان القائد جوهر الصقلي وسيّده الخليفة المعز ومن بعده ولده العزيز، قد حاربوا القرامطة وحاولوا استئصال شأفتهم، فهذا دليل كاف لإبتعاد هذه الفرقة عن الإسلام. وإذا كان ابتداءؤها بذرة التشيع، وانتهاءها ثمرة الإلحاد، فالتاريخ الإسلامي حافل بكثير من هذه التيارات الفكرية المارقة عن الدين، والمغرقة في الإلحاد، ولا يجوز أن نلصق كلّ نحلة مارقة بالشيعة والتشيع، فالتشيع هو تشيع لطرفي الإسلام: القرآن والسنة، يأخذونها من أصحابها، أهل بيت رسول الله ﷺ، لا من الضيوف والطارئين، فهم يصلّون كما صلّى النبي وأهل بيته ﷺ، ويصومون ويورثون ويقرأون القرآن كما قرأته العترة النبوية الطاهرة.

(١) راجع انعاظ الحنفاء، م ١، ص ١٨٨.

كتاب المعزّ للحسن بن أحمد بن زكرويه القرمطي يختصر الخطاب الإسلامي الفاطمي:

لقد أثبت غالبية مؤرّخي هذه الحقبة، هذا الكتاب، وهو إنذار إلى القرمطي، وجّهه الخليفة المعزّ له، طالباً منه العودة إلى الإسلام والتوبة، وهو طويل. ولاهميته، أوجزناه قدر الإمكان دون السماح بإرباك المعاني الإسلامية الشيعية التي تضمّنها.

وقد جاء في الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، رسوم النطقاء، ومذاهب الأئمة والأنبياء ومالك الرسل والأوصياء، السالف والأنف منا، صلوات الله علينا وعلى آبائنا، أولى الأيدي والأبصار، في متقدّم الدهور والأكوار، وسالف الأزمان والأعصار، عند قيامهم بأحكام الله وانتصابهم لأمر الله...

﴿يا أيها الناس قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليهِ﴾^(١).

أيها الناس: إنّ الله عزّ وجل إذا أراد أمراً قضاه، وإذا قضاه أمضاه، وكان من قضائه فينا قبل التكوين، أن خلقنا أشباحاً وأبرزنا أرواحاً... فنحن أول الفكرة وآخر العمل بقدر مقدور وأمر في القدم مبرور، عند تكامل الأمر وصحة العزم، وأنشأ الله - جلّ وعزّ - المنشآت، وأبدأ الأمهات من الهيولات، طبعنا أنواراً وظلماء، وحركة وسكوناً... عمل ذلك لنا ومن أجلنا، دلالة علينا وإشارة إلينا، يهدي به

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٧.

الله من كان له لب سجيح، ورأي صحيح، ثم أنه جلّ وعلا، أبرز من مكنون العلم ومخزون الحكم - آدم وحواء - أبوين ذكراً وأنثى، سبباً لإنشاء البشرية، ودلالة لإظهار القدرة القوية. وزاوج بينهما فتوالدا الأولاد، وتكاثرت الأعداد، ونحن ننتقل في الأصلاب الزكية والأرحام الطاهرة المرضية، كلما ضمناً صلب ورحم، أظهر منا قدرة وعلم. وهلمّ جراً، إلى آخر الجدّ الأول، والأب الأفضل، سيد المرسلين، وإمام النبيين، أحمد ومحمد صلوات الله عليه، وعلى آله في كلّ ناد ومشهد. فحسن آلاؤه، وبان غناؤه، وأباد المشركين، وقصم الظالمين وأظهر الحق، واستعمل الصدق، وظهر بالأحدية، ودان بالصّمدية، فعندها سقطت الأصنام، وانعقد الإسلام، وانتشر الإيمان، وبطل السحر والقربان، وهربت الأوثان، وأتى بالقرآن شاهداً بالحق والبرهان، فيه خبر ما يكون وما كان، إلى يوم الوقت المعلوم، منبئاً عن كتب تقدّمت، في صحف قد نُزلت، تبياناً لكلّ شيء، وهدى ورحمة ونوراً وسراجاً منيراً... كل ذلك دلالات لنا، ومقدّمات بين أيدينا، وأسباب لإظهار أمرنا، فما من ناطق نطق، ولا نبي بعث ولا وحي ظهر، إلا وقد أشار إلينا، ولوّح بنا، ودلّ علينا، في كتابه وخطابه، ومنار أعلامه، ومرموز كلامه. ألا تسمعون قول الله تعالى حيث يقول: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾^(١). وقوله تقدست أسماؤه: ﴿نزيّة بعضها من بعض والله سميع عليم﴾^(٢).

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٤.

فلا إله إلا هو له الأسماء الحسنی والأمثال العلی... ولیعلم من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهید، إنا كلمات الله الأزلیات، وأسماءه التامات، وأنواره الشعشعانیات، وأعلامه النیرات، ومصابیحه البینات، وبدائعه المنشآت، وآياته الباهرات، وأقذاره النافذات. لا یخرج منا أمر ولا یخلو منا عصر... فاستشعروا النظر، فقدنقر فی الناقدور، وفار التنور، وأتی النذیر بین یدی عذاب شدید. فمن شاء فلینظر، ومن شاء فلیتدبر، وما علی الرسول إلا البلاغ المبین. وكتابنا هذا من فسطاط مصر، وقد جئناها بقدر مقدور، ووقت مذکور فلا نرفع قدماً، إلا بعلم موضوع، وحکم مجموع وأجل معلوم، وأمر قد سبق، وقضاء قد تحقق».

ویذكره المعزّ كيف عامل أهل مصر حین دخلها، وكيف صفح عن المخالفین والمارقین، وأمن کل الناس، ویتوجّه للقرمطي بقوله: «أما أنت أيها الغادر الخائن، الناکث البائن عن هدی أبائه وأجداده، المنسلخ عن دین أسلافه وأنداده، والموقد لنار الفتنة، والخارج عن الجماعة والسنة، ألا تعلم أنه ما من جزيرة فی الأرض ولا إقليم إلا ولنا فیہ حجج ودعاة یدعون إلینا، یدّلون علینا، ویاخذون بیعتنا ویذكرون رجعتنا، ینشرون علمنا، وینذرون بأسنا، ویبشّرون بأیامنا، بتصاریف اللغات واختلاف الالسن، وفی کلّ جزيرة وإقليم رجال منهم یفقهون، وعنهم یاخذون، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه لیبین لهم﴾^(١). وأنت عارف بذلك.

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

فيا أيها الناكث الحانث، ما الذي أرداك وصدّك؟

أما قرأت كتاب السفر؟ وما فيه من نصٍّ وخبر؟ أما علمت أنّ المطيع هو آخر ولد العباس؟ وآخر المتراسين من الناس! أما تراهم **﴿كانهم أعجاز نخل خاوية، فهل ترى لهم من باقية﴾**^(١).

ختم والله الحساب وطوي الكتاب، وعاد الأمر إلى أهله، والزمان إلى أوله، وأزفت الأزفة، ووقعت الواقعة، وقرعت القارعة، وطلعت الشمس من مغربها، والآية من وطنها، وجيء بالملائكة والنبیین، وخسر هنالك المبطلون. هنالك الولاية لله الحق، والملك لله الواحد القهار، فله الأمر من قبل ومن بعد، فقد ضلّ والله عملك، وخاب سعيك، وطلع نحسك، وغاب سعدك، حيث أثرت الدنيا على الآخرة، ومال بك الهوى، فأزلك عن الهدى، فإن تكفر أنت ومن في الأرض جميعاً، فإن الله هو الغني الحميد.

أتراك تحسب أنك مخلّد أم لأمر الله راد؟ هيهات لا خلود لمذكور، ولا مردّ لمقدور، ولا طافئ لنور، ولا مقرّ لمولود، ولا قرار لموعود، لقد خاب منك الأمل، وحان لك الأجل، فإن شئت، فاستعد للتوبة باباً، وللنقلة جلباباً، فقد بلغ الكتاب أجله، والوالي أمله، فنحن أشباح فوق الأمر والنفس دون العقل، وأرواح في القدس. نسبة ذاتية وآيات لدنية. نسمع ونرى».

ويعرض المعزّ على القرمطي ثلاثة شروط للتوبة والرابعة تكون نهايته. فطلب منه:

(١) سورة الحاقة، الآيتان ٧ و٨. والمطيع هو الخليفة العباسي.

١ - أن يسلم نفسه لجعفر بن فلاح، والي الفاطميين على دمشق،
ويعيد له كل المنهوبات التي نهبها.

٢ - أو أن يرد من قتله من الكتاميين والزويليين (قبائل مغربية) في
دمشق أحياء في صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم، وهذا
الطلب يعتبر تعجيزاً للقرمطي.

٣ - أو أن يسير ومن معه بغير زمام ولا أمان ويسلم نفسه للمعز،
فيحكم فيه وفيهم بما حكم، ويجري عليه إحدى ثلاث: إما
قصاص، وإما مئاً بعده، وإما فدى.

وفي حال رفضه هذه الشروط الثلاث وأبى «فلن تظله سماء ولن
تقله أرض ولن تنصره فئة»^(١).



(١) راجع: اتعاظ الحنفاء، م ١، م.س. ص ٢٠٠.

ال خليفة الفاطمي الرابع: المعز لدين الله

أبو تميم معز بن اسماعيل:

لم يكن الخليفة المعز نقطة عابرة في تاريخ العرب والمسلمين، بل كان نقلة وهاجة أضاءت طريق المشرق العربي والمسلمين لأجيال وأجيال، فهو بعد انتقاله من القيروان والمهدية إلى القاهرة، أصبح كالنسر المرفرف بجناحيه على الشرق الإسلامي بكافة أقطاره، يتحكم بمساره ويحدد اتجاهات حكمه.

ذكره أبو المحاسن ابن تغري بردي في كتابه فقال عنه: «هو أبو تميم معز بن المنصور إسماعيل بن القائم بن أمر الله... العبيدي الفاطمي المغربي الملقب بالمعز لدين الله، والذي تنسب إليه القاهرة المعزية. مولده بالمهدية في يوم الاثنين حادي عشر شهر رمضان سنة ٣١٩هـ. بويع بالخلافة سنة ٣٤١هـ بعد موت أبيه، وهو أول خليفة كان بمصر من بني عبيد»^(١).

ونقلًا عن الحافظ أبي عبد الله الذهبي أنه أول من تملك ديار مصر من بني عبيد الرافضة المدعين أنهم علويون.

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المجلد الخامس، م.س. ص ٧٤.

والحديث عن المعزّ يوجب الحديث عن مصر وحالتها قبل مجيء
جوهر الصقلي ممهداً الطريق للمعزّ. وهذا الموضوع أوفاه المقرئ
بحثاً وتدقيقاً ومناقشة، والاطلاع على وضع مصر قبل المعزّ يعطينا
الصورة الحقيقية للأسباب التي دفعت بالمصريين للاتصال
بالفاطميين ومطالبتهم بدخول مصر.

يقول المقرئ في خطه، أنّ مصر قبل المعزّ كانت تحت حكم
أحمد بن طولون وأولاده، وحين يشيد المقرئ بابن طولون،
يتحدّث مطوّلاً عن كرمه وورعه وتدينّه.

ويصف المقرئ قصر ابن طولون والبستان المحيط به
ومطابخه التي أقيمت في كلّ يوم للصدقات في داره، وابن طولون
ينظر إلى المساكين ويتأمّل فرحهم بما يأكلون ويحملون، فيسرّه ذلك
ويحمد الله على نعمته. ولما مات قام من بعده ابنه خمارويه فأزال
المقصورات التي كان قد خصّصها والده لقراءة القرآن، وأقام مكانها
مجلساً برواقه سمّاه بيت الذهب، طلى حيطانه كلّها بالذهب، وجعل
فيه على مقدار قامة ونصف صوراً في حيطانه بارزة (تماثيل) من
خشب معمول على صورته وصور محظيّاته والمغنيّات اللاتي تغنّين
له، بأحسن تصوير وأبهج تزويق. وجعل على رؤوسهن الأكاليل من
الذهب الخالص الأبريز الرزين، والكرادن المرصّعة بأصناف الجواهر،
وفي آذانها الأجراس الثقال الوزن المحكمة الصنع، وهي مسمّرة في
الحيطان. ولوّنت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ
العجيبة.

الأسد يحرس خمارويه:

وكان خمارويه بداية الأمر، أقرّ المقرئين على حالهم ولم يزل مقصوراتهم، ولكنه عندما بدأ «يجلس للشرب مع حظاياه في الليل ومغنياته تغنيه فإذا سمع أصوات المقرئين يذكرون الله والقدر في يده، وضعه بالأرض وأسكت مغنياته وذكر الله معهم»^(١).

وبدل أن يطعم خمارويه الفقراء، أقام جنينة للحيوانات وخاصة للسباع والفهود، وكان يصرف وقته وأمواله على إطعامها وخدمتها. ويقال إنه استطاع تدجين وتأنيس أسد أطلق عليه اسم زريق، كان يحضر مائدته ومجلسه ويمشي في القصر كأنه قطاً أو رجلاً. وقد درّبه على حراسته وهو نائم. فكان خمارويه لا ينام إلا وأسده زريق بجانبه، وعندما ذهب خمارويه إلى دمشق الشام، قتل فيها، ولم ينفعه أسده زريق ولا حديقة السباع التي أنشأها في مصر.

تلك حالة مصر أيام الأخشيديين وقد دخل جوهر مصر، وبنى القاهرة، واستمرّ في حكمها أربع سنوات يمهد لوصول الخليفة المعزّ.

يقول المقرئزي: «خرج المعزّ من المغرب يوم الاثنين لثمانٍ بقين من شوال سنة ٣٦١هـ، وكان المعزّ يتقن من اللغات إلى جانب العربية، البربرية والرومية والسودانية».

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الأول، م.س. م. ٢١٧.

المعز يدفع ديات أبناء عمه الطالبين المتقاتلين في مكة:

وروى عنه أنه قبل رحيله إلى مصر وصله خبر تقاتل أبناء عمومته من بني حسن وبني جعفر بن أبي طالب زعماء مكة، فأنفذ رجاله سرّاً محمّلين بالأموال والأحمال، فسعوا بالصلح بين الطائفتين حتى اصطالحوا. ودفع المعز ديات القتلى من الفريقين «وعقدوا بينهم صلحاً في المسجد الحرام وتحملوا دياتهم من مال المعز، فصار ذلك جميلاً عند بني الحسن بن أبي طالب للمعز. فلما دخل جوهرأ مصر بادر الحسن بن جعفر الحسني الطالبني أمير مكة بالدعاء للمعز، وكتب إلى جوهر بذلك، فبعث جوهر بالخبر إلى المعز، فأنفذ المعز للحسن بن جعفر تقليد ولاية الحرم وأعماله»^(١).

وفي الخامس من شعبان سنة ٣٦٢هـ، وصل المعز الإسكندرية، فاستقبله جوهر مع أعيان القاهرة ومصر فخطب فيهم المعز قائلاً: «إنه لم يسر لأزدياد في ملك ولا رجال، وما سار إلا رغبة في الجهاد ونصر المسلمين».

وبعد أن استقبله الأعيان والأشراف سأل أبا جعفر مسلم بن محمد بن عبيد الله الحسيني عن بقية الأشراف فقدّمه إليهم بأسمائهم وكناهم.

يقول المقرئزي: وصل المعز إلى الفسطاط ثم إلى القاهرة ودخل معه جميع من كان وفد إليه وجميع أولاده وأخوته وعمومته وسائر ولد المهدي، وأدخل معه توابعه آبائه: المهدي والقائم والمنصور،

(١) اتعاظ الحنفاء، م.س. ص ١٠١.

فصارت مصر بدخوله إليها دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة^(١).

ويتابع المقريري قائلاً:

ولما وصل المعزّ إلى قصره، خرّ ساجداً ثم صلى ركعتين
وصلى بصلاته كلّ من دخل معه. وبعد أن استقرّ في قصره وسدّة
خلافته، أمر بتعميم هذا الكتاب على المشايخ في سائر أنحاء مصر:

«خير الناس بعد رسول الله - ﷺ - أمير المؤمنين، علي بن أبي
طالب، عليه السلام».

ووقع الكتاب باسمه واسم ولده العزيز عبد الله فكان هذا
المرسوم أول عمل قام به المعزّ في مصر.

وعندما بدأ بالجلوس في قصر الخلافة حدّد أولويات استقبال
الوفود فطلب أن تكون الاستقبالات على النحو التالي:

أولاً: الأشراف الطالبيون.

ثانياً: الأولياء والعلماء والفقهاء.

ثالثاً: سائر وجوه الناس.

ثم طلب من جوهر العفو عن الكافورية والأخشيديّة الذين نقضوا
العهد وحاربوه، فأطلقهم جوهر فكانت عدتهم ألف سجين.

وجاء عيد الفطر لسنة ٣٦٢هـ، فصلى المعزّ لدين الله صلاة
العيد بالناس، «صلاة تامة طويلة، قرأ في الركعة الأولى بأم الكتاب
وهل أتاك حديث الغاشية ثم كبر بعد القراءة، وركع فأطال، وقرأ في

(١) م.س. ص ١٣٤.

الثانية بأَم الكتاب وسورة «والضحى»، ثم كَبَّر أيضاً بعد القراءة، وهي صلاة جدّه علي بن أبي طالب (نقلاً عن ابن زولاق). وأطال أيضاً في الثانية: الركوع والسجود، وجهر ببسم الله الرحمن الرحيم في كلِّ سورة.

فلما فرغ من الصلاة، صعد المنبر، وسلّم على الناس يميناً وشمالاً، واستفتح الخطبة «ببسم الله الرحمن الرحيم. وخطب وأبلغ وأبكى الناس وكانت خطبته بخضوع وخشوع».

«وتحاكم إليه جماعة من المصريين فحكم بينهم وسجّل الأحكام، ولم ير هذا بمصر من قبل».

وعمل المُعزّ ماسة عظيمة القدر والحجم أطلق عليها المؤرّخون العرب اسم «شمسة» لكي تعلق في الكعبة. وقد وصف المقرئ في هذه الماسة بقوله: «وفي يوم عرفة نصب المُعزّ الشمسة التي عملها للكعبة على إيوان قصره، وسعتها إثنا عشر شبراً، وأرضها ديباج أحمر. ودائرتها إثنا عشر هلال ذهب. وفي كلّ هلال أترجة ذهب مشبك (ليمونة كباد) وجوف كلّ أترجة خمسون درّة كبيض الحمام ومرصعة بالياقوت الأحمر والأخضر والأزرق، وكتب على دائرتها آيات الحج بالزمرد الأخضر. وحُشيتْ نقط الكتابة درّ كبار لم يُر مثله. وحشو الشمسة من الداخل المسك المسحوق. فرأها الناس أمام القصر ومن خارجه لعلو موضعها. وجزّوها على دواليب لثقل وزنها^(١).

(١) م.س. ص ١٤٠.

وقد عرّف جمال الدين الشّيال الشمسة بأنها «حلية ضخمة كانت ترسل إلى الكعبة في موسم الحج في صحبة قائد خاص، لتعلق في وجه الكعبة، وإنها تشبه الشمس».

ولم يستطع الصيارفة، وتجار الذهب والجواهر تقدير ثمنها.

ويروى المقرئ أن المعزّ على عادته، استقبل الأشراف والقواد والعمال وسائر طبقات الناس في قصره. فقال إنسان لبعض الأشراف، وهم معروفون بعمامتهم السوداء: اجلس يا شريف! فصرخ بعض الكتاميين: وفي الدنيا شريف غير مولانا المعزّ؟ لو ادّعى هذا غيره لقتلناه! وبلغ المعزّ هذا الحادث، فلما جلس على سريره أذن للناس بالجلوس، قال للأشراف الطالبين حضار مجلسه: يا معشر الأهل وبني العم من ولد فاطمة: أنتم الأهل، وأنتم العدة، وما نرضى بما بلغنا من القول، وقد أخطأ من تكلم بما قيل لنا. لكم بحمد الله الشرف العالي والرحم القريبة، ولئن عاود أحد لمثل ما بلغنا، لننكلن به نكالاً مشهوداً^(١).

وكان هناك محلات موقوفة لذرية عمرو بن العاص كانت لعلي بن أبي طالب، ولما هاجم ابن العاص محمد بن أبي بكر، والي الإمام علي على مصر، وقتله، احتكر لنفسه هذه المحلات والأحباس، واستمرت ذريته تتناقل ملكيتها حتى مجيء المعزّ، فصادرها المعزّ من أبناء عمرو بن العاص وأعادها لأبناء الإمام علي^(٢).

(١) م.س. ص ١٤٧.

(٢) م. نفسه. ص ١٤٨.

وعندما تحدّث المقرئزي عن حوادث سنة ٣٦٤هـ ذكر فيها طلوع نجم الذنب عند فجر منتصف ذي القعدة من هذه السنة وكان له شعاع كبير واستمرّ طلوعه أيّاماً فاضطرب الناس ولمّا رآه المعزّ استعاذ منه وتعوّذ وخاف منه.

وجاء للمعزّ كتاب من ابن عمه جعفر ابن محمد الحسنّي أمير مكّة يتواسط لأبناء عمرو بن العاص من بني جمح بأن يردّ عليهم محلاتهم وأحباسهم في مصر التي كنا قد ذكرنا أنّ المعزّ فور وصوله إلى مصر قد انتزعها من أبناء عمر بن العاص وأعطاهم لأبناء علي بن أبي طالب (ع) فلم يرفض طلب ابن عمه جعفر بن محمد الحسنّي فأعاد المحلات والأحباس لورثة عمرو بن العاص من بني جمح وعوّض من جيبه الخاص على أبناء عمّه الطالبين. وقد ذكر أنّه كان يضرب به المثل في حلمه وكرم أخلاقه حتى مع خدمه وعبيده «حتى لقد كان بعضهم يعترض عليه ويقاطع رأيه ويحتج عليه ومع ذلك كان يجادلهم بالحسنى ويناقشهم باللين ولا يأخذهم بالشدة لا يجد الغضب إلى نفسه سبيلاً. ولم يكن ذلك عن ضعف منه ولكنّه الحلم المستساغ»^(١). وذكره ابن تغري بردي بعد أن أورد كلّ سبب وشتائم المؤرّخين المشاركة بحقه وطعنهم بنسبه فقال: «وكان المعزّ عاقلاً حازماً أديباً ممدحاً فيه عدلٌ وإنصافٌ للرعية»^(٢).

وقد مدحه الشعراء والأدباء وأكثر من اختصّ بمدحه ولازمه في

(١) المعزّ لدين الله، حسن إبراهيم حسن، طه أحمد شرف، ط ١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٦٤، ص ٢٨٨.

(٢) النجوم الزاهرة، م.س. ج ٤، ص ٨٢.

أسفاره ابن هانئ الأندلسي الأزدي. وقد وصل بابن هانئ الحد في وصف الخليفة المعز إلى إعطائه الصفات الإلهية كقوله^(١):

ما شئت لا ما شاءت الأقدار، فاحكم، فأنت الواحد القهار
وكانما أنت النبي محمد، وكانما أنصارك الأنصار
أنت الذي كانت تبشّرنا به، في كتبها، الأحبار والأخبار
أبناء فاطم هل لنا في حشرنا ملجأ سواكم عاصم ومجار
أنتم أحبباء الإله وألّه، خلفاؤه، في أرضه، الأبرار
أهل النبوة والرّسالة والهدى، في البيّنات، وسادة أطهار
والوحي، والتأويل والتحريم، والتحليل، لا خلف ولا إنكار
إن قيل: من خير البرية؟ لم يكن إلاّكم خلق، إليه يشار
لو تلمسون الصخر لا نبجست به، وتفجرت، وتدققت أنهار
والبيت الأول من هذه القصيدة اتخذه أعداء الفاطميين ذريعة
لإثبات خروجهم ومروقهم عن الإسلام، حيث شبه فيه الشاعر ابن
هانئ، الخليفة المعز بالذات الإلهية، وقد تعمّدت ذكر بعض أبيات
القصيدة نفسها لما فيها من التزام بالفكر الإسلامي العلوي الطالبي.
ومهما قيل فالشعراء يتبعهم الغاؤون، ويقولون ما لا يفعلون وفي كلّ
واد يهيّمون، ولا اعتبار تاريخياً لأقوالهم وأشعارهم وتشبيهاتهم.

وقد روى ابن أبيك الدواداري رواية طريفة يظهر فيها قوة باع
ابن هانئ في الشعر والأدب مفادها أنّ ابن هانئ سمع بكرم

(١) ديوان ابن هانئ الأندلسي، تحقيق أنطوان نعيم، ط ١، بيروت، دار الجيل، سنة ١٩٩٦، ص ١٠١.

وسماحة جعفر ملك الزاب وحبّه وتقديره للشعر والشعراء فحاول
التقرّب منه والدخول عليه، فمنعه وزير جعفر لشدة حسده لأهل
الفضل والأدب. فما كان من ابن هانئ أن لبس لبس البدو الجفاة
والتفّ في كسائه بشكل ساخر وأخذ كتف دابة (عظمة) وكتب عليها
«متمسخرأ»^(١):

الليل ليل والنهار نهار والبغل بغل والحصار حمار
والديك ديك والدجاجة زوجة وكلاهما طير له منقار
ووقف على باب الوزير واستأذن أحد الحجاب وقال له: قل
للوزير، شاعر قد جاء بقصيدة مدح للملك، فقال له الحاجب أين
قصيدتك. قال: تراها في هذا العظم فضحك الخادم من زيّه، وأطرف
الوزير بذلك. فقال الوزير: ما نظرف الملك بشيء أطرف من هذا،
وأحضره يسمع الملك شعره. وكاد يغشى عليه من الضحك من
منظره. واعلم به جعفرأ. فقال: أدركنا به، فأدخله. ووقف ابن هانئ
لينشد ما في العظم، ولكنه رماه وارتجل قصيدة مطلعها:

أيلقنا إذا أرسلت وارداً وخفّا وبتنا نرى الجوزاء في أذنّها شنفّا
فأذهل الملك والحاضرين، وقاطعه جعفر قائلاً: بحياتي أنت ابن
هانئ. قال: نعم قال: وما حملك على ذلك: قال: هذا الوزير الذي لا
يترك ذا أدب يضرب فيك. فقال له! والله أحسنت في التحيل والتوصل
أضعاف إحسانك في قصيدتك. ثم خلع عليه وقرّبه منه^(٢).

(١) راجع: الدرّة المضيئة في تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٤٦.

(٢) كنز الدرر، وجامع الغرر، الجزء السادس، الدرّة المضيئة في تاريخ الدولة الفاطمية، ابن
أبيك الدواداري، ط ١، القاهرة، المعهد الألماني، سنة ١٩٦١، ص ٢٤٧.

أسطورة احتجاب المعز:

كل المؤرخين المشاركة والمغاربة تحدّثوا وأكثروا عن اهتمام الفاطميين بالفلك والنجوم ومعرفة الطالع. وكتب المقرئ عن اهتمام المعز بالنجوم ومعرفة الطالع فقال: «كان، مغرى بالنجوم، ويعمل بأقوال المنجمين. قال له أحد المنجمين أنّ عليه (قطوع) في وقت كذا. فأشار عليه أن يمضي هذا القطع في سرداب يختفي فيه إلى أن يمرّ هذا القطع. ففعل المعز ما أمره به المنجم. فأحضر قواده وقال لهم: إنّ بيني وبين الله عهداً ماضٍ إليه. وقد استخلفت عليكم ابني نزاراً، فاسمعوا له وأطيعوا»^(١).

ونزل المعز السرداب، فكان أحد المغاربة، إذا رأى سحاباً سجد وأوماً إليه بالسلام ظناً منه أنّ المعز فيه. فغاب سنة ثم ظهر. وبقي مدة ثم مرض، فستر ابنه العزيز نزار موته إلى عيد النحر من سنة ٣٦٥هـ فصلّى بالناس ودعا لنفسه وتقبّل التعازي بأبيه.

كيف فسّر المؤرخون المشاركة احتجاب المعز؟

يقول ابن أبيك الدواداري: «وكان المعز قد أخفى نفسه أربعين يوماً، بعدما جعل له في بيت كل كبير ورئيس من أهل مصر عيناً من جهته يخبرونه بما يتجدّد لذلك الرجل في بيته من سائر أحواله.

ثم ظهر لهم وقال لهم: إنّي رفعت إلى السماء الدنيا، وكنت

(١) راجع اتعاظ الحنفاء، الأول، ص ٢٣١.

أشاهد جميع ما صنعتهم. وذكر لكل واحد ما فعله. فمنهم من صدق زعمه أما العقلاء فراءؤوه في الظاهر وكفروهم في الباطن.

وكانت له أشياء من هذه الخزعبلات، يرجع إليها أولو العقول الناقصة، وينكرها أصحاب العقول الوافرة»^(١).

ولم يذكر الدواداري مصادره ومن أين أتى بهذه الأخبار، علماً أنَّ ابن الأثير والمقرئزي ويحيى ابن سعيد الأنطاكي، وابن العبري، وكلهم أقرب منه إلى الحدث، لم يذكروا هذه التفهيمات.

أما ابن تغري بردي فيقول: «ولما دخل المُعزُّ إلى القاهرة احتجب في القصر، وبعث عيونه ينقلون إليه أخبار الناس، وهو متوفّر في النعم والأغذية المسمّنة والطلاءات التي تنقي البشرة وتحسّن اللون، ثم ظهر للناس بعد مدّة وقد لبس الحرير الأخضر وجعل على وجهه اليواقيت والجواهر تلمع كالقواكب. وزعم أنّه كان غائباً في السماء وأن الله رفعه إليه، فامتلات قلوب العامة والجهال منه رعباً وخوفاً»^(٢).

وابن تغري بردي في هذا النص يساوي بين المُعزِّ لدين الله وبين الحوالة والمشعوذين والدجالين، علماً أنّه نقل الخبر بحذافيره عن ابن الأثير هو والحافظ الذهبي، وحرّفاه وأضافا عليه من وضعهما، وأبرزاه بالشكل الذي يسيء إلى فكر الفاطميين الشيعة ويغمز من عقيدتهم الإسلامية.

(١) الدرة المضية، م.س. الجزء السادس، ص ١٦٥.

(٢) النجوم الزاهرة، م.س. مج الرابع، ص ٧٨.

بينما ذهب غيرهم من المؤرخين المعاصرين إلى مساواته بالمسيح، عليه السلام، في احتجابه وصعوده إلى السماء.

يقول أحد هؤلاء المؤرخين: «مولانا المعز، جلّت عظمته، ولد بالمهدية من أعمال تونس، في الحادي عشر من شهر رمضان المبارك سنة ٣١٩هـ. واضطلع بأعمال الخلافة في ٧ ذي الحجة سنة ٣٤١هـ. وصل إلى مصر سنة ٣٦٢هـ. وبعد ثلاث سنوات من إعلان الخلافة في مصر، احتجب الإمام عن الأعين وذلك يوم الجمعة في ١١ ربيع الثاني سنة ٣٦٥هـ^(١).

وعند حديث توفيق سلمان عن ولده العزيز أيضاً، لا يقول إنه توفي، بل يقول إنه استدعى أهل القصر والوزراء والحجّاب وقرر الاحتجاب أمامهم وتسليم الإمامة والخلافة لولده الحاكم، وكان الأمر ليس موتاً مقدراً بيد الخالق، بل إنّ الأمر بيدهم فهم يقررون متى يحتجبون.

عدل المعز، دفع الأقباط لادّعاء تنصّره:

وبسبب هامش الحرية الكبير الذي تركه الخلفاء الفاطميون لأبناء مصر، وخاصة الأقباط النصارى منهم، دفعهم لادّعاء تنصّر بعض هؤلاء الخلفاء، منهم الخليفة المعز لدين الله، حيث نقل عن مخطوطة «الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة»، أن البطريرك إفرام بن زرعة هو الذي أقنعه بالتنصّر، «فتنصّر ولبس زي الرهبان وقبره إلى الآن

(١) أضواء على تاريخ مذهب التوحيد، توفيق سلمان، ط ١، دار ألف ليلة وليلة، بيروت، سنة ١٩٦٣، ص ٧٩.

في كنيسة أبي سيفين». بعد أن تخلّى عن الخلافة لولده العزيز نزار^(١).

وكذلك ينسب المؤرخون الأقباط، الخليفة نزار إلى دين النصرانية باعتبار أن والدته مسيحية وقد عمدته سرّاً.

وكل هذه الأخبار التي يتناقضها الأقباط النصارى هي عبارة عن وسائل لتبرير حبّهم للفاطميين وللدولة الفاطمية، في ظل دول عملت على طمس آثارهم وحبس الأنفاس المتفوّهة بحبّهم، دولة الأكراد الأيوبيين.

لقد مات المعزّ وهو الإمام العالم الضارب من كلّ علم بسهم وافر، الذي كان لا وقت ولا طريق للهو إلى نفسه، لقد كان أكبر شخصية في العالم الإسلامي في عصره. وقد فاق بثرواته وانتصاراته وقوته ونفوذه وتواضعه وحلمه وتديّنه، خلفاء عصره: الأموي الناصر في الأندلس والمطيع والطائع العباسيين في بغداد. وهو أول خليفة استطاع جمع العالم الإسلامي تحت رايته مشرقاً ومغرباً.

الخليفة الفاطمي الخامس العزيز نزار ابن المعز:

يحاول المطلّع على التاريخ العربي والإسلامي أن يجمع لديه مكتبة تاريخية تحوي عدداً متسلسلاً متتالياً من الكتب التاريخية، تغطي تاريخ أغلب العصور الإسلامية، فيجد ثغرة وفجوة كبيرة، بين

(١) راجع: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، محمد عبده عنان، ط ٢، القاهرة، مكتبة الخانجي، سنة ١٩٦٩، ص ١٠١.

القرنين الرابع الهجري والسادس الهجري، أي أن لا مؤرخين مشهورين ولا كتب تاريخ مشهورة، ألفت ووضعت في هذه الحقبة. والكتب الموجودة هي لمؤرخين لم يعاصروا الحدث، بل كتبوا عنه بالسماع، وأنا أعني فترة ظهور الدولة الفاطمية وزوالها. فالطبري أنهى تاريخه في سنة ٣٠٢هـ وابن سعد القرطبي، ذيل تاريخ الطبري حتى سنة ٣٢٠هـ، والمسعودي توفي سنة ٣٤٦هـ، علماً أن كتابه أخبار الزمان، لا يوجد منه إلا مجلداً واحداً من أصل ثمانين وعشرين مجلداً، وكذلك اليعقوبي، فهو قد غطى أحداث سنة ٢٥٩هـ، أما يحيى بن سعيد الأنطاكي وابن العبري لم يعطيا الفاطميين حقهم، بل أشارا بإشارات سريعة لخلفائهم، ولبعض الأحداث التي حدثت في عهدهم. وهما من معاصري ابن الأثير.

وابن الأثير كان أقرب المؤرخين عهداً بالدولة الفاطمية، فهو توفي سنة ٦٣٠هـ، ممّا يعني أنه ولد وعاش شبابه في أواخر أيامها حين أزالها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٩هـ. وربما كان ابن الأثير من المبهورين والمعجبين بهذه الدولة ونظمها وخلفائها، لأنه لم يظلمهم بأحكامه كما ظلمهم غيره من المؤرخين المشاركة المتحاملين على الشيعة والتشييع. كالحافظ ابن كثير وابن العماد الحنبلي والمقدسي أبو شامة وابن أبيك الدواداري.

من هنا، نجد أن ابن الأثير، كان أقرب المؤرخين معاصرة للدولة الفاطمية ولأحداثها وخلفائها. أما المؤرخون المتأخرون فقد أخذ المتأخر عن المتقدم، مما يعني أن الجميع ردّد ما قاله وكتبه ابن الأثير وزاد عليه حسب هواه وميوله. باستثناء أحمد بن علي

المقريري وابن خلدون فقد اتصفا بالموضوعية وبالبعد عن الأهواء.

تحدث ابن الأثير عن الخليفة العزيز فقال: «وفي هذه السنة (٣٦٥هـ)، توفي المعز لدين الله أبو تميم معدّ بن المنصور العلوي الحسيني بمصر... وهو أول الخلفاء العلويين ملك مصر. وكان مغرمًا بالنجوم ويعمل بأقوال المنجمين. قال له منجمه: إنَّ عليه قطعاً في وقت كذا، وأشار عليه بعمل سرداب يختفي فيه إلى أن يجوز ذلك القطع ففعل ما أمره وأحضر قواده وقال لهم: إنَّ بيني وبين الله عهداً أنا ماض إليه. وقد استخلفت عليكم ابني نزاراً - يعني العزيز - فاسمعوا له وأطيعوا. ونزل السرداب. وكان أحد المغاربة إذا رأى سحاباً نزل وأوماً بالسلام ظناً منه أنَّ المعزَّ فيه. وغاب سنة في السرداب ثم ظهر، وبقي مديدة ومرض وتوفي، فستر ابنه العزيز موته إلى عيد النحر (الأضحى) من هذه السنة. فصلَّى بالناس وخطب بهم ودعا لنفسه، وعزَّى بأبيه. ولما استقر العزيز في الملك، أطاعه العسكر، فاجتمعوا عليه. وكان هو يدبّر الأمور، منذ مات والده، إلى أن أظهر موته، ثم سیر إلى المغرب دنانير عليها اسمه فرقت في الناس».

وفي ذكر أحداث سنة ٣٧٨هـ، قال ابن الأثير «إنه وصلت رسل الروم في البحر إلى ساحة القدس بتقادم (هدايا)، ودخلوا مصر يطلبون الصلح، فأجابهم العزيز واشترط شروطاً شديدة التزموا بها كلّها. منها أنَّهم يحلفون أنَّه لا يبقى في مملكتهم أسيراً مسلماً إلا أطلقوه، وأن يخطب للعزيز في جامع القسطنطينية في كلِّ جمعة. وأن يحمل إليه من أمتعتهم كلَّ ما اشترطته عليهم. ثم ردَّهم بعقد الهدنة سبع سنين.

وقال ابن الأثير أيضاً أنَّ الخليفة العزيز توفي سنة ٣٨٦هـ. وعمره اثنتان وأربعون سنة في طريقه لغزو الروم، وكانت خلافته «إحدى وعشرون» سنة. كان اسماً طويلاً أصهب الشعر (أحمر)، عريض المنكبين. قيل إنه ولي عيسى بن نسطورس النصراني كتابته (الوزارة) واستناب بالشام يهودياً اسمه مَنشأ، فاعتز بهما النصراني واليهود وأذوا المسلمين. فعمد أهل مصر وكتبوا رقعة وجعلوها في يد صورة (دمية)، فيها: بالذي أعزَّ اليهود بمنشأ والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذلَّ المسلمين بك، ألا كشفت ظلامتي، وأقعدوا تلك الصورة (الدمية) على طريق العزيز، والرقعة بيدها. فلما مرَّ العزيز ورأها، أمر بأخذها، فلما قرأ ما فيها علم ما أريد بذلك، فقبض عليهما وأخذ من عيسى ثلثمائة ألف دينار، ومن منشأ اليهودي شيئاً كثيراً. وكان يحب العفو ويستعمله^(١). وكان الحسن بن بشر الدمشقي قد هجا وزيره اليهودي يعقوب بن كلَّس بقوله:

تَنصَّرْ فَالتَنصَّرِ دِينَ حَقٌّ عَلَيْهِ زَمَانُنَا هَذَا يَدُلُّ
وَقَلَّ بِثَلَاثَةِ عَزَّوَأَجَلُوا وَعَطَّلَ مَا سِوَاهُمْ فَهُوَ عَطَّلَ
فِي عَقُوبِ الْوَزِيرِ أَبٍ وَهَذَا الْعَزِيزُ ابْنُ وَرُوحِ الْقُدُسِ فَضَّلَ
وَيَعْنِي بِالْفَضْلِ، كَاتِبَ يَعْقُوبُ بْنُ كُلَّسٍ. فَلَمَّا جَاءَ يَعْقُوبُ بْنُ كُلَّسٍ
يَطْلُبُ مِنَ الْعَزِيزِ مَعَاقِبَةَ الشَّاعِرِ الدَّمَشْقِيِّ أَجَابَهُ الْعَزِيزُ: لَقَدْ هَجَانَا
مَشْتَرَكِينَ فَشَارَكْنِي فِي الصَّفْحِ وَالْعَفْوِ عَنْهُ. فَخَجَلَ ابْنُ كُلَّسٍ وَسَكَتَ.
أَمَّا ابْنُ خُلَكَانَ فَقَالَ عَنْهُ: «أَبُو الْمَنْصُورِ نَزَارُ الْمَلَقْبُ بِالْعَزِيزِ بِاللهِ

(١) الكامل في التاريخ، المجلد ٧، ص ١٧٦.

- كان كريماً شجاعاً حسن العفو عند المقدرة، كان اسمر أصهب الشعر، أشهل العينين (واسع) عريض المنكبين، حسن الخلق، قريباً من الناس، لا يؤثر سفك الدماء، بصيراً بالخيول والجارح من الطير، محباً للصيد، مغرى به وبصيد السباع. ويعرف الجوهر والبز. وكان أديباً فاضلاً ومن شعره^(١):

نحن بنو المصطفى ذوو محن يَجْرَعُهَا فِي الْحَيَاةِ كَاظِمْنَا
عَجِيبَةً فِي الْحَيَاةِ مَحْنَتْنَا أَوْلْنَا مَبْتَلَى وَخَاتِمْنَا
يَفْرَحُ هَذَا الْوَرَى بِعِيدِهِمْ طَرّاً وَأَعْيَادِنَا مَا تَمْنَا
ومما ذكره يحيى ابن سعيد أَنَّ زوجة العزيز كانت نصرانية وفهمنا ذلك من قوله: «وفي شهر رمضان سنة ٣٧٥هـ صير أريستوس، خال السيدة ابنة العزيز بالله بطريقاً على بيت المقدس، وصير «أخوه» أرسانيوس أيضاً مطراناً على القاهرة ومصر. وكان لهما جميعاً محلاً لطيفاً من العزيز بالله وتقدماً في مملكته وجلالة قدر»^(٢).

وذكر يحيى ابن سعيد أيضاً أَنَّ العزيز أنشأ أسطولاً بحرياً كبيراً في دار الصناعة بمصر «وحمل إليه جميع الآلات والسلاح والعُدَد» ولكنه أحرق يوم موعده انطلاقته لمحاربة الروم، فهاجم العامة التجار الأروام لاتهامهم إيّاهم بحرقه. وقد عاد العزيز وجّهز أسطولاً ثانياً أكبر وأعظم من الأسطول الأول.

(١) وفيات الاعيان، ابن خلكان، مج خمسة، ص ٣٧٣.

(٢) يتيمة الدهر، الثعالبي، ط ٢، القاهرة، ج ١، مطبعة السعادة، سنة ١٩٥٦، ص ٣٠٩.

وذكره ابن تغري بردي فقال عنه: «ملك مصر وخطب له بها،
وبالشام والمغرب والحجاز، وحسنت أيامه، وكان كريماً شجاعاً
سيّوساً وفيه رفق بالرعية»^(١).

وروى ابن تغري بردي رواية الدمية عن ابن الأثير أن، التي
قدّمت للعزیز الرقعة، هي امرأة وليست دمية.

وروى ابن تغري بردي أيضاً أن العزیز وجد يوماً ورقة مكتوباً
فيها:

بالظلم والجور قدر ضينا وليس بالكفر والحماقه
إن كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقه
قال: وذلك لأنهم ادّعوا علم المغيّبات والنجوم وأخبارهم في ذلك
مشهورة^(٢). وقد روى ابن خلكان نفس المعلومة، على أن ولده
الحاكم هو الذي وجد الورقة علماً أنها مدسوسة وغير موجودة في
كتب المتقدمين المعاصرين للدولة الفاطمية.

وقد اشتهر العزیز بالحلم والعفو المنقطعي النظر، حيث ذكر ابن
تغري بردي لجوء «جماعة من أصحاب سعد الدولة بن سيف
الدولة بن حمدان، فأمنهم وأحسن إليهم وقربهم. منهم وفي الصقلي
في ثلاثمائة غلام وبشارة الإخشيدي في أربعمائة غلام.

وفي ختام حديثه عنه يقول: «وكان العزیز ملكاً شجاعاً مقداماً
حسن الأخلاق كثير الصفح حليماً لا يؤثر سفك الدماء، وكانت لديه

(١) تاريخ الانطاكي، المعروف بصلة تاريخ أوتیکا، يحيى بن سيعد الانطاكي، ط ١، بيروت،
جروس برس، سنة ١٩٩٠، ص ٢٠٣.

(٢) راجع النجوم الزاهرة، م أربعة، م.س. ص ١٢١.

فضيلة وله شعر جيد، وكان فيه عدل وإحسان للرعية، قلت: وهو أحسن الخلفاء الفاطميين حالاً بالنسبة لأبيه المعز ولابنه الحاكم».

ويتابع ابن تغري بردي ذاكراً مبايعة عضد الدولة البويهى سلطان بغداد وحامي الخلافة العباسية للعزیز فيقول: «وكان العزيز حازماً فصيحاً وكتابه إلى عضد الدولة بحضرة الخليفة الطائع العباسي يدل على فضل وقوة وكان كتابه يتضمن بعد البسملة: «من عبد الله ووليه نزار أبي منصور الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين إلى عضد الدولة الإمام نصير ملة الإسلام أبي شجاع بن أبي علي: سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله الصلاة على جدّه محمد رسول رب العالمين وصحبته على الخلق أجمعين، صلاة باقية نامية متصلة دائمة بعترته الهادية، وذريته الطاهرة...»

ولم يورد ابن تغري بردي الرسالة دون أن ندري السبب ولكنه علّق عليها بقوله:

فكتب إليه عضد الدولة كتاباً يعترف فيه بفضل أهل البيت، ويقرّ للعزیز أنّه من أهل تلك النبعة الطاهرة، وأنه في طاعته، ويخاطبه بالحضرة الشريفة. ويقول: «وأنا أتعجب من كون عضد الدولة كان إليه أمر الخليفة العباسي ونهيه، ويقع في مثل هذا لخلفاء مصر، وقد علم كلّ واحد ما كان بين بني العباس وخلفاء مصر من الشنآن. وما أظن عضد الدولة كتب له ذلك إلا عجزاً عن مقاومته، فإنه قرأ كتابه في حضرة الخليفة الطائع، وأجاب بذلك أيضاً بعلمه. فهذا من العجب»^(١).

(١) النجوم الزاهرة. م.س. نفسه، ص ١٢٩.

وروى عنه ابن تغري بردي فقال نقلاً عن وزيره يعقوب بن كلّس: سمعت العزيز بالله يقول لعمه حيدرة: يا عم، أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة، وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار، وأن يكون ذلك كله من عندي. قال المسبّحي: وهذا لم يسمع بمثله قط من ملك.

كتب عنه الحافظ ابن كثير فذكر ولادته وسنين حكمه ووفاته وقال: «وقام بالأمر بعده ولده الحاكم قبّحه الله، والحاكم هذا هو الذي ينسب إليه الفرقة الضالة المضلّة الزنادقة، وإليه ينسب أهل وادي التيم من الدرزية»^(١).

أما ابن العماد الحنبلي فقد ذكره وذكر شمائله غير أنّه نعته بالباطني و «أن أكثر الناس لا يسلمون للعبيديين نسبتهم إلى أهل البيت»^(٢).

وذكر أخباره المقرئ فقال أنّه بعد أن تسلّم الخلافة أرسل عساكره إلى دمشق فحاصرها، وإلى صيدا فأخذها، وإلى صور فلم يستطع أخذها. ولما وصلت الأخبار بانكسار عساكره أمام القرامطة، قرّر الخروج لقتالهم بنفسه.

وفي سنة ٣٦٧هـ، منع العزيز النصاري من إظهار ما كانوا يفعلون في عيد الغطاس، من الاجتماع.

وواصل العزيز سيره بسبعين ألف من عساكره حتى وصل

(١) البداية والنهاية، م ١١، م.س. ص ٣٢١.

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، ط ١، بيروت، دار الآفاق الجديدة، م ٣، سنة، ص ١٢١.

الرملة فواقع القرامطة وكسرههم. ووصلت أخبار انتصار الخليفة على القرامطة إلى عاصمة الخلافة مصر، فقرأ ذلك على الجوامع واحتفل المصريون بانتصار خليفتهم على هؤلاء الخوارج الجدد.

ورجع العزيز بالقرامطة مأسورين ودخل القاهرة ومعه زعيمهم أفتكين وبقية الأسرى، ومن شدة حلم العزيز، لم يقتله بل أحسن إليه وأكرمه وأجزل عطاءه.

ويذكر المقرئ أن العزيز لشدة حلمه وتواضعه وتواضعه مع أهله، «استحضر أخويه وعميه وجماعة من أهله، ورسم لهم الأكل معه على مائدته»^(١).

وفي الحديث عن كرم العزيز قال المقرئ: «وفي سنة ٣٦٩هـ، ولد للوزير يعقوب بن كلس ولد ذكر فأرسل إليه العزيز مهدياً من صندل مرصعاً بالجواهر، وثلاثمائة ثوب وعشرة آلاف دينار عزيزية، وخمسة عشر فرساً بسروجها ولجمها، منها اثنان ذهب، وطيب كثير. فكان مقدار ذلك مائة ألف دينار.

وعقد العزيز على امرأة فأصدقها مائتي ألف دينار وأعطى الذي كتب الكتاب ألف دينار، وخلع على القاضي والشهود.

وجَهَّز الحاج وكسوة الكعبة وصلات الأشراف، والطيب والشمع والزيت فبلغ مصروفه ذلك مائة ألف دينار.

وكثر حلف الناس برأس أمير المؤمنين فنودي على منابر الجوامع: «برئت الذمة من أحدٍ قال هذا. وحلت به العقوبة، فلا يُحلفن إلا بالله وحده».

(١) راجع اتعاظ الحنفا، م ١، ص ٢٤٩.

وذكر المقرئزي خروج قسّام الحارثي بدمشق عن طاعة العزيز، ثم انكساره أمام الفاطميين واعتقاله وإرساله إلى القاهرة من قبل واليهم مَنشأ بن ابراهيم القَرَاز اليهودي، ولكنَّ العزيز عفا عنه.

وروى عنه أيضاً أنَّه طلب إلى بعض من فيه جرأة وشهامة بالتوجّه إلى بغداد ليسرق السبع (قلادة على صورة أسد) الفضة الذي كان يعلقه عضد الدولة البويهى على صدره ويتباهى به. فسار بعضهم إلى بغداد وسرقه ورجع به إلى العزيز. وهذه القصة تفسّر لنا خوف عضد الدولة من العزيز ومبايعته له، فلو أراد العزيز قتله لقتله بواسطة من أرسله يسرق له السبع الفضة.

وعندما اعتقل العزيز يعقوب بن كلّس وصادر أمواله وأملاكه وأوراقه، وجد بها أنَّه كان له «من أنواع البر صرف مبلغ ألف دينار كلّ شهر، فأمر العزيز بمتابعة صرفها على أصحابها، وعاد وعفى عن ابن كلّس وأعيد إلى وزارته وردّت إليه أمواله وأعيد اسمه إلى الطراز (المنسوجات الملكية)^(١).

الاهتمام بأمن المواطن:

وروى المقرئزي عن ابن منجب الصيرفي أنَّه كان هناك رجل من التجار الغرباء ينزل في قيسارية الإخشيد التي ينزل فيها البزازون خلف الجامع العتيق، فوجد مقتولاً في منزله، وأخذ ماله، فما كان من رشيق غلام ميمون صاحب الشرطة إلى أن اعتقل جماعة من أولاد

(١) راجع اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٢٦٢.

التجّار، ومن كان ساكناً حول قيسارية الإخشيد للتحقيق معهم. فشنع الناس على رشيق، أنّه هو الذي دسّ على التاجر الغريب، من قتله واستولى على ماله. ووصلت هذه التشنيعات إلى الخليفة العزيز، وخاصة أنّ رشيق دارى فعلته باعتقال أبرياء مستورين. فأصدر الخليفة العزيز فور وصول هذا الخبر إليه أمراً للوزير يعقوب بن كلّس لإعادة فتح التحقيق من جديد.

والمتّمعن في هذا الأمر، يكتشف عمق إيمان العزيز بتحقيق العدالة ومنع الظلم والجور والتعديات. وهذا نصّ الأمر الخلفيتاوي: «سَلَّمَ الله الوزير وأبقى نعمته عليه.

هذه رقعة (تقرير) رُفعت إلينا بالأمس، وعليك أن تطلّع عليها وتتدبّرّها والأمر والله فظيع، يسوء الأولياء ويُسِرُّ الأعداء، بالأمس كنا نضحك من فناخسرو (السلطان البويهى حاكم بغداد)، واليوم أُلجمنا بعار لبسنا في بلد نحن ساكنوه. والأخبار تسير به في البلدان. وحسبك بقتل الأنفس في أماكن الأمن والطمأنينة في وسط عمارة المسلمين. وتؤخذ الأموال. وقد وكل الأمر إلى رجلين لا يخافان الله (صاحب الشرطة ميمون وغلّامه رشيق)، عزّ وجلّ، ولا يتقيّانه. والدنيا فانية والآجال متقاربة. وإن أصبح إنسان، فمن يدري أنّه يمسي. فوالله لو جرى مثل هذا في بلد يبعد عنا، لوجب الاحتساب لله فيه، فكيف وقد تمّ تحت كنفنا وفي بلدنا.

فلسيتقصّ الوزير - سلّمه الله - عن هذه القصة، ويغسل هذا العار عن الدولة ولا يغمّها به.

فوالله الذي لا إله إلا هو، وحقّ جدّي رسول الله ﷺ - ما كتبت

إلى الوزير سلّمه الله - هذه الرقعة إلا وأنا خائف من نقم الله - جلّ اسمه - لكثرة تغافلنا وإهمالنا، حتى صارت المعاملة في سفك الدماء وقتل الأنفس. فليس على هذا صبر. ولا بُدّ لك من الاستقصاء عن هذه القصة، وأزرع الثقة في قلوب الناس، إلى أن تنكشف، وانتقم من فاعلها وتبرأ إلى الله تعالى فيه.

فليعمل الوزير - سلّمه الله - في ذلك، عملاً يأجره الله عليه ونشكره. ولا يتوانى عنه. وليس ما نفسله عن أنفسنا بانكشاف أمر هذه القصة قليلاً عند الله - جلّ وعلا - وعند عبيده من بعد.

وأنا أقسم على الوزير بحياتي ألا يتوانى عن هذا الأمر، ويسرع في الفراغ منه، وخلاص هؤلاء الرجال المساكين من مدّ يد من يطلب أموالهم وأنفسهم ظلماً وعدواناً، والشرطة والولاية قد صارت إرثاً، فليُنظر الوزير - سلّمه الله - أن يولي الشرطتين (القاهرة والفسطاط)، إنسانين يخافان الله - عزّ وجلّ - ويتقيانه. فتقدّم ونفّذ ما أمرناك به من الوجوه، وأظهره للناس لتطيب أنفسهم. وليعلموا أننا لا نغفل عن شيء يبلغنا الله فيه رضى، ولهم فيه صيانة والله حسبي، وعليه توكلّي.

والسلام على الوزير ورحمة الله.

قال المقرئ نقيلاً عن ابن الصيرفي:

فنسخ أهل مصر كافة هذا الأمر (الإداري) وصار الصبيان في المكاتب (المدارس) يتعلّمونه كما يتعلّمون صورة الحمد.

وصرف الوزير ميموناً ورشيقياً عن الشرطتين^(١). وإذا كان

(١) راجع اتعاظ الحنفاء، م ١، م.س. ص ٢٦٥.

المقريري قد أورد خبر هذا الأمر الإداري الصادر عن الخليفة العزيز، فليس إلا من باب الإعجاب بأخلاق هؤلاء الناس وتقواهم وحبهم للعدل وللحرية، ولبحثهم عن الأمن والأمان والرخاء والرفعة لهم ولكافة المسلمين.

إقراض الموظفين بالتقسيط المريح وبدون فائدة:

كما أورد المقريري عن حلم العزيز وكرمه وحمله هموم رعيته الخبر التالي:

أرسل جعفر بن مهذب صاحب بيت مال العزيز إلى العزيز يشكو الموظفين من أنهم يطلبون قروضاً مالية دائماً وهو لا يملك صلاحيات بإقراضهم كما أن الخزينة لا تتحمل. فأعاد العزيز الرقعة وذيّلها بالأمر التالي:

يا محمد: سلّمك الله. من أتاك من أهلك وكتابك وخزانك والمتصرفين معك، ومن سائر عبيدنا والمتمسكين بأذيالنا يطلب منك سلفاً، ورأيت منه ما يدل على صحة ما شكاه من ضرورته، وعلمت صدقه في دينه، فأدفع إليه ما رأيته. وخذ منه خطه (توقيعه). ولا تطلب منه ردّه. فإن ردّه إليك عفواً من ذات نفسه، فخذ منه. وإن لم يرده إليك. وعلمت أن يده لا تستطيع ردّه، فأعذره في تأخير ما قبضه. وإن طلب زيادة، زده على شرطه. واسكت عن طلبه. ومن عرفت أنه قادر على ردّ ما قبضه ولم يعده إليك، فأمسك عن طلبه، وامنعه من مثله^(١).

(١) راجع اتعاظ الحنفا، م ١، م.س. ص ٢٩٦.

لكل جريمة عقاب:

وعندما حاول منير والي دمشق من قبل العزيز مكاتبة العباسيين في بغداد، أرسل له جيشاً فنازله وأسرته «وأخذ وحمل إلى القاهرة، وشهر به وطوّف على جمل أجرب ومعه قرد يصفعه في مائة من أصحابه ومناد ينادي: هذا منير لعنه الله، أصبحت دياره خالية، وكلابه عاوية، ونساؤه صائحة، طاعنته الرماة، ونازلته الحماة، هذا جزاء من نافق على الله عزّ وجلّ، وعلى مولانا العزيز بالله»^(١).

وفي سنة ٣٨١ هـ، وصل الخبر إلى العزيز بأن تاجراً للخمر ينقل من الصعيد حمولة جرار ملأى بالخمرة فأمر العزيز بتوقيفه ومصادرة الحمولة فكسرت كلها وكان تعدادها واحد وخمسون ألف جرة خمر.

وتقدم بعض أقرباء منير الخادم يطلبون العفو لعلمهم بسعة حلم العزيز، فعفا عنه وعن سبعمائة من أصحابه.

ووشى بعض النصاري بأحد كتّاب العزيز، فلم يصدقهم ولكنه هدّده، بعد أن رتب له في كلّ شهر عشرين ديناراً حتى لا يضطر لأخذ الرشوة.

وكنا قد أشرنا كيف عفى العزيز عن منجوتكين وقرّبه منه وجعله من قواد عسكره، وعندما ذكر المقرئزي حوادث سنة ٣٨٢ هـ. قال: «وفي جمادى الأولى، ورد الخبر على جناح الطائر (الحمام الزاجل) بأن سعد الدولة شريف بن سيف الدولة الحمداني

(١) م.س. ص ٢٧٠.

حاول رشوة منجوتكين بـ ألف ألف درهم (مليون) وألف ثوب ديباج ومائة فرس مسرجة، ليترك حلب ويرحل عنها، فرفض منجوتكين وتابع حصاره لها، وأثناء الحصار، قدم الروم، فواقعهم منجوتكين، وكان في خمسة وثلاثين ألفاً والروم في سبعين ألفاً، فانهزم الروم، وأخذ سوادهم، وقتل منهم وأسر كثيرًا. فأخذ العزيز الكتاب وقرأه بنفسه على الناس وطلب من القاضي النعمان إعلان البشارة في جوامع مصر، فنزل القاضي النعمان وقرأه بنفسه على الكافة فوق المنبر بالجامع العتيق وأنهى النعمان كلامه بقوله: «فاحمدوا الله أيها الناس فإن الله تعالى قد صانكم وسان أولادكم وأموالكم، بمولانا وسيدنا الإمام العزيز بالله - عليه السلام - فما بالعراق تاجر معه عشرة دنانير أو أكثر إلا وتؤخذ منه»^(١).

وقد عاد منجوتكين منتصراً محملاً بالغنائم العظيمة والأموال والدواب وعشرة آلاف أسير رومي.

ونحن نلاحظ تأكيد المقرئزي مجدداً على اهتمام الفاطميين بالأمن والأمان لرعيتهن. وهذه الصفة هي صفات الدول المتحضرة السابقة لغيرها من الدول بقرون وأجيال.

وروى المقرئزي أيضاً عنه شدة اهتمامه بمشاكل رعيته ومشاكل المسلمين فقال عنه حين عرضت عليه موازنة قصر الخلافة «وابتدىء بمصروف مؤونته ومطابخه وموائده، فحذفه ولعن من عمله وقال: أشبع أنا وتجوع الناس. أطلقوا هذه الأرزاق على دور الناس».

(١) م.س. نفسه، ص ٢٧٥.

وعندما توفي العزيز قال المقرئزي: «وأقيم المآتم والصياح في القصر، وضُبط الناس أحسن ضبط، فلم يتحرك أحد ولم يبق شارع ولا زقاق إلا وفيه صراخ ونحيب».

وكان العزيز كريماً حليماً، حكيماً، عاقلاً محباً للعلم، والعلماء، مقدراً الشعر والشعراء. مدحه الكثيرون من شعراء المشرق والمغرب. ومنهم أبو الرقعمق الذي قال فيه قال فيه وبوزيره ابن كلّس^(١):

لم يدع في سائر الأررض عدواً إلا وأخمد ناره
كل يوم له على ثوب الدهر وكثر الخطوب بالبذل غاره
ذو شأنها الفرار من البخل وفي حومة الندى كراهه
هي فلتت عن العزيز عداه بالعطايا وكثرت أنصاره
هكذا كل فاضل يذهو تمسي وتضحى نفاعه ضاراه
فاستجره فليس يأمن إلا من تفيًا ظلاله واستجاره
وإذا ما رأيت مطرقاً يُعمل في ما يريد أفكاره
لم يدع بالذكاء والذهن شيئاً في ضمير الغيوب إلا أثاره
لا ولا موضعاً من الأرض إلا كان بالرائي مدركاً أقطاره
زاده الله بسطة وكفاه خوفه من زمانه وجذاره
وفي هذه القصيدة يسكت أبو الرقعمق المرجفين والمدلسين
الذين اتهموا الخلفاء الفاطميين بادعائهم معرفة الغيب:
لم يدع بالذكاء والذهن شيئاً في ضمير الغيوب إلا أثاره

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلّكان، ج ١، ط ١، بيروت دار الثقافة، لا تاريخ، ص ١٣٢.

الخليفة الفاطمي السادس

المنصور أبو علي الحاكم بأمر الله:

شكّل الحاكم بأمر الله الفاطمي في تاريخ العرب والإسلام ظاهرة فريدة من نوعها، تستوجب الدراسة والتعمّق والتحليل والتعليل، فقد وُلد في عصر لم يكن هناك قيمة لإنسانية الإنسان وللحريات وللعدالة، فجاء الحاكم ليعطي الإنسان قيمته ويطلق الحرية من أيدي سجانيتها والعدالة من أيدي مغتصبها.

ذكره ابن خلّكان فقال: «أبو علي المنصور الملقب بالحاكم بأمر الله بن العزيز بن المَعزّ...»

تولّى الحاكم عهد أبيه في حياته، وذلك في شعبان سنة ٣٨٣هـ. كان جواداً بالمال سفاكاً للدماء. قتل عدداً كثيراً من أمائل أهل دولته وغيرهم صبراً. وكانت سيرته من أعجب السير يخترع لكلّ وقت أحكاماً. يحمل الناس على العمل بها، وكانت ولادته بالقاهرة ليلة الخميس ٢٣ ربيع الأول من سنة ٣٧٥هـ^(١).

(١) وفيات الأعيان، م ٥، م.س. ص ٢٩٢.

وتحدّث عنه المقرئزي بعد وفاة أبيه العزيز فقال: «وبادر برجوان إلى أبي علي منصور بن العزيز، فإذا هو على شجرة جمّيز يلعب في دار في بلبيس فقال له: بِسْكُ تلعب؟ إنزل. فقال له: ما أنزل والله الساعة. فقال له برجوان: انزل: ويحك! الله فينا وفيك» وأنزله ووضع على رأسه العمامة بالجواهر وقبّل الأرض وقال:

السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته وخرج به إلى الناس، فقبّل جميعهم له الأرض وسلّموا عليه بالخلافة.

وخرج الناس من الغد للقاءه. فدخل القاهرة، وبين يديه البنود والرايات يحملها ريدان الصقلي والعساكر كلّها معه والخليفة العزيز بين يديه على عمارية. وقد خرجت قدماء منها. وتولى القاضي النعمان غسل العزيز ودفنه مع آبائه في تربة القصر بعد العشاء.

وقد لُقّب أبو علي المنصور: الحاكم بأمر الله، وكان عمره ساعة توليه الخلافة ١١ سنة وخمسة أشهر.

وكان أول عمل للحاكم بعد تسلّمه السلطة أن أعاد جثث القتلى الذين قتلهم الوزير عيسى بن نسطورس بتهمة حرق الأسطول ودفع لعائلة كلّ قتيل عشرة دنانير من أجل تكفينه، فكثّر الدعاء له من الرعية. وخاصة بعد أن أمر بردّ المنهوبات كلّها إلى أصحابها والتعويض عليهم من مال الدولة.

وعند مجيء عيد الأضحى، صلى الحاكم بالناس وخطب بهم خطبة العيد، وأصعد معه إلى جانبه على المنبر، قاضي القضاة محمد بن النعمان ووزراءه برجوان وابن عمار، ولم يكن له من العمر أكثر من إحدى عشر سنة.

وأخذ الوزير الحسن بن عمار يستفرد بالسلطة فبدأ يدخل القصر

راكباً ويمنع الناس من الدخول إليه إلا بعد تعب ومكابدة. وأخذ يقطع أرزاق الناس والموظفين ويبيع موجودات القصور ومستلزمات وظائفهم من نوق وخيول ودواب، وفرّق كثيراً من الجواري، وقطع أكثر ما كان في المطابخ وهي عادات مكروهة من الفاطميين، فهم نشأوا على الكرم وحب الناس وحب الخير للناس.

ولم يكتف الحسن بن عمار بهذه التصرفات، فأوجد شرطة جديدة من أولاد وأحداث المغاربة، «فكثر عبثهم وشرهم، وامتدت أيديهم إلى أحد الحرم في الطرقات وعرواً جماعة من الناس، فكثر الشكاية منهم، ولكن ابن عمار لم يُبد كبير نكير فأفرط الأمر». وأدت الأحداث بعزله من قبل الحاكم ونهب بيته واصطبلاته.

وثار بصور رجلٌ من بجة يقال له العلاقة، فاتصل بالروم، صليبيّ ذلك الزمان، فمدّه الروم بالمراكب والرجال. ووصل الخبر إلى الحاكم، فأرسل إلى صور المراكب والعساكر لمقاتلة علاقة ومعاقبته على الخيانة. ووصل الجيش الفاطمي إلى صور فهرب الروم منها وامتلك الفاطميون صور، وهرب العلاقة إلى أحد البروج واحتوى به مع بعض جماعته، فحاصره الفاطميون مدة حتى سلّم نفسه وطلب الأمان، ولكنه لم يعط الأمان بسبب خيانتة واتصاله بالأعداء. «وحمل العلاقة مقيداً وسيق مع جماعته إلى القاهرة، فشُهِرُوا، وقد ألبس العلاقة طرطوراً من الرصاص وثُقِّل على رأسه وسُلخ جلده وهو حي، وحُشي تبناً وصلب، وكان قد سكّ نقوداً في صور وكتب عليها: عزٌ بعد فاقة، وشطارة بلباقة، للأمير العلاقة»^(١).

(١) اتعاظ الحنفا، م ٢، ص ١٩.

الحاكم يجري حملة تطهير تبدأ بكبار موظفي الدولة:

وحاول برجوان الاستبداد بالحكم، فاستقل في ملذاته وأقبل على سماع الغناء والمغنيات وقصّر في واجبه تجاه الخليفة والناس «وكان يكثر من الدالة على الحاكم فحقد عليه لأمور، منها أن الحاكم قال عنه بعد قتله: أنه كان سيئ الأدب جداً، والله إنني لأذكر أنني قد استدعيته يوماً ونحن رُكبان، فجاء إليّ ورجله على عنق دابته وبطن خفّه قبالة وجهي». فنصب له الحاكم كميناً في قصره ودس عليه ريدان الخادم صاحب المظلة وجماعته فقتلوه.

وعلم الناس بقتل برجوان وجاءوا قصر الخلافة فاستقبلهم الحاكم ووقف فيهم خطيباً فقال: «إنّ برجوان عبد من عبيدي، استخدمته فنصح فأحسنّت إليه، ثم أساء في أشياء عملها فقتلته، وأنتم الآن شيوخ دولتي - وأشار إلى زعماء كتّامة - وأنتم الآن عندي أفضل مما كنتم فيه مما تقدّم. والتفت إلى الأتراك وقال لهم: أنتم تربية العزيز بالله وفي مقام الأولاد. وما لكلّ واحد عندي إلا ما يؤثره ويحبّه. فكونوا على رسومكم (مخصّصاتكم)، وامضوا إلى منازلكم، وخذوا على أيدي سفهائكم، فدعوا جميعاً وقبلوا الأرض، وانصرفوا»^(١).

ثم أمر كاتب الإنشاء - أبا منصور بن سورين فكتب سجلاً بأسباب قتل برجوان وقرأ على سائر جوامع مصر والقاهرة. والشام، واليمن، والمغرب.

(١) م. س. ص ٢٧.

وقد اتعظ من قتل برجوان كل القادة والوزراء، فبدأوا يستقبلون الناس في مكاتبهم في قصر الخلافة دون وسيط أو حاجب ويبثون في مشاكلهم، والمشكلة التي تستعصي على أحدهم يرفعها للخليفة الحاكم لأخذ الرأي والمشورة، بعد أن كان برجوان يستقبل المحظوظين فقط في داره.

وتوفي والي الفاطميين في الشام جيش بن الصمصامة فأوصى بكل تركته للخليفة الحاكم، وأرسل كل خزائنه وأمواله ووصيته مع ولديه مع ثبب بخط جيش بكل الموجودات فأخذها ريدان الصقلبي ورفعها إلى الحاكم. فأرسل الحاكم واستدعى ابني جيش و «قال لهما بحضرة أولياء الدولة ووجوهها: قد وقفت على وصية أبيكما، رحمه الله، من عين (ذهب خالص) ومتاع وعقار، فيما وصى به، فخذوه هنيئاً مباركاً لكما فيه، وخلع عليهما، فانصرفا بجميع التركة»^(١).

وخرج بعض رعايا الدولة في المغرب عن طاعة واليه في طرابلس يانس الصقلبي، فبعث يانس يطلب العون من الحاكم، فأمدّه يحيى بن علي الأندلسي على عسكر، ولكنه عاد مكسوراً إلى القاهرة، فأراد الحاكم قتله، فأظهر للحاكم كتاب وزيره ريدان الصقلبي صاحب المظلة، والذي رفض فيه إمداده بالمال المطلوب للحملة، وأنه طلب منه أن يدفع إليه من بيت مال الحضرة في برقة، فلم يجد ببرقة مالا ينفقه على العساكر، فتسببت قلة السيولة في هزيمته، فقبل الحاكم عذر يحيى بن علي وعفا عنه، وقتل الوزير ريدان على هذا التقصير.

(١) اتعاظ الحنفا، الثاني، ص ٢٧.

وعَمَّ على الناس منشوراً يقضي بمخاطبة الخليفة بإحدى
الكلمتين: سيدنا أو مولانا، ومن زاد فقد أحل أمير المؤمنين دمه.

وتحدّث المقرئ عن طريقة معاملة الحاكم للناس وإعطائهم
المزيد من الحرّيات وكان له من العمر ستة عشر سنة فقال: «وفي
المحرّم واصل الحاكم الركوب في الليل، في كلّ ليلة وكان يركب إلى
موضع موضع، وإلى شارع شارع، وإلى زقاق زقاق وأمر الناس
بالوقيد، فتزايدوا فيه بالشوارع والأزقة، وزُيِّنَت الأسواق والقياسر
(سوق صغير) بأنواع الزينة. وباعوا واشتروا وأوقدوا الشموع
الكبيرة طوال الليل. وأنفقوا الأموال الكثيرة في المأكّل والمشارب
والغناء واللهو. ومنع حرس الحاكم أن يقرب أحد من الناس إليه،
فزجرهم، وقال: لا تمنعوا أحداً. فأحرق الناس به وأكثروا من الدعاء
له، وخرج سائر الناس بالليل للتفرّج وغلب النساء الرجال على
الخروج بالليل. وتزايد الزحام ليلاً في الشوارع والطرقات، وتجاهروا
بكثير من المسكرات. وأفرطوا في الأمر. فلما خرج الناس عن الحد!
أمر الحاكم ألا تخرج امرأة بعد العشاء، فإن ظهرت نُكِّلَ بها. ومنع
الناس من الجلوس في الحوانيت»^(١).

وإن كان الحاكم قد أخذ لاحقاً قراراً بمنع النساء منعاً باتاً من
الخروج من ديارهن، فيكون بسبب ما شاهد من نتائج إعطاء المرأة
حرّيتها غير مقيدة، فهو أحد أهم الأسباب التي دفعته لاتخاذ هذا
القرار.

(١) م. س. ص ٢٨.

وفي سنة ٣٩٢ هـ، وكان عمر الحاكم سبعة عشر سنة، خرج الوزير فهد بن إبراهيم عن أصول وظيفته وتجاوز حدّه فقتله الحاكم، وصودرت أمواله حسب العادة، ولكن الحاكم ردّها إلى أولاده وقال: «إنا لم نقتله على مال»، وقد عزا عبد المنعم ماجد قتله بسبب تأييده النصارى ودعمه لهم ومنع المسلمين عن الخليفة وإبعادهم عنه بشتّى الأساليب، وقيل أيضاً أنّه دعاه الحاكم لاعتناق الإسلام فرفض.

وكان الحاكم قد أصدر أمراً يقضي بإنشاء مصرفٍ لليتامى، تودع فيه أموالهم وعيّن الحسين بن النعمان مديراً لهذا المصرف، وأغرقه بالأموال والإعطيات لكي لا يمدّ يده لأموال اليتامى، وكان أبوه مسؤولاً قبله عن أموال اليتامى، ولما مات ترك عليه ديناً لليتامى قدره عشرون ألف دينار فأمر الحاكم «ألا يُودع عند عدل ولا أمين ولا قاض شيء من أموال اليتامى، وطلب من الوزير برجوان أن يكتروا مخزناً في زقاق القناديل وتودع فيه أموال اليتامى، وإذا أرادوا دفع أموال اليتامى، حضر أربعة من ثقات القاضي، وجاء كلّ أمين فأطلق لمن يلي عليه رزقه بعد مشورة القاضي في ذلك، فيكتب على الأمين وثيقة بما يقبضه من المال لمن يلي عليه»^(١).

ثم استدعى الحاكم الحسين ابن النعمان، وعيّنهُ مديراً لهذا المصرف (المودع) بعد أن ضاعف أرزاقه وصلاته وقال له: قد

(١) الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، عبد المنعم ماجد، ط ١، القاهرة، لا دار نشر، سنة ١٩٥٨، ص ٥٣.

أرحت عليك، فلا توجد لي سبيلاً إليك بتعرضك لدرهم من أموال يتامى المسلمين، وقد أغنيك عنها، وعين معه لجنة من خمسة شهود عدلين يساعدونه في ضبط ما يدخل وما يخرج إلى المودع (المصرف) من أموال لليتامى. بحجج (إيصالات) يكتب فيها خطوطهم (توقيعهم).

ولكن الحسين بن النعمان لم يتعض من هذا الكلام ولم يشبع، فكان أن تقدم أحد وكلاء اليتامى وطالبه بعشرين ألف دينار فأنكرها، فتقدم واشتكاه للخليفة الحاكم، ففتح الحاكم تحقيقاً في الأمر، ولم يستطع الحسين بن النعمان إثبات براءته، فكان (أول قاضٍ أحرق بعد قتله).

وعندما تقدم العامة بشكوى ضد سهل بن يوسف شقيق يعقوب بن يوسف بن كلس، وتأكد الحاكم من طمعه وكثرة شرهه وجمعه للمال، فلما قدم للمحاكمة والقتل، «عرض أن يدفع الساعة ثلاثمائة ألف دينار عيناً (ذهباً)، يفدي بها نفسه، فلم يجب».

وكثرت قرارات القتل والإعدام في صفوف المطفقين والمزورين والمرتشين والخونة، فضج الناس وقواد العسكر وعرفاء التجار ورؤوساء الطوائف الدينية. وخاف كل على أصحابه «وتخوف الناس فخرج أهل الأسواق على طبقاتهم، كل طائفة تسأل كتاب أمانها، فكتب ما ينيف عن المائة أمان فُرقت كلها في القصر ودفعت لأربابها، وكلها على نسخة واحدة وهي بعد البسملة^(١)».

(١) م. س. ص ٥٨.

هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي، الإمام الحاكم بأمر الله، أمير المؤمنين أشهد فيه أنكم من الأمنين بأمان الله. الملك الحق المبين، وأمان سيدنا محمد خاتم النبيين، وأبيننا علي خير الوصيين، وذرية النبوة المهديين آبائنا، صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين، وأمان أمير المؤمنين على النفس والأهل والدم والمال. لا خوف عليكم. ولا تهديد بسوء إليكم، إلا في حد يقام بواجبه، وحق يوجد لمستوجهه. فليوثق بذلك وليعول بأمان الله. كتب في جمادى الآخرة سنة ٣٩٥هـ. والحمد لله وصلى الله على محمد سيّد المرسلين، وعلى خير الوصيين، وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة وسلم تسليماً^(١).

والمتمعن في ثنايا هذا الأمان، لا يجد جديداً فيه، بل هو لا يمنع الحاكم من إقامة الحد ومعاقبة السارق والمختلس والمتخاذل. وقد ذكر المؤرخون أسماء المقتولين وأسباب قتلهم، وكلهم من كبار القادة والموظفين والمسؤولين. ولم يكن منهم أي إنسان عادي أبداً.

القرادتي موظف مهم في الدولة الفاطمية:

وخرج عليه الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الأموي، وكان يكنى بأبي ركة واستمر تمرده سنتين، ثم اعتقاله بعدها وقتله. وقد أظهرت العامة عواطف تجاه الحاكم والخلافة الفاطمية تدل على شدة تعلقهم بهذا البيت العلوي الشيعي. وقد كلف

(١) اتعاظ الحنفا، م.س. ص ٦٦.

هذا التمرد الدولة الفاطمية عدا القتلى والجرحى ألف ألف دينار (مليون)، وكان لدى الحاكم رجل «قرداتي»، صنعته (وظيفته) تربية القروود وتعليمها اسمه الأبزاري. وكانت وظيفته عند الحاكم تطويق الخارج على الدولة إما على حمار أعرج أو جمل أجرب وكان الأبزاري يصنع لكلّ خارج طرطوراً من رصاص ثقيل الوزن يوضع على رأسه ويضع خلفه قرداً بيده عصا يصفعه بها أو يعلمه صب اللبن على رأسه وما شاكل ذلك من إهانات.

قرارت حاكمة تهدف إلى تنظيم المجتمع:

ويقول المقرئزي أنّ بعض الرعاع سب السلف الصالح وعائشة فعوقبوا وعمم على مراكز الشرطة بمعاقبة كل من يسب السلف الصالح. «فانكف الرعاع عن السب».

وفي التاسع من ربيع الآخر سنة ٣٩٧هـ، أمر الحاكم بمحو ما هو مكتوب على المساجد والأبواب وغيرها من سب السلف، فمحي بأسره. وطاف متولي الشرطة حتى أزال سائر ما كان منه.

وفي مستهل سنة ٣٩٩هـ، منع الحاكم بيع النبيذ، ودخول الحمام إلا بمئزر. وحدد أيام العمل في سوق الرقيق، فجعل يوماً لبيع الجوّاري أو شرائها، ويوماً لبيع الغلمان أو شرائهم، ومنع من دخول من لم يكن بائعاً أو شاريّاً تحت طائلة العقوبة.

وهدفه من ذلك منع اختلاط الشباب بالجوّاري لأن هذا الاختلاط يشجع على المعاصي وارتكاب الفاحشة.

ولما ازدادت عمليات السرقة والترويع في الليل، عمم الحاكم سجلاً

يقضي بمنع الخروج من المنازل قبل صلاة الصبح والبقاء خارجها بعد صلاة العشاء فخلت شوارع القاهرة والفسطاط من الناس.

وكثر الحديث بقرارات الحاكم وأعماله، وسجلاته وكانت تصل تعليقات العامة لمسمعه. فعمّم على الناس الأمر التالي: «يترك الخوض فيما لا يعني، ويطلب الاشتغال بالصلوات في أوقاتها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألا يخوض أحد في أحوال السلطان وأوامره وأسرار الملك»^(١).

وأتى رمضان من هذه السنة فقريء سجل على منابر الجوامع جاء فيه «يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون، ويفطرون، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون، ويخمس في التكبير على الجنائز الخمسون، ولا يمنع من التربع عليها المربعون، يؤذن بحيي على خير العمل المؤذنون، ولا يؤذن بها من لا يؤذنون. ولا يسب أحد من السلف ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يصف، والحالف منهم بما حلف. لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده»^(٢).

وفي هذا السجل دليل ساطع على التسامح الديني الذي كان يشتهر به الخلفاء الفاطميون، بعامتهم، باستثناء بعض القرارات التي اتخذها الحاكم وهو صغير السن بتحريض من بعض السفهاء، وقد تراجع عنها بعد أن نضج فكراً ودينياً.

(١) م. س. ن، ص ٧٧.

(٢) اتعاظ الحنفاء، الثاني، ص ٧٨.

وهذه القرارات اليتيمة التي اتخذها الحاكم بحق بعض الطوائف والتي سرعان ما تراجع عنها، هي غيظ من فيض مسلسل الظلم الأموي العباسي الأيوبي المملوكي العثماني بحق علي وبنيه وشيعته.

وفي سنة ٤٠١هـ، اعتقل الحاكم أبناء مؤسسي الدولة الفاطمية، الحسين بن جوهر الصقلي، وعبد العزيز بن النعمان بن محمد قاضي القضاة وواضع أسس المذهب الشيعي الإسماعيلي، وأبا علي، أخا الفضل بن جعفر ابن الفرات، مخطط عملية تسليم مصر للفاطميين فقبض عليهم وقتلهم في وقت واحد، وأحاط بأموالهم وضياعهم ودورهم. وعاد واستدعى أولادهم وردّ عليهم أملاكهم ووعدهم بالجميل وخلع عليهم.

وقد فسر عبد المنعم ماجد أسباب قتل حسين بن جوهر الصقلي أنّه كاتب الثائر الأموي أبا ركة، الذي هدّد وجود الدولة الفاطمية في المغرب وليبيا ووصل إلى أبواب الإسكندرية وقال «إن الحاكم لم يكن يفكر في قتل الحسين بن جوهر أول الأمر بدليل الإبقاء عليه حياً طول مدة عزله، إلى سنة ٤٠١هـ، وذلك لأن جوهر أباه هو مؤسس ملكهم في مصر. فكتب الحاكم إلى الحسين بن جوهر وبخط يده كتاباً شديد اللهجة أرسله إليه مع رسول من كتّامه جاء فيه: كيف أنّ آباءه اشتروا أباه جوهر من التجار وأعتقوه، وجعلوه قائداً مظفراً يفتح البلاد، وأنه نفسه جعله وزيراً وقائداً وأطلق يده في دولته، ويتعجب في هذا الكتاب من بطره وتركه النعمة»^(١).

(١) الحاكم بأمر الله، الخليفة المفترى عليه، عبد المنعم ماجد، ط ١، القاهرة، لا دار نشر، سنة ١٩٥٨، ص ٥٤.

وقد تناسى الحاكم كل هفوات الحسين بن جوهري، ما عدا مكاتبتة الخائن أبي ركة الأموي، فقد أصرها له، حتى استفحل الأمر فقبض عليه وقتله.

منع كل المسكرات والمهيجات وألعاب القمار:

وفي سنة ٤٠٢ هـ، «شدّد الأمر في الإنكار على بيع شراب الفقاع (ماء الشعير أو البيرة)، والملوخية والسّمك الذي لا قشر له ومنع النساء من المشي وراء الجنائز، وأحرق زبيب كثير كان في مخازن التجار. ثم جمعت أدوات الشطرنج من أماكن متعددة، وأحرقت. ثم جمع الصيادون وحلّفوا أن لا يصطادوا سمكاً بغير قشر. ومن فعل ذلك ضربت رقبتة وتوالى إحراق الزبيب عدة أيام بحضور الشهود الموكلين من قبل الحضرة، وتولى مؤنة الإنفاق على حملة الإحراق. متولي ديوان نفقات القصر، فأحرق منه ٢٨٤٠ عدلاً، بلغت مؤنة إحراقها خمسة آلاف دينار ذهباً في مدة خمسة عشر يوماً»^(١).

وقرأ سجل بمنع بيع العسل لأكثر من ثلاثة أرطال، ومنع النساء من الركوب في المراكب مع الرجال وخروجهن إلى مواضع الحرج معهم. وقرأ سجل آخر يمنع بيع العنب لأكثر من أربعة أرطال، ومنع من اعتصاره، فطرح كثير منه في الطرقات وأمر بدوسه. ثم منع من بيعه البتّة، واشتدّ الأمر فيه فتتبع من يبيع العنب في الطرقات واشتدّ الأمر فيه بحيث لم يستطع أحد بيعه، «فاتفق أن شيخاً كهلاً، حمل

(١) اتعاظ الحنفاء، الثاني، م، ص، ص ٩٠.

خمرأ له على حمار وهرب، فصدفه الحاكم وجهاً لوجه، عند قائلة النهار على جسر ضيق. فقال له الحاكم، من أين أتيت؟ فأجابه الشيخ: من أرض الله الضيقة، فقال له الحاكم: أرض الله ضيقة يا شيخ؟ فأجابه الشيخ: لو لم تكن ضيقة لما جمعتني وإياك على هذا الجسر. فضحك الحاكم وتركه»^(١).

والذي يراقب هذه القرارات، يجد أنها تصبّ في خانة منع الخمر والميسر والزنا، وكلها رجس من عمل الشيطان.

فالفقاع (البيرة) والنبيذ والعنب والزبيب والعسل، والشطرنج والملوخية والسّمك الخالي من القشرة، وكلّها مهيجات جنسية تؤدي إلى خروج الإنسان عن العلاقات المتوازنة بالطرف الآخر وفي المجتمع.

وفي سنة ٤٠٣ هـ، أغرق الحاكم ما لا يقل عن خمسة آلاف زير عسل (خابية) في النيل.

وفي سنة ٤٠٣ هجرية أمر النصارى بلبس السواد، شعار بني العباس ومنعهم من استعمال المسلمين ولا يشترّون عبداً أو أمة. وشدّد الأمر عليهم، فأسلم عدّة منهم.

وقبض على جماعة بسبب لعب الشطرنج، وبيع الفقاع والزبيب والعسل والسّمك، فهدّوا بضرب أعناقهم ثم أطلقوا.

ومن المعروف عن الحاكم أنّه يقتل لأدنى سبب ولو كان هؤلاء القوم من كبار الموظفين لقتلهم. ولكونهم من العامة تركهم.

(١) م.س. ص ٩١.

وعَمَّم على الناس بمنع ذبح البقر العمَّال، أي المستعمل لفلاحة الأرض، وكذلك منع النساء من الغناء والنشيد.

الحاكم: الخليفة المتواضع الفائق الكرم:

وفي رجب من هذه السنة «قرىء سجل على منابر الجوامع بمنع الناس من تقبيل الأرض للحاكم، وبمنعهم من تقبيل ركابه ويده عند السلام عليه في المواكب، والامتناع عن التخلُّق بأخلاق أهل الشرك من الانحناء إلى الأرض فإنَّه صنيع الروم، وأمروا أن يكون السلام عليه: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، ونُهِوا عن الصلاة عليه في المكاتب والمخاطبة. فلما كان يوم الجمعة، لم يقل الخطيب في خطبته سوى: اللهم صلِّ على محمد المصطفى، وسلِّم على أمير المؤمنين، علي المرتضى، اللهم وسلِّم على أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين، اللهم اجعل أفضل سلامك على سِرِّك وخليفتك»^(١).

وفي هذا الأمر دلائل قاطعة على نضوج الحاكم الفكري وتخلُّصه من بطانة السوء المحيطة به، وقد بلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً. فبدأت تصرفاته الحقيقية التي تدل على نفسه المتواضعة القريبة من عامة الناس والتي تأبى العتو والتعالي تسيطر على قرارته.

ثم قام الحاكم بتوزيع المصاحف على الجوامع ليقرأ فيها الناس.

(١) اتعاظ الحنفا، الثاني، ص ٩٦.

ثم أحصى جوامع القاهرة والفسطاط فوجدها «ثمانى مائة مسجد ونيف فأطلق لها في كل شهر ٩٢٢٠ درهماً، لكل مسجد ١٢ درهماً لوازم إنارة وتنظيف.

ومنع النساء من الجلوس في الطرقات للنظر إليه. وبدأ يأخذ طلبات الناس ومظالمهم بيده، ويقف لأصحابها ويسمع كلامهم وشروحاتهم «وخالطه العوام، وحالوا بينه وبين موكب، واستماحه قوم فوصلهم بصلات كثيرة، وأهدى إليه قوم مصاحف فقبلها وأجازهم عليها. وكثرت إنعاماته، فتوقف أمين الأمناء (وزير المالية) حسين بن طاهر الوزان عن الدفع، فكتب إليه الحاكم بخطه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما هو أهله

أصبححت لأرجو ولا أثقي سوى إلهي وله الفضل
جدي نبى وإمامي أبى ودينى الإخلاص والعدل
المال مال الله عز وجل والخلق عباد الله، ونحن أمناءه في
الأرض، أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام»^(١).

وهذا الموقف من الخليفة الحاكم يظهر مدى حبه لعامة المسلمين، فهو حين خالطهم واختلط بهم، نسي نفسه وموقعه من الأمة والإسلام وبادل الناس حباً بحب، وتواضعاً بتواضع، وإيماناً عميقاً بالإسلام وكتابه ونبيه ووصيه، عليهم أفضل الصلوات.

(١) م.س. ص ٩٧.

الحاكم يقرب بين شقي الإسلام: السنة والشيعة:

واكتمل عقله واستقلَّ عن ضغط عادات وتقاليد الدهماء والعلوج وسقطة العامة التي كانت بسبب أو غير سبب، تسبب الخلفاء الراشدين وعائشة أم المؤمنين والسلف الصالح من الصحابة وتابعيهم، فعمم في خطبة عيد الفطر من هذه السنة (٤٠٣ هـ)، بمنع سب السلف الصالح تحت طائلة العقوبة. «وَضُرِبَ فِي ذَلِكَ رَجُلٌ وَشُهِرَ وَنُودِيَ عَلَيْهِ: هَذَا جَزَاءُ مَنْ سَبَّ أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرٌ» فتجمع العامة والدهماء أمام القصر معترضين، «فَقُرِّيَ» سجلّ بالقصر فيه الترخم على السلف من الصحابة، والنهي عن الخوض في مثل ذلك. ورأى في طريقه لوحاً فيه سبّ للسلف، فأنكره، ووقف حتى قُلع. وتتبع الألواح التي فيها شيء من ذلك فقلعت كلها ومحي ما كان على الحيطان منها حتى لم يبق لها أثر. وشدد في الإنكار على من خالف ذلك ووعد عليه بالعقوبة»^(١).

وكان الحاكم مغرم بالأرصاد والنجوم فكان يواصل الخروج إلى الصحراء. «بحذاء في رجله وعلى رأسه فوطة» وحيداً دون حرس أو مواكبة، فكثرت الكلام عن الأرصاد والنجوم وعن التنجيم، فعمم في مستهل سنة ٤٠٤ هـ، سجلاً يمنع فيه الناس من «الكلام في النجوم، فتغيب عدّة من المنجّمين وبقي منهم جماعة وطرّدوا وحذّر الناس أن يخفوا أحداً منهم، فأظهر جماعة منهم التوبة، فُعفي عنهم وحلفوا ألا ينظروا في النجوم»^(٢).

(١) م.س. نفسه، ص ٩٨.

(٢) م.ن. ص ١٠٠.

وازداد الحاكم تواضعاً وتقرباً من ربه في تصرفاته وإسلامه وإنسانيته، «فاكثر من الصدقات وإعطاء الأموال الكثيرة جداً، وأعتق سائر ممالিকে وجواريه»، وقد بلغوا عشرة آلاف مملوك وجارية وجهاز كلاً منهم بما يضمن حياته ومعيشته.

وفي شهر صفر من هذه السنة جمع كل أعيان الدولة وقرأ عليهم سجلاً (مرسوم) يقضي بأن يكون خليفته من بعده وولي عهده ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس بن أبي علي بن عبيد الله المهدي، وأمر الناس بمخاطبته بولاية العهد ومسلتزماتها، كما أثبت اسمه إلى جانب اسمه في كل المعاملات الرسمية والأعلام والسكة (العملة).

وقد اعترض البعض على هذا القرار خفية وسراً لخوفهم من الحاكم، لأنه مخالف لنظام انتقال الإمامة عند الشيعة الاثني عشرية والإسماعيلية فالخليفة هو الإمام والإمام لا ترجع القهقري ولا تمشي بخط متواز، بل تنتقل من صلب إلى صلب ومن الوالد إلى الولد الأكبر.

وبلغ الحاكم أن ابن عمه نقيب الطالبين في اليمن أبا القاسم علي بن أحمد الزيدي، عليه دين قيمته عشرون ألف دينار، فأرسل له المبلغ ليسدّد دينه وفوقه ثلاثة آلاف دينار.

وكثر ركوبه إلى الأسواق وحيداً، «فاقبل الناس إليه بالرقاع (عرض حال) ما بين متظلم أو مستمنح فأجزل في الصلوات والعطايا، ما بين بيوت ودراهم وثياب فلم يرد أحداً خائباً. وأقطع كثيراً من الناس عدة دور».

وفي ربيع الآخر من هذه السنة أمر بقطع يدي أحمد بن علي الجرجرائي، لإقدامه على تزوير توقيع أخته ست الملك.

وفي رجب من هذه السنة أمر بقتل الكلاب مرة أخرى فقتلت جميعها وأبطل ضريبة كانت موضوعة على الرطب ومعامل الصابون، و «أطلق أموالاً جزيلاً للصدقة، وأكثر من الركوب وحيداً في الليل وأبطل الكثير من المكوس والضرائب، ثم أمر بمنع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلاً نهاراً سواء أكانت المرأة شابة أم عجوزاً، فاحتبسن في بيوتهن ولم تُر امرأة في طريق، وأغلقت حماماتهن، ومنع الأساكفة من عمل خفاف (أحذية) النساء وتعطلت حوانيتهم»^(١).

لقد أدت شدة تدبّر الحاكم وعفته إلى البحث عن أسباب الفحش والغلط في المجتمع، فوجد أن المرأة «شرّ كلها»، فأخذ قراره الشهير بمنعهن من الخروج والاختلاط بالناس، وقد استمرّ هذا القرار سبع سنوات.

الحاكم يخرج دائماً بدون حراسة أو مواكبة:

والمحير أن الحاكم كان يخرج دائماً بدون حرس أو مواكبة، ولو أراد أي شخص أو قائد عسكري أو مسؤول في الدولة التآمر عليه وقتله لقتله بكل سهولة. ولكن ما سرّ هذا الحاكم؟ الصفحات التالية ستجيبنا على هذا السؤال.

وفي رمضان من هذه السنة (٤٠٤هـ) «ركب الحاكم لصلاة الجمعة، فازدحم الناس عليه بعد عودته من الصلاة إلى القصر،

(١) م.س. ص ١٠٣.

فوقف لهم وأخذ رقاعهم، وحادثهم وضاحكهم، ووقع صلات وأعطيات كثيرة». وفيه شدد الأمر بمنع النساء من الخروج وحبس عدة عجائز وخدم وجدن في الطرقات.

وفي ربيع الآخر من هذه السنة، أمر بقتل قاضي القضاة مالك بن سعيد، وكان سبب قتله ممالاته شقيقته ست الملك وتحريضها عليه «واستدعى الحاكم أولاده وخاطبهم، ولم يتعرض لشيء من تركة أبيهم وأمر ابنه أبا الفرج أن يركب معه في الموكب وأقره على إقطاعاته».

وأمر بقتل ثلاثة من الركابية (حرس القصر) لما علم أنهم قبلوا رشوة من سفير ملك الروم (القسطنطينية).

وفي رمضان من هذه السنة (٤٠٥هـ) «كثرت رحلات الحاكم وهباته وإقطاعاته للناس، حتى خرج في ذلك عن الحد، حتى أقطع النواتية (البخارة) الذين يجذفون به في العشارى (سفينة صغيرة)، وأقطع المشاعلية وكثيراً من وجوه الناس، فكان مما أقطع الإسكندرية والبحيرة ونواحيها كلها»^(١).

ثم عمم على أصحاب الحوائج أن ترفع له كالتالي:

يوم السبت للكتّامين والمغاربة.

يوم الاثنين للمشاركة.

يوم الخميس لسائر الناس كافة.

ثم عمم على المؤذنين أن يقولوا بعد الأذان: السلام على أمير

(١) م.س. ص ١٠٩.

المؤمنين (أي الحاكم). وكثر ركوبه في هذا الشهر ولكثرة اجتماع الناس عليه واقترابهم منه، كان يضطر الطرادون وهم من خاصة حرسه أن يفرقوا الناس عنه.

وهلت سنة ٤٠٦ للهجرة، فقدم قاضي القضاة للخليفة الحاكم «استمارة بأسماء الفقهاء والقراء والمؤذنين بالقاهرة ومصر، فكانت مخصّصاتهم في كل سنة ٧١٣٣٠ ديناراً فوق الحاكم على الاستمارة وأمضى جميع ذلك».

ولم يتحدّث المقرئزي عن أحداث سنة ٤٠٧ للهجرة وتجاوزها للحديث عن سنة ٤٠٨ هجرية وفيها ظهرت الدعوة الدرزية، ولنا عودة للحديث عنها.

وذكر من حوادث سنة ٤٠٩ للهجرة أنّ ضامن الصعيد شكّا قلة الغلات، فسومح بما عليه وهو أربعة وستون ألف وسبعمائة وخمسة وستون ديناراً.

وفي حوادث سنة ٤١١ للهجرة «وليلتين بقيتا في شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة فقد الحاكم» وقد ذكر المقرئزي أنّ أخته ست الملك هي التي سعت بقتله ودبرته. وقتلت وليّ عهده عبد الرحيم بن إلياس وأخذت البيعة لولده الظاهر.

والحاكم بأمر الله الفاطمي، هذا السر المبهم، زاده إبهاماً المؤرّخ المعاصر له يحيى بن سعيد الأنطاكي، لكثرة ما دسّ عليه ودلّس، فقد ألصق به الأنطاكي تصرّفات قبيحة غير قابلة للتصديق بسبب إقدامه على هدم كنيسة القيامة، وقهره للنصارى في مملكته، والأنطاكي هذا، كان من المسيحيين المتعصّبين على الحاكم.

والحاكم بأمر الله، كان ولا يزال سرّاً من أسرار التاريخ العربي الإسلامي. فقد سبق عصره في تنظيماته الإدارية والاجتماعية، وكان محبوباً من العامة ومن سائر طبقات الشعب، ومكروهاً من كبار موظفي الدولة.

محضر الطعن في نسب الخلفاء الفاطميين

بعد أن امتدّت سلطة الخلافة الإسلامية الشيعية إلى كلّ أنحاء العالم الإسلامي، من المحيط الأطلسي حتى الخليج الفارسي والجزيرة العربية، وأغلب أرض السواد والعراقين باستثناء بغداد، شعر الخلفاء العباسيون بالخطر الذي يهدّدهم من هذه الخلافة التي تركز إلى أصول تاريخية وفكرية وعقيدية راسخة في نفوس المسلمين، وبعد أن فشلوا في وقف تمدّدها عسكرياً، لجأوا إلى سلاح الفكر والعقيدة؛ وهذا السلاح هو أقوى من السلاح المادي والعسكري. فالفاطميون، لم يستطيعوا مدّ ظلّهم وسلطتهم على الأرض والناس، لو لم يسيطروا على نفوس وعقول عامّة المسلمين، بالفكر، والحجّة والعقيدة. فاضطرّ العباسيون إلى ضرب أساس عقيدتهم القائمة على انتسابهم لأهل بيت رسول الله (ص) ولفاطمة الزهراء (ع). فتداعوا بتحريض من الخليفة العباسي القادر بالله، وكان ذلك آخر شهر ربيع الآخر من سنة ٤٠٢ هجرية. فقد كان الحاكم بأمر الله الفاطمي يحارب النحلة والبدعة التي انتحلها وابتدعها أنوشتكين الدرزي، ومحمد بن إسماعيل الزوزني وحمزة بن علي، والتي نسبوا فيها الربوبية له، وتجلّى الذات الإلهية فيه، فقمعها

الحاكم وهرب هؤلاء الغلاة إلى بلاد الشام. واستدعى الحاكم الداعي حميد الدين الكرمانى للرد عليهم ولـكشف أضاليلهم وبدعهم وكان الحاكم قد اتصل بقرواش بن المقلد صاحب الموصل ودعاه لزيارة القاهرة، فزارها قرواش وباع الحاكم وخطب على منابر جوامع الموصل للحاكم، وطلب من خطباء الجوامع أن ينهوا خطبتهم بالصلاة على آله وأبائه المهدي والقائم والمنصور، ثم المعزّ والعزیز والحاكم خليفة الوقت، فخطب خطباء الموصل «وبالغوا في الدعاء لهم، ولا سيما للحاكم. فتبعه عمال الأنبار والمدائن وغيرها من سواد العراق بالخطبة»^(١). فلما بلغت هذه الأخبار القادر بالله العباسي جُنْ جنونه وعمد إلى الحرب الفكرية والعقيدية، فطلب من العلماء والوجهاء والأعيان عقد اجتماع في دار الخلافة يحضره نسابون وعلويون وعلماء وفقهاء وشعراء، بقصد إصدار محضر طعن بنسب الخلفاء الفاطميين وإثبات عدم انتسابهم لأبناء فاطمة الزهراء.

مركز تحقيق التراث
مكتبة جامعة القاهرة

وقد تحدّث غالبية مؤرّخي الإسلام من مشاركة ومغاربة عن هذا المحضر، فمن كان منهم يعمل موظّفاً ومطبّلاً ومزمرّاً لدى العباسيين وحنثالاتهم من أيوبيين ومماليك وأتراك أيّد هذا المحضر وطعن في نسب خلفاء مصر، وهم أغلبهم من الأكراد، باستثناء ابن الأثير، فقد كان أكثر المؤرخين المشاركة موضوعية. أما المؤرّخون المغاربة والمصريّون، فكان منهم الموضوعي والمتزنّ، والذي ناقش المحضر ومقدّماته وأسبابه ونتائجها بالعقل والمنطق وخرج ببطلانه، أمثال

(١) البداية والنهاية، م.س. مجلد ١١، ص ٣٤٣.

أحمد بن علي المقرئزي، وابن خلدون، وكان منهم المتحيز والمتحامل أمثال أبي المحاسن ابن تغري بردي، وابن أيبك الدواداري، وابن كثير وابن العماد الحنبلي. وأغلبهم إما كردي أو تربية الأكراد.

وأقدم مؤرخ ذكر هذا المحضر، هو ابن الأثير، ولم يذكر المحضر، بل أشار إليه إشارة مسهبة تدافع عن نسبهم وتؤكد صحة انتمائهم لأهل بيت رسول الله ولجذبتهم فاطمة الزهراء عليها السلام. قال ابن الأثير:

«هذه دولة اتسعت أكناف مملكتها وطالت مدتها، فإنها ملكت إفريقية هذه السنة (٢٩٦هـ) وانقرضت دولتهم بمصر سنة ٥٦٧هـ، فنحتاج أن نستقصي ذكرها فنقول: أول من ولى منهم أبو محمد عبيد الله فقيـل هو محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر، ومن رتب هذا النسب يجعله عبد الله بن ميمون القـداح، وقيل: هو عبيد الله، بن أحمد بن إسماعيل الثاني بن محمد بن إسماعيل بن جعفر (الصادق). وقد اختلف العلماء في صحة نسبه فقال أصحابه القائلون بإمامته: إن نسبه صحيح على ما ذكرناه ولم يرتابوا فيه، وذهب كثير من العلويين العالمين بالأنساب إلى موافقتهم أيضاً، ويشهد بصحة هذا القول، ما قاله الشريف الرضي، والقصيد بكاملها أثبت في الديوان على الشكل التالي^(١):

مامقامي على الهوان وعندي مَقُولٌ صارمٌ وأنفٌ حَمِيٌّ

(١) ديوان الشريف الرضي، مجلدان، ط، ط ١، بيروت، دار بيروت سنة ١٩٩٦، ص ٥٧٦.

وإبَاءٌ مُحَلَّقٌ بِي عَنْ الضَّيْمِ كَمَا رَاغَ طَائِرٌ وَحْشِيٌّ
 أَيُّ عُذْرٍ لَهُ إِلَى الْمَجْدِ إِنَّ دُنُو لُ غَلَامٌ فِي غَمْدِهِ الْمَشْرِفِيُّ
 السَّبْسُ الذَّلُّ فِي دِيَارِ الْأَعَادِي وَبِمَصْرِ الْخُلَيْفَةِ الْعُلُوِّيِّ
 مِنْ أَبْسُوهِ أَبِي وَمَوْلَاهُ مَوْلَا ي، إِذَا ضَامَنِي الْبَعِيدُ الْقَصِيَّ
 لَفَّ عِرْقِي بِعِرْقِهِ سَيِّدَا النَّاسِ سَ جَمِيعاً مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ
 إِنَّ دُلِّي بِذَلِكَ الْجَوْوَعُ وَأَوَامِي بِذَلِكَ النَّقْعُ رِيٌّ
 قَدْ يُذَلُّ الْعَزِيزُ مَا لَمْ يُشْمَرْ لَانْطِلَاقٍ وَقَدْ يَضَامُ الْأَبِيُّ
 إِنَّ شَرّاً عَلِيٍّ إِسْرَاعُ عَزْمِي فِي طَلَابِ الْعُلَى وَحَظِّي بَطِيٌّ
 ارْتَضَى بِالْأَذَى وَلَمْ يَقِفِ الْعَزُّ مُ قَصُوراً وَلَمْ تَعَزَّ الْمَطِيُّ
 كَالَّذِي يَخْبِطُ الظَّلَامُ وَقَدْ أَقْبَى مَرَّ مِنْ خَلْفِهِ النَّهَارُ الْمُضِيُّ

ويعلق ابن الأثير على هذه القصيدة بقوله: وإنما لم يودعها في
 بعض ديوانه خوفاً، ولا حُجَّةَ بما كتبه في المحضر المتضمن القدر
 في أنسابهم، فإن الخوف يحمل على أكثر من هذا، على أنه قد ورد
 ما يصدق ما ذكرته، وهو أَنَّ القادر بالله، لما بلغت هذه الأبيات
 أحضر القاضي، أبا بكر بن الباقلاني، فأرسله إلى الشريف أبي
 أحمد الموسوي والد الشريف الرضي يقول له: قد عرفتكَ منزلتك
 منا، وما لا نزال عليه من الاعتداد بك بصدق الموالاتة منك، وما تقدّم
 لك في الدولة من مواقف محمودّة، ولا يجوز أن تكون أنت على
 خليفة ترضاه، ويكون ولدك ضده، وقد بلغنا أَنَّهُ قال شعراً، وهو كذا
 وكذا، فيا ليت شعري، على أي مقام ذلّ أقام، وهو ناظرٌ في النقابة
 والحج، وهما من أشرف الأعمال، ولو كان بمصر لكان كبعض
 الرعايا، وأطال القادر بالله القول، فحلف أبو أحمد أَنَّهُ ما علم بذلك،

وأحضر ولده (الشريف الرضي) وقال له في المعنى، فأنكر الشعر، فقال له: اكتب خطك إلى الخليفة بالاعتذار، واذكر فيه أن نسب المصري مدخول وأنه مدّع في نسبه. فقال (الشريف الرضي): لا أفعل. فقال أبوه: تكذبني في قلبي؟ فقال: ما أكذبك ولكني أخاف من الديلم وأخاف من المصري ومن الدعاة في البلاد. فقال له أبوه: أتخاف ممن هو بعيد عنك وتراقبه، وتسخط من هو قريب منك وأنت بمرأى منه ومسمع، وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك؟ وتردد القول بينهما. ولم يكتب الشريف الرضي خطه، فحرد عليه أبوه وغضب، وحلف أنه لا يقيم معه في بلد. فأل الأمر إلى حلف الشريف الرضي أنه ما قال هذا الشعر واندرجت القصة على هذا.

وعلق ابن الأثير على هذه القصة مؤكداً صحة نسب الخلفاء الفاطميين العلوي فيقول:

«ففي امتناع الشريف الرضي من الاعتذار ومن أن يكتب طعناً في نسبهم مع الخوف (من القادر بالله)، دليل قوي على صحة نسبهم. وسألت أنا (ابن الأثير) جماعة من أعيان العلويين في نسبهم، فلم يرتابوا في صحته»^(١).

وبعد أن يذكر أسماء العلماء والنسّابين الذين اجتمعوا في مجلس الخليفة القادر بالله، وطعنوا بنسب خلفاء مصر، يعلق ابن الأثير على هذا الاجتماع بقوله: «وزعم القائلون بصحة نسبهم أن العلماء ممن كتبوا في المحضر، إنما كتبوا خوفاً وتقيةً، ومن لا علم له بالأنساب

(١) الكامل في التاريخ، مج ٦، م.س. ص ١٢٤.

فلا احتجاج بقوله». وقد أورد ابن الأثير آراء العديد من النسابة والمؤرخين الذين نسبوهم إلى عبد الله بن ميمون القداح واليهودية وغيرها، ولم يعلق على هذه الآراء كما علق على محضر الطعن، بل أوردتها من باب أخذ العلم بالشيء^(١).

وعندما يصل ابن الأثير لذكر أحداث سنة ٤٠٢ هجرية يضع عنواناً جاء فيه: (ذكر القدح في نسب العلويين المصريين): وفي الهامش تعليق لشارح الكتاب، وهو على الأغلب الشيخ خليل الميس أو مدير دار الفكر ناشرة الكتاب، مجهول من قبلنا، ذيل المحضر، بتحامل كبير على الفاطميين.

يقول ابن الأثير: في هذه السنة كتب ببغداد محضر يتضمن القدح في نسب العلويين خلفاء مصر، وكتب فيه المرتضى وأخوه الشريف الرضي، وابن الطحاوي العلوي، وابن الأزرق الموسوي، والزكي أبو يعلى عمر بن محمد، ومن القضاة والعلماء، ابن الأكفاني، وابن الجزري، وأبو العباس الأبيوردي، وأبو حامد الأسفراييني والكشغلي، والقدوري، والصيمري، وأبو عبد الله بن البيضاوي وأبو الفضل النسوي وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة (الشيخ المفيد) وغيرهم. وقد ذكرنا الاختلاف فيه، عند ابتداء دولتهم سنة ٢٩٦ هـ. أما محقق الكتاب وشارحه أضاف في هامش الكتاب النص التالي: «قالوا في المحضر: هم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمي إخوان الكافرين ونطق الشياطين، شهادة يتقربون بها إلى الله.

(١) راجع الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ١٢٥.

ومعتقدين ما أوجب الله على العلماء أن ينشروه للناس، فشهدوا جميعاً أنَّ الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم - (حكم الله عليه بالبوار والخزي والنكال) - ابن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد - (لا أسعده الله) - فإنه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله وتلقب بالمهدي ومن تقدّمه ومن سلفه من الأرجاس والأنجاس - (عليه وعليهم اللعنة) - ادعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب وأن ذلك باطل وزور، وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفّار وفسّاق فجّار زنادقة، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون. وقد عطّلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبّوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادّعوا الربوبية»^(١).

ونحن لن نعلق على محتويات هذا المحضر، بل سنترك للمؤرخين الموضوعيين الرد على المغرضين منهم.

وقد أفردنا فصلاً في كتابنا نتحدّث فيه عن معتقدات وأخلاق كلّ خليفة، سيكون الرد الفصل على ادّعاء تعطيلهم الشرائع والحدود وسبّ الأنبياء.

أما ابن أبيك الدواداري فيقول: قال صاحب «تاريخ القيروان»، أنَّ المهدي هو عبيد الله ابن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن إسماعيل بن جعفر الصادق^(٢)، وقال ابن زولاق صاحب

(١) الكامل في التاريخ، مج ٧، م.س. ص ٢٦٢.

(٢) لم يذكر صاحب تاريخ القيروان، اسم محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، ونسبه إلى موسى بن إسماعيل وإسماعيل كما ذكر النسابة والمؤرخون لم يكن له ولد اسمه موسى.

«تاريخ مصر»، إنَّ المهدي هو عبيد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق^(١).

وقيل هو عبيد الله ابن التقي ابن الوفي ابن الرضي. وهؤلاء الثلاثة يقال لهم المستورون في ذات الله، واسم الرضي عبد الله، وإنما استتروا خوفاً على نفوسهم، لأنَّه كانوا مطلوبين من جهة الخلفاء العباسيين. وعبد الله المذكور الملقب بالرضي هو عبد الله بن محمد بن الحسين، والأصح ابن إسماعيل بن جعفر المقدم ذكره، واسم التقي الحسين واسم الوفي أحمد، والرضي عبد الله. هذا ما ذكره القاضي شمس الدين ابن خلِّكان في تاريخه.

وينهى الدواداري هذه المداخلة بالتعليق التالي: هذا عند من يصحَّ نسبهم ويدعي أنَّهم من الفاطميين وهم قليل.

أما الأكثر من العلماء والمحققين وأرباب التواريخ والمعتنين بحفظ الأنساب، فإنهم ينكرون ذلك ويبتلون دعوى المهدي المذكور أنَّ نسبه هذا جميعه ليس بصحيح، ويثبتون أنَّ اسمه سعيد ابن زوجة الحسين بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح، وسمي قداحاً لأنَّه كان يقده العين من الماء (الزرقاء) وكان كحلاً.

ونحن نلاحظ كيف استعمل فعل «ادَّعى» في إثبات النسب وفعل «أثبت» في من أنكر نسبهم. وهذا خروج عن الموضوعية وانحياز مذهبي واضح.

(١) كذلك هذه النسبة لا تصح، لأن وفاة عبيد الله المهدي كانت سنة ٢٢٢ هـ، وفاته جعفر الصادق كانت سنة ١٤٨ هـ، والفرق بين الوفايتين هو ١٧٤ هـ سنة، وهذا من غير الممكن أن يكون بين عبيد الله المهدي والإمام وجده الإمام جعفر الصادق (ع) جدًّا فقط.

ويتابع الدواداري فيقول: أما الأكثر أيضاً من العلماء الأشراف العلويين من المصريين والشاميين، فإنهم يقولون: إنَّ عبید الله هذا كان يهودياً من أهل سلمية، وكان حدّاداً واسمه سعيد، فلما دخل المغرب تسمّى بعبید الله وزعم أنّه علوي فاطمي، وادّعى نسباً ليس بصحيح، ثم تسمّى بالمهدي، وكان زنديقاً خبيثاً، عدواً للإسلام، يتظاهر بالتشيع، حريصاً على إزالة الملة الإسلامية، ودليل ذلك قتله الفقهاء والعلماء والأئمة والمحدثين والصالحين، قتل منهم عدة كثيرة. وكان قصده إعدام الدين من الوجود لتبقى العالم كالبهائم، فتمكن من إفساد عقولهم واعتقاداتهم ﴿والله متمم نوره ولو كره الكافرون﴾ [سورة الصف، الآية: ٦١] (١).

ويذكر الدواداري اسم الشريف العلوي المعروف أخي محسن وقد أشار إليه ابن الأثير وذكر أنّه أجبر على وضع هذا الكتاب مراعاة وخوفاً من الراشد بالله العباسي.

وبعد أن ينتهي من ذكر كلام الشريف أخي محسن يتابع الدواداري حديثه فيقول: وقد وجدنا هؤلاء الذين تغلبوا على المغرب ثم مصر أعني سعيد بن الحسين وأولاده، وهو الذي تسمى بالمغرب بعبید الله المهدي، لا يعرف لهم ذكر، لا في الأصول ولا في الفروع،

(١) بينما ذكر كل المؤرخين أسماء النسابة واسم كل من طعن بنسب الفاطميين، يتجه ابن أبيك الدواداري إلى نسبة آرائه الشخصية إلى أكثر العلماء المسلمين دون ذكر أي عالم منهم. وهو يتهم عبید الله المهدي بقتل علماء المسلمين دون أن يسمي عالماً واحداً من المقتولين. وسوف نبحث في فصل لاحق كيف أقدم ولاية العباسيين على ذبح الشيعة واستئصال شأفتهم في كل بلدان المغرب العربي.

غير ما يوهمون به العامة والرعاة من الناس، أنهم من ولد علي بن أبي طالب عليه السلام، ولا يذكرون لهم نسباً إليه. وقد خفي أمرهم على أكثر الناس.

ثم يورد الدواداري رأيه بصراحة في حق خلفاء مصر فيقول: ويجب على كل من كانت فيه عصبية لآل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يتحقق أمر نسبهم لتكون عصبية فيهم لا في غيرهم. فأما من مؤه عليه بال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليعدل به عن الحق إلى الباطل، ويخدع بالإيمان والعهود والمواثيق، ويدخل في أمر مكتوم قد غُطي عليه، وهو لا يعلم، فإنه ترك الهدى واتبع الضلالة. وأهل العقول والبصائر يعلمون أن الكتمان في أمور الدين والتنقل من حال إلى حال هو حد الإربة (الخبث). وهذا مما أسسه عبد الله بن ميمون القداح لنفسه ولولده الذي سار إلى المغرب»^(١).

ويعود الدواداري فيعطي رأيه تصريحاً لا تلميحاً في فصل لاحق من الكتاب ويقول: إن هؤلاء القوم من ولد ديسان الثنوي الذي تنسب إليه الثنوية. وهو مذهب يعتقدون فيه خالقين اثنين: أحدهما يخلق النور والآخر يخلق الظلام. فولد ديسان الملعون ولداً يقال له ميمون القداح، وإليه تنسب الميمونية وكان له مذهب في الغلو. ثم ولد لميمون ولد يقال له عبد الله، وكان أخبث من أبيه وأمكر وأعلم بالحيل، فعمل أبواباً عظيمة من المكر والخديعة على بطلان الإسلام، وكان عارفاً بجميع الشرائع والملل والسنن، وجميع علوم المذاهب

(١) راجع الدرة المضية، م.س. ص ٥ - ٨.

كلّهما، فرتب ما جعله بلا شك من المكر والخديعة تسع دعوات، يدرّجه من واحدة إلى واحدة، فإذا انتهى إلى الدعوة الأخيرة، جعله معرّى من جميع الأديان، لا يعتقد غير تعطيل الباري جلّ ذكره، وإباحة أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وغيرهم من الأمم، ولا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً، وما هو بين نفسه، لا يرجع عنه». وسنرد على هذه الدسائس في الفصول اللاحقة من كتابنا، بإثبات عينات ميدانية من تصرفات كلّ خليفة في إثبات شريعة محمد وآل بيته، مأخوذة من كتب المؤرّخين السّنة.

ويتابع الدواداري فيقول: وكان هذا الملعون المسمّى بعبيد الله بن ميمون، يريد بهذا أن يجعل المخدوعين أمة له ويستمد من أموالهم بالمكر والخديعة في الباطن والظاهر، وأن يدعو إلى الإمام من آل رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ويعني أنّه محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. وكذب في ذلك، وليس لآل رسول الله، في هذا الأمر كثير ولا قليل. وإنما هو شيء يخدع به الناس ليجمعهم عليه بهذه الحيلة. وقد كان عبد الله هذا، طلب أن يتنبأ قبل هذه الشعوذة فلم تتم له الحيلة^(١).

وردّنا على هذه التخرّصات والتحريضات المذهبية سوف يكون بعرض صورة واقعية للخلفاء الفاطميين استمرت ٢١٠ سنوات كان شغلهم الشاغل الكرم وإطعام المسكين وتوزيع الأعطيات ونثر الدنانير والدارهم ذهاباً وإياباً على الجوامع والمؤذنين والقراء

(١) راجع الدرة المضية، م.س، ص ١٧.

والعلماء والفقراء، وليس كما زور هذا المتحامل تاريخ أشرف وأنقى وأظهر دولة عرفها التاريخ العربي والإسلامي.

ويتفق أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي مع الدواداري في محضر الطعن في نسب خلفاء مصر، وهما مؤرخان ينهلان من كأس مملوكي واحد مشحون بإقتراءات ابن تيمية.

يبدأ ابن تغري بردي في الحديث عن نسب الخليفة المعز فيتبنى رأي القاضي عبد الجبار المصري، الذي يقول إن اسم جد الخلفاء المصريين سعيد ويُلقب بالمهدي، وكان أبوه يهودياً حدّاداً بسلمية، ورأي القاضي أبي بكر الباقلاني، الذي يقول إن القداح جد عبيد الله كان مجوسياً، وأن المهدي ادعى أنه علوي بينما هو كان باطنياً خبيثاً حريصاً على إزالة ملة الإسلام، وجاء أولاده فأباحوا الخمر والفروج وأشاعوا الرفض.

ثم عاد وأورد رأي ابن خلّكان، وهو رأي مساند لصحة نسب الخلفاء الفاطميين.

يعطي ابن تغري بردي رأيه في نهاية المداخلة واستعراض آراء الجميع فيقول: «قلت: وفي نسب المعز أقوال كثيرة أخر، أضربت عن ذكرها خوف الإطالة، والظاهر أنه ليس بشريف، وأنه مُدّعٍ والله أعلم^(١)، وجاءت أحكام ابن تغري بردي أقل حدة وتعصباً من أحكام ابن أبيك الدواداري فقد استعمل لفظة: (والظاهر أنه مُدّعٍ) ولم يؤكد، وترك الحكم بالنهاية لله لأنه أعلم.

(١) راجع النجوم الزاهرة، أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي م، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، سنة ١٩٩٢، ص ٨١.

بينما جاءت أحكام الحافظ ابن كثير، (أبو الفداء) أكثر حدة وتحاملاً على الشيعة والتشييع فهو يقول: «وفي ربيع الآخر من سنة ٤٠١ للهجرة كتب علماء وأئمة بغداد محاضر تتضمن الطعن والقدر في نسب الفاطميين وهم ملوك مصر، وليسوا كذلك (أي فاطميين). وإنما نسبهم إلى عبيد بن سعيد الخرمي. وكتب في ذلك جماعة من العلماء والقضاة والأشراف والعدول والصالحين والفقهاء والمحدثين، وشهدوا جميعاً أنَّ الحاكم بمصر هو منصور بن نزار الملقب بالحاكم، حكم الله عليه بالبوار والخزي والدمار، ابن معد بن إسماعيل بن عبد الله بن سعيد، لا أسعده الله، فإنه لما صار إلى بلاد المغرب تسمى بعبيد الله، وتلقب بالمهدي، وأنَّ من تقدّم من سلفه ادعياء خوارج، لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب، ولا يتعلّقون بنسبه، وأنه منزّه عن باطلهم، وأنَّ الذين ادّعوه إليه باطل وزور. وأنَّ هذا الحاكم في مصر هو وسلفه كفّار فسّاق فجّار، ملحدون زنادقة، معطلون، وللإسلام جاحدون، ولمذهب المجوسية والثنوية معتقدون، وقد عطّلوا الحدود، وأباحوا الفروج وأحلّوا الخمر، وسفكوا الدماء وسبّوا الأنبياء، ولعنوا السلف وادّعوا الربوبية. ويذكر أسماء الذين وقعوا محض الطعن^(١).

وهذه الحدة في الأحكام المطلقة والجازمة لا يتحلّى به مؤرّخ موضوعي، فابن كثير يخرج بأحكامه هذه من خانة المؤرّخين ويدخل في خانة موظفي الدولة المملوكية، فمن أين استقى معلوماته

(١) البداية والنهاية، مج ١١، م.س. ص ٣٤٥.

عن خلفاء مصر؟ وكيف تأكد من صحتها؟ فلم يذكرها أي مؤرخ معاصر لهم، وهل هم من نسل سعيد الخرمي أم سعيد بن عبد الله بن ميمون القداح. وسوف نرد عليه بنماذج من تصرفات وسلوكيات كل خليفة من خلفاء شيعة مصر الفاطمية.

أما ابن خلدون فكانت أحكامه قريبة إلى الموضوعية ولم يجر مجرى مؤرخي الممالك والمشاركة.

فتحت عنوان: ابتداء دولة العبيديين الشيعة في إفريقية قال: نسبة هؤلاء العبيديين إلى أول خلفائهم وهو عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق ابن محمد المکتوم ابن إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق، ولا يلتفت لإنكار هذا النسب، فكتاب المعتضد إلى ابن الأغلب في القيروان وابن مدرار في سجلماسة يغريهم بالقبض عليه، لما سار إلى المغرب شاهد بصحة نسبهم، وكذلك شعر الشريف الرضي في قوله:

ألبس الذل في بلاد الأعادي وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولاي إذا ضامني البعيد القصي
لف عرقي بعرقه سيد الناس جميعاً مَحْمَدٌ وعلي
وأما المحضر الذي ثُبِتَ ببغداد أيام القادر بالقدح في نسبهم وشذ فيه أعلام الأئمة مثل القدوري والصيمري وأبي العباس الأبيوردي وأبي حامد الإسفرايني وأبي الفضل النسوي وأبي جعفر النسفي، ورأس العلوية المرتضى وابن البيضاوي وابن الأزرق وزعيم الشيعة أبو عبد الله بن النعمان (الشيخ المفيد)، فهي شهادة على السماع، والشهادة على السماع لا تعارض ما ثبت في كتاب

المعتضد، مع أنَّ طبيعة الوجود في الانقياد لهم (العباسيون) وظهور كلمتهم، أول شيء على صدق نسبهم»^(١).

ولا يعقل أن ينجرَّ مؤرَّخ عظيم كابن خلدون إلى مستوى موظفي الدولة المملوكية أمثال الحافظ ابن كثير وابن أبيك الدواداري وابن تغري بردي، والصفدي فهو يعتبر موقف أعلام الأئمة وإشراكهم في محضر الطعن بنسب الخلفاء الفاطميين، شذوذاً، ويذكر اشتراك الشريف المرتضى دون أخيه الرضي، صاحب القصيدة اليائية، ويؤكد في نهاية مقاله انقياد هؤلاء الأعلام تحت الإكراه للتوقيع على محضر الطعن وهي سنة بين الحاكم والمحكوم.

وحين يستعرض ابن أبيك الصفدي حياة عبيد الله المهدي يذكر كل ما ذكره هؤلاء المؤرِّخون عنه وعن الإسماعيليين وعن محضر الطعن ويتحدَّث عن وصوله إلى المغرب ووقوعه أسيراً في يد اليسع بن مدرار، يقول الصفدي: أخذته اليسع واعتقله، فلما سمع أبو عبد الله الشيعي باعتقاله حشد جمعاً كثيراً من كتامة وغيرها وقصد سجلماسة لإنقاذه فلما سمع اليسع ذلك، قتل المهدي بالسجن وهرب، فدخل أبو عبد الله الشيعي السجن، فوجد المهدي وهو مقتول، وعنده رجلٌ من أصحابه كان يخدمه، فخاف أبو عبد الله أن ينتقص عليه ما دبَّره من الأمر إن عرفت العساكر بقتل المهدي، فأخرج الرجل وقال: هذا هو المهدي^(٢).

(١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، عبد الرحمن ابن خلدون، مج ٣، ط ١، بيروت مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، سنة ١٩٧١، ص ٣٦٠.

(٢) الوافي بالوفيات، ابن أبيك الصفدي، مج ١٩، ط ١، بيروت، المعهد الألماني، سنة ١٩٩٣، ص ٣٦٥.

رأي ابن أيبك الصفدي في نسب الفاطميين:

وهذا الكلام أخذه الصفدي عن شمس الذين ابن خلّكان وبينما استعرضه ابن خلّكان واحداً من عدّة آراء في صحّة نسبهم، استعرضه الصفدي كأنّه مؤكداً، علماً أنّ العقل والمنطق يرفض هذا التحامل، لأن كلّ كتب التاريخ ذكرت تحريض أبي العباس شقيقه أبي عبد الله الشيعي على عبيد الله المهدي، وكيف أخذت مضايقات المهدي لأبي العباس ولأبي عبد الله الشيعي ردحاً طويلاً من الزمن، وكان يعرف أبو عبد الله بقرب نهايته على يد المهدي، ولو كان هذا الكلام عن عبيد الله المهدي بأنه هو الخادم وليس الإمام، لكان أبو عبد الله فضحةً ودافع عن نفسه أمام مصير الموت المحتّم الذي كان ينتظره. ولو لم يكن عبيد الله المهدي هو سليل العترة النبوية الطاهرة، لما استطاع السيطرة على الأمور، فلا يعقل أن يقوم «حثة خادم» بتأسيس أكبر وأغنى دولة في العالم الإسلامي. خاصة أنّ كلّ كتب التاريخ أكّدت وتحدّثت عن تحريض شقيقه أبي العباس له، وكيف أنّ عبيد الله المهدي كانت تصله تحريضات أبي العباس، لأخيه أبي عبد الله الشيعي، وكان أبو عبد الله ينهر أبا العباس في كلّ مرّة، ولا يدر له أذنأ صاغية. وقد استمرّت هذه التحريضات لأكثر من سنة، وعبيد الله المهدي لا يمس أبا العباس بسوء احتراماً لأخيه أبي عبد الله الشيعي، ولكن لما أصاخ أبو عبد الله السمع، وأخذ بتحريض أبي العباس على الخليفة المهدي، كان المهدي له بالانتظار، ولم يلق القبض عليه وعلى أخيه أبي العباس إلا متلبساً، أي فترة توقيت ساعة الانقلاب الذي دبره أبو العباس وأبو عبد الله، فألقي القبض عليهما وعلى

أتباعهما ونفّذ فيهما حكم الإعدام. وقد أورد داعي الدعاة عماد الدين إدريس القرشي، عدّة مساجلات تمّت بين الخليفة المهدي وأبي عبد الله الشيعي، تدلّ على معرفة تحرّكات الأخير ومؤامراته، ومحاولة نصّح المهدي لأبي عبد الله عن طريق التلميح بالعودة عمّا في نفسه حين سأله مثلاً لماذا لا تنام في بيتك فهل أنت خائف؟ وهل يخاف المرء إلا من عدوه، ومن هم أعداؤك، وأنت على رأس السلطة! ^(١) لكن أبا عبد الله الشيعي لم يرتدع عن غيّه فقتل. ونال جزاءه فترحم عليه الخليفة المهدي وأمر بدفنه بعد أن صلّى عليه، دون أن يتعامل مع أخيه رأس الفتنة أبي العباس كما تعامل معه..

رأي ابن حزم الأندلسي:

أما ابن حزم الأندلسي، وهو من معاصري محضر الطعن الأول، أيام الخليفة الحاكم، فهو لم يشر إلى هذا المحضر، ولكنه طعن بنسبهم حيث قال:

وادّعى عبيدالله القائم بالمغرب أنّه أخو حسن البغيض وشهد له بذلك رجل من بني البغيض، وشهد له أيضاً بذلك، جعفر بن محمد بن الحسين بن أبي الجنّ، علي بن محمد الشاعر بن علي بن اسماعيل بن جعفر، ومرة ادّعى أنّه ولد الحسين بن محمد بن اسماعيل بن جعفر ولكن لم يكن لمحمد بن اسماعيل ولد قطّ اسمه الحسين.

(١) راجع عيون الأخبار وفنون الآثار، السبع الخامس. م.س. ص ١٢٠.

وهذا كذب فاحش، ولأنّ مثل هذا النسب لا يخفى على من له أقلّ علم بالنسب»^(١).

وشهادة ابن حزم لا يؤخذ فيها لأن أبناء اسماعيل بن جعفر شهدوا له بصحة نسبه باعترافه، وحجّته الثانية، ان اسماعيل بن جعفر لم يكن له ولد اسمه الحسين، وهذا غير معقول، لأن الشيعة لا تسمي إلا: علي والحسن والحسين وإذا أتاه ولد ذكر رابع تختار أي اسم آخر.

— رأي ابن العماد الحنبلي في محضر الطعن بالنسب:

من المعروف أنّ ابن العماد الحنبلي قد توفي سنة ١٠٨٩ هـ. أي بعد سبعمئة سنة من إقامة اجتماع محضر الطعن في بغداد. وعلى الأقلّ كان عليه كمؤرخ أنّ يتعامل مع هذا المحضر كتعامل ابن الأثير أو المقرئزي أو ابن خلدون، ولكنّ حقه على الشيعة والتشيع أنساه كلّ ما يجب أنّ يتحلّى به المؤرخ من موضوعية ونزاهة. وكتب عن هذا المحضر، فضمنه في كلّ سطر عطسة قبيح، وبعد كلّ جملة فحيح صل. فقال: «سنة ٤٠٢ هـ، فيها كتب محضر ببغداد في قدح النسب الذي يدّعيه خلفاء مصر والقدح في عقائدهم، وأنهم زنادقة، وأنهم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمي، إخوان الكافرين، شهادة يُتَقَرَّبُ بها إلى الله، شهدوا جميعاً أنّ الناجم بمصر، وهو منصور بن نزار، الملقّب بالحاكم، حكم الله عليه بالبوار، إلى أن قال:

(١) جمهرة أنساب العرب، أبو محمد بن علي بن أحمد بن حزم الاندلسي، ط٤، القاهرة، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٧٧، ص ٦٠.

فإنه صار يعني المهدي إلى المغرب وتسمّى بعبيد الله وتلقّب بالمهدي. وهو ومن تقدّمه من سلف الأنجاس، ادعياء خوارج، لا نسب لهم في ولد علي رضي الله عنهم، ولا يعلمون أنّ أحداً من الطالبين توقّف عن إطلاق القول في هؤلاء الخوارج، لأنهم ادعياء. وقد كان هذا الإنكار شائعاً بالحرمين وأن هذا الناجم بمصر وسيلة كفار وفسّاق لمذهب الثنوية المجوسية، معتدون. قد عطّلوا الحدود وأباحوا الفروج وسفكوا الدماء وسبّوا الأنبياء، ولعنوا السلف الصالح وادّعوا الربوبية. وكتب خلق في المحضر منهم الشريف المرتضى وأخوه الشريف الرضي...».

والمضحك أنّ ابن العماد الحنبلي يستشهد بصحة المحضر بسبب توقيع الشريف الرضي والشريف المرتضى عليه. وقد أشار ابن الأثير المتوفى قبل الحنبلي بـ ٤٢٠ سنة وهو أقرب إلى تاريخ إجراء المحضر منه، أنّ الشريف الرضي رفض الاشتراك بمهزلة المحضر، كما نظم قصيدة من عيون القصائد يربط نسبه الشريف بنسب الخليفة العلوي بمصر. وأن كلّ الذين حضروا ووقعوا على محضر الطعن بنسب خلفاء مصر كانوا كما يقول ابن الأثير: تحت الإقامة الجبرية، في السجن العباسي الكبير ولا يؤخذ بشهادتهم.

– رأي المقرئزي بمحضر الطعن بنسب الفاطميين:

يقول المقرئزي أنّه كان بين يديه مجلد يشتمل على بضع وعشرين كراسة تطعن بأنساب الخلفاء الفاطميين، وكلّها من تأليف الشريف المعروف بأخي محسن، وهو محمد بن علي بن

الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، أي من نفس نسب الخلفاء الفاطميين. وقال المقرئزي بالحرف: «وقد غبرت زماناً أظن أنه قائل» هذا الطعن، حتى رأيت أن محمداً بن إسحاق النديم ذكر هذا الكلام بنصّه في كتابه الفهرست ونسبه إلى أبي عبد الله بن رزّام وأنه ذكره في كتابه الذي ردّ فيه على الإسماعيلية^(١).

والغريب في الأمر أن محضر الطعن بالنسب تمّ في مجلس القادر بالله سنة ٤٠٢ هـ، على عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي، والشريف أخو محسن توفي في منتصف القرن الرابع الهجري أي سنة ٣٥٠ هـ. وكان معاصراً للمعزّ لدين الله الفاطمي، وابن رزّام توفي قبل وفاة المسعودي، المتوفي سنة ٣٤٥ للهجرة، أي هناك فارق سبعين سنة بين كراسة أخي محسن أو ابن رزّام وبين إقامة المحضر، ولماذا تذكّر العباسيون هذا الموضوع بعد وصول الحاكم وليس قبل وصول والده العزيز أو جده المعزّ؟. ولماذا تأخر هذا المحضر حتى عهد الحاكم!.

كلّ هذه الأسئلة يجيبنا عليها المقرئزي فهو حين يذكر ما قاله أخو محسن في كرايسه أو ابن رزّام، يتبرأ من قولهما فيبدأ بإيراد النص عن ابن رزّام كالتالي: «وأنه ذكره في كتابه الذي ردّ فيه على الإسماعيلية قال - وأنا بريء من قوله -:

(١) راجع: الفهرست لابن النديم، ط ١، بيروت، دار المعرفة، لا تاريخ، صفحة ٢٦٥، حيث يشك ابن رزّام بنسب عبيد الله المهدي ويؤكد نسب خليفته ولده، «أبو الطاهر إسماعيل، المنصور بالله».

إذاً: نتساءل: لماذا تبرأ المقريزي من قول أخيه محسن وابن رزام قبل استعراض قولهما؟، الصفحات التالية هي التي تجيب!

قال ابن رزام:

هؤلاء القوم من ولد ديصان الثنوي، الذي ينسب إليه الثنوية، وهو مذهب يعتقدون فيه بخالقين: الأول يخلق النور والثاني يخلق الظلمة، وولد لديصان هذا ولد يقال له ميمون القداح. وإليه تنسب الميمونية^(١). فولد لميمون هذا ولد يقال له عبد الله، كان أخبث من أبيه، وأعلم بالحيل، فعمل أبواباً عظيمة من المكر والخديعة على بطلان الإسلام. وكان عارفاً عالماً بجميع الشرائع والسنن، وجمع علوم المذاهب كلها، فرتب ما جعله من المكر في سبع دعوات، يتدرج الإنسان فيها من واحدة إلى أخرى، حتى ينتهي إلى الأخيرة، فيبقى مُعرّئ من جميع الأديان، لا يعتقد غير التعطيل والإباحة، ولا يرجو ثواباً، ولا يخشى عقاباً، ويقول إنه هو وأهل مذهبه على هدى، وغيرهم ضالُّ مُغفَل.

وكان عبد الله بن ميمون، يريد بهذا في الباطن، أن يجعل المخدوعين أمة له يستمد من أموالهم بالمكر والخديعة، وأما في الظاهر فإنه يدعو إلى الإمام من آل البيت: محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ليجمع الناس حوله بهذه الحيلة.

ونال بدعوته مالا، وكان يبشّر بالتشيع والعلم، وصار له دعاة، فظهر ما هو عليه من التعطيل والإباحة والمكر والخديعة، فثارت به

(١) بينما يذكر ابن رزام أو أخو محسن أن الميمونية تنسب لميمون القداح ينسبها الشهرستاني إلى ميمون بن خالد (ص ٢٨٠) ترى أيهما أصدق؟.

الشيعة والمعتزلة، وكسروا داره ففرّ إلى البصرة ومعه رجل من أصحابه يعرف بالحسين الأهوازي، فادّعى أنّه من ولد عقيل بن أبي طالب، وأنه يدعو إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، ثم اشتهر خبره، فطلبه العسكر، فهرب هو وحسين الأهوازي إلى سلمية ليخفي أمره بها فولد له بها ابن يقال له أحمد، ومات عبدالله بن ميمون القداح، فقام من بعده ابنه أحمد هذا بترتيب الدعوة وبعث الحسين الأهوازي داعية إلى العراق، فلقى حمدان بن الأشعث قرمط بسواد الكوفة»^(١).

ونحن لن نتابع نص كراسة أخي محسن أو ابن رزّام، فقد أخذ عنها كلّ الطاعنين بنسب خلفاء مصر، وفي سردها تكرار غير مفيد ولكن سنناقش بعض ما ورد فيها رغم إعلان المقريري سلفاً قبل إيراده براءته منها.

لقد ذكرنا نقلاً عن عبد القاهر البغدادي - أنّ «ميمون بن ديسان القدّاح كان مولى لجعفر الصادق (ع). ونحن نعلم أنّ جعفر الصادق توفي سنة ١٤٨ للهجرة. وبينما يذكر ابن رزّام وأخو محسن أنّ عبد الله بن ميمون القداح ادّعى أنّه من ولد عقيل بن أبي طالب وأنه يدعو إلى إمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق (ع)، نرى أنّ عبد القاهر البغدادي يقول أنّ ميمون بن ديسان «انتسب إلى عقيل بن أبي طالب وزعم أنّه من نسله، فلما دخل في دعوته قوم من غلاة الرفض والحلولية، ادّعى أنّه من ولد محمد بن إسماعيل بن

(١) اتعاظ الحنفاء، مج ١، ص ٢٥.

جعفر الصادق، فقبل الأغبياء ذلك منه، على جهل بأن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق مات ولم يعقب».

فنحن هنا نتساءل هل عبید الله المهدي قتل واستبدل بخادمه عن طريق داعيه أبي عبد الله الشيعي؟ أم أن ميمون بن ديسان القداح نسب نفسه إلى عقيل بن أبي طالب ثم رفع من وتيرة نسبه إلى مستوى ذرية علي بن أبي طالب؟.

ونعود لمناقشة كلام ابن رزام وكراريس أخي محسن فنقول: إن ميمون القداح وولده عبد الله كانا معاصرين لجعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨هـ. وميمون بن ديسان الذي ذكره هؤلاء المؤرخون، إذا كان ولد له ولد هو أحمد أو عبید الله المهدي، فعبيد الله المهدي ولد سنة ٢٦٠ هجرية ولا يعقل أن يعيش عبد الله بن ميمون بن ديسان ١١٠ سنوات لكي يلد ولد يسميه عبید الله ويلقبه بالمهدي فهناك بين عبید الله بن ميمون بن ديسان وعبید الله المهدي أكثر من أربع جود ولا يعقل أن يكون أبو محمد عبید الله المهدي، ابن عبد الله بن ميمون بن ديسان حسب ادعاءات المدعين وتخريصات المتخريصين.

وبعد أن يسلسل ابن رزام الأسماء والأحداث ينتهي بالقول: «فعبيد الله الملقب بالمهدي هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح، أي ذكر ثلاثة جود له وهم: سعيد - الحسين - أحمد - وهذا غير معقول وغير مقبول فالشريف الرضي المولود سنة ٣٥٩ هـ. أي بعد وفاة المهدي (سنة ٣٢١ هـ) بـ ٣٧ سنة أي بجود واحد أو جدين، ففي شجرة نسب الشريف الرضي حتى يصل لزمان عبد الله بن ميمون القداح حول جده جعفر الصادق ثماني جود وهم:

جعفر الصادق (ع). موسى الكاظم (ع). إبراهيم بن موسى.
موسى بن إبراهيم. محمد بن موسى. موسى بن محمد. الحسين بن
موسى. محمد بن الحسين (الشريف الرضي).

وهذا التسلسل الذي أوردناه عن شجرة نسب الشريف الرضي
تسلط الضوء على مدى الإرباك الذي وقع فيه المؤرخون المتحاملون
على الشيعة في مصر وعلى خلفائها.

وينقل المقرئ عن ابن الأثير أنَّ ابن القدّاح هو أحمد ابن عبد الله
وليس عبد الله مما يعني اختفاء جد واحد من الجدود الأربعة
المذكورة^(١).

رأي المقرئ في مجمل الآراء في محضر الطعن بنسب الخلفاء
الفاطميين:

ويورد المقرئ نص محضر الطعن بالنسب بكامله ص (٤٤)
ثم يورد رأي ابن خلدون وهذا الرأي واضح في دحض محضر
الطعن بنسب الخلفاء الفاطميين، وصريح في الدفاع عنهم. وهو
مختلف عن النص الذي اقتطعته من كتاب العبر، فالنص الذي أورده
المقرئ واستشهد به يتضمن: «ومن الأخبار الواهنة، ما يذهب إليه
الكثير من المؤرخين في العبيديين، خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة،
من نفاهم عن أهل البيت، صلوات الله عليهم، والطعن في نسبهم إلى
إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق (ع)، يعتمدون في ذلك على
أحاديث لُفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفاً إليهم،

(١) راجع اتعاظ الحنفا، مج ١، ص ٤٠.

بالقدح فيمن ناصبهم، وتفنناً في الشمات بعدوهم، ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقع، وأدلة الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم. ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم في إفريقية والمغرب، واليمن، ثم بالإسكندرية، ثم بمصر والشام والحجاز، وقاسموا بني العباس في ممالك الإسلام شق الأبلême (نصفين)، وكادوا يلجون عليهم مواطنهم ويديلون أمرهم. وكيف يقع هذا كله لدعي في النسب، يكذب في انتحال الأمر؟

واعتبر حال القرمطي إذ كان دعيّاً في انتسابه، كيف تلاشت دعوته وتفرّق أتباعه وظهر سريعاً خبثهم ومكرهم، فساءت عاقبتهم وذاقوا وبال أمرهم. ولو كان العبيديّون كذلك (ادعياء) لعرف ولو بعد مهلة^(١)، انتهى كلام ابن خلدون، المنقول على لسان المقرئ.

أما المقرئ فيقول عن هؤلاء الخلفاء:

«لقد اتصلت دولتهم نحواً من مائتين وسبعين سنة، وملكوا مآتم إبراهيم، ومُصْلَاه، وموطن الرسول ومدفنه، وموقف الحجيج، مهبط الملائكة، ثم انقرض أمرهم. وشيعتهم من ذلك كلّهُ على أتم ما كانوا عليه من الطاعة لهم، والحب فيهم، واعتقادهم بنسب الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق^(٢)».

ولا يسعني إلا أن أتمنّ عالياً هذا الرأي الموضوعي للمؤرخ الإسلامي الكبير، السني المالكي، أحمد بن علي المقرئ. وسوف يكون منهجي في إثبات عدم خروج هذه الطائفة المسلمة عن إجماع

(١) اتعاظ الحنفا، مج ١، ص ٤٥.

(٢) م. س. نفسه، ص ٤٦.

السنة والجماعة هو السلوك اليومي لهم مع الناس والدول والأشخاص، وليس من شطحات بعض الشاطحين من نصيرية ودرزية وثنوية وديسانية وخرمية وبابكية وقرمطية مدسوسة على الشيعة والتشييع. فكل فكر يخرج عن إطار جعفر الصادق وزيد بن علي، وما ورثوه عن السجاد والحسين والحسن وعلي عليهم السلام، وجدّهم محمد بن عبد الله (ص)، فهو لا علاقة له بالشيعة والتشييع إسماعيلياً كان أم إمامياً أم زيدياً.

وينهى المقرئ محضر الطعن بنسب الخلفاء الفاطميين برأي صريح مؤيد لصحة نسبهم فيقول:

«وأنت إذا سلمت من العصبية والهوى، وتأملت ما قد مرّ ذكره من أقوال الطاعنين في أنساب القوم، علمت ما فيها من التعسف والتحامل، مع ظهور التلفيق في الأخبار، وتبين لك منه ما تأبى الطباع السليمة قبوله. ويشهد الحسّ السليم بكذبه، فإنه قد ثبت أنّ الله تعالى لا يمدّ الكذاب المفتعل بما يكون سبباً لانحراف الناس إليه، وطاعتهم له على كذبه. وقد علّم أنّ الكذب على الله تعالى، والافتراء عليه في دعوى استحقاق الخلافة النبوية على الإمام والإمامة لهم شرعاً، لكونه من ذرية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وآل بيته، من أعظم الجنايات، وأكبر الكبائر، فلا يليق بحكمة الله تعالى، أن يُظهر من تعاطي ذلك، واجترأ عليه، ثم يمدّه بمعونته في ظهوره، ويؤيّده بنصره حتى يمتلك أكثر مدائن الإسلام، ويورثها بنيه من بعده، وهو تعالى يراه يستظهر بهذه النعم الجليّة، على كذبه، ويفتن بمخرقة العباد، ويحدث بباطله الفتن العظيمة والحروب المبيدة في

البلاد، ثم يخليه. كما لا يليق بحكمته العظيمة تعالى أن يخذل من دعا إلى دينه، وحمل الكافة على عبادته، ولا يؤيد على إعلاء كلمته.

فلما لم يفعل ذلك بعبيد الله المهدي، بل كتب له تعالى، النصر على من ناواه، والتأييد بمعونته على من خالفه وعاداه حتى مكّن له في الأرض، وجعله وبنيه من بعده أئمة. وأورثهم أكثر البسيطة، وملّكهم من حد منتهى العمارة في مغرب الشمس، إلى آخر ملك مصر، والشام، والحجاز، وعمان، والبحرين، واليمن، وملّكهم بغداد وديار بكر مدة، ونشر دعوتهم إلى خراسان، ونصرهم على عدوّهم أي نصر، تبين أنّ دعواهم: الانتساب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صحيحة. وهذا دليل يجب التسليم به»^(١).

ويروى المقرئ حادثة حصلت سنة ٤٨٨ للهجرة في بغداد إذ قال أنّه «قام ببغداد تاجر يعرف بحامد الأصفهاني، فتكلم بأن نسب الخلفاء الفاطميين صحيح، فقبض عليه واعتقل حتى مات، وأقام العباسيون بعدها محضر طعن آخر وقرأ في خطبة الجمعة وهو تكرار لمحضر الطعن بالنسب السابق وكلّه تخرصات واتهامات لخلفاء مصر وهم بريئون»^(٢).

وهذا التحامل الذي قابل مؤرّخو المماليك به خلفاء مصر الفاطمية، لم يطل الأمراء ونساءهم وأشرافهم وأبناءهم وأولادهم وأتباعهم فقط، بل غاص حتى وصل قبورهم.

(١) اتعاظ الحنفا، مج ١، ص ٥٢ - ٥٣.

(٢) اتعاظ الحنفا، مج ٣، ص ١٧.

فقد أورد المقرئزي في كتابه الخطط المقرئزية حين حديثه عن خان الخليلي، إنَّ هذا الخان كان تربة القصر التي فيها قبور الخلفاء الفاطميين وتعرف بتربة الزعفران فجاء جهاركس الخليلي، أمير ياخور الملك الظاهر برقوق وأخرج منها عظام الأموات على الحمير وألقاها على المزابل وقال لنائبها شمس الدين أحمد بن محمد القليجي، إنَّ هذه العظام للفاطميين وكانوا كفاراً رفضة. ويذكر المقرئزي أنَّ الله عاقب جهاركس الخليلي لتجرؤه على إهانة رفاة أهل بيت رسول الله حيث قتل بمعركة غير متوقعة وبخيانة أحد ممالكه (ابن يلغا) فقتل وتُرك على الأرض عارياً وسؤته مكشوفة وقد انتفخ وكان طويلاً عريضاً إلى أن تمزق وبلى، عقوبة من الله تعالى، بما هتك من رمم الأئمة وأبناءهم»^(١).



أراء بعض الباحثين المعاصرين:

وقال أحد الباحثين المعاصرين أنَّ النسب على طرافته، غير هام لأنَّ عدد كافياً من الناس آمنوا بهم فمكنوهم من بلوغ السلطة. ثم أنَّهم صدّقوا بقولهم أنَّهم متحدّرون من النبي بواسطة ابنته فاطمة وهو قول كان هدفاً سهلاً لهجمات خصومهم، وهنا لا بد أن ندرك أنَّ أمثال هؤلاء الانسباء، كانوا آنذاك يعدون بالآلاف. لذلك، فإنَّ إثبات هذا القول أو رفضه مستحيل. والشئ الهام هو أن هؤلاء القادة، قدّموا للناس إيديولوجية شيعية اسماعيلية، ذات أبعاد ثورية متقدّمة^(٢).

(١) الخطط المقرئزية، مج ٢، ص ٩٤.

(٢) الدولة العباسية، الفاطميون، محمد عبد الحي محمد شعبان، ط ١، بيروت، الاهلية للنشر والتوزيع، سنة ١٩٨١، ص ٢٢٣.

وقد أشار المستشرق برنارد لويس إلى بداية الإنشقاق والتباعد بين القرامطة والإسماعيليين الفاطميين، حيث قال: نقلاً عن ثابت بن سنان أنه عندما هاجم القرامطة مكة واقتلعوا الحجر الأسود، كتب عبيدالله المهدي إلى أبي طاهر القرمطي ينكر عليه ذلك ويلومه ويقيم عليه القيامة ويقول له: «قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلته»، وأمره في الكتاب، بأن يعيد الحجر الأسود إلى موضعه، فأعاده، وإن كان بعد سنتين.

كما يشير المستشرق إلى تفجر الخلاف مجدداً والطلاق النهائي بينهما حين أقدم القرامطة على مهاجمة مصر والخليفة المعز لدين الله فيها، مشيراً إلى كتاب المعز للقرمطي، الذي يدل على البدايات الواحدة للفرقتين وعلى الأسباب التي أدت إلى اختلافهما^(١).

ولا يسعني إلا أن أنهي هذا الفصل بقطعة من شعر للفقيه الشاعر عمارة اليمني السني المذهب برأيه بخلفاء مصر الفاطميين.

يقول المقرئزي: لما قدم نجم الدين أيوب بن شادي من الشام مع ولده صلاح الدين يوسف، وخرج الخليفة العاضد لدين الله إلى لقائه بصحراء الإهليلج آخر الحسينية عند مسجد تبر، أنزل بمنظرة اللؤلؤة (منتزه خاص بخلفاء مصر)، فسكنها نجم الدين أيوب حتى وفاة العاضد سنة ٥٦٩ هـ. واتفق أن حضر يوماً عنده الفقيه عمارة اليمني (عند نجم الدين أيوب)، وكان أبو سالم يحيى الأحذب بن

(١) راجع: أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية، برنارد لويس، ترجمة خليل أحمد خليل،

ط ١، بيروت، دار الحداثة، سنة ١٩٨٠، ص ١٣٦.

أبي حصيبة الشاعر موجوداً في قصر اللؤلؤة في مجلس نجم الدين،
وكان ذلك بعد موت العاضد مباشرة، فأنشد ابن أبي حصيبة نجم
الدين أيوب فقال^(١):

يا مالِك الأرض لا أرضي له طرفاً منها وما كان منها لم يكن طرفاً
قد عَجَّلَ الله هذي الدار تسكنها وقد أُعِدَّتْ لك الجنَّاتِ والغُرُفُ
تشرَّفت بك عمن كان يسكنها فالبس بها العزَّ ولتلبس بك الشرفُ
كانوا بها صدفاً والدار لؤلؤة وأنت لؤلؤة صارت لها صدفاً
فامتعض الفقيه عمارة من خستة وقلة وفائه وردَّ عليه ارتجالاً^(٢):

يا من هجا السادات والخلفاء وقلت ما قلت في ثلبهم سُخفاً
جعلتهم صدفاً حلوا بلؤلؤة

والعرف ما زال سكنى اللؤلؤ الصدف
وإنما هي دار حل جواهرهم فيها وشف فأسناها الذي وصفا
فقال لؤلؤة عجباً ببهجتها وكونها حوت الأشراف والشرفا
فهم بسكناهم الآيات إذ سكنوا فيها ومن قبلها قد أسكنوا الصحفا
والجواهر الفرد نور ليس يعرفه من البرية إلا كل من عرفا
لولا تجسمهم فيه لكان على ضعف البصائر للأبصار مختلفا
فالكلب يا كلب أسنى منك مكرمة لأن فيه حفاظاً دائماً ووفاً
وكانت هذه القصيدة بداية نهاية هذا الشاعر الوفي.

(١) راجع الخطط المقرية، مج ٢، ص ٤٦٩.

(٢) أسكنوا الصُخفاً، أي ذكروا في القرآن.

الحاكم بأمر الله الحضاري

لقد أوردت كتب التاريخ، العديد من الإشارات والحالات الفريدة والمميّزة التي تدل على سبق الحاكم بأمر الله الفاطمي لعصره، وعن تكوينه، - بتصرّفات الحضارية - نهجاً إنسانياً سابقاً لعصره بمئات السنين، حتى لتجد أنّ تصرّفات الحكّام المعاصرين تخلو من العصرية والتحضّر، إذا قورنت بممارساته وتصرّفاتة.

عندما يتحدث ابن العبري في كتابه «تاريخ الزمان»، عن أحداث سنة ٣٩١ للهجرة، وكان للحاكم بأمر الله من العمر حينها، ستة عشر سنة قال: «وأصبح الناس جميعاً يهابون الحاكم، وخلت مصر من المجرمين، وراح الأهالي يفتحون أبواب حوانتيهم ليل نهار، والحاكم يطوف المدينة راكباً، وكانت المصابيح مضيئة طول الليل في عهده، كأنّ الليل نهار»^(١).

وكتب محمد حلمي أحمد في مقدمة كتاب اتعاظ الحنفاء، يقول: «وهكذا كانت مشكلة الحاكم الأولى أنّه كان يحاول طوال عهده،

(١) تاريخ الزمان، ابن العبري، ط ١، بيروت، دار المشرق، سنة ١٩٨٦، ص ٧٥.

العمل على أن يكون بشخصه، قوة فعّالة في إدارة شؤون الدولة، متحرراً من الضغوط التي كانت تتجاذبه من داخل القصر وخارجه على السواء.

وفي سبيل هذا، كان يكثر من الركوب منفرداً في غير موكب، ليلاً نهاراً، ويطوف بالأسواق للتعرف بنفسه على أحوال الناس، وكان هؤلاء يتقدمون إليه بظلاماتهم وشكاواهم، فيتسلمها منهم بنفسه، ويعمل على إنصافهم^(١).

وإذا قارنا هذا التصرف لحاكم العالم الإسلامي الأول ومن غير منازع في القرن الرابع الهجري، مع تصرف أصغر مسؤول من مسؤولي الدولة اللبنانية الواصلين لسدة الحكم عن طريق المليشيات المتقاتلة أثناء الحرب اللبنانية، نجد أنّ كلّ واحد منهم يحتاج إلى عشر سيارات مواكبة وكل سيارة بها أربعة حراس شخصيين يخرقون الشوارع، بأبواق سياراتهم وإشارات الضوئية المزعجة، كلّ ذلك من أجل أن يزداد هذا المسؤول انتفاخاً في جيوبه وافتضاحاً لعيوبه.

عندما توفي جيش بن الصمصامة، والي دمشق من قبل الحاكم بأمر الله الفاطمي، عاد ولداه بتركتهم وأمواله، وبوصية والدهم مختومة، ففتحت هذه الوصية أمام الحاكم ورفعها ريدان الصقلبي حامل المظلة «بخط جيش»، وفيها ثبت بما خلف مفصلاً مشروحاً، وأن ذلك جميعه لأمير المؤمنين الحاكم بأمر الله، لا يستحق أحد من

(١) اتعاظ الحنفا، م ٢، م. س. ص ١٤.

أولاده منها درهماً، وكان ذلك يبلغ نحو مائتي ألف دينار ذهباً (الحد الأدنى للأجور حينها كان ثلاثة دنانير)، فأخذ الحاكم الوصية وأوصلها لابني جيش، وخلع عليهما، وقال لهما بحضرة أولياء الدولة ووجوهها: قد وقفت على وصية أبيكما، رحمه الله، من عين (ذهب) ومتاع، فيما وصّى به، فخذوه هنيئاً مباركاً لكم فيه. فانصرفا بجميع التركة^(١). وكان للحاكم من العمر يوم وفاة جيش بن الصمصامة خمسة عشر سنة (٣٩٠ هـ).

وقد اتهم المؤرخون المعارضون للحاكم بأنه كان يعتمد على أجهزة الاستخبارات لنقل المعلومات عن الناس، بينما أظهرت قرارات الإعدام والعقوبات التي أنزلها بالمخالفين، أنها انحصرت فقط، بأركان الدولة من مرتشين وخونة، وسارقين وظلمة، وأنه كان يختلط بالشعب ليلاً نهاراً، فكان الشعب كله جهازاً استخبارياً متماسكاً يعمل لصالح خليفته الحاكم. ولكثرة الوشوشات والتدخلات، أصدر الحاكم سجلات منع فيها العامة (الشعب) من الخوض بأسرار الحضرة المقدسة (قصر الخلافة) ومن الخوض بالسياسة مطلقاً. ففي سنة ٣٩٩ للهجرة، قرأ سجل (مرسوم) على منابر جوامع الخلافة الفاطمية «بترك الخوض فيما لا يعني، والاشتغال بالصلوات في أوقاتها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألاً يخوض أحد في أحوال السلطان وأوامره وأسرار الملك»^(٢).

(١) اتعاظ الحنفاء، م ٢، م. س. ص ٢٢.

(٢) م. س. ص ٧٧.

وكان للحاكم فكرٌ نفاذٌ منذ صغره في العمل الإداري وإدارة مؤسسات الحكم، إذ كانت ملفات القضايا وإضبارات القضاة والحكام تودع في بيت القاضي، كذلك كانت المحاكمات والمنازعات بين الناس تتم في بيت القاضي أيضاً، ولا يسمح لدخول أحد من الناس إلا بموافقة قاضي القضاة، وبعد مقتل قاضي القضاة مالك بن سعيد الفارقي، أمر الحاكم بأمر الله نقل كل الملفات والدواوين إلى الجامع العتيق بالقاهرة وأوكل بها إلى أبي العباس علي بن العوام للنظر بها.

وعندما توفي علي بن النعمان، استدعى الحاكم ولده الحسين وكلفه ديوان القضاء وخلع عليه وضاعف له المخصصات والأرزاق والصلوات والإقطاعات وقال له: «قد أرحت عليكم (ريحتك). فلا توجد لي سبيلاً إليك بتعرضك لدرهم من أموال المسلمين، فقد أغنيك عنها»، وجرت العادة إذا مات مسلم وأولاده قصّر ولا أقارب راشدين لهم يتولون أمر تربيته وإدارة ما يرثونه من والدهم، أن يكون قاضي القضاة، هو الوصي على التركة، وعندما تولى الحسين بن علي بن النعمان ديوان القضاء، طالبه البعض بما على والده من أموال لليتامى، فأمر الحاكم بإنشاء «مصرفاً» تودع فيه أموال اليتامى «وجعل خمسة من الشهود (الموظفين) يضبطون ما يرد إليه، وما يخرج منه بحجج (وصولات) يكتب فيها خطوطهم (تواقيعهم)»^(١).

وكانت مصلحة الشعب والحفاظ على أمنه الاجتماعي والسياسي والعسكري شغل الحاكم الشاغل، لا يهدأ له بال ليلاً نهاراً، يتدخل

(١) م. س. نفسه، ص ٢٢.

في كل كبيرة وصغيرة وشاردة وواردة، كأنه مجموعة مؤسسات في مؤسسة واحدة.

وجرت العادة أن يقاس ارتفاع النيل بعد انتهاء فصل الأمطار، فإذا نقص عن حدّه، تراكض التجار واستغلّوا هذا الأمر ورفعوا الأسعار. كتب المقرئزي عن هذا الأمر فقال: «في أول شهر المحرم من سنة ٣٩٨ هـ، ابتداء نقص ماء النيل، فاشتد الأمر، وبيع الخبز مبلولاً، وضرب جماعة من الخبّازين وشُهر بهم لتعذّر وجود الخبز في العشاياء»^(١).

وعندما وصلت أخبار تكاثر الدرهم المزور بين أيدي الناس وتمنّع الصيارفة عن أخذه، كتب المقرئزي يصف هذه الحالة: فقال: «وفي شهر ربيع الأول من سنة ٣٩٧ هـ تزايد أمر الدراهم القطع (المزورة)، فبلغت أربعة وثلاثين درهماً بدينار، ونزعت الأسعار واضطربت أمور الناس، فأمر الحاكم بسحب هذه الدراهم من الأسواق، وأنزل من بيت المال (المصرف المركزي) عشرين صندوقاً فيها من الدراهم الجدد لتفرّق على الصيارفة. وقرئء سجل (منشور) برفع تلك الدراهم ومنع من المعاملة بها، وأعطى من في يده منها شيء، إنذار لمدة ثلاثة أيام، وأمر الناس بحمل ما كان معهم منها إلى دار الضرب (معمل صب العملة). فقلق الناس. وصُرف كل درهم جديد بأربع دراهم قديمة. وكان يباع الخبز كل ثلاثة أرطال بدرهم. فنودي في الأسواق من قبل الحاكم بأن يكون الخبز كل اثني عشر

(١) م. س. نفسه، ص ٧١

رطلاً بدرهم جديد. واللحم رطلين بدرهم. وسُعِّرَ أكثر الأشياء. واستقر كل دينار بثمانين درهماً من الجدد. وسَكَنَ أمر الناس بعدما ضرب كثير من الباعة بالسياط وشُهِرُوا، وقُبِضَ على جماعة من باعة الفقَّاع (البيرة) والسَّمَاكِين (صَيَادُو السَّمَك) وكُبِسَت الحمامات. وضرب جماعة لمخالفتهم ما نهوا عنه وشُهِرُوا»^(١).

وكان أصحاب الأفران، يعجنون الخبز بالأرجل لقدرة الأرجل على دك العجين بقوة أسرع من قوة الأيدي. ولما كانت هذه الخطوة تعتبر منافية للدين والأخلاق وللطهارة، أصدر الحاكم بأمر الله الفاطمي سجلاً يمنع هذا الأمر. وقد لوحق المخالفون ونالوا جزاءهم بالضرب والسجن، ومنعوا من مزاوله العمل.

وكان الحاكم خلية نحل ورجل في دولة ودولة في رجل، نمي إليه أنَّ الجَزَّارِينَ يذبحون البقر العَمَّال، أي البقر المعدَّ لحراثة الأرض، وهذا النوع من البقر يستهلك الوقت الطويل حتى يطيع تحت النير ويتعلَّم حراثة الأرض، وكلَّما قلَّ نوعه وافتقد، كلَّما غلا وفحش سعر فلاحه الأرض، فما كان من الخليفة الفاطمي إلا أن أصدر مرسوماً ينهي فيه عن ذبح البقر العَمَّال تحت طائلة المسؤولية وبحصر الذبح بالبقر الغير معدَّ للفلاحة»^(٢).

وعندما كان الحاكم يأمر بإقفال الدكاكين والمحلات في الأيام الثلاثة الأخيرة من عاشوراء، كان يستثنى في منشوره، الأفران

(١) م. س. ص ٦٩.

(٢) راجع اتعاظ الحنفا، م ٢، ص ٥٣.

ودكاكين الخبازين، حفاظاً على المصلحة العامة وشؤون رعيته^(١).

وكان الحاكم بأمر الله خليفة ولا كلّ الخلفاء، في العلم والتواضع والتدين ومحبة الناس، وكان له من العمر خمسة عشر عاماً، ولم يكن بعد قد بلغ الحلم. طلب من وزيره الحسين بن جوهر الصقلي أن يطلب من صاحب الستر مسعود الصقلي «بأن يوصل الناس بأمورهم إليه ولا يمنع أحداً من مقابلته»^(٢). وحين منع حرس المواكبة الناس من أن يقرب أحد منهم من الخليفة الفاطمي، زجر الحاكم حرسه الخاص وقال لهم: «لا تمنعوا أحداً، فأحذق الناس به وأكثروا من الدعاء له».

وكان قد أمر بإضاءة الطرقات بالمشاعل والقناديل، فتحوّلت القاهرة ليلاً، إلى جنة من جنّات الدنيا بوقيدها وإضاءاتها ومشاعلها، فأمر الحاكم الناس بالاستكثار منها وبكنس الطرقات وتنظيفها.

ولم تقتصر مواقف الحاكم بأمر الله الفاطمي الحضاري في هذه المضامير فقط، بل تعداها إلى مضمّار تشجيع العلم والعلماء فأنشأ مكتبة عامة وحولها إلى جامعة لتدريس العلوم. ذكرها يحيى بن سعيد الأنطاكي فقال: «وفي هذه السنة (٣٩٥ هـ) أورد بالقاهرة دار العلم، وحمل إليها من خزائنه كتباً كثيرة تحتوي على سائر العلوم والآداب. وأقرّ فيها خزاناً (أمين مخزن) وبوابين، وأجرى عليهم الأرزاق من ماله، وأباح لسائر الناس كافة، نسخ ما أحبّوا وأرادوا

(١) راجع اتعاظ الحنفا، م ٢، ص ١٠٠.

(٢) م. س. ص ٣٠.

قراءته، ورتَّب فيها أيضاً، قوماً يدرِّسون الناس العلوم»^(١).

وكتب عنها ابن سعيد المغربي فقال: «وأمر الحاكم بفتح دار العلم بالقاهرة، وجلس فيها المقرئون والفقهاء والنحويون والأطباء والمنجمون لتعليم الناس، بعد أن أجريت لهم الأرزاق السنوية، وبعد أن زخرفت هذه الدار وفرشت وعُلِّقت الستور (الستائر) على جميع أبوابها وممراتها، وأقيم فيها قائم لخدمتها، وجماعة من الفَرَّاشين وغيرهم، وحمل إليها من خزائن الخلافة من كتب العلم والآداب بالخطوط المنسوبة، ما لم يُر مثله مجتمعاً لأحد من الملوك. وأبيح ذلك لمن يريد قراءة الكتب ونسخها، وجعل فيها ما يحتاج إليه من الورق والحبر والمحابر والأقلام»^(٢).

وسنكتفي بإيراد هذا النص دون تحليله وتفسير معناه ولنا عودة إليه في فصل الحديث عن الجامعات والمكتبات في عهد الدولة الفاطمية.

وكان الحاكم بأمر الله يسعى دائماً لتأمين السعادة والرفاهية والنماء لرعايا دولته ولشعبه، فقد ذكر ابن العبري أنَّ «أبو علي حسن بن الهيثم البصري المهندس البارِع، كان يقول: لو كنت في مصر لصنعت بنهر النيل صنْعاً يفيد ملوك الأرض وعامتها معاً. فبلغ قوله هذا الحاكم، الخليفة، فأرسل واستدعاه، وكَرَّمه ووعدَه بأموال

(١) صلة تاريخ أوتيكا، يحيى بن سعيد الأنطاكي، ط ١، طرابلس لبنان، جروس برس، سنة ١٩٩٠، ص ٢٥٨.

(٢) المغرب في حلي المغرب، ابن سعيد المغربي، ج ١، ط ٢، القاهرة، سنة ١٩٥٥، ص ٦٠.

طائفة إذا أكمل ما يقول. فانطلق ابن الهيثم وطاف أرض القبط (مصر) فشاهد أشكالاً مصورة تصويراً عجيباً وأمثلة هندسية ونماذج باهرة، فبهر بها وقال في نفسه: لو كان في الإمكان إنشاء عمل أفضل من هذا، لسبقني إليه الأقدمون. ثم انطلق إلى مكان عال اتجاه أسوان من حيث تدفق وانحدار مياه النيل، وأعمل الرؤية فيه، فعرف أنه يتعذر عليه تنفيذ ما افتره فيه، ذلك لشدة تدفق تلك المياه الوافرة، فاعتراه الخجل واعتذر للحاكم معترفاً بعجزه»^(١).

هذا الإمام الحاكم - المديد القامة الواسع العينين الأبيض الوجه، البهي الطلعة، كان يحترم الإنسان من أجل إنسانيته في وقت لم يكن للإنسان قيمة. ولما بلغ من العمر ثمانين وعشرين سنة، كان قد اكتمل ونضج، نظر إلى الناس كيف يقبلون الأرض بين يديه وإلى المسؤولين كيف يقبلون يده وركابه، فاستقبح هذه العادة وعمم على الناس والمسؤولين السجل التالي: «يمنع الناس من تقبيل الأرض للحاكم، ويمنعوا من تقبيل ركابه ويده عند السلام عليه في المواقب، والانتفاء عن التخلق بأخلاق أهل الشرك، من الانحناء إلى الأرض، فإنه صنيع الروم، وأمر أن يكون السلام عليه كالتالي: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. ونهى عن الصلاة عليه في المكاتب والمخاطبة»^(٢).

وكان الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله يحسن التعامل مع ملوك

(١) تاريخ الزمان، ابن العبري، ط ١، بيروت، دار الشروق، سنة ١٩٨٦، ص ٨١.

(٢) اتعاظ الحنفاء، م ٢، ص ٩٦.

عصره وأقرانه ويظهر أمامهم بمظهر الأبهة والعظمة لإظهار عظمة الإسلام والمسلمين. فلما أتاه سفير ملك الروم (اليونان) الأمبراطور باسيل الثاني سنة ٣٩١ هـ. وكان له من العمر ستة عشر عاماً. كتب المقرئزي فوصف حفلة استقبال السفير من قبل الحاكم بقوله: «وفي سادس عشر جمادى الآخرة، وصل رسول ملك الروم، فحشدت له العساكر من سائر الأعمال. ووقفوا صفين والحاكم واقف ليراهم، وسار الرسول بين العساكر إلى باب الفتوح، ونزل، ومشى إلى القصر، يقبل الأرض في طول المسافة، حتى وصل إلى حضرة الحاكم بالقصر، وقد فرش القصر والأبواب، وستر جميع حيطانه بالتحاليق (البرادي والصور) فكانت جميع أرضه وحيطانه رفيعة، دليلاً على عظمة القصر وسعته، وعلقت بصدر الإيوان، العسجدة، وهي درقة عظيمة (ترس) مطعمة بفاخر الجواهر النفيسة من كل أصنافها، وإضاءاتها لما حولها. ووضعت عليها الشمس، فلم تطق الأبصار تأملها كلاً (تعباً). فدخل الرسول وقبل الأرض ودفع الكتب وعرض الهدية»^(١).

وكان الحاكم يحترم حرية الرأي والاعتقاد، وبالرغم ما بلغ عنه من إيصال الأذى لليهود والنصارى وإجبارهم بلبس الغيار وتعليق الزنار، فقد كانت هذه الأمور لفترة وجيزة وعابرة أما الحقبة الأطول من عهده كانت مليئة بالإشارات والتنبيهات الدالة على احترامه لعقائد الآخرين، فقد سمح لقضاة السنة بالإفتاء والتدريس في الجامع

(١) اتعاظ الحنفاء، م ٢، ص ٣٩ - ٤٠.

الأزهر، كما كان إذا أراد أخذ العهود والمواثيق على الموظفين
النصارى، كان يحلفهم على الإنجيل، واليهود على التوراة. وكان
يشاركهم أعيادهم ويهاديهم، فقد ذكر المقرئزي أنه بمناسبة فصيح
النصارى الذي كان في السادس عشر من شهر ربيع الآخر سنة
٢٨٨ للهجرة خلع الحاكم على وزيره فهد بن إبراهيم النصراني
خلعة، حُملت إلى داره ومعها بغلتان بمركبيهما وألف دينار»^(١).

وكان الحاكم خطيباً مُصْقِعاً، إذا وقف زرع الهيبة والرغبة في
قلوب الناس، وكان إذا وقف خطيباً يتقلد سيفاً في وسطه وقضيباً
بيده.

وكان الحاكم بأمر الله ناقداً للشعر ذوَاقاً، فعندما وصله خبر
توقيف أمين الأمناء حسين بن طاهر الوزان عن صرف مستحقّات
الناس، والخلع والهدايا خوفاً على الخزينة العامة من الإفلاس أرسل
إليه بخطه بعد البسملة: «الحمد لله كما هو أهله:

أصبح لا أرجو ولا أتقي سوى إلهي وله الفضلُ
جدي نبي وإمامي أبي وديني الإخلاص والعدلُ
المال مال الله عز وجل، والخلق عباد الله، ونحن أمناءه في
الأرض. أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها، والسلام»^(٢).

وللتأكيد على شدة رهاقة الحاكم بأمر الله الفاطمي وشفافية
إحساساته ومشاعره، نورد هذا النص الذي ذكره المقرئزي حيث

(١) م. س. ص ١٨.

(٢) اتعاظ الحنفا، م ٢، ص ٩٧.

يقول: «وفي نصف ربيع الأول من سنة ٣٩٦ هـ، جمع الحاكم نحو ألفي (٢٠٠٠) باقة نرجس وأتحف بها الأولياء»^(١). ترى من من الحكام القدامى والمعاصرين أقدم على إرسال باقات الزهور والورود إلى موظفيه ورعاياه وكبار دولته وأولياء دينه.

وكتب أبو المحاسن ابن تغري بردي يصفه فقال في أحداث سنة ٤٠٠ للهجرة: «وفي هذه السنة يوم الجمعة العاشر من شهر رمضان، لبس الحاكم بأمر الله الصوف، وركب الحمار، وأظهر النسك، وملاً كُمه دفاتر، وخطب بالناس يوم الجمعة وصلى بهم، ومنع من أن يخاطب: «يا مولانا»، ومن تقبيل الأرض بين يديه، وأقام الرواتب لمن يأوي إلى المساجد من الفقراء والقراء وأبناء السبيل، وأجرى لهم الأرزاق. وصاغ محراباً عظيماً من فضة ومعه عشرة قناديل، ورصّعه بالجواهر، ونصبه بالمسجد الجامع. وأقام على ذلك ثلاث سنين يحمل الطيب والبخور والشموع إلى الجوامع. وفعل ما لم يفعله أحد»^(٢). وكلنا يعلم مدى الظلم الذي سلّطه المؤرّخون المتحاملون على التشيع وعلى تاريخ الفاطميين والدولة الفاطمية بشكل عام، وعلى الحاكم بأمر الله بشكل خاص، ولم ينصفهم إلا مؤرّخ واحد وهو تقي الدين أحمد بن علي المقرئ. فإذا كانت هذه الشهادة التي أوردتها هي شهادة من أحد المتحاملين على الفاطميين، فكيف بشهادة منصفهم؟

(١) م.س. ص ٦٧.

(٢) النجوم الزاهرة. م.س. مج ٤، ص ٢٢٤.

قرارات حاكمة لتنظيم المجتمع الإسلامي، أظهرها المؤرخون كأنها بعيدة عن المألوف:

يجد المتعمق في خفايا التاريخ الإسلامي، الشيعي الفاطمي أن الحاكم بأمر الله، كان قد اتخذ عدة قرارات وسجلات محاولاً من خلالها تنظيم العلاقات الاجتماعية في الدولة الإسلامية. وقد أخذ المؤرخون هذه القرارات والسجلات على محمل الهزء والسخرية، بينما بالعودة إليها، مع قليل من الدراسة والتأمل ووضع كل قرار في ظروفه التاريخية والاجتماعية والاقتصادية، نجد أن غالبية هذه القرارات، تنبع من مصلحة الشعوب الإسلامية المنضوية تحت لواء الحاكم الخليفة.

من هذه القرارات إصداره «سجلاً في الأطعمة، بالمنع من أكل الملوخية، التي كانت مُحِبَّة لمعاوية بن أبي سفيان، والبقلة المسماة بالجرجير، المنسوبة إلى عائشة رضي الله عنها، وكذلك منع عجن الخبز بالأرجل، ومنع أكل السمك الذي لا قشر له، ومنع ذبح البقر الذي يصلح للحرث»^(١).

(١) راجع اتعاظ الحنفاء، م ٢، ص ٥٣.

وقد حلل وناقش المؤرخون المعاصرون هذه القرارات أمثال: عبد المنعم ماجد، فعزوا قراراته بمنع أكل الملوخية وبقلة الجرجير بكرهه لعائشة أم المؤمنين ول معاوية ابن أبي سفيان لأنهما ناصبا العداء لجده علي بن أبي طالب، بل كانا أول من وضع حجر الأساس لهذا العداء وأول من بذر بذرة الشر والفتنة والخلاف بين المسلمين، حسب رأي المسلمين الشيعة. وقد أخذ الحاكم هذه القرارات بضغط من بعض الجهلة الحاقدين، وكان لم يبلغ حينها الرابعة عشرة من عمره.

وأما بقية المرسوم القاضي بمنع أكل السمك الذي لا قشر له فهو يعمل حسب مقتضى الفقه الجعفري الشيعي الذي يحرم أكل هذا النوع من السمك، ولم يخرج به عن سنة آبائه وجدّه جعفر الصادق (ع). كذلك عندما حرّم ذبح البقر العمال المخصّص للحراثة، فهذا القرار يندرج في سياق قرارات حماية الإنتاج الزراعي.

أما منعه عجن الطحين بالأرجل، فهو لم يخرج عن الشرع الإسلامي في هذا المنع حيث أنّ الطحين والخبز والعجين تعتبر من الأصناف المقدّسة ولا يجوز وطؤها بالأرجل، فهذا التصرف مناف للدين وللأخلاق وللذوق السليم.

ومن قراراته التي فسّرت بأنها غريبة، أمره بقتل الكلاب، «فَقُتِلَ منها ما لا يحصى، حتى لم يبق منها بالأزقة والشوارع شيء، وطرحت بالصحراء وشاطئ النيل، وأمر بكنس الأزقة والشوارع وأبواب الدور في كلّ مكان، ففعل ذلك»^(١).

(١) راجع اتعاظ الحنفاء، م ٢، ص ٥٦.

ويرى عبد المنعم ماجد، أنَّ القتل طال الكلاب الشاردة فقط، أما كلاب الصيد فلم تقتل، وأن سبب قتلها، هو أذيتها للناس وعدم منفعتها سوى النباح وإزعاج النائمين ودفع الناس إلى غسل أي وعاء تلعبه هذه الكلاب وما ستسببه من نجاسة. ومن قراراته الغريبة أنَّه ألزم كلَّ من أراد فتح دكان أو حانوت عليه أن يضع «آرمات» تسبِّ الشيخين أبي بكر وعمر، وإذا رفض وضع هذه الآرمة على باب دكانه، لا يُرَخَّص له بفتح الدكان، وسبب ذلك، اغتصاب الشيخين حقَّ علي (ع) بخلافة النبي (ص) حسب رأي الجماعات الشيعية.

ويقول عبد المنعم ماجد أنَّ هذه القرارات سببها إحاطة بطانة السوء بالحاكم وصغر سنِّه، فهو عندما اشتدَّ عوده وكبر وتجاوز العشرين من عمره، عاد عن كلِّ هذه القرارات.

كذلك أصدر الحاكم قرارات منع فيها النساء من المشي وراء الجنائز ومن الخروج من منازلهن. وبقيت هذه النساء ممنوعة من الخروج سبع سنين، وحجَّة الحاكم هو الحفاظ على أخلاق المجتمع الإسلامي، من ما ينتج عن الاختلاط بين النساء والرجال، علماً أنَّه كان أعتق جميع ممتلكاته وجواريه «وحرَّهم لوجه الله تعالى، وملَّكهم أمر نفوسهم والتصرَّف فيما يملكونه واقتنوه منه ومن أبيه، كما أخذ من والدته وأخته وأخواله ما يملكون من النساء والجواري، وأعتقهن جميعاً وأعطاهنَّ ممَّا يؤمن لهنَّ حياة شريفة (تقاعد)»^(١).

(١) راجع الحاكم بأمر الله المفترى عليه، م.س. ص ٦٠.

(٢) راجع الحاكم بأمر الله المفترى عليه، م.س. ص ٤٠.

وقرارات الحاكم كانت كثيرة وتشمل كل نواحي الحياة اليومية، وقد اتصفت هذه القرارات بأخذ جانب مصلحة العامة ضد أرباب الدولة والمناصب، حتى أصبح المجتمع الإسلامي في عهد الحاكم مجتمعاً مميّزاً ينعم بالغنى والأمن والطمأنينة، حتى وصفه ابن تغري بردي وهو من المؤرخين المعارضين للدولة الفاطمية بأن أيامهم كانت كلها أفراح ومسرات وأعياد، وقد كتب المؤرخ عبد المنعم ماجد عن حالة المجتمع الإسلامي في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي فقال: «وقد أصبح الناس في عهده آمنين على أموالهم، فكان التجار يتركون حوانيتهم مفتوحة، ولا يخافون عليها، وفي مرة وقع من شخص كيس فيه ألف دينار عند جامع ابن طولون، فاستمر في مكانه أسبوعاً كاملاً، لا يجسر أحد على أخذه، حتى مرّ به صاحبه فأخذه، ونادراً ما كان يسرق شيء من الناس إلا وجده الحاكم لهم»^(١).

مركز تقيت كميونر علوم و اسدي

(١) راجع الحاكم بأمر الله المفترى عليه، م.س. ص ٦٢.

ظهور مذهب الموحدين الدروز

عندما حدّد الدستور اللبناني الأديان والطوائف اللبنانية، اعتبر الموحّدين الدروز أصحاب مذهب، وليس أصحاب دين. وبالعودة إلى أدبيات الموحّدين الدروز ومدوّناتهم النادرة الموجودة بين أيدينا، كقانون الأحوال الشخصية مثلاً، نجد أنّ المحاكم الدرزية تمارس الصلاحيات المحدّدة لها في قانون تنظيم القضاء المذهبي الدرزي، وفي حال عدم وجود نص في هذا القانون، تعود هذه المحاكم إلى أصول المحاكمات المطبّقة لدى المحاكم الشرعية الإسلامية السنيّة والجعفرية^(١).

ولما كان مذهب الموحدين الدروز يعود في أصول تنظيم علاقاته إلى أصول محاكمات المذاهب الإسلامية بمختلف اتجاهاتها، نجد أنفسنا مضطرين للغوص في المتاهات الفلسفية والفكرية الدرزية لنرى الأسباب والمقدّمات التي أدت إلى ظهور هذا المذهب، أو هذا

(١) راجع الأحوال الشخصية عند الدروز وأوجه التباين مع السنة والشيعة، حليم تقي الدين، ط ١، بيروت، منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء سنة ١٩٨١، ص ١٥.

الدين، ولنرى إذا كان للأخوة الموحّدين الدروز دين مستقل عن
الأديان السماوية المشرقية المعروفة، أم أنّهم فرقة من الفرق
الإسلامية التي توغّلت في متاهات الفلسفة الإسلامية واليونانية
القديمة؟.



ولادة الحاكم بأمر الله وتوليته الخلافة

يؤمن الموحّدين الدروز بنظرية التجسيد أو التجلّي الإلهي، حيث يعتقدون أنّ الذات الإلهية أو اللاهوت، تجسّد في الناسوت عبر جسد الإمام الحاكم بأمر الله، وأصبح الإثنين واحداً، أي الله هو الحاكم والحاكم هو الله، حيث يقول صاحب كتاب «أضواء على تاريخ مذهب التوحيد: «مولانا الحاكم جلّت عظمته، ابن الإمام المُعزّ، ظهر للبشر مثلهم وتجلّى بينهم بصفة إمام، وكانت مدة إمامته ثلاثاً وثلاثين سنة، ثم تجرّد من صفة الإمامية وكانت مدة تجرّده ثلاث سنوات.

ويعرّف الإمامة بقوله: أما الإمامة: فهي الإنسان الكامل الذي تتجلّى عليه الروح الإلهي. يرى ويتكلم ويلمس وله ظل، إنّما إرادته نافذة وأمره مطاع، هو شكلاً كالخلق وعالٍ معنئ عن الخلق، يُجري الأقدار ولا تجري فيه، وهو غاية الوجود، جاء لفكّ الخلق من أسر الطبيعة والارتقاء بهم إلى المنزلة الرفيعة. فهو إلهي الذات والصفات، وهو الحادّ لكلّ حدٍّ وغير محدود. والحاكم لم يولد حسب رأي الكاتب بل:

«قضت الإرادة أن يوجد في القصر المكرّم مقرّ الخلافة الفاطمية

في القاهرة ليلة الجمعة المباركة في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٣٧٥ هجرية.

كما «قضت الإرادة أن يتسمّى أحمد ويتّصف بالحاكم ويلقّب بالمنصور ويكنى بأبي علي»^(١).

أما المقرئ فيقول إنّ العزيز «توفي في الثامن والعشرين من رمضان سنة ٣٨٦ هـ بين صلاتي الظهر والعصر، من مرض القولنج، والحصاة، في بلبيس، فلم يكم موته.

ووصلت ابنته سيدة الملك بالجنّازة إلى القاهرة، فأقيم المأتم والصياح بالقصر، وضبط الناس أحسن ضبط، فلم يتحرّك أحد، ولم يبق شارع ولا زقاق في القاهرة إلا وفيه صراخ ونحيب.

ويقول المقرئ: وبأمر رجوان إلى أبي علي المنصور بن العزيز (الحاكم)، فإذا هو على شجرة جميز يلعب في دار بلبيس فقال له: «بسك تلعب؟ انزل». فأجابه (الحاكم): «ما أنزل والله الساعة».

فقال رجوان: انزل، ويحك؟ «الله فينا وفيك»، وأنزله، ووضع على رأسه العمامة بالجواهر وقبّل له الأرض وقال:

«السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته،

وخرج به إلى الناس، فقبّل جميعهم له الأرض، وسلّموا عليه بالخلافة.

وتولّى القاضي الحسين ابن النعمان غسل العزيز، ودُفن مع آبائه

(١) راجع أضواء على تاريخ مذهب التوحيد، توفيق سليمان، لا طبعة، لا دار نشر، بيروت، سنة ١٩٦١، ص ٩ - ١٠.

في تربة القصر. وقد لُقِبَ المنصور أبو علي «الحاكم بأمر الله»^(١). وكان له من العمر حين توليه الخلافة إحدى عشر سنة.

ويقول عبد المنعم ماجد، أنَّ العزيز أحسَّ بدنو أجله فاستدعى ولده المنصور (الحاكم). وضمَّه إليه وودَّعه، ولا تشير الرواية إلى بكاء المنصور حين وفاة العزيز، بل أخذ الأمر بصرامة ورجع بجثة أبيه بعد أن وضعها في قبة على ناقية بين يديه، وقد لبس زي الخلفاء وأمسك برمح في يده وتقلَّد سيفاً وعلى رأسه المظلة شعار الأئمة الفاطميين، يحيط به جميع العساكر ورجال الدولة، إلى أن وصل القاهرة التي خرج أهلها للقاءه، فجَهَّز أباه ودفنه»، وتشير هذه الملاحظة التي أوردها ماجد إلى ثقة الحاكم بنفسه منذ صغره وقوة شخصيته.

وفي معرض نسبة الحاكم إلى أم نصرانية:

ينقل عبد المنعم ماجد عن جرجس بن العميد قوله إنَّ العزيز تزوَّج من امرأة نصرانية ورزق منها بنتاً وهي (ست الملك أخت الحاكم) ولم يقل أنَّها أم المنصور. وبرغم هذا التناقض، لنا أن نؤكد أنَّ النصرانية ليست أم المنصور وأن نسبة (الحاكم) إلى أم نصرانية هي من ضمن حملة أعدائه عليه^(٢).

ويؤكد مصطفى غالب هذا الرأي وينسب المنصور (الحاكم) إلى جارية رومية نصرانية من طائفة الملكية^(٣).

(١) اتعاظ الحنفا ١، م.س. ص ٢٩١.

(٢) راجع الحاكم بأمر الله المفترى عليه، م.س. ص ٢٥٠.

(٣) راجع السبع السادس. م.س. هامش، ص ٢٤٨.

أما الداعي المطلق عماد الدين إدريس القرشي ينقل عن الداعي الكرمانلي، قوله في الحاكم: «في ما أشارت به الأولون وبشّرت به من ظهور الحاكم بأمر الله وعظيم فضله وعدله، وأن المشير به، المنصوص عليه بالعلامة قول أشعيا النبي في التوراة، مخاطباً الدعاة بالرمز بشارة لهم: افرح واشكر. أنّ ملكك قد جاءك صادق مطهر من الإدناس على حمار الوحش والأتن»^(١) ويفسر القرشي قول أشعيا النبي في التوراة أنّ المعنى ليس عيسى المسيح، بل الحاكم بأمر الله فيقول: قد يقع الظن بأن الذي قاله أشاعيا (ع) من هذه البشارة التي ذكرناها هو بشارة بعيسى (ع). بكونه راكباً على حمار، زاهداً من دون غيره. ويغرق بتأويل وشرح وتركيب هذا القول وتفصيله على قياس الحاكم.

– الحاكم يقيم الحدود حسب الشريعة الإسلامية:

لقد تحدّث كتب التاريخ الإسلامية بشكل مفصّل عن الحاكم بأمر الله الفاطمي وقراراته وتصرفاته، فمنهم من نسبها إلى الغرابة والبعد عن العقل والمنطق، وهم أعداؤه ومبغضوه، ومنهم من وجدها طبيعية وشرعية ومعقولة.

وقد اشتهر الحاكم ببطشه بأعداء الدين والمتخرفين عليه والمستفيدين من بعض الثغرات، فنهرهم وأقام عليهم الحد الشرعي بقوة وجبروت.

فعندما توفي قاضي القضاة محمد بن النعمان سنة ٣٨٨هـ.

(١) راجع السبع السادس. م.س. ص ٢٤٩.

كان للحاكم من العمر ١٣ سنة، فصلى عليه الحاكم ودفنه، وعندما علم أنه ترك عليه ديناً للأيتام قدره عشرون ألف دينار، بعث كاتبه فهد بن إبراهيم النصراني فختم على جميع تركته، ولم يمكن ورثته من شيء وقيدت دوابه في الإصطبلات، وباعها كلها وردها إلى أصحابها اليتامى. وطالب بقية الموظفين من لجنة المحلفين أو الأمناء العدول في مجلس القضاء، ببقية الأموال فأنكروها واتهموا القاضي محمد بن النعمان بقبضها، فطلب منهم إثباتاً بذلك الإدعاء، فممنهم من استطاع تبرئة ساحته من أموال اليتامى فتركه ومن عجز استرد منه الأموال فاجتمع لديه مما استرده مبلغ ثمانية عشر ألف دينار. وأمر من حينها استئجار مركز لاتخاذ مصرفاً لاستقبال ودائع أموال اليتامى. وقرّر أن لا يصرف أي مال لأي يتيم إلا بحضور أربعة قضاة ثقة وأن يترك مقابل كل مبلغ مصروف وصلاً به (وثيقة).

ويقول المقرئزي: إن الحاكم لم يكتف بهذا الحد، بل طالب ابنه عبد العزيز بأن يدفع مما على أبيه من أموال الأيتام. أما المقرئ الذي اتخذ مودعاً (بنك) لأموال الأيتام، وظّف له خمسة موظفين، يضبطون ما يرد إليه وما يخرج منه بحجج يكتب فيها خطوطهم وبتوقيع كل منهم^(١).

ولم يكن يغمض للحاكم بأمر الله جفن قبل أن يطمئن على أحوال المسلمين من رعيته فقد ذكر المقرئزي أنه بدأ منذ سنة ٣٩١ هـ وهو ابن السادسة عشرة من عمره «بالركوب في الليل وكل ليلة، وكان

(١) اتعاظ الحنفا ٢، م.س. من ٢١ - ٢٣.

يركب إلى موضع موضع وإلى شارع شارع وإلى زقاق زقاق. وأمر الناس بالوقيد (الإنارة الليلية)، فتزايدوا فيه بالشوارع والأزقة، وزينت الأسواق والقياسر (الأسواق الصغيرة)، وباعوا واشتروا، وأوقدوا الشموع الكبيرة طوال الليل. وأنفقوا الأموال الكثيرة في المآكل والمشارب، ... وزينت الصناعة (مصنع السفن) وتزايد الزحام في الشوارع والطرقات»^(١).

وكان التجار في مصر يقومون برفع أسعار السلع إذا شعروا بأن النيل لم يصل ارتفاع الماء فيه إلى المستوى المطلوب، وهو ستة عشر ذراعاً، وكانوا يسعون إلى تخزين هذه البضائع، فيتربّط عليها انعدام الأقوات وارتفاع الأسعار، وكان المعزّج جد الحاكم منع إذاعة نتيجة قياس نسبة الارتفاع على الناس، خوفاً من رفع الأسعار، ولما وقعت المجاعة في عهد الحاكم، اتخذ هذا الخليفة من الإجراءات ما يدل على كبر عقله وتفانيه في القيام بواجبه، فكان يعمل على تثبيت الأسعار ويمنع تذبذب العملة، بتحديد مقاديرها، وإنزال عملة جديدة جيدة تفرّق على الصيارفة، ثم أقام سعراً لكل شيء، لا سيما الحبوب. وكان يدخل البيوت ويوزّع الأموال على الناس بنفسه. واستخدم وسائله الخاصة في منع الناس من تخزين الأقوات، «فضرب جماعة بالسياط وشهر بهم. وأمر ألا يباع القمح إلا لأصحاب المطاحن. كما كان يكبس الحواصل (المخازن) والبيوت للبحث عن القمح ويفرّقه على الطحّانين بالسعر الرسمي. وفي يوم ركب حماره وقال: أنا ماض إلى الجامع، وأقسم بالله لئن عدت،

(١) اتعاظ الحنفا ٢، ص ٣٨.

فوجدت في الطريق ما يطؤه حماري مكشوفاً من الغلة، لأضربن رقبة كل من يقال لي إنَّ عنده شيئاً منها، ولأحرقن داره وأنهبن ماله. فلما عاد في آخر النهار، فما بقي أحد من أهل مصر والقاهرة إلا وعنده غلّة، حتى حملها من بيته أو منزله وسعى بها إلى الطرقات، فامتلات عيون الناس، وشبعت نفوسهم»^(١).

ويؤكد ابن أيبك الدواداري هذا الأمر فيقول عن حوادث سنة ٣٩٨هـ وكان للحاكم من العمر ٢٣ سنة: و «فيها كان غلاء عظيم، ولحق الناس مجاعة شديدة، وولى مسعود أمر ذلك، فضرب قوماً من الخزانين بالسياط، وأخرج القمح، فانصلح الحال»^(٢).

وذكر الدواداري في حوادث السنة نفسها أنه عندما وقع الخلاف بين عسكر الريحانية وبين بعض القرويين، قتل الريحانيون أحد القرويين، فلم يسكت الحاكم على هذه الجريمة فاعتقل الجندي القاتل وأقام الحد الشرعي عليه وهو: «العين بالعين والسن بالسن» وقتله.

وذكر ابن الأنطاكي في تاريخه في حوادث سنة ٣٩٦ هـ، أن الوضع في مصر ازداد اضطراباً ووجل أهلها، فتزايدت الأسعار فنودي من قبل الحاكم بأمر الله في الأسواق «أي أحد زاد في السعر فقد أوجب على نفسه القتل، فتراجعت الأسعار، ونقلاً عن المقرئ أيضاً أن الأسعار اضطربت بمصر، وعُدم الخبز وبيع مبلولاً ستة أرطال بدرهم، وكان يباع عشرة أرطال بدرهم»^(٣).

(١) الحاكم بأمر الله، الخليفة المفترى عليه، م.س. ص ٦٤.

(٢) الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية. م.س. ص ٢٧٦.

(٣) راجع تاريخ الأنطاكي، المعروف بصلة تاريخ أوتيك، م.س. ص ٢٦٦.

وكتب الانطاكي فأشار عن إيصال معلومات (سعي) للحاكم عن بعض الموظفين المختلسين (كتبة الدواوين)، «فطولبوا بحساب ما كانوا يتولونه وصودرت أملاكهم، وعلّق جماعة منهم بأيديهم، وأخذ جميع ما يملكونه ولبثوا أياماً معلّقين في برد الهواء وحرّ الشمس وإهطال المطر، إلى أن مات عدة كتبة منهم تحت العذاب»^(١).

وأشار الدواداري إلى أنّه عز وجود السكرى في الطرقات فأمر بقتل كلّ من وجد سكراناً^(٢)، ولكي يستأصل شافة السكر والسكرانين اتخذ قرارات وسجلات تقضي بمنع المتاجرة بمواده الأولية وهي العنب والزبيب والعسل. وقد أشار الانطاكي إلى هذا الأمر في حوادث سنة ٣٩٧ هـ، أي عندما كان للحاكم من العمر ٢٢ سنة حيث يقول: «ومنع شرب النبيذ أشد منع وتشدّد فيه وقتاً بعد وقت، حتى أنّه منع من بيع الزبيب والعسل ومن حملهما، وأحرق منهما، وغرق في النيل شيئاً كثيراً للتجار بمال عظيم، وكُسّرت الظروف التي يوعب فيها النبيذ ومنع من عملها»^(٣).

أما المقرّيزي فيشير إلى أن السجلات الأولية التي قرّرها الحاكم بخصوص بيع الزبيب، اقتضت بأن لا يباع الزبيب لأكثر من خمسة أرتال ولا تباع الجرار، ثم رفع الأمر فمنع بيعه منعاً تاماً.

ثم سطر سجلاً (مرسوم) بمنع بيع العنب ألا يتجاوز في بيع أربعة أرتال، ثم منع من اعتصاره، فبيع كلّ ثمانية أرتال بدرهم،

(١) تاريخ الانطاكي، م.س. ص ٢٧٧.

(٢) الدرة المضية. م.س. ص ٢٧٦.

(٣) م.س. ص ٢٧٠.

وطُرح كثير منه في الطرقات، وأمر بدوسه. ثم منع من بيعه البتّة. وأغرق ما حمل منه في النيل، وبعث بشاهدين إلى الجيزة، فأخذ جميع ما على الكروم من الأعناب، وطرح تحت أرجل البقر لتدوسه. وبعث بذلك إلى عدة جهات. واشتدّ الأمر فيه بحيث لم يستطع أحد بيعه. واتفق أنّ شيخاً حمل خمراً له على حمار وهرب، فصدفه الحاكم عند قائلة النهار على جسر ضيق، فقال له: من أين أقبلت؟ قال: من أرض الله الضيقة. فقال الحاكم: يا شيخ، أرض الله ضيقة؟ فقال الشيخ: لو لم تكن ضيقة، ما جمعتني وإياك على هذا الجسر، فضحك منه الحاكم وتركه»^(١).

وتدل هذه الطرفة التي ذكرها المقرئ علي طيبة الحاكم وإنسانيته وتنقض اتهام المتهمين له بحبه لسفك الدماء والبطش. وحسب المذهب الجعفري وهو مذهب الحاكم بأمر الله، يعتبر السمك الذي لا يعلوه قشر من المحرّمات، فمنع الحاكم الصيادين من صيده وبيعه وأكله، وكذلك منع شرب الفقاع والإتجار به (ماء الشعير أو البيرة). ويشير المقرئ إلى تشدّد الحاكم في إقامة الحد على هذه المنكرات فيقول: «وشدّد الأمر في الإنكار على بيع الفقاع والملوخية والسمك الذي لا قشر له. وأحرق زبيب كثير كان في مخازن التجار. وجُمع الشطرنج من أماكن متعددة فأحرق. وجمع الصيادون وحلّفوا أنّهم لا يصطادون سمكاً بغير قشر، ومن فعل ذلك ضربت رقبتة. وتوالى إحراق الزبيب عدة أيام بحضور الشهود (لجنة

(١) انعاظ الحنفا ٢، م.س. ص ٩١.

المحلّفين). وتولى مؤنة الإنفاق على حملة إحراق الزبيب فتولى ديوان النفقات (رئيس مصلحة الصرفيات). فأحرق منه ألفان وثمان مائة وأربعون قطعة، بلغت مؤنة الإنفاق عليها خمسة آلاف دينار في مدة خمسة عشر يوماً^(١).

وتدل عملية إحراق هذه الممنوعات على نفقة الدولة على المستوى الحضاري والراقي الذي وصلت إليه الدولة الفاطمية في عهد الحاكم بأمر الله.

وبينما يجد البعض أنّ منع بيع الزبيب والعنب والعسل أمراً ممهّداً لإقامة المجتمع الإسلامي الفاضل، يرى صاحب الدرّة المضيّة أنّ هذا العمل نوع من الجنون بل الجنون بعينه ونسب إليه أنّه منع بيع اللحم الكباب، وأنّه يشنق من يبيعه^(٢). وواضح أنّ هذه الأخبار هي دسّ على الحاكم من قبل صاحب الدرّة المضيّة لأنّه لا سند تاريخي لها. ولم يذكرها غيره من المؤرّخين.

ونحن نعرف أنّ معاوية بن أبي سفيان وملوك بني أمية سبوا الإمام علي (ع) على المنابر وسطروا المراسيم والسجلات الرسمية بذلك حتى لعن عليّ في كلّ عصر ومصر على عهدهم. ولما تملّكت الشيعة مصر والمغرب، كثر لعن السلف الصالح وخاصة «أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وغيرهم في ذلك الأوان، وظهر من السر إلى الإعلان، وجُهر به على المنابر وتحدّث به البادي والحاضر، وعُلّق على

(١) اتعاظ الحنفا ٢، م.س. ص ٩٠.

(٢) الدرّة المضيّة، ص ٢٥٨.

المنابر والألواح، وأبواب الحمّامات، وحيث يكون اجتماع الجماعات،
فأنكر ذلك الإمام الحاكم بأمر الله، ع.م. وأنشأ هذا المسطور (مرسوم)
وأمر بقراءته على البادين والحضور وأجرى كلّ أحد من الناس على
مذهبه، وأن يظهر ما في ضميره ويعلن به وكان سجلّه (مرسومه):

بسم الله الرحمن الرحيم:

من عبد الله وولّيه أبي علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، إلى
كلّ حاضر وباد. أمّا بعد: فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب
الله المبين: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. مضى أمس بما فيه، وجاء اليوم
لما يقتضيه، الصلاح والإصلاح بين الناس أصلح، والفساد والإفساد
بينهم مستقبح، إلا من شهد الشهادتين أحق أن لا تنفك له عروة، ولا
توهن له قوّة. بحيّ على خير العمل يؤذن المؤذّنون ولا يؤذّنون،
ويخمس الخمّسون، ويربّع المربعون في الصلاة على الجنائز. ولا
يعترض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون. ولا يشتم السلف، ولا
يبغي المخالف على من قبله خلف. تلك أمة قد خلت. لها ما كسبت،
ولكم ما كسبتم. ولا يسألون عما كانوا يعملون.

معشر المؤمنين: نحن الأئمة وأنتم الأمة، عليكم بأنفسكم، لا
يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم، إلى الله مرجعكم، فينبئكم بما كنتم
تعملون.

والحمد لله رب العالمين، وصلواته على رسوله سيدنا محمد وآله
الأكرمين^(١).

(١) عيون الأخبار، السبع السادس، م.س. ص ٢٩٢.

وهذا السجل ذكره المقرئ في أحداث سنة ٣٩٨هـ. حيث كان للحاكم من العمر ٢٣ سنة، أي أصبح شاباً مكتملاً، لا يتأثر لأهواء العامة ولا لغوايات المتزمتين، فكان منه هذا السجل الذي أثبت فيه ترفعه عن التفرقة بين المسلمين واحترامه للسلف الصالح وللخلفاء الراشدين.

ولم يكتف الحاكم بإقامة الشعائر الإسلامية بل شجع الإسلام والمسلمين فكان يصرف الرواتب لكل من اتخذ الجامع منزلاً وإقامة من الزهاد والأولياء، «واستدعى جماعة ممن يقرأون القرآن وألزمهم قصره، وأجرى عليهم الأرزاق والجرايات الواسعة السنوية والإقطاعات الجليلة ونصب في الشرطة بمصر، وفي كل بلد شاهدين من الشهود وعدلين (لجنة محلفين)، وأمر ألا يقام على كل ذي جريمة (مُتَّهَم) ومرتكب جريمة حَدٌّ إلا بعد أن يصحَّ عند ذينك الشاهدين أنه مستوجب لذلك، فيقام عليه الحدُّ اللازم لمثله أو يطلق سبيله»^(١).

ولا أفضل من أن أنهي هذا الفصل برأي المؤرخ ابن سعيد الأنطاكي النصراني بالحاكم وعهده حيث يقول: «ولعمري أن أهل مملكته لم يزالوا في أيامه آمنين على أموالهم، مطمئنين على نفوسهم، ولم تمتد يد قط إلى أخذ مال أحد، بل كان له جود عظيم، وعطايا جزيلة، وصلات واسعة»^(٢).

والأنطاكي كان معاصراً للحاكم فقد توفي سنة ٤٢٥ للهجرة

(١) تاريخ الأنطاكي، م.س. ص ٢٠٢.

(٢) م.س. ص ٢٠٢.

ورأيه بالحاكم يعتبر رأي معاصر، معاش للأحداث اليومية، وينقض رأي المؤرخين المتحاملين على الحاكم والفاطميين، ويدحض كل أكاذيبهم وتشنيعاتهم. وهذا لا يعني أن الحاكم لم يتصرف بعض التصرفات الغريبة، ولكنها كلها مدروسة ولها أسبابها المتعلقة بزمان حدوثها. ولنا عودة لكل هذه التصرفات.



عدالة الحاكم بأمر الله

كان الحاكم بأمر الله الفاطمي من حداثة سنة يتمتع بمزايا قيادية تؤهله لأن يكون هذه الاسطورة، ففي سنة ٣٨٧ هـ وكان له من العمر ١٢ سنة ألغى الضرائب التي كانت تفرضها الدولة على المراكب التي تبحر في البحر الأحمر (القلزم)^(١).

وعندما كانت تدور المعارك بين جيشه وجيوش الخارجيين عن سلطة الدولة الفاطمية، ويحصل منها أسرى، كان يعاقب القادة من عساكر أعدائه، ولا يؤذي الجنود العاديين، بل لعدالته ومنذ صغره، كان يأمر بإطلاق سراحهم^(٢).

وفي السنة نفسها عمم على الناس سجلاً قرأ على منابر جوامع القاهرة ومساجدها ومنابر جوامع الممالك الإسلامية المندرجة تحت لواء الدولة الفاطمية، ويدل هذا السجل على عظمة الحاكم وعدالته واستباقه لزمه في كل الأمور الدينية والدنيوية، وكان ذلك بعد قتله

(١) راجع اتعاظ الحنفا ٢، ص ١٥٠.

(٢) م. س. ص ٢٠.

برجوان الخادم. ومما جاء في هذا السجل: «من عبد الله ووليه، المنصور أبي علي، الإمام الحاكم بأمر الله، أمير المؤمنين، إلى سائر من شهد الصلاة الجامعة في مساجد القاهرة المعزية ومصر والجزيرة: سلامٌ عليكم معاشر المسلمين المصلين في يومنا هذا في الجوامع، وسائر الناس كافة أجمعين، فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ويسأل أن يصلي على جدّه محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى أهل بيته الطاهرين:

أما بعد: فالحمد لله الذي قال، وقوله الحق المبين: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةَ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، فسبحان الله ربّ العرش عما يصفون، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون^(١). وبعد أن يعدد الأسباب التي دفعته إلى معاقبة برجوان بالقتل يتوجّه للتجّار مخاطباً: فاقبلوا معاشر التجّار والرعية على معاشكم، واشتغلوا بأشغالكم، فهو أعود لشأنكم، ولا تطغوا في أمر أنفسكم، فلأمير المؤمنين الرأي فيه وفيكم، فمن كانت له منكم مطالبة (طلب) أو حاجة، فليمض إلى أمير المؤمنين بها، فإنه مباشر ذلك لكم بنفسه، وبابه مفتوح بينكم وبينه. وأنتم رعايا أمير المؤمنين المفتحة لها أبواب عدله وإحسانه وفضله، والله يريد فيما يريد ويعتمده من الخير لمن أطاعه من الأنام والحماية لحمى الإسلام: ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾^(٢). والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته^(٣).

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢ - ٢٣.

(٢) سورة هود، الآية: ٨٨.

(٣) راجع اتعاظ الحنفا ٢، ص ٢٨.

وكانت سلطة الحاكم بأمر الله حين كتابة هذا المنشور تمتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي باستثناء بغداد ونواحيها فقط. وإذا قارنا هذا الكلام الواقعي الذي نثبت بالنص الحرفي حدوثه ونقارنه مع متسلقي الزعامة في هذه الأيام الذين لا يمشون إلا بالحراس الشخصيين ولا يستطيع أي شخص مهما علا أو سفل مقابلتهم إلا إذا كان لهم هم مصلحة في مقابلته، ندرك مدى عدالة المنصور أبي علي ومدى تواضعه وترفعه عن صغائر الأمور.

ولم يكن للحاكم بأمر الله طمع في أي أمر من أمور الدنيا وخاصة اكتناز الأموال. فعندما توفي قائد جيوشه في بلاد الشام جيش بن الصمصامة، ترك وصية بكل أمواله وتركته إلى ولي أمره الإمام الحاكم بأمر الله، وكان ذلك يبلغ نحو مائتي ألف دينار، ما بين عين (ذهب خالص) ورخل ومتاع فأخذ الحاكم الوصية وأوصلها لأولاده، وبدل أن يأخذ من تركته والدهما، خلع عليهم وزادهم من عنده^(١).

وعن حوادث سنة ٣٩١ للهجرة وقد بلغ الحاكم بأمر الله السادسة عشرة من عمره يقول المقرئزي «وقد واصل الحاكم الركوب في الليل في كل ليلة، وكان يركب إلى موضع موضع وإلى شارع شارع وإلى زقاق زقاق. وأمر الناس بالوقيد (الإضاءة الليلية)، فتزايدوا فيه بالشوارع والأزقة. وزينت الأسواق والقياسر (الأسواق الصغيرة) بأنواع الزينة، وباعوا واشتروا، وأوقدوا الشموع الكبيرة طوال الليل، وأنفقوا الأموال الكثيرة في المأكول والمشرب والغناء

(١) راجع اتعاظ الحنفا ٢، ص ٣٣.

واللهو. ومنع الرجال المشاة بين يدي الحاكم (حرس المواكبة) أن يقرب أحد من الناس الحاكم، فزجرهم، وقال لا تمنعوا أحداً. فتحدث الناس به وأكثروا من الدعاء له»^(١).

وكنّا قد أشرنا سابقاً إلى هذا الأمر ولكن من أجل إظهار عدالة الحاكم وحب الناس له، رأينا من الواجب الإشارة إليه لصدوره عن مؤرخ موضوعي يرى الأمور كما هي عليه لا كما يهواها.

وفي سنة ٣٩٨ هـ توقف النيل عن الزيادة فغلت الأسعار فصلى الناس صلاة الاستسقاء. ومن عدالة الحاكم ودعماً لصمود المسلمين في مملكته، أصدر سجلاً أبطل فيه الضرائب عن الغلال والأرز التي تأتي عن طريق التجار والمسافرين^(٢).

وكان المسلمون في بلاد الخلافة الفاطمية يختلفون كل سنة على عدد أيام رمضان ويؤدي هذا الخلاف إلى الاختلاف في تحديد يوم العيد أو الإفطار. وكان الفاطميون لا يضطرون لرؤية الهلال بل كانوا يحكمون أن الأشهر الهجرية ١٢ شهراً ستة أشهر ٣٠ يوماً وستة أشهر ٢٩ يوماً. وكان رمضان عندهم ٣٠ يوماً حكماً، فلا مجال للاختلاف على تحديد يوم الإفطار، وللتوقف عن اللغط في هذا الموضوع والجدال الذي يؤدي إلى تشتت المسلمين وتفرقهم، عمم الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٩ هـ سجلاً يقضي بأن «يصوم الصائمون على حسابهم ويفطروه، ولا يُعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون»^(٣).

(١) راجع اتعاظ الحنفا ٢، ص ٢٨.

(٢) م. س. نفسه، ص ٧٤.

(٣) م. س. نفسه، ص ٧٨.

وهو يعني بالصائمين على حسابهم، الفاطميين الشيعة، وأهل الرؤية، مذاهب السنة. فقد ترك الحرية لاتباع كل مذهب بالصوم والإفطار حسب مقتضيات مذهبه، وهذا خير دليل على عدالته وإيمانه بحرية الفرد والإنسان والمعتقد.

وكان الحاكم بأمر الله يعتمد في حكمه على جهاز المخابرات الخاص بالدولة وكان يتبع له مباشرة، ولكنه لم يكن يأخذ بكل معلومة أو خبر إلا بعد أن يتأكد من صحتها. بإقامة الشهود على حدوثها.

وفي كل عصر، يظهر الطفيليون والمتزلفون والانتهازيون من المخبرين الذين لا هم لهم سوى أذية الناس وتزويد الحاكم بكل ما يؤذي ويهين. ولم تذكر كتب التاريخ سوى الحاكم بأمر الله أنه «قتل أصحاب الأخبار لكثرة أذيتهم الناس بالكذب عليهم وأخذهم الأموال من الناس»^(١).

وكان الحاكم عندما يجهز حملة أو سرية لتأديب خارج أو عدو، ويضطر لتجهيز هذه الحملة بالسلاح يسعى إلى مصانع السلاح الخاصة أي إلى الناس فيشتري منهم السلاح بثمنه ولا يقبل أن يصادر أي قطعة دون ثمن^(٢).

وعندما غلت الأسعار سنة ٤٠٣ هـ، كثر الازدحام على الخبز، ففرّق الحاكم مالاً على الفقراء، وكثر ابتياع الناس للسيوف

(١) م. س. ص ٨٠.

(٢) م. س. ص ٩٠.

والسكاكين من السلاح وحمله من لم يحمله قط من العوام والصناع، وكثر الكلام فيه فقرئ سجل (منشور) على منابر الجوامع بتطمين الناس إلى أحوال البلد وأن لا داعي لحمل السلاح^(١).

ولشدة تواضعه وعدالته، جرت العادة في المكاتبات أن تبدأ الرسائل الموجهة للحاكم وللخلفاء الفاطميين من قبله بجملة الصلاة على أمير المؤمنين وإذا قابلوه أن يقبلوا الأرض بين يديه ويقبلوا ركابه ويده. فعَمَّ على الناس عبر الجوامع سجلاً يقضي «بمنع الناس من تقبيل الأرض للحاكم، ويمنعهم من تقبيل ركابه ويده عند السلام عليه في المواكب، والانتفاء عن التخلُّق بأخلاق أهل الشرك من الانحناء إلى الأرض، فإنه من صنيع الروم (اليونان)، وأمر بأن يكون السلام عليه كالتالي: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. ونهى عن الصلاة عليه في المكاتب والمخاطبة»^(٢).

ولشدة تواضع الحاكم، كان لا يرد طالباً، ويمرّ في الأسواق والشوارع بدون حراسة. وكان يأخذ رقاع الشكاوى من الناس بيده، ويقف لهم ويسمع كلامهم. وقد روى المؤرخون أنه وقف له ذات يوم في طريقه شخصان من موظفي تربة (مقبرة) عمرو بن العاص واشتكوا له بأن رواتبهما قد قطعت من أيام والده العزيز، فأعاد لهما هذه الرواتب ووصلهما فوقها بألف دينار.

وروى المقرئ أن بلغ الحاكم أن أبا القاسم علي بن أحمد

(١) م. س. ص ٩٢.

(٢) م. س. ص ٩٦.

الزبيدي النقيب عليه عشرون ألف دينار ديناً للتجار، وهو أحد ولاته، ولكن لعدالته وكرمه، وقع تحت هذا الدين، فأمر له بصرفها من الخراج وأعطاه فوقها ثلاث آلاف دينار أخرى^(١).

وفي رجب من سنة ٤٠٤ هـ، أصدر الحاكم منشوراً رفع فيه الضرائب المفروضة على بيع الرطب (البلح) وعلى مصانع الصابون، وأطلق أموالاً جزيلة للصدقة.

وكان الحاكم يكره الرشوة ويقتل الراشي والمرتشى، فقد بلغه أن ثلاثة من حرسه الخاص (الركابية) أخذوا رشوة (هبة) من رسول ملك الروم (السفير اليوناني)، فأمر بقتلهم، فقتلوا من أجل ذلك^(٢).

وفي وصف كرم الحاكم بأمر الله كتب المقرئ في فقال: وفي يوم الجمعة رابع رمضان (٤٠٤ هـ) ... وفيه كثرت صلوات الحاكم ومواهبه (عطاياه)، وإقطاعاته للناس، حتى خرج في ذلك عن الحد. وخرج عن المعهود من العطاء والإقطاعات، حتى أقطع النواتية الذين يجذفون به في العشارى (المراكب)، وأقطع المشاعلية (المكلفون بأعمال الإضاءة)، وكثيراً من الوجهاء والأقارب^(٣).

وسأنهي حديثي عن هذا الفصل بحادثة رواها المقرئ في تظهر لنا مدى قرب الحاكم من الشعب وقمة عدالته، وحب العامة له وخوف الظالمين والسارقين والمغتصبين منه.

(١) راجع اتعاظ الحنفيا ٢، م.س. ص ١٠١.

(٢) راجع. م.س. نفسه. ص ١٠٨.

(٣) م.ن. ص ١٠٩.

الخليفة الحاكم يسترجع وديعة أحد الحجاج المغاربة من التاجر المصري:

قال المقرئزي: «ومن حكاياته المشهورة في العدل أن رجلاً مغربياً ورد على مصر من سجل ماسة يريد الحج، فأودع ماله عند رجل في السوق، فلما عاد من الحاج، طلب ماله فأبى أن يدفعه إليه. فتوصل إلى أن اطلع الحاكم على أمره، فقال له: اجلس في دكان مقابلاً لدكانه، فإذا جرت في ذلك السوق، فأعمل كأنك تعرفني وكأنني أعرفك. فلما مر الحاكم، وقف مع الرجل (صاحب الوديعة)، وسأله عن حاله وأكثر معه الوقوف، وانصرف. فجاء الرجل الذي عنده الوديعة، إلى صاحبها، وأكبّ عليه وسأله الصفيح عما سلف منه، وأحضر إليه جميع ماله، فعرف الحاكم بذلك. فأصبح الذي أنكر الوديعة في اليوم التالي مقتولاً معلقاً برجله أمام دكانه^(١).

ذلك هو الحاكم بأمر الله الخليفة العادل المفترى عليه من قبل المؤرخين. ذلك الإمام الذي شغل الدنيا بأخباره حتى ألّه البعض وما زالوا يؤلهونه.

أما إذا خرج بعض المسلمين من اتباع المذهب الإسماعيلي الفاطمي عن الإسلام وغلوا في الحاكم ورأوا أن الروح الإلهية قد تجلّت فيه، فما ذنبه هو، إذا كان قد حاربهم ونفاهم وسجنهم، وقد استدعى داعي الدعاة حميد الدين الكرمانلي للردّ عليهم ولردّهم عن غيهم وغوايتهم وغلوهم وإعادتهم إلى الإسلام الشيعي الفاطمي الإسماعيلي.

(١) راجع اتعاظ الحنفا ٢، ص ١٢٢.

نقل المقرئزي أخبار ادعاء الحاكم الألوهية أو أخبار تأليهه من قبل غلاة الدرؤز فقال: «قدم مصر داع عجمي، اسمه محمد ابن إسماعيل الدرزي، واتصل بالحاكم، فأنعم عليه، ودعا الناس إلى القول بآلهية الحاكم، فأنكر الناس عليه ذلك، ووثب به أحد الأتراك وهو في موكب الحاكم وقتله، واستمرت الفتنة ثلاثة أيام قتل فيها جماعة من الدرزية، وقبض على التركي قاتل الدرزي وحبس ثم قتل»^(١). وإذا ناقشنا هذا الأمر وتعمقنا ما بين السطور، لنجد موقف وموقع الحاكم من هذه الحادثة، نجد أن الحاكم الذي كان يرعب الكبير والصغير، لو كان راضياً على دعوة الدرزي لما استطاع التركي قتله، ولما استطاع الناس إقفال أبواب القاهرة ثلاثة أيام لقتل جميع من فيها من الدرؤز وهو إن كان قد قبض على التركي، وذلك بسبب إقدامه على قتل الداعي محمد بن إسماعيل الدرزي بدون محاكمة، وتنفيذه أمر يعود للدولة ولجهاز القضاء فيها.

ويقول المقرئزي أيضاً حول موضوع الدعوة الدرزية: «ثم ظهر داع آخر اسمه حمزة بن علي، وتلقب بالهادي، وأقام بمسجد تبر، خارج القاهرة، ودعا إلى مقالة الدرزي، وبت دعائه في أعمال مصر والشام، وترخص في أعمال الشريعة، وأسقط جميع التكاليف في الصلاة والصوم ونحو ذلك، فاستجاب له خلق كثير، فظهر من حينئذٍ مذهب الدرزية ببلاد صيدا وبيروت، وساحل الشام»^(٢).

(١) اتعاظ الحنفا الثاني، ص ١١٣.

(٢) راجع: م. س. ص ١١٣.

ولم يعلّق المقرئزي على هذا الخبر، أي أننا لم نعرف إذا كان أقام حمزة بن علي في مسجد تبر بدعم وموافقة من الحاكم بأمر الله أم لا؟. ولم نعرف إذا كان أصاب حمزة بن علي ما أصاب الدرزي؟ أم استمرّ يدعو الناس إلى مذهبه بحرية وأمان أم لا؟.

ويقول يحيى بن سعيد الأنطاكي عن حمزة بن علي: إنه نزل بظاهر القاهرة، واستجاب له خلق كثير، وكان أصحابه يلقون الحاكم كل يوم في القرافة للسلام عليه، وهو مع ذلك يلتقي بالهادي (حمزة بن علي) ويسأله عن عدد ما حصل في بيته من أهل دعوته، وظهر مذهب الدرزي واشتهر بين الأنام، وصارت جريدته ستة عشر ألفاً يعتقدون أنّ الحاكم إله.

ووافى في بعض الأيام سبعة أنفار من أصحاب الهادي برقعته إلى قاضي القضاة، أحمد بن محمد بن عبد الله، وهو في جامع مصر السفلى وحين تصفّحها القاضي، وأعلم بها من كان حاضراً، اشتاتوا غيظاً ووثبوا على الدعاة السبعة وقتلوه عن آخرهم، فأنكر الحاكم على القاضي ما جرى. وتزايد أمر الدرزية إلى أن لعنوا آدم ونوح وجميع الأنبياء ومحمّداً وعلياً، وتغوّطوا في المساجد، ولطخوا القبلة بالعذرة (الخرأ)، وبالوا على مصاحف القرآن^(١).

وقد تفرّد الأنطاكي وحده بهذه الأخبار، فكيف فعل الدروز كلّ هذه الأفعال ولم يعترضهم أحد من أهل مصر، وإذا كانوا قد تغوّطوا في المساجد في مصر، بفعل حماية الحاكم لهم، فالقبلة كانت خارجة

(١) تاريخ الأنطاكي، م.س. ص ٢٤٤.

عن حكم الحاكم، وكانت تحت حكم العباسيين، فكيف استطاعوا تلطيخها بالعدرة؟.

ولكي ندحض قول الانطاكي من أن حمزة بن علي سب محمداً وعلياً في رسالته إلى القاضي أحمد بن محمد بن عبد الله المشهور بابن العوام وهو سني المذهب، ونحن نعلم أن الموحدين الدروز ينظرون إلى النبي (ص) وإلى وليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) نظرة تقديس واحترام ويعتبرانهما من أساسيات مذهب الموحدين الإسماعيليين الدروز، نجد لزماً علينا، إرفاق «الرسالة المنفذة إلى القاضي» وهي رسالة حمزة بن علي إلى ابن العوام، وهي التي تسببت بمقتل جميع الدروز وتشريدهم من مصر. وهي رسالة موحدية درزية تعتبر الحاكم بأمر الله إله - وتحط من قدر الشيخين أبي بكر وعمر وكذلك عثمان، دون التعرض للنبي محمد (ص) ولوليه علي بن أبي طالب (ع).

كما أنها تؤكد على تمسك الموحدين الدروز «بإقامة الحدود الشرعية على المدنيين، مثل الزاني والسارق والقاذف وشارب الخمر». مما ينفي عنهم تهمة تعطيل الحدود. وهذا هو نص الرسالة، مأخوذ من كتاب الحكمة عند الدروز:

– الرسالة المنفذة إلى القاضي:

رسالة حمزة الثانية – على أن الأولى مجهولة – إلى قاضي القضاة أبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الله العوام. وهو ممن خدموا في الملك، وقضى على جميع القضاة في مصر وبلاد

الفاطميين. قلّده الحاكم سجلاً يحكم بموجبه بلاد الشام سنة ٤٠٧ هـ واستمر حتى ٤١١ هـ. وهو من أهل السنة عكس من سبقه في هذه الخدمة فكانوا على الشيعة. في هذه الرسالة يؤنّب حمزة على أحكامه على الموحدين ويمنعه من ذلك، ومما جاء فيها:

«توكّلت على أمير المؤمنين جل ذكره
وبه أستعين في جميع الأمور
معلّ علّة العلل
صفات العلّة بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد أمير المؤمنين، ومملوكه حمزة بن علي بن أحمد هادي المستجيبين، المنتقم من المشركين، بسيف أمير المؤمنين وشدة سلطانه ولا معبود سواه، إلى أحمد بن محمد بن العوام الملقّب بقاضي القضاة.

أما بعد فقد تقدّمت لنا إليك رسالة نسالك عن معرفتك بنفسك فقصّرت عن الإجابة قلّة علم منك بالحق وإهجاناً به. وكيف يجوز لك أن تدّعي هذا الاسم الجليل وهو قاضي القضاة، وليس لك علم بحقائق القضايا والأحكام.

فقد صحّ بأنك مدّع لما أنت فيه.

فيجب عليك أن تعلم نفسك وتدرّجها. فإن كنت قد جهلتها فأنت فرعون الزمان. وفعلك لاحق بعثمان بن عفّان. فيجب عليك أن تُقلّع عما أنت فيه، وتتّبع سير أصحابك المتقدمين أبي بكر وعمر. وتزيل ثلثيمة البياض عن رأسك والعمامة والطيلسان. وتلبس دنيّة طويلة سوداء بشقائق صُفّرٍ طوالٍ مُدلاةٍ على صدرك، وتلبس دُرّاعة بلا

جيب بل تكون مشقوقة الصدر. وتكون مُرَقَّعة بالأحمر والأصفر
الأديم الأسود الطائفي. وتكون قصيرة عليك لتلحق في الشكل
بعمر بن الخطاب. ويكون لك دِرَّةٌ على فخذك لتقيم بها الحدود على
من تجب عليه وأنت جالس في الجامع. ويكون لك في كل سوق
صاحب يتزايا بزيك وبيده دِرَّةٌ تقيم بها في سوقه الحدود على من
وجبَّت عليه، مثل الزَّاني والسارق والقاذف وشارب الخمر، ممَّن هو
من أهل ملَّتكَ. وتكون تتولَّى الخطبة بنفسك وتَطلُعُ على المنبر بلا
سيف تتقلَّد به. ويكون ممرك ومجيئك من دارك إلى الجامع وأنت
ماشٍ حافياً لتكون في ذلك لاحقاً بأصحابك المتقدمين أبي بكر وعمر.
وإياك ثم إياك أن تنظر لموحد في حكم لا أنت ولا عايلتكَ في
شهادة نكاح ولا طلاق ولا وثيقة ولا عتق ولا وصية. ومن جلس بين
يديك على حُكم فتسأل عنه، أن يكن موحداً فتُرسله إلي مع رجالتك،
لأحكم أنا عليه بحكم الشريعة الروحانية التي أطلقها أمير المؤمنين
سلامه علينا.

فانظر لنفسك فقد أعذرتك مرّة بعد أخرى وأنذرتك.

وكتب في شهر ربيع الأول، الثاني من سنة عبد مولانا ومملوكه
هادي المستجبين المنتقم من المشركين بسيف مولانا أمير المؤمنين،
وهو حسبي ونعم النصير المعين»^(١).

ويحيى ابن سعيد الأنطاكي هو المؤرّخ الوحيد المعاصر للحاكم،

(١) رسائل الحكمة، حمزة بن علي، الرسالة رقم ٢٨ الجزء الثاني، لا طبعة، لا دار نشر، سنة
١٤٠٠ هجرية، صفحة ٢٢٧.

يقول عنه: «وربى شعره إلى أن طال ونزل على اكتافه وامتنع من تقصيصه وتقليم أظافره، وغىّر الثياب الصوف البيض التي يلبسها بسواد، والعمامة الزرقاء بسواد. وصار يلبس الكسوة الواحدة، المدة الطويلة إلى أن تتلبّد بما ينالها ويتداولها من العرق الدائم، ويعلوها من الغبار المتّصل، وواصل تدوير الصحارى والفيافي، وقصد الجبل المقطّم والإنفراد بنفسه، وكثّر التماذي في السير وحده إلى حيث يريد. ويقال أنّه كان في انفراده بنفسه يتغوّث إلى الله تعالى، أن يناجيه ويوحى إليه كما ناجى موسى وأوحى إليه وإلى غيره من أنبيائه، وصارت البراري مأوى له كالوحوش، وزادت أظافيره، فشبهت مخالب العقاب، وطال شعره كالأسد، جزاء له على تدميره هيكل الرب الأورشليمي (كنيسة القيامة) واستباحته أهل القدس»^(١).

وبعد مقتل الحاكم، يورد المقرئزي رأي ابن أبي طي فيه الذي قال أنّه كان إذا ركب يقول دعائه: «السلام عليك يا واحد يا أحد، ويغالون فيه الغلو المفرط».

وينهي المقرئزي المقطع الذي نقله من أخبار الحاكم بأمر الله عن ابن أبي طي) «انتهى ما ذكره ابن أبي طي، وفيه تحامل شفر به واحد من مؤرّخي مصر وذكره»^(٢).

وفي المحصلة، لو كان الحاكم بأمر الله الفاطمي، ادعى الألوهية، لكانت مشارق الأرض ومغاربها قد عرفت هذا الأمر، لأنّه لم يكن داع

(١) صلة تاريخ أوتيك، يحيى ابن سعيد الأنطاكي، م.س. ص ٢٣٠.

(٢) راجع: اتعاظ الحنفاء، الثاني، م.س. ص ١١٩.

مستور أو وال على ناحية أو محافظة، بل كان حاكم العالم الإسلامي بأجمعه، ومن تصل به الأمور إلى هذا المستوى من التفكير، يصبح مجنوناً والمجنون لا يقرن تصرفاً أحقق بتصرف موزون، بل التصرفات الحمقاء تتوالى كزخ المطر، ولا تنتهي إلا بإيداعه البيمارستان أو الانقلاب العسكري عليه وقتله. وكل الذين أشاروا إلى قتله، قالوا: إن أخته قتله لتشنيعه عليها واتهامه لها بعرضها. ولم يربط بين عملية قتله وادعائه الإلوهية إلا بعض المؤرخين المتحاملين على الفكر الشيعي وعلى مذاهب أهل البيت.



غرائب عهد الحاكم

نقل المؤرخون العرب بعض السجلات والأحداث الغريبة التي جرت في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي. وهذه الحوادث، لا نستطيع البتّ بصحّتها أو نؤكّدها، لأن المعارضين والمبغضين للفاطميين وللحاكم أكثر من المحبّين والملتزمين الحياد.

ونحن إذ نوردّها، ليس من باب التشهير والإشهار بل من باب وضعها في إطارها التاريخي الصحيح، لعلّنا نجد الأسباب التي دفعت الحاكم لاتخاذ هذه القرارات والسجلات.

وقد تنوّعت هذه السجلات، فمنها ما كان له دافع ديني، ومنها ما كان له دافع اجتماعي، ومنها ما لم نجد له تفسيراً فأدرج في باب الغرابة والاستهجان.

فمن هذه السجلات والقرارات الغريبة والمستغربة قرار عمّه على الناس في السابع من محرّم سنة ٣٩٥ هـ، وقرىء على منابر سائر جوامع مصر والخلافة يأمر فيه اليهود والنصارى بشدّ الزنار في وسطهم، ولبس الغيار وجعل لبسهم السواد شعار «الغاصبين العباسيين».

وإذا وجدنا مبرراً لهذا القرار ضدّ النصارى واليهود، فلا يستقيم معنا أي مبرر، لأنّ الذي كان يقتل كبار الموظفين المقصرين والمرتشين بالجملة، لا مانع لديه من قتل عامة اليهود والنصارى. وخاصة أنّه كان يتخذ منهم الوزراء والكتّاب والأطباء.

وفي نفس السنة قرىء سجّل في الأطعمة فمنع طبخ وأكل الملوخية والبقلة المسماة بالجرجير والمتوكلية وهي أكلة منسوبة للخليفة العباسي المتوكل على الله.

وفسّر المؤرّخون منعه للملوخية بسبب حبّ معاوية لأكلها، والبقلة بسبب حب عائشة لها والمتوكلية بسبب حب المتوكل لها.

وقالوا إنّ كره الفاطميين لمعاوية وعائشة معروف ومعروفة أسبابه، وأنّ المتوكل بلغ كرهه وحقده على عليّ وبنيه بأن أمر بهدم مقام الحسين (ع) وهدم ما حوله من المقامات والمنازل والدور، ولم يكتف بذلك بل حرثها وبذر مكانها وسقى البذار حتى أزال معالمها كلها، ولما لم يمتنع الناس عن التبرّك بالمكان، وضع حرساً من قبله يمنع الناس من القرب من المكان.

وفسّر مؤرّخون آخرون أنّه منع طبخ الملوخية والبقلة بسبب الهيجان الجنسي التي تحدّثه كلّ أكلة في نفس أكلها.

وفي صفر من نفس السنة ٣٩٥ هـ، أجبر الناس على سب السلف ولعنهم (الخلفاء الراشدون) وكتابة الشتائم والمسبّات على أبواب المساجد والحوانيت والدكاكين والفنادق والخانات والمقابر. «ونُقش ذلك ولُوّن بالأصباغ وماء الذهب وعمل على أبواب القياسر وأبواب القصور والدور، وأُكره على عمل ذلك».

وفسّر المؤرّخون الرافضون للشيعة والتشيّع هذه التصرفات بجنون الحاكم. وفسّرها غيرهم بأنه كان شاباً يافعاً يتأثر بعواطفه بأفكار العامة والدهماء، وأنه عاد عن هذا الأمر بعد أن اكتشف خطاه. وروى المؤرّخون تقافز بعض الأحداث من مناطق عالية في بركة القصر لقاء جائزة قيمة لكلّ فائز، وكيف أدّت هذه المسابقة إلى وفاة أكثر من ثلاثين متبارياً، وعلّلوا هذا الأمر إلى حب الحاكم لسفك الدماء بأي طريقة كانت. وكلها من الأخبار المدسوسة عليه التي لم يتفق عليها مؤرّخان بل أخذ المتأخّر فيهم عن المتقدّم.

وفي جمادى الاولى من السنة نفسها، صدر أمر بقتل الكلاب ما عدا كلاب الصيد، «فقتل منها ما لا يحصى، حتى لم يبق منها بالأزقة والشوارع شيء، وطرحت بالصحراء وبشاطيء النيل»^(١).

وإذا ناقشنا هذا القرار، نجد فيه صحة توجّهات الحاكم فالكلاب لا منفعة لها وهي نجسة، وتصيب الإنسان بمرض كيس الكلاب، وهو يصيب الإنسان بمجرد لحس أو شمّ الكلب لأيّ وعاء أو صحن. ولا ينظف الوعاء أو الصحن إلاّ بالتراب، وهذا أمر متداول ومعروف في الصقع العاملي من الجنوب اللبناني، وأهله أغلبهم من الشيعة الإمامية.

وفي سنة ٤٠٠ هـ، أمر الحاكم بإبطال الأذان بحّي على خير العمل واستبداله بالصلاة خير من النوم، وطلب من مؤذني القصر أن ينهوا الأذان بقولهم: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله.

(١) اتعاظ الحنفا الثاني، م.س. ص ٥٦.

لم يشر مؤرّخو السنة إلى هذا السجل، رغم أنّه تراجع كبير عن التشييع، واستبداله بالتسنّن، وأما الأسباب التي دفعت الحاكم لمنع الأذان بحي على خير العمل وهو شعار الشيعة عبر التاريخ، لم يزل حتى الآن دون تفسير. ولكن رغم هذه القرارات فلم ينج الحاكم من ظلم المؤرّخين الرافضين له ولخلافته.

وهذه القرارات والسجلات التي اعتبرها المؤرّخون من الغرائب، تصدّى لها بعض المؤرّخين المعاصرين أمثال عبد المنعم ماجد وأعطى تحليلاً وتعليلاً لكل قرار، وخرج بمحصلة مفادها أنّ الحاكم بأمر الله مفترئ عليه من قبل المؤرّخين فهو «مع اعتقاده بأن الحاكم بأمر الله طاغية من طغاة المسلمين، إلا أنّه يلمس في شخصيته شواهد مدهشة، ولا يجدها في غيره من طغاة زمنه، وهي جديرة بالتأمل والتعجب، فقد أسبغ على حكمه المثالية من إخلاص وعدل وتقوى وورع مما جعل سيرته تتشابه في بعض نواحيها مع سيرة العمرين: عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، اللذين اعتبرت سيرتهما من الأساطير»^(١).

الحاكم بأمر الله الفاطمي: عادل أم سفاك للدماء؟

لم يعرف التاريخ العربي والإسلامي إماماً عادلاً وسفاكاً للدماء في آن واحد، كالحاكم بأمر الله الفاطمي، والمطلع على تاريخ هذا الرجل، (الإمام المعصوم عند البعض)، بل (الإله) عند البعض الآخر، يجد أنّه

(١) الحاكم بأمر الله المفترئ عليه، عبد المنعم ماجد، ط١، القاهرة لا دار نشر، سنة ١٩٥٩،

كان يعمل ليلاً نهاراً لترسيخ دعائم الدولة الفاطمية القائمة على الولاء التام للإسلام بالمفهوم الشيعي الطالباني الجعفري، ومنذ نعومة أظفاره وهو ابن السنين العشر، أظهر ذكاءً خارقاً في سبيل تدعيم سلطة الدولة الشيعية الممتدة من المحيط الأطلسي حتى الخليج الفارسي، باستثناء بغداد وبعض العراق، تلك السلطة التي طالت كل الجزيرة العربية بما فيها مكة واليمن. ولتدعيم هذه السلطة، اتجه الخليفة الحاكم نحو الشعب، واستمدّ منه سلطته وقوّته وقوّة إدارته، وبطش بكل من لعب بأمن الشعب العربي في مصر وخارجها. ولم يُذكر أنّه قتل إنساناً عادياً واحداً، ما عدا ما ذكره المؤرّخون المتحاملون عليه وعلى الدولة الفاطمية، من قتل صبيّ كان يلعب بين يديه، ومن قتله واحداً من حرسه الخاص بالساطور، فهاتان المعلومتان لم يجمع عليها مؤرّخو هذه الدولة، بل انفرد بها بعضهم وأوردوها بطريقة الحشو، دون ذكر ظروف الحادثة وأسبابها وشهودها.

وبعد أن نستعرض أسماء ووظائف ومراكز الذين قتلهم الحاكم بأمر الله الفاطمي وبطش بهم سنحاول البحث في المراجع عن أسباب قتل كلّ واحد منهم، وسنجد أنّه لم يقتل على الشبهة، بل قتل كلّ واحد من هؤلاء الموظفين المرتشين والخونة بجريمة معيّنة اقترفها، وسنحاول ذكر هذه الجريمة، وظروفها ونتائجها.

مقتل عيسى بن نسطورس:

كان مسلسل الإعدامات الذي نفّذه الحاكم بأمر الله الفاطمي قد بدأ من أول استلامه الخلافة بعد أبيه وهو في العاشرة من عمره،

فكيف كان هذا الصبي يجرؤ على أخذ هكذا قرارات لو لم يكن مميزاً عن غيره من الناس. وقد بدأ هذا المسلسل بقتل وزيره وكاتبه عيسى بن نسطورس، فمن هو هذا الوزير؟.

نقل المقرئ من ابن الأثير عن الخليفة العزيز بالله الفاطمي فقال: «قيل لي إنه ولي عيسى بن نسطورس النصراني كتابته واستناب بالشام يهودياً اسمه منشأ ابن إبراهيم بن القزاز، فاعتز بهما النصراني واليهود وأذوا المسلمين، فعمد أهل مصر وكتبوا ورقة وجعلوها في يد صورة (تمثال) عملوها من قراطيس فيها: بالذي أعز اليهود بمنشأ والنصراني بعيسى بن نسطورس وأذل المسلمين بك، ألا كشفت ظلامتي؟ وأقعدوا تلك الصورة (التمثال) على طريق العزيز، والرقعة بيدها، فلما رآها أمر بأخذها، فإذا الصورة من قراطيس (ورق)، فعلم ما أرادوا بذلك، فقبض عليهما وأخذ من عيسى بن نسطورس ثلاثمائة ألف دينار، ومن منشأ اليهودي شيئاً كثيراً»^(١).

يوم مبايعة الحاكم بأمر الله بالخلافة، تخلف جماعة من شيوخ كتامة عن الحضور وامتنعوا عن المشاركة في احتفالات البيعة فأحضرهم وسؤلوا عن السبب، فشكوا من عيسى بن نسطورس وسألوا صرفه. وكانت هذه أول طعنة في ظهره ومقدمة لقتله وإعدامه. ونُمي للحاكم أنه، إضافة إلى تقديم النصراني على المسلمين كان قد صرح بأن شريعة النصرانية متقدمة على

(١) اتعاظ الحنفا الثاني، م ٢، ص ٢٩٧.

الشرعية الإسلامية، والدولة كانت للنصارى وصارت للمسلمين، فجاروا على النصارى بالجزية والذلة، وكان يخاطب المسلمين بقوله: متى كان منكم إلينا إحسانٌ حتى تطالبونا بمثله! إن منعناكم قاتلتُمونا، وإن سألناكم أهنتُمونا، فإذا وجدنا لكم فرصة فماذا تتوقعون أن نصنع بكم؟»^(١).

وحدث حريق في دار صناعة السفن واحترق الأسطول، فأقدم ابن نسطورس على قتل المسؤولين عنه دون تحقق وبلغوا عُدَّة، فحزن أهلهم حزناً كبيراً عليهم فما كان من الحاكم بأمر الله الفاطمي إلا أن أمر بتسليم الجثث إلى أهلهم وأعطى لكل قتيل عشرة دنانير من أجل كفنه، فكثر الدعاء من الرعية للحاكم^(٢). وقد أدت هذه التصرفات إلى قتله على يد الحاكم سنة ٤٠٣ للهجرة.



قتل علاقة والي صور الفاطمي:

عندما يتحدث المؤرخون اللبنانيون عن علاقة، يعتبرونه ثائراً على الظلم الفاطمي وواحداً من رجالات الاستقلال اللبناني، بينما إذا رجعنا إلى كتب التاريخ الإسلامية التي أرخت هذه الحادثة واخترنا أكثرهم نزاهة وموضوعية، وهو المقرئزي نجد صورة الخيانة والتعاون مع أعداء العربنة تشع بوضوح من هذه الحادثة، فقد وصف المقرئزي هذه الحادثة في حوادث سنة ٣٨٨ هـ وكان للخليفة الحاكم ثلاث عشرة سنة من العمر فقال: «وورد الخبر بفتح

(١) اتعاظ الحنفا، م ٢، ص ٤.

(٢) م.س. ص ٦.

صور، وذلك أنَّ أهل صور كانوا ثاروا على من عندهم من المغاربة، وقتلوا منهم جماعة، وقتلوا من بقي، (يعني القوة العسكرية المرابطة في صور)، وغلب على البلد رجل من البجاوية (نسبة إلى بجة)، يقال له العلاقة، فاتصل علاقة بالروم (اليونانيين، العدو التاريخي للعرب). فسيروا إليه بمراكب فيها رجال، فاستقبلهم عسكره. فسارت إليهم المراكب من مصر، وقاتلوا من بصور من الروم، فانهزم الروم عنها بمراكبهم. فملك الفاطميون صور. وامتنع العلاقة (احتذى)، ومعه طائفة في بعض البروج. ثم طلبوا الأمان. فانتهبت المدينة وحمل العلاقة مقيداً، وسيق في جماعة معه إلى القاهرة فشهر بهم، وألبس العلاقة طرطوراً من رصاص ثقيل. وقتل وصلب وقتل أصحابه»^(١).

وقد نقل عن نهاية الأرب وصفاً لهذه الحادثة جاء فيه، أنَّ العلاقة ألبس طرطوراً وأركب على حمار أعرج وأركب وراءه قرد درّب على صب اللبن على المطوف به، وصفعه على رقبتة بعد كل صبة لبن، وقال النويري أيضاً أنَّ جلد العلاقة قد سلخ وهو حي، وحشي تبناً ثم صلب. وكان العلاقة قد سك نقوداً في صور وكتب عليها: «عز بعد فاقة، وشطارة بلباقة، للأمير علاقة».

وبعد هذا العرض الوافي لعملية خيانة العلاقة، لم يعد هناك مبرر للدفاع عن أسباب إقدام الحاكم على قتل وصلب هذا الخائن.

(١) راجع اتعاظ الحنفاء، ص ١٩.

قتل برجوان الخادم (كبير الوزراء):

عندما تولى الحاكم بأمر الله الخلافة، كان صغير السن أسير وزراء دولة أبيه ومنهم أبو محمد بن عمار، شيخ شيوخ قبائل كتامة المغربية، وقد استغل ابن عمار صغر سن الحاكم فبغى وطفى، وقرب قبائل المغرب العربي من لواتة وكتامة وصنهاجة وأبعد المصريين وأهل الشام عن السلطة والحكم، بل امتدت أيدي الأذى إليهم من قبل المغاربة فهجروا مصر إلى الشام، ومن طفاه وبغاه واستصغاره خليفته وولي نعمته، الحاكم، أنه كان يدخل على الحضرة راكباً حصانه، «ويتعرض لجواري القصر بالبيع والأخذ كأنها ملك يديه، كما أمر الناس ورجال الدولة بالترجل له، وشرف أكابر الناس بتقبيل ركابه، وأجل الناس من يسمح له بأن يقبل ركبته»^(١).

وهذا، كان الخليفة الحاكم لا يفعل، أو يقبل أن يعامل الناس به، وكان هناك رجل آخر قوي، ينافس ابن عمار، يدعى أبو الفتوح برجوان، يعمل في قصر الخلافة من أيام العزيز، ووصل إلى رتبة أستاذ (مستشار). وبالرغم من أنه لم يكن يستند إلى قوة القبائل والعشائر والعساكر كابن عمار، ولكنه كان يملك الحنكة والدهاء والسياسة. وكان قد استبد بما تبقى من سلطات الخليفة والخلافة، فأخذ يؤلب المصريين والمشاركة على ابن عمار والمغاربة، وأخذ الحاكم بالرغم من صغر سنه يوجب العداوة بين الاثنين، حتى

(١) راجع: الحاكم بأمر الله، المقترى عليه، م.س. ص ٣٠.

انتهى الأمر بهرب ابن عمار من مصر واختفائه.

ولما تم النصر على ابن عمار تقلد برجوان الوساطة (الوزارة) مكانه، ثم أخذ في توطيد نفوذه، فكُون لنفسه طائفة خاصة من الجند والمماليك أقطعها حارة خاصة بها، كانت تعرف بحارة برجوان، وبدأ يمدّ غلمان القصر بالرواتب والإعطيات والهدايا حتى أصبح الحاكم أسيرهم، وارتدّ إلى ابن عمار فصالحه وأعادته إلى القاهرة، لتحقيق المزيد من السيطرة والسلطة. ووصل طغيان برجوان إلى عدم احترام الحاكم، والتصرّف على أنّه الخليفة الفعلي، فيخرج من دونه في المواكب الرسمية، وما لبث أن استصغر الحاكم واحتقره فقد استدعاه الحاكم ذات يوم، فوصل راكباً وسار إليه وثني رجله على عنق فرسه وأصبح باطن قدمه وفيه الخفّ قبالة وجه الحاكم، ولم يكتف بسؤ الأدب مع الناس والخليفة، بل جمع لنفسه مالاً وفيراً قدر بمائتي مليون دينار ذهباً، وخمسين أردباً من الدراهم الفضة، واثنى عشر صندوقاً من الجواهر، هذا عدا الضياع والخدم والمواشي والإصطبلات والحواصل، ومخازن البضائع وخزائن الثياب، التي كانت تعدّ بالآلاف، وقد أفسدت هذه الثروة عقله وفكره فمال عن الإسلام وخدمته، إلى القصف واللهو والملذات والمجون ليلاً نهاراً^(١).

وكان مقتل برجوان في السادس عشر من ربيع الأول لسنة ٣٩٠ هجرية، وكان للحاكم من العمر خمسة عشر سنة.

(١) راجع م.س. نفسه، ص ٢٢.

وقد قتله بمؤامرة دبّرها مع صاحب مظلّته ريدان الصقلبي، وكان هذا الخادم من أخلص الخدم للحاكم. وفي صبيحة هذا اليوم، «أرسل الحاكم إلى برجوان يستدعيه للركوب معه إلى المقس (ميناء القاهرة)، فجاء بعد بضع ساعات، ودخل بالموكب إلى الباب الذي يخرج منه الحاكم، فلم يكن أسرع من خروج عقيق الخادم وهو يصيح: قتل مولاي، وكان عقيق عيناً لبرجوان في القصر»^(١).

أما الخطة فقد نفّذها ريدان الصقلبي حيث استقبل برجوان، فتقدّم إليه يقبل رجله وركبته، ويعتذر إليه بانشغاله عنه بسبب تفرّغه لخدمة الحاكم، وفي نفس الوقت يتحسّس ثيابه خوفاً من أن يكون لابساً درعاً من حديد، فلما تأكد أن برجوان، لا يلبس شيئاً، شدّه عن ظهر فرسه وطرحه أرضاً وضربه بحديدة على قلبه ضربة عظيمة، ثم أقبل الحاكم وطعنه برمح طعنة ثم نزع عنه، وتقدم بقية خدم القصر بالسيوف طعنوا وضربوا إلى أن قتل، فخرجت والدّة الحاكم وأخته ست الملك، خوفاً عليه من برجوان وأنصاره، فطمأنهما الحاكم وأمرهما بالرجوع.

عندها خرج عقيق الخادم مسرعاً كما أشرنا وهو يصيح قتل مولاي برجوان، فاضطرب الناس وخاصة أنصار برجوان وعساكره، فبادروا إلى باب القصر وتجمّعوا أمامه، فخرج إليهم الحاكم راكباً فرساً أشقر فخطب بهم قائلاً: «إنّ برجوان عبد من عبيدي، استخدمته فنصح، فأحسننت إليه، ثم أساء في أشياء عملها فقتلته،

(١) اتعاط الحنفا الجزء الثاني، ص ٢٥.

والآن أنتم شيوخ دولتي، وأشار إلى كتّامة، وأنتم الآن عندي أفضل مما كنتم فيه مما تقدّم، والتفت إلى الأتراك وقال لهم: أنتم تربية العزيز بالله في مقام الأولاد، وما لكلّ واحد عندي إلا ما يؤثره ويحبّه، فكونوا على رسومكم، وامضوا إلى منازلكم، وخذوا على أيدي سفهائكم. فدعوا له جميعاً، وقبلوا الأرض، وانصرفوا^(١).

ولم يكتف الحاكم بهذه الخطوة بل عمد إلى قتل أعوانه المقربين من كتّامة وأنهى هذه الخطوة بقتل ابن عمار، فقتله يوم السبت الخامس من شوال من سنة ٣٩٠هـ، ممّا دفع بمن تبقى من أنصار الإثنيين، بالقدوم إلى القصر كاشفين رؤوسهم مستغثين بالحاكم، طالبين العفو والأمان.



أسباب قتل ريدان الصقلبي:

عندما قام يانس الصقلبي بالانقلاب على الحضرة المقدسة واستقل بحكم طرابلس وبرقة، أرسل الحاكم القائد جعفر بن حبيب لتأديبه، فوصل جعفر إلى طرابلس وقتل يانس، فبادر أحد أصحابه وهو فتوح بن علي بن عقيان إلى تجميع الجيوش والعساكر ومحاربة جعفر وطرده من طرابلس، فطلب الإمدادات من الحاكم، فأرسل له يحيى بن علي الأندلسي بعسكر وطلب من ريدان الصقلبي أن يعطيه رواتب الجند وكلفة الحملة من خزانة بيت المال في القاهرة، فعمد ريدان إلى إعطائه أمراً بقبض الرواتب والأموال من

(١) م. س. ص ٢٧.

بيت مال طرابلس، ولكنه لما وصل لم يجد مالاً في طرابلس، مما أدى إلى هزيمته وعودته إلى القاهرة، فأراد الحاكم قتله بسبب انهزامه، فاعلمه يحيى بأن أسباب الهزيمة هي عدم وجود رواتب وأموال، وأن ريدان لم يصرف له المال المطلوب و «أظهر له كتاب ريدان صاحب المظلة بخطه أن يدفع إليه المال من برقة، فلم يجد ببرقة مالاً ينفقه على العساكر، فقبل الحاكم منه هذا العذر وقتل ريدان على ما فعل»^(١).

وعندما حاول أبناء المغازلي تحريض ابن عمه عبد الأعلى بن هاشم على ادعاء الخلافة، قام بقتلهم وحرقتهم لأن الإمامة والخلافة لها شروطها ونظمها وهي من الوالد للولد الأكبر.

وعندما اكتشف أن مراقب عقد النفقات في ديوان الخلافة أبا داود بن المطيع قد سرق ٢٠٠ ألف دينار قبض عليه وقتله^(٢).

ولما كانت صلاة الضحى تعتبرها الشيعة بدعة ابتدعتها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، نهى الحاكم عنها وحذر من صلاتها، فلما لم يمتنع البعض عنها قام بتنفيذ الحد الشرعي على مرتكبيها، فقبض على ثلاثة عشر رجلاً، فضربوا وشهروا على الحمير وحبسوا ثلاثة أيام بسبب أنهم صلّوا صلاة الضحى^(٣).

وعندما حكم على سهل بن يوسف بن يعقوب بن كلّس بالإعدام

(١) م.س. ص ٢٤.

(٢) م.س. ص ٤٨.

(٣) م.س. ص ٤٩.

بسبب قوة طمعه وكثرة شرهه واستغلاله وظيفته لجمع الثروة، عرض سهل أن يفتدى نفسه بثمانى مائة ألف دينار عينا (نقداً)، فرفض الحاكم، ونفذ فيه حكم الإعدام وترك المال لورثته.

أما ابن البازيار القائد فقتله لعدم احترامه أصول الدخول على الحضرة، فكان يدخل راكباً فرسه واضعاً رجله فوق ظهر الفرس تكون بمقابل وجه الحاكم فور دخوله.

وقد بولغ في عدد من قتلهم الحاكم، فقليل حوالي عشر آلاف إنسان...، ويبدو أن إسراف الحاكم في القتل سببت حيرة لبعض المؤرخين، الذين تخبطوا في البحث عن تفسير لهذا التصرف، ولم يتبينوا قصده السياسي، فمنهم من فسرّه أن الحاكم كان يعبد كوكبي زحل والمريخ، ولا سيما أن المريخ يرمز للحرب، فكان الحاكم يسفك الدماء تقرباً لهما، وعلى خلاف ذلك رأت الشيعة أن معظم من قتلهم الحاكم لم يكونوا من ضعفاء الناس، وإنما من أكابر رجال الدولة، مما يبين أن القتل كان عنده وسيلة من وسائل الحكم، وهذه نجدها عند كثير من ملوك عصره^(١).

أما الذين أشير إلى قتلهم كالصبي والركابي (الحرس الخاص) فهي مجرد دسائس لا صحة لها، ولم يتفق عليها غالبية المؤرخين.

(١) الحاكم بأمر الله المفترى عليه، م.س. ص ٤٧.

رأي المؤرخين بالحاكم

يقول يحيى بن سعيد الأنطاكي عن الحاكم في أواخر أيامه: «وربى شعره إلى أن طال ونزل على أكتافه وامتنع من تقصيصه ومن تقليم أظافره، وغيّر الثياب الصوف البيض التي يلبسها بالسواد، والعمامة الزرقاء بالسواد. وصار يلبس الكسوة الواحدة المدة الطويلة إلى أن تتلبّد بما ينالها ويتداولها من العرق الدائم ويعلوها من الغبار المتّصل. وواصل تدويره الصحاري والقيافي. وقصد جبل المقطم والإنفراد بنفسه عمّن معه من الركابية، والتمادي في السير وحده إلى حيث يريد، ويعود إلى الموضع الذي فيه الركابية ينتظرونه.

ويقال /والكلام ليحيى بن سعيد/ أنّه كان في انفراده بنفسه في الجبل، يتغوّث إلى الله تعالى أن ينجيه ويوحى إليه كما نوحى موسى وأوحى إليه وإلى غيره من الأنبياء. وصارت حاله غير بعيدة عن حال نبوخذ نصر ملك بابل الذي حكى دانيال النبي الصادق عنه، أنّ البراري صارت مأوى له كالوحوش، وزادت أظافره فشبهت مخالب العقاب. وطال شعره كالأسد... وكانت بغيته في جميع ما يقصده من هذه الفعال العجيبة المتضادة التي تقوم في نفسه،

ويفعلها شيئاً بعد شيء، صنف من سوء المزاج المرضي في دماغه أحدث له ضرباً من ضروب المانوخوليا (انقصام الشخصية)، وفساد الفكر منذ حدوثه. فإنه من المتعارف في صناعة الطب أنه قد يكون في من يعتريه هذا المرض، أنه يقوم في نفسه أوهام ويتخيل أموراً وعجائب. ويكون كل واحد منهم لا يشك أنه على غير الصواب فيما يتصوره في جميع أفعاله. ولا يثنيه عن ذلك ثاب ولا يردّه راد. وأنه قد يكون منهم من يظن بنفسه أنه نبي. ومنهم من يتوهم أنه الإله بنفسه. ويكون من هؤلاء من اختلاط الكلام ظاهراً، واختلاله ما ينكشف حاله عند من يشاهده ويحادثه...

ويتابع ابن سعيد الأنطاكي وهو من معاصري الحاكم واصفاً حالته: «وهذه صورة حالة الحاكم. ويستدل على حقيقة هذا المرض المشحوذ عليه، أنه كان قد عرض له في حدوثه تشنّج من سوء مزاج في دماغه. وهو مزاج المرض الذي يحدث في المانخوليات. وأن كثرة سهره أيضاً وشغفه بمواصلة الركوب والهيمن الدائم زاد سوء هذا المزاج»^(١).

ورأي يحيى بن سعيد في أسباب تقلّبات مزاج الحاكم أقرب للصحة والعقل من غيره من المؤرّخين، فهو يردّها إلى أسباب مرضه في الحمى الدماغية في طفولته مما جعله عصابي مزدوج الشخصية.

وقال فيه ابن خلدون: «وكان حاله مضطرباً في الجور والعدل

(١) صلة تاريخ أوتيكا، يحيى بن سعيد الأنطاكي. م.س. ص ٢٢٢

والإخافة والأمن والشك والبدعة. وأما ما يُرمى به من الكفر وصدور السجّلات بإسقاط الصلوات، فغير صحيح. ولا يقبله ذو عقل. ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته. وأما مذهبه في الرفض فمعروف. ولقد كان مضطرباً فيه مع ذلك. فكان يأذن في صلاة التراويح ثم ينهي عنها. ورفع إليه أنّ جماعة من الروافض تعرضوا لأهل السنة في صلاة التراويح بالرجم. فكتب في ذلك سجلاً قرئ على المنابر بمصر جاء فيه: أما بعد، فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين: لا إكراه في الدين..

مضى أمس بما فيه، وأتى اليوم بما يقتضيه. معاشر المسلمين نحن الأئمة وأنتم الأمة، من شهد الشهادتين لا يحلّ عروة بين اثنتين تجمعها هذه الأخوة... لكلّ مسلم مجتهد في دينه اجتهاده وإلى الله ربه ميعاده. عنده كتابه وعليه حسابه. ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم. لا يستعلي مسلم على مسلم بما اعتقده ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمده. يا أيها الذين آمنوا عليكم بأنفسكم، لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم. إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته كتب في رمضان سنة ٣٩٣ هـ^(١).

وتحدّث أبو المحاسن ابن تغري بردي عن الحاكم فقال عنه: «أرسل الحاكم إلى المدينة إلى دار جعفر الصادق من فتحها وأخذ منها ما كان فيها، وكان فيها مصحف وسرير وآلات، وحمل معه

(١) تاريخ ابن خلدون، م ع، م.س. ص ٦٠.

رسوم الأشراف، وعاد إلى مصر بما وجد في الدار، وخرج معه من شيوخ العلويين جماعة، فلما وصلوا إلى الحاكم، أطلق لهم نفقات قليلة، وردّ عليهم السرير وأخذ الباقي وقال: أنا أحق به، فانصرفوا داعين عليه»^(١).

والمتتبع لأخبار الحاكم عن المؤرخين الموضوعيين يعرف أنّ هذا الخبر موضوع جملة وتفصيلاً وخاصة بالشيق الذي يخص طمعه وبخله.

ويقول عنه ابن تغري بردي أيضاً: «وشاع فعله في الأمور في خرق العادات، ودعي عليه في أعقاب الصلوات وظوهر بذلك، فخاف». وأطلق صلاة التراويح والضحي وغير الأذان، وجعل مكان «حي على خير العمل»، «الصلاة خير من النوم» وركب بنفسه إلى جامع عمرو بن العاص، وصلى فيه الضحي وأظهر الميل إلى مذهب الإمام مالك والقول فيه، وأظهر النسك، وأقام الرواتب لمن يأوي المساجد من الفقراء والقراء والغرباء وأبناء السبيل، وأجرى لهم الأرزاق».

ونرى التناقض هنا أيضاً واضحاً في رأي ابن تغري بردي، فهو يثمه بالخوف، مع أنّ كلّ المؤرخين وصفوا الحاكم بالجرأة اللامتناهية، وخاصة هو الذي كان يمشي منفرداً وبدون حراسة في كلّ شوارع مصر والفسطاط وأنزقتها دون أن يجرأ أحد على أذيته.

أما ابن أبيك الدواداري وهو معروف بكرهه للفاطميين وتشنيعه عليهم، فمن تشنيعاته على الحاكم (خلال ذكره حوادث سنة ٤١٠ هـ).

(١) النجوم الزاهرة، م ع، م.س. ص ٢٢٢.

«أن الحاكم لبس الصوف سبع سنين، وامتنع من دخول الحمام، وأقام ثلاث سنين في ضوء الشمع ليلاً ونهاراً يعبد المريخ سرّاً وجهاراً. ثم رجع إلى عبادة زحل، وكانت أحواله منكراً متناقضة لا يعبرها القياس. والله أعلم»^(١).

ويعيد الدواداري هذا الخبر إلى ابن دحية في تاريخه وينهيه بكلمة: والله أعلم، علماً أن الكتاب خصّصه للفاطميين ولكنه يبدأ دائماً في كل سنة بعرض أخبار ومحاسن الخلفاء العباسيين وينهى السنة بعرض مساوئ ومثالب «الملوك» العبيديين.

وكتب عنه ابن الأثير فقال: «كان سبب قتله أن أهل مصر كانوا يكرهونه لما يظهر منه من سوء أفعال، فكانوا يكتبون إليه الرقاع فيها سبّه وسبّ أسلافه والدعاء عليه... كان جواداً بالمال، سفاكاً للدماء، قتل عدداً كثيراً من أمثال دولته وغيرهم. فكانت سيرته عجيبة... وبنى الجامع براشدة وأخرج إلى الجوامع والمساجد من الآلات والمصاحف والستور والحصر، ما لم ير الناس مثله»^(٢).
أما ابن خلّكان فعرف عنه كالتالي.

الحاكم العبيدي^(٣)

«أبو علي المنصور الملقب الحاكم بأمر الله بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم ابن المهدي صاحب مصر - وقد تقدّم ذكر

(١) الدرة المضية في تاريخ الدولة الفاطمية، م.س. ص ٢٩٨.

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، م ٧. م.س. ص ٣٠٥.

(٣) وفيات الأعيان، م ٥، م.س. ص ٢٩٩.

أجداده وجماعة من أحفاده، وسيأتي ذكر أبيه في حرف النون إن شاء الله تعالى - وكلهم كانوا يتسمون بالخلفاء.

وتولى الحاكم المذكور عهد أبيه في حياته، وذلك في شعبان سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة، ثم استقلّ بالأمر يوم وفاة والده - على ما سيأتي في تاريخه إن شاء الله تعالى؛ وكان جواداً بالمال سفاكاً للدماء، قتل عدداً كثيراً من أمثال أهل دولته وغيرهم صبراً.

وكانت سيرته من أعجب السير، يخترع كل وقت أحكاماً يحمل الناس على العمل بها، منها أنه أمر الناس في سنة خمس وتسعين وثلثمائة بكتب سب الصحابة رضوان الله عليهم في حيطان المساجد والقياسر والشوارع، وكتب إلى سائر عمال الديار المصرية يأمرهم بالسب، ثم أمر بقطع ذلك ونهى عنه وعن فعله في سنة سبع وتسعين، ثم تقدّم بعد ذلك بمدة يسيرة بضرب من يسبّ الصحابة وتأديبه ثم يشهره؛ ومنها أنه أمر بقتل الكلاب في سنة خمس وتسعين وثلثمائة فلم ير كلب في الأسواق والأزقة والشوارع إلا قتل؛ ومنها أنه نهى عن بيع الفقّاع والملوخيا وكعب الترمس المتخذة لها والجرجير والسمة التي لا قشر لها، وأمر بالتشديد في ذلك والمبالغة في تأديب من يتعرّض لشيء منه، فظهر على جماعة أنهم باعوا أشياء منه، فضربوا بالسياط وطيف بهم، ثم ضربت أعناقهم، ومنها أنه في سنة اثنتين وأربعمائة نهى عن بيع الزبيب قليله وكثيره على اختلاف أنواعه، ونهى التجّار عن حمله إلى مصر، ثم جمع بعد ذلك منه جملة كثيرة وأحرق جميعها، ويقال إن مقدار النفقة التي غرموها على إحراقه كانت خمسمائة دينار، وفي هذه السنة منع من بيع العنب وأنفذ الشهود إلى

الجيزة حتى قطعوا كثيراً من كرومها ورموها في الأرض وداسوها بالبقر، وجمع ما كان في مخازنها من جرار العسل فكانت خمسة آلاف جرة، وحملت إلى شاطئ النيل وكسرت وقلبت في بحر النيل؛ وفي هذه السنة أمر النصارى واليهود إلا الخيابرة بلبس العمائم السود، وأن يعمل النصارى في أعناقهم الصلبان ما يكون طوله ذراعاً ووزنه خمسة أرطال. وأن تحمل اليهود في أعناقهم قرامي الخشب على وزن صلبان النصارى، ولا يركبوا شيئاً من المراكب المحلاة، وأن تكون ركبهم من الخشب، ولا يستخدموا أحداً من المسلمين، ولا يركبوا حماراً لمكارٍ مسلم ولا سفينة نوتيتها مسلم، وأن يكون في أعناق النصارى إذا دخلوا الحمام الصلبان، وفي أعناق اليهود الجلاجل ليتميزوا عن المسلمين، ثم أفرد حمامات اليهود والنصارى من حمامات المسلمين وخط على حمامات النصارى الصلبان، وعلى حمامات اليهود القرامي، وذلك في سنة ثمان وأربعمائة. وفيها أمر بهدم الكنيسة المعروفة بقمامة وجميع الكنائس بالديار المصرية، ووهب جميع ما فيها من الآلات وجميع ما لها من الأرباع والأحباس لجماعة من المسلمين، وتتابع إسلام جماعة من النصارى؛ وفي هذه السنة نهى عن تقبيل الأرض له، وعن الدعاء له والصلاة عليه في الخطب والمكاتبات، وأن يجعل عوض ذلك «السلام على أمير المؤمنين». وفي سنة أربع وأربعمائة أمر أن لا ينجم أحد ولا يتكلم في صناعة النجوم؛ وأن يُنفى المنجمون من البلاد، فحضر جميعهم إلى القاضي مالك بن سعيد الحاكم بمصر - كان - وعقد عليهم توبة، وأعفوا من النفي وكذلك أصحاب الغناء. وفي شعبان من هذه السنة

منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلاً ونهاراً، ومنع الأساكفة من عمل الخفاف للنساء، ومحيت صورهن من الحمامات، ولم تزل النساء ممنوعات عن الخروج إلى أيام ولده الظاهر المقدم ذكره، وكانت مدة منعهن سبع سنين وسبعة أشهر. وفي شعبان سنة إحدى عشرة وأربعمائة تنصّر جماعة ممن كان أسلم من النصارى، وأمر ببناء ما كان قد هدم من كنائسهم وردّ ما كان أخذ من أحباسها، وبالجملّة فهذه نبذة من أحواله، وإن كان شرحها يطول.

وكان أبو الحسن علي المعروف بابن يونس المنجم قد صنع له الزيج المشهور المعروف بالحاكمي، وهو زيج كبير مبسوط.

ونقلت من خط الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي، رحمه الله تعالى، أنّ الحاكم المذكور كان جالساً في مجلسه العام وهو حافل بأعيان دولته، فقرأ بعض الحاضرين قوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ [النساء: ٦٥] والقارىء في أثناء ذلك يشير إلى الحاكم، فلما فرغ من القراءة قرأ شخص آخر يعرف بابن المشجر وكان رجلاً صالحاً ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له، إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب، ما قدروا الله حق قدره إنّ الله لقوي عزيز﴾ [الحج: ٧٣] فلما أنهى قراءته تغيّر وجه الحاكم، ثم أمر لابن المشجر المذكور بمائة دينار، ولم يطلق للآخر شيئاً؛ ثم إنّ بعض أصحاب ابن المشجر قال له: أنت تعرف خلق الحاكم، وكثرة استحالاته، وما نأمن

أن يحقد عليك؛ وأنه لا يؤاخذك في هذا الوقت ثم يؤاخذك بعد هذا فتتأذى معه، ومن المصلحة عندي أن تغيب عنه، فتجهّز ابن المشجر للحج، وركب في البحر ففرق، فرآه صاحبه في النوم، فسأله عن حاله، فقال: ما أقصر الرُّبَّان معنا أرسى بنا على باب الجنة، رحمه الله تعالى؛ وذلك ببركة جميل نيته وحسن قصده.

[ومن أخباره المستطرفة التي تدخل في أبواب الفرج بعد الشدة ما حدث به بعض الرؤساء أن ولي الدولة ابن خيران استحضره الحاكم ذات يوم وقال له: يا ولي الدولة، إنني أريد أن أزوج مملوكي فلاناً على جاريتي فلانة بعد عتقهما، وكذلك آخر لآخرى، فخذ هاتين الشقتين وأخطب فيهما خطبتين حسنتين وانسق الصداق والمهر بعد ذلك على ما تقتضيه صناعة الوراق، وبكر إلينا من الفجر ولا تتأخر. فقبل ذلك من الحاكم بالسمع والطاعة وانصرف، ووصل إلى داره بمصر وأسهر نفسه واستنتج قريحته وجوّد فكرته وعمل ما أشار له في الكتابين ولم يزل في السهر إلى وقت السحر، فاستحّثه الرسل فقام ليتوضأ ويتهيأ إليه فعثرت رجله في المحبرة فتطرّطش الكتابين، فلطم وجهه ووقع مغشياً عليه وانقبض أهله، وعلم أنّه مقتول، فوصّى أهله الوصية التامة وركب وأخذ الكتابين في كمّه مطويين، ولم يزل إلى أن دخل من باب القاهرة ووصل إلى القصر مغلساً، والرسل والحجّاب منتظرون قدومه، وحين وصل أذن له في الدخول، فوجد الحاكم في الإيوان الكبير جالساً على سرير، وبين يديه طشطان وعليهما قوارتان، فلما رأى الحاكم قبل الأرض ووقف صامتاً فقال له: يا ولي الدولة اكشف هذين الطشطين، فكشف عنهما فإذا في كلّ منهما رأس رجل ورأس

امرأة، فقال: هؤلاء اطلعنا منهم على قضية منحوسة وفساد لا ينبغي الصبر عليه ففعلنا بهم ما فعلنا، وتلك الثوبان خذهما فصلهما لأهلك، امض لشأنك، فخرج من بين يديه مغشياً عليه، فأقام في الديوان إلى أن سكنت نفسه وهذا روعه، وكتب إلى أهله رقعة يأمرهم فيها بالسكون والسكوت إلى أن يجتمع بهم].

والحاكم المذكور هو الذي بنى الجامع الكبير بالقاهرة، بعد أن كان قد شرع فيه والده العزيز بالله - كما سيأتي ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى - وأكمّله. وبنى جامع راشدة بظاهر مصر، وكان شروعه في عمارته يوم الاثنين سابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة، وكان متولي بنائه الحافظ أبا محمد عبد الغني بن سعيد، والمصحح لمحرابه أبا الحسن علي بن يونس المنجم، وقد تقدّم ذكرهما، وأنشأ عدة مساجد بالقرافة وغيرها، وحمل إلى الجوامع من المصاحف والآلات الفضية والستور والحُصُر السامان ما له قيمة طائلة.

وكان يفعل الشيء وينقضه.

[وخرج عليه في سنة خمس وتسعين وثلثمائة أبو ركوّة الوليد بن هشام العثماني الأندلسي، وكان خروجه في نواحي برقة، ومال إليه خلق عظيم، وسير إليه الحاكم المذكور جيشاً كبيراً وانتصر عليهم وملك، ثم تكاثروا عليه وأمسكوه، ويقال أنه قتل من أصحابه مقدار سبعين ألفاً، وكان قبضهم إياه في سنة سبع وتسعين، وحمل إلى الحاكم فشهر به وقتله، يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة، وحديثه مستوفى في تاريخ ابن الصابي].

وكانت ولادته بالقاهرة ليلة الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلاثمائة.

وكان يحب الانفراد والركوب على بهيمة وحده، فاتفق أنه خرج ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمئة إلى ظاهر مصر، وطاف ليلته كلها وأصبح عند قبر الفقاعي، ثم توجه إلى شرقي حلوان ومعه ركابيان، فأعاد أحدهما مع تسعة من العرب السويديين، ثم أعاد الركابي الآخر، وذكر هذا الركابي أنه خلفه عند القبر والمقبرة، وبقي الناس على رسمهم يخرجون يلتمسون رجوعه ومعهم دواب الموكب إلى يوم الخميس سلخ الشهر المذكور، ثم خرج يوم الأحد ثاني ذي القعدة مظفر صاحب المظلة وخطي الصقلي ونسيم متولي الستر وابن بشتكين التركي صاحب الرمح وجماعة من الأولياء الكتاميين والأتراك، فبلغوا دير القصير والموضع المعروف بسلوان، ثم أمعنوا في الدخول في الجبل فبينما هم كذلك إذ أبصروا حماره الأشهب الذي كان راكباً عليه المدعو بالقمر، وهو على قرنة الجبل، وقد ضربت يداه بسيف فأثر فيهما، وعليه سرجه ولجامه، فتنبعوا الأثر فإذا أثر الحمار في الأرض وأثر راجل خلفه وراجل قدامه، فلم يزالوا يقصّون هذا الأثر حتى انتهوا إلى البركة التي في شرقي حلوان، فنزل إليها بعض الرجال فوجد فيها ثيابه، وهي سبع جباب، ووجدت مزررة لم تحل أزرارها، وفيها آثار السكاكين فأخذت وحملت إلى القصر بالقاهرة، ولم يشك في قتله، مع أن جماعة من المغالين في حبهم، السخيفي العقول يظنون حياته، وأنه لا بد أن سيظهر، ويحلفون بغيبة الحاكم وتلك خيالات هذيانية،

ويقال إنَّ أخته دَسَّت عليه من يقتله لأمر يطول شرحه، والله أعلم.

ويبدأ الحافظ ابن كثير حديثه عن حوادث سنة ٤١١ هـ عن الخليفة الحاكم فيقول: «ثم دخلت سنة إحدى عشرة وأربعمئة^(١) فيها عدم الحاكم بمصر، وذلك أنَّه لما كان ليلة الثلاثاء لليلتين بقيتا من شوال فقد الحاكم بن المُعزِّ الفاطمي صاحب مصر، فاستبشر المؤمنون والمسلمون بذلك، وذلك لأنَّه كان جباراً عنيداً، وشيطاناً مريداً. ولنذكر شيئاً من صفاته القبيحة، وسيرته الملعونة، أخزاه الله.

كان كثير التلوّن في أفعاله وأحكامه وأقواله، جائراً، وقد كان يروم أن يدعى الألوهية كما ادعاها فرعون، فكان قد أمر الرعية إذا ذكر الخطيب على المنبر اسمه أن يقوم الناس على أقدامهم صفوفاً، إعظاماً لذكره واحتراماً لاسمه، فعل ذلك في سائر ممالكه حتى في الحرمين الشريفين، وكان قد أمر أهل مصر على الخصوص إذا قاموا عند ذكره خروا سجداً له، حتّى إنَّه ليسجد بسجودهم من في الأسواق من الرعاع وغيرهم، ممن كان لا يصلي الجمعة، وكانوا يتركون السجود لله في يوم الجمعة وغيره ويسجدون للحاكم، وأمر في وقت لأهل الكتابين بالدخول في دين الإسلام كرهاً، ثم أذن لهم في العود إلى دينهم، وخرّب كنائسهم ثم عمّرها، وخرّب القمامة ثم أعادها، وابتنى المدارس. وجعل فيها الفقهاء والمشايخ، ثم قتلهم وأخربها، وألزم الناس بغلق الأسواق نهاراً، وفتحها ليلاً، فامتثلوا ذلك دهرأ طويلاً، حتّى اجتاز مرة برجل يعمل النجارة في أثناء النهار.

(١) البداية والنهاية، م ١٢، م.س، ص ٩.

فوقف عليه فقال: ألم أنْهكم؟ فقال: يا سيدي لما كان الناس يتعيشون بالنهار كانوا يسهرون بالليل، ولما كانوا يتعيشون بالليل سهروا بالنهار فهذا من جملة السهر، فتبسّم وتركه. وأعاد الناس إلى أمرهم الأول، وكل هذا تغيير للرسوم، واختبار لطاعة العامة له، ليرقى في ذلك إلى ما هو أشدّ وأعظم منه. وقد كان يعمل الحسبة بنفسه فكان يدور بنفسه في الأسواق على حمار له - وكان لا يركب إلا حماراً - فمن وجده قد غشّ في معيشة أمر عبداً أسود معه يقال له مسعود، أن يفعل به الفاحشة العظمى، وهذا أمر منكر ملعون، لم يسبق إليه، وكان قد منع النساء من الخروج من منازلهن وقطع شجر الأعناب حتى لا يتخذ الناس منها خمرأ، ومنعهم من طبخ الملوخية، وأشياء من الرعونات التي من أحسنها منع النساء من الخروج، وكراهة الخمر، وكانت العامة تبغضه كثيراً، ويكتبون له الأوراق بالشتيمة البالغة له ولأسلافه، في صورة قصص، فإذا قرأها ازداد غيظاً وحنقاً عليهم، حتى أن أهل مصر عملوا صورة امرأة من ورق بخفيها وإزارها. وفي يدها قصة من الشتم واللعن والمخالفة شيء كثير، فلما رآها ظنها امرأة، فذهب من ناحيتها وأخذ القصة من يدها فقرأها فرأى ما فيها، فأغضبه ذلك جداً، فأمر بقتل المرأة، فلما تحققها من ورق ازداد غيظاً إلى غيظه، ثم لما وصل إلى القاهرة أمر السودان أن يذهبوا إلى مصر فيحرقوها وينهبوا ما فيها من الأموال والمتاع والحريم، فذهبوا فامتثلوا ما أمرهم به، فقاتلهم أهل مصر قتالاً شديداً، ثلاثة أيام، والنار تعمل في الدور والحريم، وهو في كل يوم قبّحه الله، يخرج فيقف من بعيد وينظر ويبكي ويقول: من أمر هؤلاء

العبيد بهذا؟ ثم اجتمع الناس في الجوامع ورفعوا المصاحف وصاروا إلى الله عز وجل، واستغاثوا به، فرق لهم الترك والمشاركة وانحازوا إليهم، وقاتلوا معهم عن حريمهم ودورهم، وتفاقم الحال جداً، ثم ركب الحاكم لعنه الله، ففصل بين الفريقين، وكف العبيد عنهم، وكان يظهر التنصّل مما فعله العبيد وأنهم ارتكبوا ذلك من غير علمه وإذنه، وكان ينفذ إليهم السلاح ويحثهم على ذلك في الباطن، وما انجلى الأمر حتى احترق من مصر نحو ثلثها، ونهب قريب من نصفها، وسبيت نساء وبنات كثيرة وفعل معهن الفواحش والمنكرات، حتى أنّ منهن من قتلت نفسها خوفاً من العار والفضيحة، واشترى الرجال منهم من سبى لهم من النساء والحريم. قال ابن الجوزي: ثم ازداد ظلم الحاكم حتى عنّ له أن يدعى الربوبية، فصار قوم من الجاهل إذا راوه يقولون: يا واحد يا أحد يا محي يا مميت. قبّحهم الله جميعاً. وباعتبار أنّ القاهرة بدورها ومتاجرها وأسواقها ملك لقصر الخلافة، فلا يعقل أن يقدم الخليفة الحاكم على حرقها. وهذا ما يدل على بطلان رأي الحافظ ابن كثير.

وتابع ابن كثير يقول: «صفة مقتله لعنه الله

وكان قد تعدّى شرّه إلى الناس حتى إلى أخته، وكان يتهمها بالفاحشة، ويسمّعها أغلظ الكلام، فتبرّمت منه، وعملت على قتله، فراسلت أكبر الأمراء، أميراً يقال له ابن دواس، فتوافقت هي وهو على قتله ودماره، وتواطأ على ذلك، فجهز من عنده عبيدين، أسودين شهمين، وقال لهما: إذا كانت الليلة الفلانية فكونا في جبل المقطم، ففي تلك الليلة يكون الحاكم هناك في الليل لينظر في النجوم، وليس معه

أحد إلا ركابي وصبي، فاقتلاه واقتلاه معه، واتفق الحال على ذلك. فلما كانت تلك الليلة قال الحاكم لأمه: عليّ في هذه الليلة قطع (قطوع) عظيم، فإن نجوت منه عمرت نحواً من ثمنين سنة، ومع هذا فانقلي حواصلي إليك، فإنّ أخوف ما أخاف عليك من أختي، وأخوف ما أخاف على نفسي منها، فنقل حواصله إلى أمه، وكان له في صناديق قريب من ثلثمائة ألف دينار، وجواهر أخر، فقالت له أمه: يا مولانا إذا كان الأمر كما تقول فارحمني ولا تركب في ليلتك هذه إلى موضع وكان يحبها. فقال: أفعل، وكان من عادته أن يدور حول القصر كلّ ليلة، فدار ثم عاد إلى القصر، فنام إلى قريب من ثلث الليل الأخير، فاستيقظ وقال: إن لم أركب الليلة فاضت نفسي، فنار فركب فرساً وصحبه صبي وركابي، وصعد الجبل المقطم فاستقبله ذاك العبدان فأنزلاه عن مركوبه، وقطعا يديه ورجليه، وبقرا بطنه، فأتيا به مولاها ابن دواس، فحملة إلى أخته فدفنته في مجلس دارها، واستدعت الأمراء والأكابر والوزير وقد أطلعت على الجلية، فبايعوا لولد الحاكم أبي الحسن علي، ولقب بالظاهر لإعزاز دين الله، وكان بدمشق، فاستدعت به وجعلت تقول للناس: إنّ الحاكم قال لي: إنه يغيب عنكم سبعة أيام ثم يعود، فاطمأنّ الناس، وجعلت ترسل ركابيين إلى الجبل فيصعدونه، ثم يرجعون فيقولون تركناه في الموضع الفلاني، ويقول الذين بعدهم لأمه: تركناه في موضع كذا وكذا. حتى اطمأنّ الناس. وقدم ابن أخيها واستصحب معه من دمشق ألف ألف دينار، وألفي ألف درهم، فحين وصل البسته تاج جد أبيه المعز، وحلة عظيمة، وأجلسته على السرير، وبايعه الأمراء والرؤساء، وأطلق لهم الأموال، وخلعت

على ابن دواس خلعة سنّية هائلة، وعملت عزاء أخيها الحاكم ثلاثة أيام، ثم أرسلت إلى ابن دواس طائفة من الجند ليكونوا بين يديه بسيوفهم وقوفاً في خدمته، ثم «يقولوا» له في بعض الأيام: أنت قاتل مولانا، ثم يهبرونه بسيوفهم، ففعلوا ذلك، وقتلت كلّ من اطلع على سرها في قتل أخيها، فعظمت هيبتها وقويت حرمتها وثبتت دولتها. وقد كان عمر الحاكم يوم قتل سبعاً وثلاثين سنة، ومدة ملكه من ذلك خمساً وعشرين سنة.

وهكذا نجد اختلاف آراء المؤرخين بالحاكم وأفعاله وتصرفاته، فالمغرض فسّر كلّ تصرفاته على محمل الحقد على الإسلام والمسلمين والمروق عن الدين. والمؤرخ الموضوعي البعيد عن الحقد الطائفي والمذهبي، فسّر تصرفاته وقراراته وأفعاله تفسيراً علمياً وموضوعياً أمثال ابن الأثير وابن خلدون والمقريزي.

وننهي هذا الفصل برأي من اختص بالفاطميين وأخبارهم، أحمد بن علي المقريزي الذي قال عنه، نقلاً عن ابن أبي طي عن الحاكم فقال: كان الحاكم شديد السطوة، عظيم الهيبة جريئاً على سفك الدماء. كان يركب الحمار وعليه ثياب الرهبان. وكان لا يحضره الجيش إلا في الأعياد، وكان لا يحضر مجالس الجدل ويحتجب أياماً كثيرة مشغلاً برصد النجوم. وكان له سعي في إظهار كلمته، فبعث دعائه إلى خراسان، وأقام فيها مذهب الشيعة، واستجاب له عالم عظيم، وعندما أمر بهدم كنيسة قمامة خرج رسمه إلى الوزير على لسان خادم أن يكتب: «أمرت حضرة الإمامة، بهدم كنيسة قمامة، وأن يجعل علوها خفضاً وسماؤها أرضاً».

وبلغه أَنَّ المغاربة تلعنه، فقرب فقهاء المالكية وأمرهم بتدريس مذهب مالك بن أنس في الجامع. كان إذا رأى رأياً عزم عليه وأمضاه. كتب إليه رجل: إِنَّ فلاناً مات وخلف مالاً. فرد الرقعة وكتب على ظهرها: السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة. وكتب إليه آخر: إِنَّ فلاناً مات وخلف بنتاً، وقد ورثت مال جميع أبيها، فأعاد الرقعة وكتب على ظهرها: المال مال الله، واليتيم جبره الله، والساعي (النمام) لعنه الله. وعلى مذهبنا يجوز أن تراث البنت جميع ما لأبيها. وأمر ألا يكشف مغطى (ويعني به أسرار الناس). فقام رجل وسكر ونام في قارعة الطريق وغطى نفسه بمنديل. فصار الناس يمرّون به ولا يجروا أحد أن يكشف عنه. فمرّ به الحاكم وهو كذلك. فوقف عليه وقال له: من أنت؟ فقال: أنا مغطى. وقد أمر أمير المؤمنين ألا يكشف مغطى. فضحك الحاكم وطرح عليه مالاً. وقال له: استعن بهذا المال على ستر حالك. انتهى ما ذكره ابن أبي طي^(١).

وعن ابن سعيد نقل المقرئ أنَّهُ تظلم إليه رجل في ركوبه إلى مصر أن ناصحاً أحد ركابيه ظلمه. فوقف على القضية وسأل ناصحاً عن دعوى الرجل، فظهر أنها صحيحة فحكم للرجل وأمر ناصحاً أن يردّ ماله إليه، فلم يكن مع ناصح في ذلك الوقت القدر اللازم من المال، فألزمه ببيع فرسه الذي كان راكباً عليه. ولم يغادر الحاكم المكان إلا وناصح باع فرسه ووفى الرجل ما كان له عليه والحاكم واقف على ظهر دابته حتى تمّ تنفيذ الحكم.

(١) اتعاظ الحنفا للثاني، م.س. ص ١١٩.

وكان نقش خاتمه: بنصر الولي العلي ينتصر الإمام أبو علي.
وقال عنه أيضاً: كان جواداً سفاكاً للدماء قتل عدداً لا يُحصى.
وكانت سيرته من أعجب السير، وخطب له على منابر مصر والشام
واليمن وإفريقية والحجاز. وكان يشتغل بعلوم الأوائل، وينظر في
النجوم. وعمل رسداً (مرصد)، واتخذ بيتاً في المقطم ينقطع فيه عن
الناس لذلك. ويقال أنه كان يعتريه جفاف في دماغه، فلذلك كثر
تناقضه. وما أحسن ما قال فيه بعضهم: «كانت أفعاله لا تُعلّل،
وأحلام وساوسه لا تُؤوّل»^(١).

هذا الرجل الذي اختلفت نظرة اتباعه فيه، فمنهم من اعتبره
إنساناً ممسوساً بعقله وهم أعداؤه ومبغضوه، ومنهم من اعتبره
إماماً معصوماً فيه شيء من النور الإلهي وهم الشيعة الإسماعيلية،
ومنهم من رأى الذات الإلهية قد تجلّت فيه وهم الشيعة الإسماعيليون
الموحدون الدروز. وهذا شأن فرق الشيعة في نظرتها للإمامة. فليس
هناك فرق كبير بين غيبة المهدي المنتظر محمد بن الحسن (عج)
وبين الوهية الحاكم. فالصفتان فارقتان بعيدتان عن الصفات
الإنسانية.

(١) الخطط المقرية، م ٢، م.س. ص ٢٨٩.

الخليفة الفاطمي السابع: الظاهر لإعزاز دين الله علي بن الحاكم

ولد الظاهر سنة ٣٩٥ هـ، وبويع بالخلافة في حياة والده سنة ٤١١ هـ، وكان له من العمر ستة عشر سنة. توفي سنة ٤٢٧ هـ، وعمره اثنان وثلاثون سنة ومدة خلافته حوالي الستة عشر سنة. وكان الحاكم قد أخذ البيعة وولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم بن إلياس الذي كان في دمشق، فقامت ست الملك أخت الحاكم وأمرت الوزير خطير الملك بمراسلة عبد الرحيم بن إلياس وإخفاء أمر وفاة الحاكم، تستدعيه إلى دمشق، فكتب إليه خطير الملك على لسان الحاكم يأمره بالمبادرة والعودة سريعاً إلى دمشق. «فلم قدم عبد الرحيم عُذْل به إلى تنيس فقتل بها»^(١).

وكان الوزير ابن دواس الكتّامي قد تواطأ مع ست الملك على قتل الحاكم. فهادنته ست الملك وداورته حتى استطاعت تثبيت حكم

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني. م.س. ص ١١٦.

الظاهر. ثم رسمت خطة كشفت فيها انفراده بالمؤامرة وقتلته، بسبب قتله الحاكم. «فأحضرت موجودات ابن دواس فوجدوا في بعض صناديقه السكين التي كان يحملها الحاكم في كمّه أخذت عند قتله. وطرححت جثة ابن دواس في السوق ثلاثة أيام. ومناد ينادي عليها: هذا جزاء من غدر بمواليه. ثم دُفع به إلى عبيده فدفنوه»^(١).

ثم تابعت ست الملك «فقتلت جماعة ممن كان قد اطلع على سرّها في قتل الحاكم».

ويقول المقرئزي أنّ الظاهر، سنة ٤١٨ هـ، «شرب الخمر ورخص فيه للناس، وفي سماع الغناء وشرب الفقّاع وأكل الملوخية وسائر أصناف السمك، فأقبل الناس على اللهو».

وقد ذكر المقرئزي عدة حوادث تدلّ على مدى تراجع الظاهر عن التشدّد الذي فرضه والده الحاكم على المجتمع وعلى النصاري خاصة فقال: «ولخمس بقين من المحرم (سنة ٤١٥ هـ)، كان ثالث فصيح النصاري، فاجتمع بقنطره المقس من النصاري والمسلمين في الخيام المنصوبة وغيرها خلق كثير طول نهارهم في لهو وتهتك قبيح. واختلط الرجال بالنساء وهم يعاقرون الخمر. حتى حُمِلت النساء في قفاف الحمّالين من شدّة السكر. فكان المنكر شديداً في هذا اليوم»^(٢).

(١) م. س. ن. ص ١٢٨.

(٢) م. س. ص ١٢٧.

الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله يحمي قوافل الحج الوافدة من جميع أنحاء العالم الإسلامي:

كانت العربان تسطو على قوافل الحجاج الآتية من جميع أنحاء العالم الإسلامي، ومنها قافلة خراسان التي توقفت عن الحج لأكثر من سنة، وأخبرنا المقرئ أنهم استنجدوا بالظاهر وطلبوا منه عبور الحج عن طريق الشام وليس عن طريق بغداد، لأن الخليفة العباسي لم يستطع تأمين الحماية لهم. «وقدم الخبر بقدمهم عن طريق الرملة. وقيل إنهم في ستين ألف جمل ومائتي ألف إنسان. وبعثوا بكتاب يستأذنون الظاهر، فسُرَّ الظاهر بذلك وكتب إلى جميع ولاة الشام باستقبالهم وإنزالهم، وإكرامهم، وعمارة البلاد لهم بالطعام والعلوفات. وإطلاق الصلات والعطايا للفقهاء والقراء المرافقين للحملة. وإقامة الأنزال (الفنادق) الكثيرة لقائد قافلة الحج (حَسَنُكَ)، والتناهي في إكرامه. وطلب من مقدمي عساكر الشام بحفظهم والمسير في صحبتهم. فساروا من الرملة موقورين مجبورين، شاكرين الخليفة الظاهر. وغنم الظاهر حسن الثناء عليه من حاج خراسان وما وراء النهر لما كان من إحسانه إليهم وزيارتهم بيت المقدس»^(١).

ويحدثنا المقرئ عن محاولة عزل الظاهر عن الحكم والاختلاط بالناس ويروى لنا اتفاق الشريف أبو طالب الحسن والوزير علي بن أحمد الجرجرائي والعميد محسن بن دواس مع كاتم أسرار

(١) م. س. ص ١٣٨.

الظاهر القائد معضاد، على التفرد في الحكم من خلال إقناع الظاهر «بأنهم يكفونه أمر الاهتمام بالدولة ليتوفر على ملذاته»^(١).

وقد تميّز عهد الحاكم والعزيز والمعزّ بالثراء الفاحش ورفاهية عيش العامة. أما عهد الظاهر فكان بداية تراجع الدولة الفاطمية، فقلت الأقوات، وكثر الجوع والفقر، والمسغبة. وكان الظاهر بخلاف والده الحاكم، يفضل الجلوس في قصره عن الخروج إلى الأسواق وتفقد الناس.

ويروي المقرئزي أنه في النصف من شوال سنة ٤١٥ هـ. اشتدّ القحط والغلاء بمصر، وركب الظاهر وشقّ مدينة مصر، فاستغاث الناس به بصيحة واحدة: الجوع يا أمير المؤمنين، الجوع. لم يصنع هكذا أبوك ولا جدك. فإله الله في أمرنا. فاستدعى الظاهر المحتسب إلى القصر وهده وقال له: قد قتلت الناس جوعاً وخرّبت البلاد. وقدموا له ما كان قد تعهّد به بخط يده «من عمارة البلد بالأخباز والقمح». فنزل المحتسب وأطلق القمح من المخازن للطحّانين. ووضع سعراً محدداً للقمح والدقيق وللخبز تحت طائلة عقوبة من خالف التسعيرة. «فسكن الحال».

وذكر المقرئزي أيضاً أنّ الديلم القاطنين حي الكرخ في بغداد، وهو حيّ مشهور باكتظاظه بالشيعة، دعوا للظاهر على منابر جوامع الكرخ في عقر دار الخليفة العباسي^(٢).

(١) م. س. ص ١٤٨.

(٢) م. س. ص ١٦٨.

ويروى المقرئزي أخبار الهدنة التي تمّت بين الظاهر وبين قسطنطين الثامن ملك الروم، كان من نتائجها أن أعيد فتح جامع المسلمين في القسطنطينية، «وعند ذلك أذن الظاهر في فتح كنيسة (القمامة) القيامة التي بالقدس».

ويروى المقرئزي أيضاً خبراً يدلّ على عمق الشعور العربي عند الشعب المصري، فهو يقول إنّ العسكر التركي اختلف مع العساكر المغاربة «وكان الظفر للأتراك، فاستظهر المغاربة بمعاونة العامة لهم وقتلوا عدة كثيرة من الأتراك، وأخرجوا من بقي منهم من مصر»^(١). وفي سنة ٤٢١ هـ، أخذ الظاهر البيعة بولاية العهد لولده المستنصر.

ويقول المقرئزي عن الظاهر وعهده: «كانت أيامه كلها سكوناً وليناً، وهو مشغول بملاذّه ونزّهه وسماع المغنى».

وقال عنه ابن الأثير: «كان جميل السيرة، حسن السياسة، منصفاً للرعية إلاّ أنّه منشغل بلذاته مُجبّ للدعة والراحة، قد فوّض الأمور إلى وزيره أبي القاسم علي بن أحمد الجرجرائي لمعرفته بكفايته وأمانته»^(٢).

والتاريخ دائماً يكتب بعين صاحبه وعواطفه. فالجرجرائي «المكتفي والأمين» بنظر ابن الأثير، قال عنه ابن خلكان: «كان أقطع اليدين من المرفقين، قطعهما الحاكم والد الظاهر سنة ٤٠٤ هـ. كان

(١) م. س. ص ١٧٧.

(٢) الكامل في التاريخ، ج ٨، م. س. ص ١١.

يتولى بعض الدواوين فظهرت عليه خيانة قُطع بسببها. ولما استوزر للظاهر، كان يكتب عنه العلامة القاضي أبو عبد الله القضاعي. ولما استعمل العفاف والأمانة الزائدة والاحترار والتحفظ». هذا منه أحد الشعراء بقوله^(١):

يا أحمقاً أسمع وقُل ودع الرقاعة والتحامق
أقمت نفسك في الثقات وهَبُكَ فيما قلت صادق
فمن الأمانة والتقى قُطعت يدك من المرافق
أما أبو المحاسن ابن تغري بردي فيرى أنَّ الظاهر «كان عاقلاً سمحاً جواداً يميل إلى دين وعفة وحلم مع تواضع، أزال الرسوم التي جددتها أبوه الحاكم إلى خير وعدل في الرعية وأحسن السيرة، كان كثير الصدقات منصفاً من نفسه، لا يدعي دعاوى والده وجده في معرفة النجوم وغيرها من الأشياء المنكرة».

وكان الظاهر ينظر في مصالح الرعية بنفسه وفي إصلاح البلاد، فلما وقع الفناء في ذوات الأربع في سنة ٤١٧ هـ. منع الظاهر من ذبح البقر السليمة من العيوب، والتي تصلح للحراثة.

وقد مدحه ابن أبي حصينة بقصيدة منها:

ما قصره المعمور إلا كعبةً ويمينه ركن لنا ومقام
تمحى ذنوب المذنبين إذا سعوا من حوله وتُمخَّصُ الأثام
يا آل أحمد تُبَيَّنَتْ أقدامُكم وتزلزلت بِإِذَاكُمْ الأقدام
لستم وغيركم سواء، أنتم للدين أرواح وهم أجسام

(١) ابن خلكان، ج ٢، م.س. هـ ٤٠٨.

فجزيتم خير الجزاء فحبنا لكم أمان من لظى وذمام
والدولة التي تحقق أمانها وذمامها بحب شعبها لها. هي دولة
عادلة، وسنرى في الأبواب والفصول اللاحقة أن الذي حمى الدولة
الفاطمية من الانهيار والاندثار، هم أبناء الشعب المصري والعامّة.
ولكن ما أن تمّ التباعد بين التشيع والدولة، والشيعية في مصر
أصبحت شيعاً، ما بين مستعيلة ونزارية وحافظية وطيبية، استطاع
صلاح الدين الأيوبي القضاء على هذه الدولة.

أما بالنسبة للظاهر وآراء المؤرخين فيه، فهكذا دأب المؤرخين
المشاركة في حكمهم على الخلفاء الفاطميين. فإذا كان الخليفة قوياً
حكموا عليه بالمروق والخروج عن الإسلام كالمعز والعزيز والحاكم.
وإذا كان ضعيفاً هادئاً، وصفوه بالعدل والسماحة والخلق الحسن.
ومهما كانت أحكام المؤرخين المعارضين أو المؤيدين، فلسوف
تبقى ظاهرة التشيع الفاطمي في سماء القطر المصري مركز إشعاع
حضاري على مرّ الدهور والعصور.

الخليفة الفاطمي الثامن المستنصر بالله معد بن الظاهر، أبو تميم

شكّل المستنصر في تاريخ الدولة الفاطمية ومصر وتاريخ القرن الخامس الهجري، ظاهرة فريدة من نوعها، لمشاركته في نسج العلاقات الدينية والسياسية والاجتماعية والفكرية التي شكلت في هذا القرن. ومدة حكم المستنصر تجاوزت الستين سنة، فقد تولى الخلافة بعد موت أبيه الظاهر وله من العمر سبع سنوات. سنة ٤٢٧هـ. وكان من أهم رجالات الدولة الفاطمية الذين كان لهم أثر كبير في تحريك أحداث تلك الحقبة: ناصر الدولة بن حمدان أمير دمشق من قبل الفاطميين، وأبو محمد عبد الرحمن بن علي اليازوري. وكان ناصر الدولة بن حمدان قد تقاعس في قتال ثمال بن صالح بن مرداس أمير حلب الخارج عن الطاعة، فعزله المستنصر وعيّن مكانه مملوكه طارق الصقلبي المستنصري. وما أن وصل طارق الصقلبي إلى دمشق حتى ألقى القبض على ناصر الدولة وأودعه السجن (٤٤٠ هـ).

أما أبو محمد اليازوري، كان بالأصل من فريق خدم أم المستنصر، السيدة رَصد وهي بالأصل «جارية سوداء تحفظها الظاهر، فولدت له المستنصر» وكان قد اشتراها للظاهر، «أبو سعيد» سهل بن هرون التستري. فلما أصبحت سيدة القصر والأمر المطاعة، قدّمت أبا سعيد لولدها المستنصر، «ورثبته فيما يخصّها، معظم شؤونها إلى أن صار ناظراً في جميع أمور الدولة». وراكب الصعبة دائماً معرضاً للهلاك. فما أن عظم شأن التستري حتى كثر حسّاده، وأولهم الوزير الأول أبو منصور الفلاحى، الذي دفعه إلى مأزق أدّى إلى قتله على يد المماليك الأتراك أو على يد عناصر «غير منضبطة». فحقّق الخليفة المستنصر في قتله شخصياً. وقد اعترف المماليك الأتراك بقتله «فلم يجد بداً من الإغفاء». و «قطّع الأتراك أبا سعيد قطعاً، وتناولت أيديهم أعضائه فتمزّقت. واشترى أهله ما قدروا على تحصيله من جثته بمال».

وكان أبو سعيد مقتراً مؤذياً للمسلمين في تحصيل الضرائب والأعشار. وقد وصل صيته النتن إلى كافة الممالك الإسلامية. وقد كُره أذاه للمسلمين وكان يحلف: «بحق النعمة على بني إسرائيل» وقد هجاه الشريف الرضى بقوله^(١):

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العزّ فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إنّي قد نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلّك
ولما قتل أبو سعيد اليهودي، توقّفت خدمة السيدة رصد أم

(١) اتعاظ الحنفا، الثاني. ص ١٩٧.

المستنصر. وجرت أمور أوصلت اليازوري للتعرف عليها، فوضع نفسه في خدمتها، «فأقبلت حاله وبدأت تزيد، ومنزلته ترتفع». وكان فيها الوزير الأول أبو البركات الحسين بن محمد بن أحمد الجرجرائي وهو ابن عم الوزير المقطوع اليدين الوارد ذكره أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي.

ويقول المقرئزي عن هذا الوزير: «كانت أيامه كلها رديئة لكثرة القبض على الناس والمصادرات واصطفاء الأموال، ونفي الناس. فكثرت الدامون له. وكان أيضاً يبطش بمن يبطش بهم من دون علم الخليفة ولا استئذانه فتغير خاطر الخليفة عليه، وتكثر منه تغيظه، إلا أن العادة جرت بالألا يُعترض الوزير فيما يفعله، ويُمد له في النفس ويُصبر على ما يكون منه».

ويقول المقرئزي في حديثه عن أحداث سنة ٤٤١ هـ أن المستنصر بعث أمراً إلى والي دمشق يقضي «بالإفراج عن ناصر الدولة بن حمدان». وفي نفس الوقت عزل أبي البركات من الوزارة ونفيه إلى سجن مدينة صور في جبل عامل. ويقول المقرئزي إن الخلافة بقيت بدون وزارة عدة أشهر، لأن المستنصر كان يعرضها على أبي محمد اليازوري واليازوري يخاف من عواقبها ويرفض.

ولما كان السابع من محرم سنة ٤٤٢ هـ، قبل اليازوري منصب رئاسة الوزارة بعد تعهدات من السيدة رصد أم المستنصر بحمايته من كل الوشاة والسعاة الذين يسعون إلى تعكير العلاقات بينه وبين الخليفة.

وجرت العادة أن تأتي التهاني والتبريكات من الولاة والحكام

والسلاطين والملوك وملوك الدول الحليفة إلى كل من يتكلف بالوزارة في القاهرة. فكتب اليازوري «ملوك الأطراف يعلمهم بتكليفه بالوزارة، فأجابوه بوفور حقه إلا معز الدولة بن باديس الصنهاجي ملك إفريقية، فإنه قصر في المكاتب عما كان يكتب به من تقدم من الوزراء». وكانت العادة أن يوجه الكلام للوزير الجديد على أنه «عبد أمير المؤمنين» فجاءت المكاتب على أنه «صنيعة أمير المؤمنين. مما أغاظ أبو محمد اليازوري من استهزاء المعز بن باديس به، فاستدعى سفيره في القاهرة (وكيله) وعاتبه وقال له: قل لصاحبك: «من رفعه السلطان ارتفع وإن كان خاملاً، ومن وضعه اتضع وإن كان جليلاً نبيلاً، فكتب إليه بما يرجعه إلى الصواب»^(١) ووضعه في حساباته وقرر أن يردها له. «فأذكى عليه عيوناً يطالعونه بأنفاسه».

أما المعز بن باديس فلم يتعاض «فأجاب اليازوري بأقبح من الأول». فما كان من الوزير اليازوري إلا أن دس له من تلطف في أخذ سكّين دواته» وأرسلها على سبيل الإنذار مع سفيره في القاهرة واسمه ابن الإخوة وقال له: «كنت أظن بصاحبك أن الذي حمله على ما كان منه ثورة الشبيبة، وقلة خبرته بما تقضي به الأقدار، وأنه إذا نبّه تنبّه، فإذا الجهل مستولٍ عليه، وظنّه أن بعد المسافة بيننا وبينه يمنعنا من الانتصاف منه والوصول إليه. وقد تلطفنا في أخذ سكّين دواته، وما هي، خذها وأنفذها إليه واعلمه أننا كما تلطفنا في أخذها، نستطيع أن نتلطف في ذبحه بها، ودفعها إليه». فكتب سفيره ابن

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٢١٢.

الإخوة إليه بذلك وأرسل له السكّين. فازداد المعزّ شراً وبطراً. فما كان من الوزير اليازوري إلا أن دسّ عليه من أخذ نعله من رجله. فلما وصلت الأحذية للوزير أرسل وراء السفير ابن الأخوة وقال له: اكتب إلى هذا البربري الأحمق، وقل له: إن عقلت وأحسنّت أدبك، وإلا جعلنا تأديبك بهذه (الأحذية)^(١). ورغم هذا الإنذار الثاني، لم يتعصّ المعزّ ولم يرعوّ فما كان من الوزير اليازوري إلا أن زوّد المخبرين والسعاة والجواسيس في بلاد المعز، فبلغه سنة ٤٤٣ هـ «أن المعزّ أظهر الخلاف على المستنصر، وسيرّ رسولا إلى بغداد ليقمّ الدعوة العباسية، واستدعى منهم الخلع فأجيب إلى ذلك».

وكانت الفرصة مؤاتية للوزير اليازوري على المعزّ بن باديس، خاصة بعد أن وصلت أخباره لقصر الخلافة، وصدر قرار المستنصر بتأديبه.

فما كان منه إلا أن أرسل واستدعى أكبر قبيلتين عربيتين في طرابلس الغرب ومن والاهما وهما قبيلتا زغبة ورياح. وكانت بينهما حروب وعداوة. فأحضر الحسن بن ملهم بن دينار وهو أحد أمراء الدولة الفاطمية، «وسيرّ إلى هاتين القبيلتين بخلع سنّية وأموال كثيرة وأنعام، وأمره أن يصلح ذات بينهما، ويتحمّل ما بينهما من ديّات ويدفعها من مال الدولة»، بل وطلب منه مضاعفتها فنقذ الحسن بن ملهم الأمر على أكمل وجه، وأصلح بين القبيلتين. «فلما تمّ له ذلك الأمر أمرهم بالمسير إلى المعز بن باديس وأباحهم دياره، وتشدّد في هذا الأمر، حتى توجه المذكورون إلى ديار بن باديس وملكوها،

(١) م. س. نفسه، ص ٢١٢.

وجمعوا ذبوله عليه وقلموا أظفاره، وضيقوا خناقه، حتى لم يتمكن من قتالهم إلا مستنداً إلى حيطان إفريقية، وحصروا المدن، فنزل بأهل إفريقية بلاء لا يوصف، وأكثروا من القتل في أصحابه وحاصروه في القيروان، وأقاموا يحاصرون البلاد وينهبونها إلى سنة ٤٤٩ هـ. فهرب المعز إلى المهديّة، حتى نفدت أمواله، وتفلّنت عدّده وتفلّنت منه رجاله، وأشرف على التلف، وخرج متخفياً في زي امرأة. فاستولت العربان على حرمة وداره وغلمانه. وقتلوا الرجال وسبوا النساء. وانتهبوا ما كان في دوره وقصوره. وعاثوا في البلد ينهبون ويأسرون ويقتلون.

وكان المستنصر بعد أن عفى عن ناصر الدولة بن حمدان وأطلق سراحه من سجن دمشق أعاده إلى الخدمة ورضي عنه وعينه والياً على الإسكندرية.

وكان بني قرّة قد شقوا عصا الطاعة وخرجوا على المستنصر، فجهّز لهم أبو محمد اليازوري جيشاً بقيادة ناصر الدولة بن حمدان فكسرهم وشتّت شملهم وبدأ نجمه يسطع في سماء الدولة الفاطمية.

وأورد المقرئ خبر ازدياد سلطان الفاطميين في اليمن في هذه السنة (٤٤٢ هـ)، بسبب دخول علي بن محمد الصليحي في سلك الدعوة الفاطمية وكانت تعاضده في الدعوة «زوجته أسماء ابنة عمه شهاب، وكانت أجمل خلق الله، وهي أم الدعاة باليمن وعُرفت بالحرّة وكانت ذات عز وكرم وتفاخر بنوها بها»^(١).

وكانت الحرّة إذا ركب ركب في موكبها مائتا جارية بالحلي

(١) اتعاظ الحنفا، الثاني، ص ٢٢٢.

والجواهر، وبين يديها الخيول المسُرَّجة بالذهب. وقد خطب الدعاة لها وباسمها، على منابر المساجد في اليمن.

دخول بغداد تحت طاعة المستنصر:

يبدأ المقرئزي حديثه عن مجريات سنة ٤٤٨ هـ بالتعريف عن أبي الحارث البساسيري وطريقة دخوله في سلك الدعوة الفاطمية وخدمة دولتها، ويقول إنَّ البساسيري كاتب الخليفة المستنصر يستأذنه بالسيطرة على بغداد، والدعوة من على منابر مساجدها «بحيَّ على خير العمل» «فجهَّزت له خزائن الأموال العظيمة وجملتها ألفا ألف وثلاثمائة ألف دينار عيناً (ذهباً) (مليونان وثلاثمائة ألف) وألف ألف وتسعمائة ألف دينار والعروض أربعة ألف ألف دينار على يد المؤيد في الدين بن أبي نصر هبة الله بن موسى، حيث لم يترك في خزائن أموال القصر شيء البتَّة»^(١).

ويتابع المقرئزي وصف دخول أبو الحارث البساسيري إلى بغداد فيقول: وفي ربيع الأول سنة ٤٥٠ للهجرة «أرجف بمسير البساسيري إلى بغداد، فعظم الخوف منه. فلما كان يوم الأحد الثامن من ذي القعدة من هذه السنة، وصل البساسيري إلى بغداد، ومعه قريش بن بدران. وخطب في جامع المنصور للمستنصر بالله الفاطمي، وقطع الخطبة لبني العباس. وكانت بينه وبين أهل بغداد حروب. ووقع النهب في البلد. ودخل أصحاب البساسيري بغداد.

(١) راجع م.س. نفسه، ص ٢٢٢.

فركب (الخليفة العباسي) القائم بسواده وعلى كتفه البردة وبيده
السيف وعلى رأسه اللواء، وحوله جماعة من بني العباس والخدم
حوله بالسيوف المسلّلة. فرأى الأمر شديداً. فطلب الأمان فأمنه
البساسيري فلجأ إلى منزل قريش بن بدران.

ثم إن قريش بن بدران سار في خدمة الخليفة فأنزله في خيمة،
وهياً له ما يقوم به. ووقع النهب في دار الخلافة عدة أيام وأخذ منها
ما لا يُحصى كثرة. وبعث منها إلى مصر منديل القائم وردائه
والشباك الذي كان يتوكأ عليه وعمامته. وكتب كتاباً على نفسه
وأشهد على نفسه الثقات العدول فيه أنه لا حق لبني العباس في
الخلافة مع وجود فاطمة الزهراء. وحمل أيضاً إلى القاهرة الذخائر
والكتب والقضيب والبردة. وسلم بدران الخليفة القائم إلى ابن عمه
مُهارش بن المجلي. وكان رجلاً متديناً. فحمله في هودج إلى مدينة
عانة وأنزله بها. وفر أصحاب الخليفة القائم إلى طغربك السلجوقي.

فلما كان يوم عيد النحر من نفس السنة (٤٥٠ هـ). ركب
البساسيري إلى المصلى وعلى رأسه ألوية الخليفة الفاطمي -
المستنصر - وقد أشمل الناس بكثرة الإحسان وإجراء الأرزاق
وكسر منبر المسجد الجامع في بغداد وقال: هذا منبر نحس أعلن
عليه بغض آل محمد عليهم السلام. وأنشأ منبراً آخر خطب عليه
باسم المستنصر.

ووصل الخبر بوقوع بغداد تحت السيطرة الفاطمية إلى
المستنصر، فسر سروراً كثيراً وزينت القاهرة ومصر. «وجاءت نَسَب
الطَبَّالَة فغَنَّت بالطبل في القصر بين يدي المستنصر:

يا بني العباس ردّوا ملك الأمر معي
ملككم ملك معار والعساري تُستردّ
وهي تعني بمعّد، المعز لدين الله جد المستنصر الأعلى وفتح
مصر وأول خليفة فيها فقال لها المستنصر: «تمنّي، فلك حكمك.
فسألته الأرض المجاورة للمقس. فأقطعها إياها. فعرفت بها وقيل لها
إلى اليوم أرض الطبّالة.

ويذكر المقرئ أن المستنصر أرسل يطلب الخليفة القائم
ليسكنه معه في القاهرة وأن يكرمه غاية الإكرام ويعيده إلى الحكم
في بغداد ولكن ليس كخليفة بل كملك من ملوك الإسلام العاملين
تحت ظل الخلافة الإسلامية الفاطمية الشيعية. أو نقيباً للعباسيين
ولكن كما يقول المقرئ: «فمنعه حادث القدر قبل إدراك ذلك»^(١).
ويخبرنا بأن طغرل بك السلجوقي لم يترك للبساسيري والمستنصر
فرصة الانتصار، بل عاد إلى بغداد وقضى على البساسيري وقتله
وأعاد الخليفة العباسي القائم إلى قصره.

ويروي لنا المقرئ أن المستنصر قتل أبا محمد اليازوري بسب
مكاتبة طغرل بك والطعن بنسب الفاطميين في مكاتباته. ولنا عودة إلى
هذا الموضوع عند الحديث عن منصب الوزارة في الدولة الفاطمية.

وعندما تحدّث المقرئ عن أحداث سنة ٤٥٢ هـ، بدأها بذكر
إعادة ناصر الدولة بن حمدان إلى قيادة الجيش المتّجه نحو دمشق.
وبعد أن سيطر ناصر الدولة على دمشق اتجه لاسترجاع حلب

(١) م. س. ص ٢٥٥.

للحكم الفاطمي، وكان قد استفرد بحكمها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس، ولكنه انكسر وأصيب بضربة شلت منها يده ورجع إلى دمشق منهزماً. وكان الشاعر الحلبي عبد العزيز العكيك قد مدحه. ولكنه لم يعطه شيئاً على مدحه، فشمت به وهجاه قائلاً:

ولئن غلطت بأن مدحتك طالباً جدواك مع علمي بأنك باخل
فالدولة الزهراء قد غلطت بأن نعتك ناصرها وأنت الخاذل
إن تمّ أمرك مع يدك أصبحت شلاءً فالأمثال عندي باطل
في بداية سنة ٤٥٣ للهجرة تحدّث المقرئ عن كثرة الوشائيات
والسعايات ووصول الأخبار الملققة عن الوزراء والمسؤولين إلى
ال خليفة المستنصر. ويقول أن عدد التقارير التي كانت تصل إلى
ال خليفة يومياً وكلها تقارير كاذبة وملققة بلغت «في كل يوم ثمانمائة
رقعة، فتشابهت عليه الأمور وتناقضت الأحوال ووقع الاختلاف بين
موظفي الدولة، وضعفت قوة الوزراء عن التدبير لقصر مدّة كل
منهم. فخربت الأعمال. وعظمت النفقات ووقع صراع الأضداد على
السلطة»^(١).

خراب مصر أو الشدة المستنصرية:

تحدّث كتب التاريخ بإسهاب عن الخراب الذي عمّ مصر لسنوات
عديدة بلغت سبعا، إبان حكم المستنصر الفاطمي. وقد أطلقوا عليها
مصطلح «الشدة المستنصرية». ولهول الأمور التي حلّت بالمجتمع

(١) م. س. ص ٢٦٣.

المصري أيام هذه الشدة، فضّلنا تسليط الضوء عليها، وشرح أسبابها ودوافعها ونتائجها، وطريقة التخلص منها، لتكون عبرة لكل مسلم وعربي، لأنها حقبة مظلمة من حقبات التاريخ العربي والإسلامي.

يرى المقرئ أن من أهم الأسباب التي أدت إلى هذه المجاعة، الحرب بين الفاطميين والعباسيين، حيث أقدم المستنصر على إفراغ قصور القاهرة وخزائنها، حتى قصر الخلافة من كل موجوداتها، من ذهب وعين وأمتعة وأسلحة وعتاد، دعماً للحارث البساسيري الذي احتلّ بغداد وأقام الخطبة من على منابرهما للفاطميين «حيث لم يُترك في خزائن أموال القصر شيء البتة»^(١).

ومن أخبار هذه المجاعة التي انعكست على الخليفة المستنصر نفسه وعلى مائدته، يقول المقرئ إن «الخبر أصبح طرفة». ويروي لنا أن المستنصر كان يحضر على مائدة وزيره أبي محمد اليازوري كل يوم ثلاثاء فتقدّم إليه المائدة دون أن يخلو منها شيء حتى «الدجاج الفائق». فقال لصاحب مطبخه: ويلك: يكون راتب مائدة الوزير الدجاج الفائق، ومائدتي دون ذلك؟

ومن الأسباب التي يذكرها المقرئ، إدارة المستنصر أذنيه لسماع المدلسين والمخبرين الكذابين التي أدت إلى عزل الوزير قبل أن يتسلّم قرار تعيينه. وعن هذا الأمر كتب المقرئ فقال: «وكان السبب في سرعة العزل وكثرة الولايات (التعيين)، كثرة السعاة إلى

(١) اتعاظ الحنفا، الثاني، ص ٢٢٢.

الوزارة، فما أن يستخدم الوزير حتى يصبح نصب الأعيان، فيكثر الطعن عليه حتى يعزل قبل أن تطول مدته أو يتسع وقته. فيأتي بعده من يتفق له مثل الذي سبقه. وسبب ذلك مخالطة الناس الخليفة ومداخلتهم له يومياً بالرقاع (التقارير) والمكاتبات الكثيرة. وكان لا ينكر على أحد مكاتبته. فأحبّ الناس مخالطة الخليفة وجعلوه سوقاً لهم. فتقدّم كلُّ سفساف، وحظي أوغاد عدّة. وكثروا حتى كانت رقاعهم أوقع من رقاع الصدور. وتنقلوا في المكاتب (التقارير المخبرانية) إلى كلِّ فن، حتّى أنّه كان يصل إلى المستنصر في كلِّ يوم ثماني مائة رقعة. فتشابهت عليه الأمور وتناقصت الأحوال. ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة (موظفي). وضعفت قوّة الوزراء عن التدبير، لقصر مدّة كلّ منهم فخرت الأعمال وعظمت النفقات ووقع صراع الأضداد على السلطة، وتجرأ العسكر على الوزراء واستخفوا بهم ولازموا باب المستنصر، فاستنفدوا مال الدولة وأمواله وأخلوا منها خزائنه، وأحوجوه إلى بيع ما عنده من (العروض) فتلاشت الأمور واضمحلّ الملك. ودام ذلك بينهم سنوات نحواً من ست ثم قصر النيل وغلّت الأسعار غلاء بدّد شمل الناس بأسرهم وفرّق إلفتهم وشتّت كلمتهم وأوقع العداوة والبغضاء بينهم، فقتل بعضهم بعضاً حتى ناء عصب الإقليم وعمقت آثاره»^(١).

وهذه المداخلة التي قدّمها المقرئ وجعلها من أهم الأسباب التي أدّت إلى المجاعة في مصر، تعتبر واحدة من المداخلات

(١) راجع: اتعاظ الحنفاء، الثاني، م.س. ص ٢٦٢.

الموضوعية والمقبولة لدى المؤرخين والمطلعين على أحوال مصر
الفاطمية. فالأمن يأتي دائماً سابقاً للازدهار الاقتصادي، فلا اقتصاداً
مزدهراً بدون أمن مستتب. ولا دولة بدون قانون، وعندما يحلّ
الجشع والطمع المرافق للسيف محلّ العقل والحقّ والدين . فلا مجال
لقيام الدول والمجتمعات.

بداية الشدة ببداية الفتنة:

يذكر المقرئ في الخطط وفي اتعاظ الحنفا أنّ سبب الفتنة التي
أدت إلى إشعال النار بين المتصارعين على السلطة وكلّهم غرباء،
حادث صغير سببه لا مبالاة الخليفة المستنصر ومجونه ويروي
الحادثة بقوله: «وفي هذه السنة (٥٥٤ هـ) ابتدأت الفتنة التي كانت
سبباً لخراب الإقليم، وذلك أنّ المستنصر كان من عادته في كلّ سنة
أن يركب على النجب ومعه النساء والحشم والخدم إلى جب عميرة،
وهو موضع نزّهته ويغيّر هيئته، كأنه خارج يريد الحاج على سبيل
الهزار والمجون، ومعه الخمر محمول في الروايا عوضاً عن الماء.
ويدور به سقاته عليه وعلى من معه كأنه بطريق الحجاز أو كأنه ماء
زمزم. وقد أنشده الشريف أبو الحسن علي بن الحسين بن حيدرة
في ذلك، صبيحة يوم عرفة:

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء ولا تضجّ ضحى إلا بصهباء
وأدرك حجيج الندامى قبل نفرهم إلى منى فصُفّهم مع كلّ هيفاء
وعج على مكة الروحاء مبتكراً فطف بها حول ركن العود والناء
ويروي لنا المقرئ أنّ شجاراً وقع أثناء جلسة السكر هذه بين

الأتراك والعبيد، فقام العبيد وقتلوا «تركياً» «فغضب لذلك جماعة الأتراك واجتمعوا بأسرهم ودخلوا على المستنصر» وسألوه إن كان راض عن قتل صاحبهم. فأنكر المستنصر علمه ورضاه، مما حدا بالأتراك إلى الخروج إلى العبيد يريدون محاربتهم، فبرزت العبيد إليهم. ووقعت الحروب والصدامات بين الفريقين. ولم يستطع المستنصر وقفها أو منعها. واتهم الأتراك والددة المستنصر وهي عبدة حبشية سوداء بأنها تدعم العبيد وتساعدهم وتحرض الوزراء عليهم حتى «تغيرت النيات وصارت قلوب كل من الطائفتين تضرر السوء للأخرى، حتى كان من الحروب ما قد ذكر. ولم تزل كذلك حتى خرب الإقليم كله وهلك أهله كما سيأتي»^(١).

وقبل متابعة الحديث عن ما آلت إليه هذه الحروب من خراب ودمار، أفضل مناقشة خبر هزار ومجون الخليفة المستنصر، خاصة أن المقرئ الذي عودنا في كل كتبه أن يروي لنا مصدر الخبر. باستثناء هذه المعلومة الخطيرة.

إذا أخذنا كتاب الكامل في التاريخ، لابن الأثير وهو المتوفي سنة ٦٣٠ للهجرة، أي بعد مئة وستين سنة من ابتداء المجاعة بمصر، لم يشر إليها إلا بسطر واحد عند نهايتها حيث يقول في حوادث سنة ٤٦٠هـ، «وفيها كان بمصر غلاء شديد وانقضى سنة إحدى وستين وأربعمائة». مع علمنا باهتمام ابن الأثير بأخبار الخلفاء الفاطميين وتتبعه لحسناتهم وسقطاتهم. وبالرغم من قربه من الحدث

(١) اتعاظ الحنفاء، الثاني. ص ٢٦٧.

فلم يشر إليه. كذلك لم يشر ابن خلدون إلى موضوع المجاعة برّمته، بل تحدّث عن سيطرة بدر الجمالي، على الحكم بمصر، علماً أنّ بدرأ هذا أتى بسبب المجاعة والفلتان الأمني الذي أصاب مصر.

أما ابن أبيك الدوادري وهو صنيعة الأيوبيين والماليك فقد أشار إلى الشدّة والمجاعة التي أصابت مصر كذلك، بسطرين ضمّنهما تسجيلاً جميلاً دون الإشارة إلى فحش المستنصر ومجونه حيث قال: «وفي سنة ٤٦١ هـ استمر الغلاء بمصر وعدم التدبير موجود وكثر الوخم والوباء فيها وعاد الطير المعروف بالرخم كثيراً جداً، حتى عاد في سائر دور مصر يطرد فلا يبرح. وعاد الناس يطلع في حلوقهم صفة التخمة فيموتون بها. فقليل: سنة الوخم والرخم والتخم. فنعوذ بالله من أنظارها»^(١).

أما أبو المحاسن ابن تغري بردي فقد ذكر المجاعة بقوله: «وفي هذه الأيام اضمحلّ أمر المستنصر بالديار المصرية لتشاغله باللهو والشرب والطرب. فلما عوفي ناصر الدولة بن حمدان اتفق مع مقدّمي المشارفة وحاصروا القاهرة، فاستنجد المستنصر وأمه بأهل مصر. فقاموا معه ونهبوا دور ابن حمدان وأصحابه وقتلوه وأدخلوهم تحت طاعة المستنصر»^(٢).

وهذا الخبر الذي أورده أبو المحاسن، يدلّ من أن يكون وصمة عار في جبين المستنصر والدولة الفاطمية، أتى شهادة حسن سلوك

(١) الدرة المضيّة في أخبار الدولة الفاطمية، م.س، ص ٣٨٧.

(٢) النجوم الزاهرة، الخامس، م.س، ص ٨٥.

له ولها. فالذي يشدّ الشعب للحاكم هو كرمه وتدينه وسماحة نفسه وأصله الشريف. ولو كان ماجناً متفحّشاً يتلّطى بالحج والعمرة لممارسة الفساد، لما هبّ الشعب المصري لنصرته وللذود عنه.

وقد وصف المقرئزي هذه الشدة وأسبابها ونتائجها في خطه بأن سببها «وذلك أنّ المستنصر لما خرج على عادته في كلّ سنة على الجبّ مع النساء والحشم إلى أرض الجبّ خارج القاهرة، جرد بعض الأتراك سيفاً وهو سكران على أحد عبيد الشراء فاجتمع عليه كثير من العبيد وقتلوه فحنق لقتله الأتراك»^(١). وبقيّة القصة معروفة.

المئة ألف بألف:

ويحدّثنا المقرئزي بنفس الصفحة عن نتائج هذه الفتنة المصيبة التي هدّدت الدولة الفاطمية بالاقتلاع من جذورها وأصولها فيقول: «ودخلت سنة ستون وأربعمائة، وقد خرق الأتراك ناموس المستنصر واستهانوا به واستخفّوا بقدره. وصار مقرّهم في كلّ شهر أربعمائة ألف دينار بعد أن كان ثمانية وعشرين ألف دينار. فلم يبق في الخزائن مال. فبعتوا يطالبونه بالمال، فاعتذر إليهم بعجزه عمّا طلبوه. فلم يعذروه. وقالوا: بع ذخائرك. فلم يجد بداً من إجابتهم. وأخرج ما كان في القصر من ذخائر (أثاث). فصاروا يقومون ما يخرج إليهم بأبخس القيم وأقلّ الأثمان. ويأخذون ذلك من واجباتهم (رواتبهم).

(١) الخطط المقرئزية - الأول - م.س. ص ٣٢٥.

العامّة تدافع عن الخليفة:

ورجع ابن حمدان بعد أن أفنى العبيد وشتّتهم. «وقد كشف قناع الحياء وجهر بالسوء للمستنصر، واستبدّ بسلطة البلاد. ثم استبدّ بالأمور دون الأتراك (أعوانه). وشكوا أمره إلى الوزير خطير الملك فأغراهم به، ولامهم على تقويته، وحسّن لهم الثورة عليه، فصاروا إلى المستنصر ووافقوه على ذلك. فبعث إلى ابن حمدان يأمره بالخروج من مصر. فخرج إلى الجيزة. وانتهب الناس دوره ودور حواشيه».

ويذكر لنا المقرئ أن ناصر الدولة بن حمدان، عاد والتفّ على الوزير خطير الملك وقائده الدكز فقتل خطير الملك وهاجم قصر الخلافة «فركب المستنصر بلامّة الحرب، واجتمع إليه الأجناد والعامّة وصار في عدد لا ينحصر. وبرزت الفرسان. فكانت بين الخليفة وابن حمدان حروب آلت إلى هزيمة ابن حمدان وقتل كثير من أصحابه. وهرب إلى البحيرة، واستمرت الحرب بينهما إلى سنة ٤٦٣ هـ. انكسرت فيها عساكر المستنصر. ونهب أكثر الوجه البحري. وقطع منه الخطبة للمستنصر ودعا للخليفة القائم بأمر الله العباسي بالإسكندرية ودمياط وعامّة الوجه البحري»^(١).

المجاعة تدفع الناس لأكل الجيف والكلاب والقطط:

ويتابع المقرئ وصف هذه المجاعة فيقول: «فعظم الأمر بالقاهرة ومصر من شدة الغلاء وقلة الأقوات، لما فسد من الأعمال

(١) الخطط المقرئية ١، م. س. ص ٢٢٦.

بكثرة النهب وقطع الطرقات، حتى أكل الناس الجيف والميتة. ووقف أرباب الفساد في الطرقات، فصاروا يقتلون من ظفروا به في أزقة مصر. وتزايد الموتان بمصر والقاهرة، حتى أنه كان يموت الواحد من أهل البيت، فلا يمضي يوم وليلة من موته، حتى يموت سائر من في ذلك البيت، ومدّت الأجناد أيديها إلى الذهب، فخرج الأمر عن الحد. ونجا أهل القوة بأنفسهم من مصر، وساروا إلى الشام والعراق»^(١).

ويروى لنا المقرئزي عن عودة ناصر الدولة بن حمدان إلى القاهرة والسيطرة عليها، باستثناء قصر الخلافة الذي كان بحماية الشعب المصري من المتطوعة. ويقول إن ابن حمدان راسل الخليفة العباسي في بغداد لإقامة الخطبة له. وأرسل رسولاً يهدّد المستنصر ويبتزّه بطلب المزيد من الأموال. ووصل رسوله إلى المستنصر «فوجده وقد ذهب سائر ما كان يعهده من أبهة الخلافة، حتى جلس على حصيرة، ولم يبق معه سوى ثلاثة من الخدم قبلّغه رسالة ابن حمدان. فقال المستنصر للرسول: أما يكفي ناصر الدولة أن أجلس في مثل هذا البيت على هذا الحال؟ فبكى الرسول رقة له. وعاد إلى ابن حمدان، فأخبره بما شاهد من اتّضاع أمر المستنصر وسوء حاله. فكفّ عنه وأطلق له في كلّ شهر مائة دينار. وامتدّت يده وتحكّم وبالغ في إهانة المستنصر مبالغة عظيمة. وقبض على أمّه وعاقبها أشدّ العقوبة، واستصفى أموالها، فحاز منها شيئاً كثيراً. فتفرّق حينئذٍ عن المستنصر جميع أقاربه وأولاده من الجوع»^(٢).

(١) الخطط المقرئزية، الأول، م.س. ص ٣٢٧.

(٢) م.س. ص ٣٢٧.

ونقل المقرئ من كتاب النقط للشيخ محمد بن أسعد الجواني وهو من معاصري هذه المجاعة وشاهد عيان لها فقال: «وانقطعت الطرقات برّاً وبحراً. ونزا المارقون بعضهم على بعض واستولى الجوع. وصار الحال إلى أن بيع رغيف من الخبز بزقاق القناديل كبيع الطرّف حيث تُؤدّي عليه بأربعة عشر درهماً. وأكلت الكلاب والقطط. ثم تزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضاً. وكان بمصر طوائف من أهل الفساد قد سكنوا بيوتاً قصيرة السقوف قريبة من الطرقات، قد أعدّوا خطاطيف. فإذا مرّ بهم أحد، خرجوا من فتحات السقف وشالوه بالخطاطيف في أقرب وقت، ثم ضربوه بالأخشاب وشرّحوا لحمه وأكلوه. قال الشيخ: وحدثتني بعض نساءنا الصالحات، قالت كانت لنا من الجارات امرأة ترينا أفخاذها وفيها كالحفر، فكنا نسألها فتقول: أنا ممن خطفني أكلة الناس في الشدة (المجاعة). فأخذني إنسان وكنت ذات جسم مسمن فأدخلني إلى بيت فيه سكاكين وآثار الدماء وزفرة القتلى. فأضجعني على بطني وربط يديّ ورجليّ إلى أوتاد حديد عريانة ثم شرّح من أفخذي شرائح، وأنا أستغيث ولا أحد يجيبي. ثم أضرم الفحم وشوى من لحمي وأكل أكلاً كثيراً. ثم سكر حتى وقع على جنبه لا يعرف أين هو، فأخذت في الحركة، إلى أن انحلّ أحد الأوتاد وأعانني الله على الخلاص»^(١).

وإذا أخذنا ما نقله الشيخ ابن أسعد الجواني وناقشناه بالعقل

(١) راجع م.س. نفسه. ص ٣٢٧.

والمنطق، نجد المبالغة فيه. فليست هي المرة الأولى التي نقل لنا المؤرخون أخبار المجاعات التي حلت بأصقاع الأمة الإسلامية، فنقل لنا ابن الأثير أخبار عدة مجاعات وصور لنا أكل الميتة والكلاب والقطط ولكن المجاعة الوحيدة التي نقل لنا عن خطف الأحياء هي هذه المجاعة أيام المستنصر.

وللمزيد من المناقشة نسأل: لماذا لم يذبح الخاطف المرأة البدينة ثم يشويها كأي طريدة يصطادها الصياد! والسؤال الثاني: من أين أتى بالخمرة حتى يسكر والخمرة هي من كماليات الحياة ولا تصنع إلا بعد تأمين الحاجيات؟ من هنا تبقى هذه المعلومة قابلة للتصديق وعدمه، علماً أن قصة ربة وسكينة اللتين كانتا تخطفان النساء في الإسكندرية في أوائل القرن العشرين ما زالت تعرض أفلاماً ومسلسلات على شاشات الفضائيات العربية.

وقد عرف التاريخ الإسلامي مجاعة أصابت خراسان في أوائل هذا القرن أي سنة ٤٠١ هجرية على عهد جده الحاكم. حتى يقال كانت أفدح وأفظع من الشدة المستنصرية وقد وصفها أبو محمد العبدلكاني الزوزني شعراً فقال^(١):

لا تخرجن من البيوت لحاجة أو غير حاجة
والباب أغلقه عليك موثقاً منه رتاجة
لا يقتنصك الجائعون فيطبخونك شورباجة

(١) الكامل في التاريخ، السابع. م.س. ص ٢٥٥.

منهوبات قصور الخلافة وقيمتها، ألف دينار بدينار:

وعندما يحدثنا المقرئ عن حوادث سنة ٤٦٤ هـ. يقول: «وفيها اشتدّ البلاء على المستنصر بقوة الأتراك عليه وطمعهم فيه، فانخرق ناموسه وتناقصت حرمة، وقلّت مهابته وتعنتوا به في زيادة رواتبهم، وكانت مقرّراتهم في كلّ شهر ثمانية وعشرين ألف دينار، فرفعوها إلى أربعمئة ألف دينار في كلّ شهر وطالبوا المستنصر بها.

وجاءوا إلى «وزير المال ابن أبي كدينة يريدون الأموال فقال: وأي مال بقي! الريف في يد فلان والصعيد في يد فلان والشام في يد فلان. فقالوا: لا بد أن تُنفذ إلى مولانا وتطلب المال منه وتعلمه بحضورنا. فكتب الوزير إلى المستنصر رقعة (رسالة) يذكر فيها حضورهم بالقابهم ورتبهم، وما يطلبون. فأعيدت الرقعة بخط المستنصر وكتب فيها:

أصبح لا أرجو ولا أتقى إلا الله ورسوله الفاضل
جدي نبوي وإمامي أبي وقولي التوحيد والعدل^(١)
المال مال الله، والعبد عبد الله، والإعطاء خير من المنع، وسيعلم
الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. وأعتذر بأنه لم يبق عنده شيء
فاضطرّوه إلى إخراج ذخائره وذخائر آبائه وبيعها، فأخذ يُخرج ذلك
شيئاً بعد شيء. وهم يأخذونها لأنفسهم بأيديهم ويثمنونها بأقلّ
القيم وأبخس الأثمان»^(٢).

(١) هذان البيتان من نظم جدّه الحاكم.

(٢) اتعاظ الحنفا، الثاني، ص ٢٧٥.

وقد وصف المقريزي موجودات قصور الفاطميين التي أخرجها
عسكر ناصر الدولة وثنَّها بأبخس الأثمان حيث وصفها في مداخلته
بقوله: «وأخرج من الذخائر ما لا شوهده فيما بعده من الدول مثله
نفاسة وغرابة وجلالة وكثرة وحسناً وملاحة وجودة، وسناء قيمة
وعلو ثمن. ونقل منه التجار إلى الأمصار شيئاً كثيراً. وقد اشتد
الخوف بمصر، وكثر التشليح في الطرقات نهراً والخطف والقتل.
وصار الجند فرقتين: فرقة مع الخليفة المستنصر وفرقة عليه»^(١).

كما يشير المقريزي إلى أنه عندما حاول ناصر الدولة الهجوم
على قصر الخلافة، لبس المستنصر عدة الحرب وحمل سلاحه
«فصار معه من الجند والعامّة ما لا يحصى عددهم كثرة ووقف
ناصر الدولة بمن معه، ونشبت الحرب بينهما، فكانت الكسرة على
ناصر الدولة، فانهزم وقد قتل كثير من أصحابه»^(٢).

والمحير في هذه المداخلة التي تقدّم بها المقريزي أنه إذا كان
باستطاعة المستنصر التصدي للأتراك وكسرهم وهو لا يملك ثمن
رغيف خبز، فلماذا لم يتصدّ لهم وهو بحالة تسمح له التصرف
بأمواله وموجودات قصوره؟ وليس لنا جواب إلاّ محبة العامة للزعيم
في مصر. فالعامة لو لم تكن تؤمن بزعامة المستنصر وإمامته
وخلافته لما دافعت عنه، كذلك لو لم يكن المصريون يؤمنون بزعامة
عبد الناصر لما دافعوا عنه إبان الاعتداء الإنكليزي الفرنسي
الإسرائيلي على بور سعيد.

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الثاني، ص ٢٧٨.

(٢) م.س. نفسه، ص ٢٧٩.

وهذه قائمة بأهم ما أخرج من القصور:

- خمسة عشر ألف سيف مرصعة بالجواهر.

- صندوق كُيِّلَ منه سبعة أمداد زمرد^(١).

ويقول المقرئزي أن الوزير ابن أبي كدينة سأل الجوهريين: كم قيمة هذا؟ فقالوا: إنما نعرف قيمة الشيء إذا كان مثله موجوداً. ومثل هذا لا تعرف قيمته.

فثمنه القائد التركي بخمسائة دينار، وربما كل سيف كان ثمنه خمسمائة دينار أوكل حبة زمرد كان ثمنها خمسمائة دينار.

- عقد جوهراً قيمته على الأقل ثمانون ألف دينار فكتب بألفي دينار.

- أخرجت هدايا ملكة اليمن أروى بنت أحمد الصليحي، إلى الحضرة المقدسة وكلها «من نفيس الدر» وكيّلت فجاءت سبع وبيات^(٢).

- وأخرج صناديق فيها ألفان ومائتا خاتم ما بين ذهب وفضة بفصوص من زمرد وياقوت.

- وأخرج من خزائن القصر ما يزيد على خمسين ألف قطعة ثياب «أكثرها مذهب».

«وقال ابن عبد العزيز: وأخرج من الخزائن على يدي أكثر من مائة ألف قطعة ثياب».

- وأخرجت خريطة (كيس كبير) فيها نحو وبية من الجواهر

(١) المدّ في جبل عامل وحدة كيل أو حجم. وزن حجمها من القمح ١٥ كلف ومن الشعير ١١ كلف.

(٢) الوبية: ٢٤ مدّاً.

«فأحضر أرباب الخبرة من الجوهريين ليقوموها فذكروا أنه يصعب تقييمها لأنه لا وجود لها إلا عند الملوك». فقومها الأتراك بعشرين ألف دينار.

ويذكر المقرئ أن كلفتها تفوق المليون دينار.

- وأخرجت خزائن السلاح الخاصة بقصر الخلافة فكان من نصيب ناصر الدولة بن حمدان:

- سيف ذو الفقار.

- صمصامة عمرو بن معدي كرب الزبيدي.

- سيف عبدالله بن وهب الراسي.

- سيف كافور الأخشيدي.

- سيف المعز لدين الله.

- درع المعز.

- سيف الحسين بن علي عليه السلام وكان وزنه ثلاثمائة وستين مثقالاً.

- سيف الأشتر النخعي.

- درقة حمزة بن عبد المطلب.

- سيف جعفر بن محمد الصادق - عليه السلام.

ويقول المقرئ أن ناصر الدولة وقواده الأتراك أخذوا يفتشون ممرات القصر ودهاليزه فتوصلوا إلى «حائط مجير فأمرؤا الفعلة بكشف الجير، فظهر باب مهدم، فإذا به خزانة ذكر أنها من أيام العزيز بالله، فوجدوا فيها من السلاح ما زادت قيمته على العشرين ألف دينار، فحملوا جميع ذلك وتفرقوه فيما بينهم».

ويخبرنا المقرئ أن فخر الدولة بن عمار الطرابلسي دفع بـ «باطية من بلّور (جرّة) في غاية النقاء وحسن الصنعة مكتوب عليها اسم العزيز بالله، ثماني مائة دينار فرفض صاحبها بيعها».

– ويروي المقرئ عن أبي سعد النهاوندي أن الأتراك أخرجوا من القصر ثماني عشرة ألف قصعة بلّور. يتراوح سعر الواحدة بين الألف دينار والعشرة دنانير.

– وأخرجوا أيضاً ما ينيف عن عشرين ألف قطعة قماش خسروانية، إلى غير ذلك من الفرش والتعليق المذهبة سوى ما نهب وسرق.

ويقدر المقرئ أن منهوبات القصر «بلغت ثلاثون ألف ألف ألف (مليار) دينار، على أنها بيعت بأقل القيم وأنزرا الأثمان. وقبض الجنود الأتراك جميعها من غير أن يستحق أحد منهم درهماً واحداً منها»^(١).

ويتابع المقرئ واصفاً منهوبات القصر فيقول:

– ودخلوا إلى خزانة الرفوف، وفيها رفوف كبيرة بعضها فوق بعض ولكل منها سلّم منفرد فأخرجوا منها:

– ألفي عدل (كيس كبير)^(٢) مليئة بقطع الثياب وكلّها جديدة لم تستعمل. وكلها مذهب ومطرزة بسائر الأشكال والصور.

– ثلاثة آلاف قطعة خسرواني حمراء مطرزة برسم البيوت، كلّ بيت منها كامل بجميع آلاته ومسائده ومخاده ومراتبه وبسطه وعتبه وستوره (براديه) وجميع ما يحتاج إليه في البيت الواحد.

(١) م.س. نفسه. ص ٢٨٢.

(٢) يطلق على العدل في جبل عامل لفظة «عديلة».

- وأُخرج من الحصر المُطرَّزة بالذهب ما لا يحصى كثرة، وأُخرج من صواني الذهب المنقوشة بسائر أنواع النقوش المملوءة جميعها جواهر من سائر أنواعه شيء كثير جداً.
- عشرون ألف قطعة قماش.

ويذكر لنا المقرئ أن الأعدال (الأكياس) التي كانت تستخرج من القصر كانت مرقمة وذكر لنا أن أحدها كان رقمه مائة وثمانية وثمانون.
- أربعمئة صندوق فيها سروج للخيل محلاة بالفضة وقرقة كغيرها من الأمتعة. فيها أربعة آلاف سرج.
- «تسعة عشر ألف غلاف خيزران (سلة) مبطنة بالحرير ومحلاة بالذهب في كل غلاف (قطعة من البللور المجرود)».

- مئة حجر باهر على أكثرها اسم هارون الرشيد.
- ألف من الستور الحريرية (البرادي) منسوجة بالذهب مختلفة الألوان والأطوال، فيها صور الدول وملوكها والمشاهير فيها، مكتوب أمام صورة كل واحد منهم اسمه ومدة حكمه وشرح حاله.
- عدة صناديق كثيرة مملوءة سكاكين مذهبة ومفضضة بنسب مختلفة من سائر الجواهر.

- عدة صناديق كبيرة مملوءة من أنواع الدوي (جمع دواة) المربعة والمدورة الصغار والكبار، المعمولة من الذهب والفضة والصندل والأبنوس والعاج.

- «سائر أنواع الحلوى الغربية، ذات الصنعة المعجزة الدقيقة، فيها ما يساوي واحدتها ألف دينار وما فوق».

- صناديق مملوءة مشارب ذهباً وفضة محرقة بالسواد.
- صناديق مملوءة أقلاماً مبرية من سائر أنواع القصب فيها ما هو من براية ابن مقله وابن البواب ومن يجري مجراهما.
- مصاحف مكتوبة بخط أشهر الخطاطين.
- عدة أزيار (جمع زير) كبار مملوءة كافوراً.
- عدة كبيرة من جماجم العنبر.
- عدة قوارير مملوءة مسكاً.
- عدة خزائن مملوءة آنية صينية قيمة كل صينية منها «ألف دينار»، معمولة لغسل الثياب.
- عدة خزائن «مملوءة من سائر أنواع الصواني المذهبة سعة كل واحدة منها عشرة أشبار إلى ما دونها، صينية في جوف صينية، حتى تكون أصغرهما سعة الدرهم».
- «من الموائد الخلعج الكبار والصغار».
- من الجفان (الخلقينة) الواسعة بمقابض الفضة التي لا يقدر الجمل القوى على حمل جفنتين لعظمتها، الألوف.
- ألوف الصواني المعمولة على هيئة البيض.
- ألوف الكيزان (جمع كوز - إبريق) لشرب الفقاع.
- مئات الأعدال مملوءة عقلاً.
- حصيرة ذهب وزنها ثمانية عشر رطلاً (٤٥ كلف ذهب) ذكر أنها الحصيرة التي جلبت عليها بوران بنت الحسن بن سهل إلى الخليفة المأمون.

- ثماني وعشرون صينية مصنوعة من الذهب لها كعوب تعلو بها عن الأرض «قومت كل صينية بثلاثة آلاف دينار. فأخذها كلها ناصر الدولة بن حمدان».

- عدة صناديق مملوءة مرايا وجميعها محلاة بالذهب والفضة. ومنها ما هو مكلل بالجواهر.

- عدة أعدال من الخيام والمضارب مع أعمدتها المكسوة بالذهب والفضة. وكل خيمة تُحمل على عشرين بعيراً.

- وأخرجت المدورة الكبيرة (الخيمة) الشبيهة بخيمة القاتول ولنا عودة للحديث عنها وعن القاتول.

- وأخرج من المظلات المقصبة بالذهب والفضة شيء له قدر جليل.

- وأخرج من الصناديق والأدراج والمغلقات المليئة بالأمشاط والمرايا المصنوعة من الأبنوس والعاج وسائر الخشب المحلى بالذهب والفضة والمغشاة بأغشية الجلد والحريز ما لا يُحَدُّ كثرةً.

- ومن صناديق الطعام وخزائنه ومن المجامع ما لا يدركه الإحصاء لكثرتة.

- وأخرج من خزائن الفضة ما ينيف على ألف ألف (مليون) درهم. كلها آلات مصوغة ومجراة بالذهب فيها ما يبلغ وزن القطعة منها خمسة آلاف درهم مما هو غريب الصنعة. فبيع جميعها عشرون درهماً بدينار وكانت قيمته خمسة دراهم بدينار^(١).

- وأخرج غير ذلك عشاريات موكبية (سفن تنفخ) وأعمدة الخيام،

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الثاني، ص ٢٨٨.

وأعلام وقناديل وصناديق وبوقات وسروج ولجم، وغير ذلك ما
يجاوز الألف ألف (مليون) درهم فضة. ثُمّنت كما تُمنّ غيرها.

- وأخرج من آلات الشطرنج والزهر المعمولة من أنواع الجواهر
والأحجار الكريمة، ومن الذهب والفضة والعاج والأبنوس وغيره ما
لا يُحد كثرة ونفاسة. وأخرج من المظلات والأعلام ما لا يمكن
وصفه لكثرتة، مما هو مخمل وحريز. وأخرج مرّة من خزائن
سروج الخيل خمسة آلاف سرج، فيها ما يساوي السرج الواحد
منها سبعة آلاف دينار وأقلّها ألف دينار، سحبت جميعها وفرّقت في
الأتراك.

- وأخرج من خزانة السيدة أم المستنصر أربعة آلاف سرج مثلها
ودونها، أخذها الجنود الأتراك أيضاً.
- وأخرج أيضاً من القصر أربعمائة قفص كبار مملوءة آلات مصوغة
بالذهب معدومة المثل صنفاً وحسناً.

- وأخرج من القصر ستة وثلاثون ألف قطعة بللور وأربعة آلاف
نرجسية فضة (قازا) محرّقة بالذهب رسم فيها النرجس. وألفا
بنفسجية فضة كذلك - ومن السكاكين ما قوّم بأقل الأثمان.

- وأخرج من تماثيل العنبر اثنان وعشرون ألف قطعة. ومن تماثيل
الكافور ما لا يحد كثرة. منها ثمان مائة بطيخة كافور. إلى غير
ذلك من تماثيل الفاكة.

- وأخرج من خزائن الفرش أربعة آلاف رزمة فرش مذهبة. في كلّ
رزمة، فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وستوره وسائر آلاته. كما

أخرج من خزائن الكسوات، الصناديق المملوءة بأفخر الملابس المستعملة في سائر أقطار الدنيا، مما لا يُحدّ كثرة ولا يعرف قيمة.

ويقول المقرئزي، أنّ ناصر الدولة بن حمدان تابع تضيق الخناق على المستنصر، فأرسل له «عماد الدولة المعروف بالمخنوق يطالبه بما بقي لغلمانه الأتراك، فأجابه المستنصر أنّه لم يبق عنده شيء إلا ملابسه، وقال له: ابعث من يَقومها ويقبضها، فأرسل ناصر الدولة وأخرجها فكانت ثمان مائة بذلة من ثياب المستنصر بجميع آلاتها كاملة»^(١).

- وأخذ الأتراك من المستنصر عمامته أو تاج ملكه وكان يطلق عليها اسم «الكلّوتة». وهي عمامة مرصعة بالجواهر. «وكانت من غريب ما في القصر ونفيسه، وكانت قيمتها مائة وثلاثون ألف دينار فقومت عليه بثمانية آلاف دينار. فجاء وزن ما فيها من الجواهر سبعة عشر رطلاً بالمصري. ومئة حبة درّ، وزن كلّ حبة ثلاثة مثاقيل.

- وأخرج من خزائن القصر خمسة أعواد صواري من العود الهندي، طول كلّ واحد منها عشرة أذرع ومن قطع العنبر ثلاثة آلاف قطعة. فأخذه كلّ ناصر الدولة بن حمدان، وحاز منه ما لا حدّ له ولا قيمة.

- وحمل إليه من القصر ثلاثة متارد صيني، يقوم كلّ مترد (طاولة ثلاثية الأرجل) منها على ثلاثة أرجل على صورة السباع. يسع كلّ منها مائتي رطل وما فوقها. وجام بازهر (جاط)، سعته ثلاثة

(١) م.س. ص ٢٩٠.

أشبار ونصف وعمقه شبر. وقطرميز باللور فيه صور ناتئة.

- وأخذ ابن حمدان من القصر طائراً من ذهب مرصع بنفيس الجواهر وعيناه من ياقوت أحمر وريشه من الذهب، وديكاً من ذهب له عرف كبير من الياقوت الأحمر، مرصع كله بسائر الدرّ والجواهر، وعيناه أيضاً من ياقوت أحمر كان يحير ناظره كيفية تركيبه لالتئام الصنعة فيه وملاحظتها. كما أخذ غزالاً مرصعاً بنفيس الدرّ والجواهر، بطنه أبيض من درّ رائع يخاله الناظر حيواناً حقيقياً.

- نهب التربة وخريطة العالم:

ويقول المقرئزي: «وطلب الأتراك من المستنصر نفقة، فمأطلم بها فهجموا على تربة القصر وأخذوا ما فيها من قناديل الذهب ومن الآلات كالمداهن والمجامر وحلى المحاريب. فجاء لهم منها خمسون ألف دينار»^(١).

ومن منهوبات القصر خريطة العالم «فيها صورة أقاليم الأرض بمدنها وجبالها وبحارها وأنهارها وسعة حصونها. وفيها صورة مكة والمدينة. وكتب في آخرها: مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقاً إلى حرم الله، وإشهاراً لمعالم رسول الله. في سنة ٣٥٣ هـ، والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار»^(٢).

وبعد أن يعدد المقرئزي الأصناف الفاخرة الكثيرة التي أخرجت

(١) م.س. ص ٢٩٢.

(٢) م.س. ص ٢٩٣.

من القصر، غير المذكورة سابقاً يقول: «مما قوّم بمئات الألوف من الدراهم وكانت قيمته ألوف الألوف من الدنانير».

ويحدّثنا المقرئزي أنّ ناصر الدولة بن حمدان أخرج من القصر «نخلة من ذهب مكلّلة بجواهر بديعة ودُرَر رائعة، في صحن من ذهب، تجمع الطلع والبلح وسائر ألوان البُسْر والرطب بشكله ولونه وصفته وهيئته من جميع ألوان الجواهر. وكوز من بللور يسع عشرة أرتال ماء مرصّع بنفيس الجواهر. وصورة مكلّلة بحب اللؤلؤ النفيس».

- سرقة سرير الملك:

ويقول المقرئزي إنّ الذهب الذي انتزع عن كرسي الملك بلغ مائة وعشرة آلاف مثقال ذهب (المثقال يزن: $\frac{1}{3}$ درهم). وأخرج الستر الخاص بسرير الملك فجاء فيه من الذهب ثلاثون ألف مثقال. وأخرجت الشمسة الكبيرة التي كانت ترافق الحاج. وكان فيها ثلاثون ألف مثقال ذهباً، وعشرون ألف درهم فضة، وثلاثة آلاف وستمئة قطعة من الجواهر.

- سرقة خزانة الكتب أو مكتبة القصر:

ويروى لنا المقرئزي كيف أنّ ناصر الدولة بن حمدان بعد أن استنفد كلّ موجودات القصر من ذهب وأثاث ومصاغ وأمتعة ومفروشات، لم يبق فيه غير المكتبة، فبدأ يستنفدها شيئاً فشيئاً حيث «أخرج من خزائن الكتب ثمانية عشر ألف كتاب في العلوم

القديمة، وألفان وأربعمئة ختمة قرآن بخطوط «محلات» بذهب وفضة. وأخرج في المحرم منها (سنة ٤٦١ هـ) في يوم واحد خمسة وعشرون جملاً محملة كتباً، صارت إلى دار الوزير أبي الفرج، اقتسمها هو وابن الموفق لقاء مستحقات لهما من المستنصر. وقومت حصة الوزير أبي الفرج بخمسة آلاف دينار، بينما الكتب التي أخذها كانت تساوي أكثر من مائة ألف دينار^(١).

وأشار المقرئ إلى أن هذه الكتب نهبت من داره وأعيدت إلى مكتبة القصر، حين قضي عليه وعلى ناصر الدولة سنة ٤٦٤ هـ.

ويقول المقرئ إنَّ ما وصل إلى بغداد على يد التجار ممَّا خرج من قصر المستنصر، على ما وقفت عليه في تاريخ بعض البغداديين، أحد عشر ألف درع وعشرون ألف سيف محلى بالذهب. وثمانون ألف قطعة بللور وخمسة وسبعون ألف قطعة من الديباج المقصب والمذهب. وبيع طشت وإبريق من بللور باثنى عشر ألف دينار. وبيع نحو السبعين ألف قطعة من الثياب. ونقل المقرئ عن ابن ميسر قوله: «رأيت مجلداً فيه نحو العشرين كراسة، ذكر فيها ما أخرج من القصر، من التحف والأثاث والثياب والسلاح والذهب وغير ذلك»^(٢).

يقول المقرئ:

«إنه في نهاية سنة ٤٦١ هـ عظم الغلاء بمصر واشتد جوع الناس لقلة الأقوات وكثرة الفساد. فبيعت البيضة من بيض الدجاج

(١) م.س. نفسه. ص ٢٩٥.

(٢) م.س. ص ٢٩٦.

بعشرة قراريط ذهب (خمس غرامات). وبيعت دار ثمنها ٩٠٠ ديناراً بتسعين ديناراً اشترى بها صاحبها عشرين رطلاً (٥٠ كلغ) من الطحين. وعمّ مع الغلاء وباء جديد، وشمل الخوف من العسكرية وفساد العبيد، فانقطعت الطرقات برّاً وبحراً. إلا بالخفارة الكبيرة. وبيع رغيف من الخبز كما تباع التحف. وبيعت حارة بمصر بطبق خبز، حساباً عن كلّ دار رغيف، فعرفت تلك الحارة بعد ذلك بحارة طبق^(١). وأكل الناس نحاتة النخل.

ويروي لنا المقرئ رواية تزيد هذه المجاعة عجباً: «يقول ومن عجيب ما وقع أنّ امرأة من أرباب البيوت عرضت عقداً لها من الجواهر قيمته ألف دينار على جماعة ليعطوها به طحيناً. وهم يعتذرون إليها ويدفعونها، إلى أن رقى لها رجل من السوق وباعها به تليس طحين (٣٧٥ كلغ)، فحملته من مصر، وأكثرت معها من يحفظه من النّهاية، وسارت تريد منزلها بالقاهرة، فسلمه إليها الحمالون عند باب زويلة، فلم تمش به غير قليل حتى تكاثر الناس عليها، وانتهبوه منها، فنهبت هي منه أيضاً مع النّهاية».

ووقف يوماً بعض الأغنياء بباب قصر الخليفة وطلب مقابلته، فلما وصل إليه وقف بين يديه وقال: يا مولانا هذه سبعون حبة قمح وقفت على بسبعين ديناراً، كلّ حبة قمح بدينار، فقال له المستنصر: الآن فرّج الله على الناس، فإن أيامي حُكم لها أنّه يباع فيها حبة القمح بدينار.

(١) طبق خبز = يقال له عندنا في جبل عامل: فرش خبز وتبّت خبز.

رأي المقريري بأسباب المجاعة:

وقد لخص المقريري أسباب هذه المجاعة إضافة لما أوردناه في

أول الفصل بالأمور التالية:

١ - شح نهر النيل وقصوره عن ما اعتاد عليه من الفيضان.

- تحارب عساكر الدولة فيما بينها.

٢ - سيطرة هذه العساكر على المحافظات وإدارتها بنفسها ونهب كل

فئة للمحافظة التي تسيطر عليها، وعدم إرسال ضرائبها

ومكوسها لعاصمة الخلافة، ولبيت المال أو خزانة الدولة.

٤ - تمنع الأهالي عن الزرع لأن زرعهم سوف يستولي عليه العسكر

المتواجد في منطقتهم بالقوة.

٥ - توقف جميع أنواع التجارات لكثرة قطاع الطرق وعدم وجود الأمن.

هذا النهب المنظم اليومي الذي وصفه المقريري بقوله حين

وصف ما أخرج في ثلاثة أيام من شهر المحرم سنة ٤٦١ هـ، بأنه

بلغ حسب تقيم العسكر له ٢٢٦٧٦٠٠ ديناراً «هذا على أن ما

يساوي ألف دينار يقوم بمائة دينار وما دونها، فإذا كان هذا تم

إخراجه في ثلاثة أيام فكيف يكون ثمن من ما أخرج في مدة سنتين

ليلاً نهاراً»^(١).

وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على رسوخ قدم دولة الفاطميين

المادية وغناهم المنقطع النظير رغم كرمهم الفاحش، وإذا كان ما

(١) م.س. ص ٣٩٥.

أخرج بثلاثة أيام قيمته الفعلية ٢,٢٦٧,٦٠٠ ديناراً وإذا قسمنا هذا المبلغ على ثلاثة أيام ٢,٢٦٧,٦٠٠ ÷ ٣ = يكون قيمة المستخرج من القصور في اليوم الواحد يناهز الثماني مائة ألف دينار وقيمة ما أخرج في سنتين ٨٠٠٠٠٠ × ٧٣٠ = ٥٨٤,٠٠٠,٠٠٠ خمسمائة وأربعة وثمانون مليون دينار ذهباً، أو ما يساوي ستمائة مليار ليرة لبنانية يومياً. فكم تكون قيمة المنهوبات خلال سنتين؟.

وإذا كان المقرئ موضوعياً وصادقاً مع نفسه لعلمه أن سرد هذه المعلومات تزيد الناس إعجاباً وتعجباً بهذه الدولة ومنها، فغيره من المؤرخين طمسها وتجاوز عنها ولم يذكرها. فلنر رأي بعضهم:

يقول أبو المحاسن ابن تغري بردي في حوادث سنة (٤٦١ هـ)، «وفي هذه الأيام اضمحل أمر المستنصر بالديار المصرية لتشاغله باللهو، والشرب والطرب، فلما عوفي ناصر الدولة بن حمدان، اتفق مع مقدمي المشاركة، فركبوا وحاصروا القاهرة، فاستنجد المستنصر وأمه بأهل مصر، واذكرهم حقوقه عليهم، ووعدهم بالإحسان، فقاموا معه ونهبوا دور ابن حمدان وأصحابه وقتلوه، فخاف ابن حمدان وأصحابه ودخلوا تحت طاعة المستنصر، بعد أمور كثيرة صدرت بين الفريقين»^(١).

فما شرحه وكتبه المقرئ بأكثر من أربعين صفحة من القطع الكبير في اتعاظ الحنفا وأكثر من عشر صفحات في الخطط المقرئية عن هذه المجاعة التي لم ير مثلها التاريخ العربي

(١) النجوم الزاهرة، الخامس، م.س. ص ٨٥.

والإسلامي لا من قبل ولا من بعد، اختصره ابن تغري بردي بعدة أسطر. علماً أنهما متجايلان، متعاصران مصريان. والمقريري توفي سنة ٨٤٥ للهجرة وابن تغري بردي توفي سنة ٨٧٤ للهجرة.

أما ابن الأثير وابن أبيك الدواواري فكانت إشاراتهما إلى هذه المجاعة يتيمة.

والحافظ ابن كثير أوجز وصف هذه المجاعة بقوله: «وفيها كان غلاء شديد بمصر فأكلوا الجيف والميتات والكلاب، فكان يباع الكلب بخمسة دنائير، وأفنيت الدواب، فلم يبق لصاحب مصر (المستنصر) سوى ثلاثة أفراس، بعد أن كان له العدد الكثير من الخيل والدواب، وكان لا يجسر أحد أن يدفن ميتة نهاراً، وإنما يدفنه ليلاً خفية، لئلا ينبش فيؤكل، واحتاج صاحب مصر حتى باع أشياء من نفائس ما عنده، وقد كان بعض هذه النفائس للخليفة (العباسي)، مما نهب من بغداد في وقعة البساسيري»^(١).

يتساءل القارئ، ما السبب الذي يجعل مؤرخين من نفس البلد ونفس المذهب يريان نفس الشيء. بمنظارين مختلفين؟ فالحافظ ابن كثير لم ير سوى أن ما أخرج من قصر الخليفة المستنصر هو ما نهبه البساسيري من قصر الخليفة العباسي، القائم بأمر الله، علماً أن حملة البساسيري كلفت الدولة الفاطمية مليوني دينار ذهباً خالصاً غير الرجال والعتاد. من أجل إعلاء منارة «حي على خير العمل» من على مآذن بغداد وجوامعها، لا من أجل موجودات قصر الخلافة.

(١) البداية والنهاية، المجلد ١٢، م.س. ص ٩٩.

ومهما وصل الأمر بالمصريين أيام الدولة الفاطمية، فلم يشؤوا أولادهم الصغار ويأكلونهم، فقد ذكر صاحب منتخب الزمان أنَّ مصر أيام الملك العادل - أبو بكر بن أيوب - شقيق صلاح الدين «اشتد الغلاء بمصر والشام فأكلت الكلاب والقطط، وأكل من الأطفال الصغار خلقٌ كثير، يشوي الصغير والداه ويأكلانه، وكثر هذا في الناس حتى لا ينكر بينهم، ثم صاروا يحتالون بعضهم على بعض، فيأكلون من يقدرون عليه، وإذا تغلب القوي على الضعيف ذبحه وأكله، وفقد أطباء كثيرون من هذه السنة، يستدعونهم بحجة المريض فيذبحونهم ويأكلونهم»^(١).

أين كان العباسيون؟

يتساءل القارئ؟ بالرغم من أنَّ الحالة في مصر وصلت بخليفتها الذي سحب من قصره ما كلفته حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩١م (مئة مليار دولار أميركي) وبقي على حصيرة واحدة «وعَدِمَ القوت»، حتى كانت الشريفة بنت صاحب السبيل تبعث إليه كلَّ يوم بقعب (صحن) من فتيت (فتافيت الخبز) من جملة ما كان لها من البرِّ والصدقات في سني الغلاء، ولم يكن له قوت سوى ما تبعث به إليه، وهو مرَّة واحدة في اليوم ولا يجد غيره، وبعث بأولاده إلى الأطراف لعدم وجود القوت»^(٢).

(١) منتخب الزمان، ابن الحريري، ط ١، بيروت، دار عشتار، سنة ١٩٩٥، ص ٢٢٢.

(٢) م.س. ص ٢٩٨.

أين كان الخليفة العباسي؟

يخبرنا المقرئ أن ناصر الدولة بن حمدان وهو سني المذهب راسل السلطان السلجوقي مغتصب الخلافة العباسية في بغداد ألب أرسلان، فبدأ ألب أرسلان يجهز الجيوش لغزو مصر، ولكن هجوم ملك الروم منعه من القدوم إلى مصر.

وبلغ المستنصر مراسلة ناصر الدولة إلى ألب أرسلان فجهز إليه العساكر، وبدأت الحرب بينه وبين العسكر التركي فكانت الغلبة لابن حمدان في البدء، فاستأسد على المستنصر واستخف به وبمن معه، فحاصر القاهرة من جميع الجهات وقطع الخطبة للخليفة الفاطمي وخطب للخليفة القائم العباسي خارج القاهرة، فتحرك الشعب المصري بكل فئاته وقاد الحرب ضد ناصر الدولة، «وامتدت الحرب ثمانية أشهر يتحاربون ليلاً نهاراً، فامتنع الناس من الحركة، فخرج أهل القوة (الأغنياء) من القاهرة ومصر يريدون بلاد الشام والعراق هرباً من الجوع والفتن»^(١).

ويقول المقرئ في أحداث سنة ٤٦٥ للهجرة:

«وفيها قتل ناصر الدولة بن حمدان، وكان سبب فنائه أنه لما استولى على أمور الدولة وبالح في إهانة المستنصر وتبّع أقاربه وحواشيه وأخذ من قدر عليه منهم (قتله)، وفرّ من وجد سبيلاً إلى الفرار، وشرع في قطع دعوة المستنصر وإعمال الرأي في إقامة الخطبة للخليفة القائم العباسي بمصر والقاهرة، وأن يزيل من البلاد

(١) م.س. نفسه. ص ٣٠٣.

دولة الفاطميين ويمحو آثارها. فلم يستطع ذلك ولا قدر عليه لكثرة الأعوان والأتباع»^(١).

وهذا النص الذي أورده المقرئ يذل على مدى رسوخ العقيدة الشيعية الفاطمية في نفوس المصريين، فبالرغم من نهب قصورهم ونهب خزائن الدولة كلها، لكنهم لم يستطيعوا نهب العقيدة الشيعية من نفوس الشعب المصري، فبقي المستنصر رمز الشيعة والتشيع، وعندما أحس المصريون بالخطر الداهم على العقيدة الفاطمية الشيعية من قبل ناصر الدولة بن حمدان وعساكره، قام أنصار الخليفة ومريدوه بمهاجمة قصر ناصر الدولة على حين غفلة ووافوه بداره بمصر سحراً. فهجموا عليه، فإذا هو بصحن داره وعليه رداء فبادره أحدهم بسيفه فحز رأسه، وهجموا على أخيه فخر الدولة وقتلوه وحملوا رأسه وقتلوا أخاه تاج المعالي وجماعة من بني حمدان، وتتبعوا أسبابهم وحواشيهم حتى لم يبق منهم أحد بديار مصر. وأصبحوا لا ترى إلى مساكنهم» وأنهى المقرئ مداخلته ببيت من الشعر يبدي شماتته بناصر الدولة^(٢):

ولئن غلطت بأن مدحتك طالباً جدواك مع علمي بأنك باخل
فالدولة الغراء قد غلطت بأن سمّتك ناصرها وأنت الخاذل
وبعد قتل ناصر الدولة، ظنّ المستنصر أنّ الفرّج قادم ولكن هيبة الملك والخليفة، هزّت، فجاء الخلف أرذل من السلف، وجاء ابن أبي

(١) م.ن. ص ٣٠٩.

(٢) اتعاظ الحنفا، الثاني. ص ٢١٠.

كدينة ليخلف ناصر الدولة، فاستطال على المستنصر وناكده، فتحير
المستنصر من أمره من هذه البلية الجديدة، وكتب إلى واليه في عكا
أمير الجيوش بدر الجمالي يستدعيه للقدوم لنجدته من هؤلاء السفلة
ويعده بتوليّه الوزارة.



الأرمن يحكمون مصر باسم الإسلام الشيعي الاثني عشري لمدة سبعين سنة (٤٦٦ - ٥٣٩ هـ)

وجاء جواب بدر الجمالي، أنه يقبل بالمهمة شرط إقالة جميع القواد والوزراء وإعطائه الصلاحيات الكاملة بإعادة ترتيب جهاز الدولة بمعرفته، فوافق المستنصر وجاء من عكا في أول كانون الثاني من سنة ٤٦٦ للهجرة وجلب معه من العساكر والأعوان حمولة مائة مركب وكل مركب يضم ٧٠٠ جندياً من الأرمن ووصلت مراكبه إلى دمياط بعد أربعين يوماً. فوصل إلى قليوب وأرسل إلى الخليفة المستنصر يخبره بقدومه، ويطلب منه إرسال قائد العساكر التركي يلدكوش بحجة استقباله فأرسله المستنصر فقبض عليه بدر الجمالي.

ودخل بدر الجمالي القاهرة بالترحاب والإكرام، فخدعهم بكلامه المنمق وبتملقه، ثم أخذ يحضر مع أمراء الدولة مجالس الأكل والشرب واللذات، إلى أن انسوا إليه وحضر كل مآذبه ومضافاتهم. «فلما انقضت أيام ضيافتهم له، استدعى أمراء الدولة ومقدميها

في صنيع أعدّ لهم، فمضوا إليه، وقضوا نهارهم عنده، وباتوا في أطيب عيش وأنعم بال، وقد رتب الجمالي أصحابه ليقتل كل واحد منهم أميراً من الأمراء الأتراك. فلما سكرُوا، وامتدّ عليهم رواق الليل، صار يخرج كل واحد من باب ويسلمه إلى غلام من غلمانه، (فيقتله) ويمضي إلى داره فيستلمها بما فيها من الخدم والأموال. فلم يصبح الصباح إلا ورؤوس الجميع بين يديه. وقد استولى كل رجل من أصحابه على دار أمير من الأمراء الأتراك واستولى على جميع ما كان له^(١).

وأخذ بدر الجمالي يقبض على الأتراك وتتبعهم حتى لم يدع منهم أحداً يشار إليه. وشمر ساعد الجد والاجتهاد فاعتقل أهل الفساد ولم يبق على أحد منهم، وتتبعهم في القاهرة ومصر، حتى أتى على جميعهم بالقتل والتشريد.

ويروي لنا المقرئزي أنه لما علم أنّ الوزير ابن أبي كدينة من نسل عبد الرحمن بن ملجم، قبض عليه وقتله بسيف ثليل، ضربه به سبع ضربات بعدد ولايته القضاء بمصر.

وتابع بدر الجمالي إصلاحاته، فهاجم الوجه البحري وقتل من قبيلة لواته المغتصبة له عشرين ألف لواتي وحاصر الإسكندرية مقر المعارضة السنّية، فأخذها قهراً وقتل من أهلها كل من علم بفساده وإفساده. ثم عاد إلى مصر والقاهرة، فجمع المعلومات عن كل الجنود المفسدين والفاستدين فقتلهم وربّى الصالح بالمفسد.

(١) م.س. ص ٢١٢.

وارتدّ إلى الصعيد الجوّاني فحاصر عرب جهينة والثعالبة
والجعافرة وطرقهم بغتة ووضع فيهم السيف فأفنى أكثرهم قتلاً.
ولم ينج منهم إلا القليل، وأحاط بأموالهم فحاز منها ما يتجاوز
وصفه كثرةً، وسيّرهما كلها إلى قصر المستنصر.

وارتدّ بدر الجمالي إلى أسوان وكانت آخر ثغر مصري خارج عن
سلطة المستنصر، فهاجم واليها كنز الدولة، وقتله وهزم أصحابه
وشتّتهم بعد أن قتل منهم الجم الغفير، فكانت هذه الواقعة آخر
الوقائع التي قطع فيها دابر المفسدين وخمدت جمرتهم.

وحاول والي دمشق التركي أطمس، من قبل العباسيين دخول
مصر والقاهرة، فلاقاه بدر الجمالي وهزمه وقتل عدّة من أخوته،
وتابع طريقه إلى الرملة وطبرية ودخل دمشق «لعشر بقين من
شعبان سنة ٤٦٩ هـ» وقد احتوى على الكثير ممن كان مع الأتراك
وسيره إلى قصور الخليفة في القاهرة.

ويحدّثنا المقرئ كيف تحكّم بدر الجمالي بمصر تحكّم الملوك
ولم يبق للمستنصر من أمره شيئاً، حيث سلّمه أمور خلافته،
فضبطها أحسن ضبط، وعمّر البلاد بعد خرابها، وزال النحس عن
المستنصر وأعاد إليه سعادته. ويقول المقرئ إنّه سامح المزارعين
من ضريبة الخراج لمدة ثلاث سنين «فاستغنى أهل مصر في أيامه
ودرت عليهم أخلاف النعم بعد توالي الشدائد ومقاساة الألم». وكثر
تردد التجار إلى مصر في أيامه بعد نزوحهم عنها.

ولنا عودة إلى الحديث عن بدر الجمالي أمير الجيوش في معرض

حديثنا عن وزراء الدولة الفاطمية ودعاتها، حيث أنه استصدر لنفسه مرسوماً من الخليفة المستنصر بالإشراف على الدعوة الشيعية وعلى علوم أهل البيت.

نهاية حكم المستنصر:

لما مات بدر الجمالي سنة ٤٨٧ هـ، ولّى المستنصر في رئاسة الوزارة ولده الأفضل «وَقَرَّرَ في الوزارة مكان أبيه». ولحكم القدر مات المستنصر في نفس السنة وكان له من العمر سبع وستون سنة..

يقول المقرئون إنَّ الوزراء الذين تولَّوا الوزارة في عهده بلغوا أربعة وعشرين وزيراً أهمهم - أبو القاسم الجرجرائي وأبو محمد اليازوري وبدر الجمالي أمير الجيوش ولده الأفضل. وكان نقش خاتمه:

«بنصر السميع العليم ينتصر المستنصر أبو تميم».

ومن مرثية ابن التلوخي الشاعر في المستنصر جاء:

وليس ردى المستنصر اليوم كالردى ولا قدره أمر يقاس به أمر
لقد هاب ملك الموت إتيانه الضحى ففاجأه ليلاً وما طلع الفجر
فأجرى عليه حين مات دموعنا سماء، فقال الناس بل هو القطر
وقد بكت الخنساء صخراً وإنه ليبيكيه من فرط المصاب به الصخر
وقلّدتنا المستعلي الطهر حسب ما عليه قديماً نص والده الطهر

رأي المؤرخين المعاصرين بالمستنصر:

قال عنه عبد المنعم ماجد: «هذا الخليفة، تولى الحكم صغيراً، إلا أنه كان تربية أمه، التي - في سبيل سيطرتها عليه - جعلته لا إرادة له. وقد يكون هذا الخليفة راغباً في العمل من أجل رعاياه، إلا أنه أنشئ على أن يعتمد على الغير، فترك شؤون دولته ليرعاها له غيره. فكان يعتمد في تصريفها على أمه، وعلى وزرائه، وأخيراً فوضها كلها لشخص غريب، سلبه ملكه، وأصبح هو إلى جانبه كمأ مهملاً. فكان المستنصر بالله بضعفه، قد فتح باب سيطرة الوزراء على الخلفاء، مما أدى إلى القضاء على دولته»^(١).

فلم يكف المستنصر ظلم المؤرخين المتقدمين فجاء عبد المنعم ماجد وظلمه بهذا الرأي، علماً أنه قال عنه في خاتمة كتابه أنه «لا ينبغي أن ننفي عن هذا الخليفة بعض صفاته الطيبة، فهو قد عرف بحب رعيته، فقد أجمع المؤرخون على أنه كان يستمع إلى ظلامتهم، وسمح لهم بمكاتبتة، كما لم يسمع عنه بأن أحداً رأى منه ما يوحشه أو تعرض لمصادرة أمواله أو أنه قتل أحداً.

أما المؤرخ الإسماعيلي عارف تامر فهو يعتبر أن ترك المستنصر لصلاحياته وإعطاها للأرمن وزواجه من بنت بدر الجمالي الذي أدى إلى تغيير مجرى سير الإمامة على يد المستعلي والمستعلي، أدى في النهاية إلى نهاية دولة الإسماعيليين الفاطمية

(١) الإمام المستنصر بالله الفاطمي، عبد المنعم ماجد، ط ١، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٦١، ص ٧.

في مصر، لكن الدعوة الإسماعيلية لم تنته، فنزار وأولاده من بعده الذين لم يخالفوا شرع الله وشرع آبائهم الأئمة في تسمية الولد الأكبر لكل إمام إماماً من بعده، استطاعوا أن يحافظوا على الدعوة الشيعية الإسماعيلية في جميع أقطار الأرض^(١).



(١) راجع: المستنصر بالله الفاطمي، عارف تامر، ط ١، بيروت، دار المسيرة، سنة ١٩٩٠م، ص ١٦٦.

ال خليفة الفاطمي التاسع

الإمام المستعلي بالله أبو القاسم أحمد:

عندما توفي والده سنة ٤٨٧ للهجرة، كان له من العمر تسعة عشر عاماً، فقد ذكرت كتب التاريخ أنه من مواليد سنة ٤٦٨ هـ.

يقول المقرئزي في الاتعاظ: «عندما مات المستنصر، بادر الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالي، إلى القصر وأجلسه ولقبه المستعلي». وأرسل وراء أخوته وكلهم أكبر منه، وهم: نزار وكان له من العمر خمسون سنة وعبدالله وإسماعيل. فلما وصلوا إلى القصر وشاهدوا أخاهم أحمد (المستعلي) وهو أصغرهم جالساً على كرسي الإمامة والخلافة، استنكروا وأنفوا ورفضوا المبايعة. فنهرهم الأفضل قائلاً: «تقدّموا وقبّلوا الأرض لله تعالى ولمولانا المستعلي بالله وبإيعوه، فهو الذي نصّ عليه الإمام المستنصر قبل وفاته للإمامة وللخلافة من بعده». لكن أولاد المستنصر رفضوا وامتنعوا عن المبايعة. وقال نزار وكانت بينه وبين الأفضل عداوة: «والله لو قُطعت لا أبايع من هو أصغر مني سنّاً. وعندي خط والدي بأنني ولي عهده وسأحضره». وخرج نزار مسرعاً بحجة جلب خط والده، ولكنه كان

يخطط للهرب من مصر لأنه يعلم أنَّ الأفضل سوف يقتله، «فمضى من حيث لم يشعر به أحد وتوجّه خفية إلى الإسكندرية» وقد جُنَّ جنون الأفضل لهرب نزار وتخلّصه من قبضته.

وقد أكد العديد من حاشية المستنصر، أنه جمعهم وعهد بالإمامة والخلافة إلى ولده نزار حسب شروط انتقال الإمامة عند الشيعة بكل طوائفهم وهي من الأب إلى الابن الأكبر.

ويروي المقرئ أن نزاراً شاهد الأفضل ذات يوم يدخل قصر الخلافة راكباً فنهره وصاح به قائلاً: «انزل يا أرمني يا نجس».

وتابع الأفضل عملية انتقال الإمامة والخلافة إلى المستعلي فجمع «مقدمي الدولة والأمراء والرؤساء وجميع الأعيان وأخويه عبدالله وإسماعيل» وأخذ البيعة منهم جميعاً.

وشكّل انتقال الخلافة والإمامة من الوالد إلى الولد الأصغر المخالف لأصول انتقال الإمامة، أول شرخ في بناء الدولة الفاطمية، ونحن نعلم كيف فشلت كلّ الدول والحاقدون على إلغاء الخلافة الفاطمية في عهد المستنصر، لأنه كان محاطاً بالمريدين والمؤمنين به وبأهل بيته من عامة المصريين. وهو الخليفة الذي وصل به الأمر لأن يجلس على حصيرة في قصره بدون حرس ولا أبهة ويعيش على صحن من فُتاة الخبز، ترسله له إحدى بنات عمّه من شريفات العائلة المالكة.

ولكن عندما نقل الأفضل بن بدر الجمالي الإمامة والخلافة بشكل غير شرعي، انقسم الشعب المصري والشعوب الموالية للدولة الفاطمية أي الإسلامية الشيعية الإسماعيلية إلى قسمين: قسم يؤمن بإمامة المستعلي مكرهاً وحفظاً لحقن الدماء، وللحفاظ على حكم

العترة النبوية الطاهرة لأهمّ أقليم من أقاليم الإسلام وهو مصر،
وقسم آخر يؤمن بإمامة نزار ويناصب العداء للمستعلي وللشيعة
المستعلية. وكان هذا الانقسام أول خطوة في طريق نهاية الحكم
الإسلامي الشيعي للقطر المصري.

وتروي لنا كتب التاريخ أنّ نزاراً وصل إلى الإسكندرية وبايعه
هناك أهلها وواليها بن مصال اللكي وأفتكين التركي الملقّب نصير
الدولة وأنه تلقّب بالمصطفى لدين الله. فشغل بال الأفضل، وبدأ
يحضّر العساكر والجيوش لمحاربتهم.

وبدأت المناوشات بين الأفضل ونزار وبدأ الكرّ والفرّ بين أطراف
البيت الواحد. وانتهت هذه المناوشات بالقبض على نزار. ومنهم من
يقول «أن الأفضل بنى عليه حائطاً ومات». ومنهم من يقول إنّ قتل
بالإسكندرية والبعض يقول إنّ هرب إلى حصن الموت في إيران،
والتجأ إلى داعي الدعاة في هذه المنطقة الحسن الصباح. ولكن
المقريزي يرجّح الرأي القائل بأنه قتل في الإسكندرية.

ولكننا نتساءل، إذا كان نزار قد قتل، فكيف استمرت الدعوة
النزارية حتى اليوم وأصحابها منتشرون في الهند وباكستان بكثرة
وهم المعروفون بالبهرة. وآخر إمام منهم وهو الإمام الحالي الإمام
الثالث والخمسون علي خان.

ويقول المقريزي رأيّه بنزار وبإمامته: «والإسماعيلية وملاحدة
العجم وملاحدة الشام تعتقد إمامته وتزعم أنّ المستنصر قال
للحسن الصباح أنّه الخليفة من بعده»^(١).

(١) اتعاظ الحنفاء، الثالث، ص ١٥.

كما روى محقق الكتاب في الهامش أنه في «أحداث سنة ٥٢٦هـ من هذا الكتاب (الإتعاظ الثالث) خبراً نصه: وفيها خرج أبو عبدالله الحسين بن المستنصر، وكان قد توجه إلى المغرب متخفياً، وجمع هناك جموعاً كثيرة وعاد، فبعث الحافظ إلى مقدمي عسكره يستميلهم، فلما وصل دير الزجاج اغتالوه وقتلوه، فانفض جمعهم^(١).

ويتساءل المرء عن صحة هذا الخبر وخاصة إذا علمنا أن أهل السنة وعلماءهم وزعماءهم قد أفنوا الشيعة عن بكرة أبيهم في المغرب على عهد الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٦ للهجرة ولنا عودة إلى هذا الأمر لنتحدث عنه في فصل كامل تحت عنوان: كربلاء المغرب.

ويروي لنا المقرئ أكثر من رواية تسلط الضوء الكافي لإظهار الإنشقاق في المجتمع المصري ومنها أن أم الأفضل كانت تتخفى وتذهب إلى الأسواق تتجسس لولدها وتنقل له حالة العامة والخاصة من الرعية. ومنها أنها وقفت لدى صراف تصرف منه ديناراً «وكان إسماعيلياً متغالياً فقالت له: ولدي مع الأفضل في الإسكندرية وما أدري ما خبره، فقال لها الصيرفي: لعن الله الأفضل الأرمني الكلب العبد السوء ابن العبد السوء. مضى يقاتل مولانا ومولى الخلق». ومضى يخوفها من مقتل ولدها مع الأفضل: «كأنك والله يا عجوز برأسه ماراً من هنا على رأس رمح قدام مولانا نزار إن شاء الله تعالى، والله يلطف بولدك؟ من قال لك تخليته يمضي مع هذا الكلب المنافق». ويقول لنا المقرئ إن هذا الكلام كان سبباً لمقتله.

وبدأت جحافل الفرنجة تهاجم بلاد المسلمين والساحل السوري

(١) م.س. ص ١٥.

في أواخر عهد المستعلي، وكانت الشام باستثناء الساحل الفلسطيني، كلها تحت الحكم السلجوقي العباسي، أما الساحل الفلسطيني ومدنه من عكا حتى بئر السبع والقدس فقد كانت تحت الحكم الفاطمي ولنا عودة للحديث عن مجريات الأحداث في فصل خاص بعنوان: موقف الفاطميين من الحروب الصليبية. وفي نفس السنة التي بدأ فيها الفرنجة الغزاة الجدد شنّ هجماتهم على مدن برّ الشام الساحلية، تُوفي الإمام المستعلي عن عمر يناهز سبعاً وعشرين سنة، سنة ٤٩٥ للهجرة. وكان نقش خاتمه: الإمام المستعلي بالله.

يقول المقرئزي عن حكم المستعلي: «في أيامه اختلت دولتهم وضعف أمرهم، وانقطعت من أكثر الشام دعوتهم، وانقسمت البلاد الشامية بين الأتراك الواصلين من العراق وبين الفرنج وبينهم. وفي أيامه أيضاً افتقرت الإسماعيلية فصاروا فرقتين: نزارية تعتقد بإمامة نزار وتطعن في إمامة المستعلي، وترى أنّ ولد نزار هم الأئمة من بعده يتوارثونها بالنص، والفرقة المستعلية، ويرون صحة إمامة المستعلي ومن قام بعده من الخلفاء بمصر، فحدثت الفتن وقتل الأفضل وقتل الأمر كما سيأتي ذكره»^(١).

وقال المقرئزي: إنّ المستعلي لم يكن له سيرة تذكر فقد كان الأفضل يدير أمور الدولة إدارة سلطنة وملك وليس إدارة وزير. ولما مات المستعلي، ترك من الأولاد ثلاثة: الأمير أبو علي المنصور، وهو الكبير والذي تولّى الخلافة بعد والده باسم الأمر بأحكام الله. والأمير جعفر والأمير عبد الصمد.

(١) اتعاظ الحنفاء، الثاني، ص ٢٧.

ال خليفة الفاطمي العاشر

الأمر بأحكام الله، المنصور أبو علي:

يقول المقرئزي: إن الخليفة العاشر وُلد سنة ٤٩٠ هـ وبُوع له بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أبوه وهو طفل له من العمر خمس سنين وشهر وأيام.

وفور وصول خبر وفاة المستعلي للوزير الأفضل حمل الولد على كتفه وأتى به إلى مجلس الإمامة والخلافة ونصبه مكان أبيه وجمع له الأشراف الفاطميين والأشراف الطالبين ونقيبهم والقواد والأعيان ورؤساء التجار والصناعات وبطرك الروم وحاخام اليهود وطلب من الجميع مبايعته فبايعوه، بعد أن نعتة بـ: «الأمر بأحكام الله».

ويخبرنا المقرئزي أنه، بعد أن أخذ الأفضل بن بدر الجمالي البيعة للمنصور «ركب فرساً وجعل في السرج شيئاً (خشبة) اركب الأمر عليها لبيان شخصه، وصار ظهر الأمر في صدر الأفضل».

والمتتبع لسيرة الفاطميين يستنتج دون أي جهد أن الحكم الفعلي لن يكون طبعاً بيد الطفل، بل بيد الوزير الأفضل، وأن الأمور كلها ستكون منه وإليه.

وقد قضى الأمر أيامه بمقارعة الصليبيين فلم يهدأ له بال طوال فترة حكمه.

ولما حاول المأمون البطايحي مكاتبة الإفرنج، قبض عليه الأفضل وسجنه مع إخوته علماً أنّ البطايحي وأهله هم صنيعة بدر الجمالي والمستنصر، فلم يرحمه الأفضل على فعلته بالرغم أنّه من صبيان وصبيان والده بدر.

ويروي لنا المقرئزي مواقف الأفضل بن بدر الجمالي في كلّ نواحي الحكم: عسكرية تجاه الصليبيين، وداخلية من ناحية ضبط الأمن وإعمار البلاد، ودينية. وكلّها مواقف تشهد له لا عليه. كما يروي لنا خلافه مع أولاده ومحاولاتهم اغتياله المرة تلو الأخرى. لكنه قتل، وأنّهم بقتله المأمون البطايحي قائد عسكره ويرى المقرئزي أنّ الخليفة الأمر وافقه على قتله، بينما السلوكية التي اتبعها الأمر في دفنه والصلاة بنفسه عليه، وتكريم أولاده وأهله، وإقامة الحداد عليه في كلّ مرافق دولته، وتأبينه بخطبة العيد، وبمنشور خاص عمّمه على كلّ أنحاء بلاد الخلافة، تدل على عدم اشتراكه في مؤامرة قتله، علماً أنّه نجا من أكثر من محاولة قتل سابقة، إن كانت على يد أولاده أو على يد الإسماعيلية النزارية وكلّهم أخصامه.

وقد جاء كتاب النعي الذي عمّمه الأمر على بلدان الخلافة خطّة عمل وزارية متكاملة، وهي بالتالي تعبّر عن أهداف الدولة الفاطمية. وممّا جاء في طيّات هذا السجل:

«هذا كتاب من عبدالله ووليه، المنصور أبي علي، الإمام الأمر بأحكام الله، أمير المؤمنين»، يُتلى على كافة مدن الخلافة: الأشراف والأمراء والعساكر والقضاة، وجميع الرعايا...

وبعد أن يؤكد معروف الأفضل ووالده على الدولة الفاطمية يقول: «ولما كانت همّة أمير المؤمنين مصروفة إلى الاهتمام بكم، والنظر بمصالحكم، والإحسان إليكم، وتأمين سربكم وإعذاب شربكم، ومدّ رواق العدل عليكم، وإنصاف مظلومكم من ظالمكم، وضعيفكم من قويكم، ومشروفكم من شريفكم. وكفّ عوادي المضارّ بأسرها عنكم، وتمكنكم من التصرف في أديانكم على ما يعتقده كل منكم، جارين على رسمكم وعاداتكم، من غير اعتراض عليكم. رأى أن يخرج به عالي أمره من كتابة هذا السجل (المنشور) وتلاوته عليكم جميعاً، لتثقوا به، وتسكنوا إليه، وتتحقّقوا جميل رأي أمير المؤمنين فيكم. وأنّه لا يشغله عن مصالحكم شاغل. وأنّ باب رحمته مفتوح لمن قصده. وإحسانه عميم شامل، وله إلى تأمل أحوال الصغير منكم والكبير عين ناظرة. وفي إحسان سياستكم عزيمة حاضرة وأفعال ظاهرة».

وقال المقرئ نقلاً عن ابن ميسر: «كان الأفضل من العدل وحسن السيرة في الرعية والتجار على صفة جميلة تجاوزت ما سُمع به قديماً وشوهد أخيراً. ولم يعرف تاجر صودر ولا ضبط عليه». وروى عنه أنّه لما دخل الإسكندرية، كان بها تاجر يهودي يبالغ في سبّه وشتمه ولعنه. فقبض عليه وأمر بقتله بعد أن عدّد ذنوبه وأخطائه التي أوجبت قتله. فقال اليهودي: إنّ معي خمسة آلاف دينار، خذها مني واعتقني واعف عني. فتشهد الأفضل من القهر وقال له: والله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك. اذهب. وعفا عنه ولم يقتله ولم يأخذ منه شيئاً.

وتولّى الوزارة بعد الأفضل المأمون البطايحي وكان لا يقلّ عنه

في علو الهمة وحسن التدبير والمواقف الصلبة، لكن المقريري يتهمه بالتقصير في حماية صور من الفرنجة، رغم أن بعض المؤرخين يضع اللوم على أتابك دمشق طغتكين، الذي لم يكن معروف الولاء، للعباسيين أم للفاطميين أم للذي يدفع أكثر.

وقد استمر البطايحي في وزارته من سنة ٥١٥ هـ إلى سنة ٥١٩ هـ للهجرة، وبالرغم من أنه أخذ أماناً من الخليفة الأمر بخط يده وتوقيعه، إلا أن هذا الأمان لم يُنَجِّه من القتل. فقد بلغ الأمر أن وزيره المأمون البطايحي لم يعد يحتمل من كثرة تكبره وتشوفه على الخليفة وأهل بيت الخلافة، وأنه يحاول قتله حيث أنه «سم مبضعاً ودفعه لفصاد الخليفة، فاعلم الفصاد الخليفة بالمبضع». ويقال أيضاً إن سبب القبض عليه وعلى أخوته وقتلهم جميعاً على يد الأمر «أنه بعث سلفاً يعزّي الأمير جعفر بن المستعلي أخي الخليفة الأمر بموت الأمر وبمقتله (قبل أن يقتل)، كما بلغ الأمر أنه بعث إلى اليمن وطلب من واليها ضرب دنانير جديدة يكتب عليها: «الإمام المختار محمد بن نزار». فقبض الأمر عليه وعلى أخوته جميعاً رداً من الزمن ثم صلبه مع أخوته سنة ٥٢٢ هـ.

وأثناء سجنه فتح له الأمر كل الملفات، ومنها ملف قتل الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ويقال «إنه هو الذي قتل الأفضل وأولاده وأولاد أخيه الأوحده وأولاد أخيه المظفر، وكانوا نحو مائة ذكر ما بين كبير وصغير، فقتلوا بأجمعهم. ولم يبق منهم سوى ولد صغير نحيل يُسمى أحمد ولقبه كتيفات. يقال إنه احتقره لما رأى فيه من الهزال والعِي والإنقطاع»^(١).

(١) اتعاظ الحنفا، م.س. ص ١١٢.

ومن المَلَفَات التي فتحوها له أيضاً وهو بالسجن، أنه «ولّى أخاه حيدرة مؤتمن الخلافة جانباً عظيماً من ديار مصر وجعل معه عسكر النجدة خوفاً من الخليفة وجرد معه مائة فارس من كبراء الأجناد كلّ واحد منهم جيش بمفرده، والخليفة يعلم ذلك ولا يردّه. حتى قيل أنّ الخليفة علم أنه ادّعى الخلافة وأنه من ولد نزار من جارية خرجت من القصر وهي حامل، عندما خرج نزار هارباً إلى الإسكندرية»^(١).

أما المقرئزي فقد نقل عن الخليفة الأمر بقوله: «إن أعظم ذنوبه عندي ما جرى منه في صور وإخراجها من يد الإسلام إلى يد الكفر»^(٢).

واستمر الأمر في الحكم بدون وزير حتى سنة ٥٢٤ للهجرة، حتى قتل على يد الإسماعيلية النزارية وكان له من العمر خمس وثلاثون سنة، قضى منها في الخلافة ثلاثين سنة.

يقول المقرئزي أنّ أيامه كانت أيام رغد وغنى وسعة عيش. كما في أيامه سيطر الصليبيون على كلّ معاقل ومدن الساحل السوري. وكان يطمح للسيطرة على الخلافة العباسية بهدف توحيد الإسلام. ويخبرنا المقرئزي أنه أمر بصنع سروج مجوّفة مبطنة بداخلها صفائح القصدير وهي من الخارج سروج ومن الداخل، خزانات ماء يسع كلّ سرج منها خمسة عشر ليترأ «وعمل لكلّ سرج فماً فيه صفارة فإذا دعت الحاجة إلى الماء شرب منه الفارس».

(١) م.س. ص ١١٣.

(٢) م.س. ص ١١٥.

وروى له المقرئ بيّتين من الشعر يشيران إلى طموحاته
السياسية والإسلامية:

دع اللوم عني لست مني بموثقٍ فلا بد لي من صدمة المتحقّق
وأسقى جيادي من فرات ودجلة وأجمع شمل الدين بعد التفرّق
وكان نقش خاتمه:

«الإمام الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين».

رأي ابن تغري بردي بالأمر:

يقول أبو المحاسن: كان الأمر رافضياً سبّاباً، كآبائه، فاسقاً ظالماً
جباراً متظاهراً بالمنكر واللّهو، ذا كبر وجبروت. وكان ربعة، شديد
الأدمة، جاحظ العينين، حسن الخط، جيد العقل والمعرفة. وقد ابتهج
الناس لقتله بسبب فسقه وسفكه للدماء وكثرة مصادراته
واستحسانه الفواحش.

وقال عنه ابن خلّكان أنّه كان سيّء الرأي جائر السيرة، مستهتراً
متظاهراً باللّهو واللعب.

وقال أبو المحاسن أنّه كان أهوج وخاصة إذا طلع المنبر للخطبة
في أيام الجُمع. وقال عنه أيضاً أنّه الوحيد من بين الخلفاء الفاطميين
الذين حفظوا القرآن وكان ضعيف الخط، علماً أنّه قال عنه في أول
ترجمته أنّه «حسن الخط، جيد العقل والمعرفة». وهذا التناقض في
الرأي ناتج عن أحكام مسبقة يكتبها كلّ مؤرّخ لأنها تنبع من خلفية
مذهبية وضيعة، لا من خلفية موضوعية.

ال خليفة الفاطمي الحادي عشر

الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد ٤٦٨ - ٥٤٤هـ:

لما قتل النزارية الخليفة الأمر لم يرث ولده الطيب الخلافة وكان لم يبلغ السنة من العمر، والسبب في ذلك كبار غلمانه - بزغش وجوامرد. فقد كان هذان الغلامان المقرَّبان من الأمر، يحبَّان ابن عمَّ الخليفة الأمير عبد المجيد العسقلاني. وقد سمِّي بالعسقلاني لأنَّه ولد في عسقلان. وقالوا إِنَّ الأمر أوصى بولاية عهده إلى من تلده (فلانة) قبل أسبوع من مقتله. وأنه رأى رؤيا تدلُّ أنَّها ستلد ولداً ذكراً وهو الخليفة من بعده وأنه طالب بكفالة ابن عمه الأمير عبد المجيد أبي الميمون لهذا المولود «فجلس المذكور كفيلاً للإمامة والخلافة، ونعت بالحافظ لدين الله». وتمَّ نقل الخلافة بهذه الطريقة التي يرفضها المسلمون الشيعة، ممَّا زاد في تفرُّقهم في أنحاء بلدان الخلافة فمنهم من وقف ضد هذه الكفالة وطالب بمبايعة الطيب، ومنهم من بايع الحافظ خوفاً على نفسه من مقدَّمي الأتراك الذين توزَّعوا المناصب على أنفسهم، فأصبح هزار الملك جوامرد الوزير الأول ويانس الصقلبي متولي الباب، ورضوان بن ولخشي قائد

العسكر. أما بزغش فطلع خارج القسمة فحقد على هزار الملك جوامرد وعلى يانس وبدأ يعدّ العدة للتخلص منهما.

وما كان منه إلا أن أحضر أبا علي كتيفات ابن الأفضل بن بدر الجمالي وهو ما تبقى من نسل هذه العائلة الأرمنية التي كان لها شأن في تاريخ الدولة الفاطمية. وكان العسكر المتجمع خارج القصر يكره هزار الملك جوامرد، وما رأوا أبا علي كتيفات الجمالي حتى هجموا عليه وقالوا له: أنت الوزير ابن الوزير ابن الوزير. وحدث تمرّد على وزارة هزار الملك جوامرد وانتهى بقتله «قتلة مستورة»، والقيت رأسه إلى العسكر المتجمع خارج القصر فسكتوا. «فكانت وزارته نصف يوم بغير تصرف».

واستدعى الخليفة الحافظ أبا علي كتيفات وكلفه بالوزارة.

ولكن الولد النحيل الهزيل الذي قرف المأمون البطايحي من شكله وهزاله وعيّه ومراضه، وتركه دون أن يقتله، كبر ونشأ على الحقد والثأر من قاتلي أبيه وعشيرته، فما أن استقر في الوزارة وجمع العسكر والجيش حوله حتى «أحاط بالخليفة الحافظ وسجنه في خزانة فيما بين الإيوان وباب العيد. ودخل عليه رضوان بن ولخشي فقيده، فقال له الحافظ هازناً: أنت فحل الأمراء، فلُقّب بذلك».

واستولى كتيفات على جميع ما في القصر من الأموال والذخائر وأعادها إلى دار الوزارة، دار أبيه وجدّه، وكأنّه يعتبرها من أموال أبيه التي صادرها الأمر الذي بقي شهرين وعدّة أيام يستخرجها من دار أبيه. وقام بانقلاب أبيض تمهيداً لقتل الحافظ وإلغاء الدولة الفاطمية، فتستّر بالمذهب الشيعي الإمامي الإثني عشري وسكّ

العملة باسم المهدي المنتظر القائم (عج) «وخطب للقائد المنتظر تمويهاً، فنشرت قلوب الدولة منه وقامت نفوسهم، وتحالفوا سرّاً على قتله وكانوا أربعين رجلاً، وصاروا يرتقبون فرصة ينتهزونها»^(١).

ويروي لنا المقرئزي رواية طريفة حول اغتيال كتيفات فيقول إنه كان يلعب بالكرة ويعرق فرسه فصرخ: «راحت» ويعني بها فرسه، أمام عشرة من صبيان الخاص الذين توافقوا على قتله، فقال العشرة بصوت واحد: «عليك» وهجموا عليه بالسكاكين وقتلوه. وجاء الفرسان الأربعون يقودهم يانس الصقلي إلى الخزانة وأخرجوا الخليفة الحافظ منها «وفكّوا عنه القيد وأجلسوه في الشباك على منصّة الخلافة» وطالبوا الحافظ بتكليف يانس بالوزارة فكان لهم ما أرادوا.

ويانس هذا، صقلي أرمني أيضاً من غلمان الأفضل بن بدر الجمالي، أمير الجيوش.

وأول ما عمله يانس، تخلص من صبيان الخاص الذين قتلوا أبا علي كتيفات، «فكسر شوكتهم وأضعفهم فلم يبق منهم من يؤبه له ولا يُعتدّ به» فقوي أمره وعظم شأنه. وبدأ يحاول التخلص من الخليفة الحافظ فأحسّ الخليفة بذلك، و «صار كلّ منهما يدبر على الآخر».

وبدأ يانس برجال القصر، فقبض على قاضي القضاة وداعي الدعاة وقتلها بحجج واهية. ثم قبض على أحد مستشاري الخليفة المقرئين وضرب عنقه بدون محاكمة. فخشي الحافظ منه ومن

(١) اتعاظ الحنفاء، الثالث، ص ١٤١.

تصرفاته وقال لطيبه: «أكفني أمره بمأكل أو بمشرب، فأبى الطبيب ذلك خوفاً من سوء العاقبة، ويقال إن الحافظ توصل إلى أن وضع السم ليانس في ماء المستراح (البانيو)، فانفتح دبره واتسع حتى ما بقي يقدر على الجلوس. فقال الطبيب للخليفة: يا أمير المؤمنين، قد أمكنتك الفرصة وبلغت مقصودك. فلو أن مولانا عاد (زاره) في هذا المرض، اكتسب حسن الأحدث. وهذا المرض ليس له دواء إلا الهدوء والسكون. ولا شيء أضّر عليه من الحركة والقيام. وهو عندما يراكم تحرّك، وقام واهتمّ بلقائكم. وفي ذلك تلاف نفسه». فسمع الحافظ نصيحة الطبيب وقام بزيارة يانس وعيادته «فلما رآه يانس، قام للقاءه، وخرج من فراشه فأطال الحافظ الجلوس عنده ومحادثته، ولم يقم من عنده حتى سقطت أمعاؤه ومات من ليلته»^(١).

ويحدثنا المقرئ عن أن المرأة التي كانت حامل من الأمر، قد أولدت ولداً رآه الشريف محمد بن أسعد الجواني «ولداً صغيراً في القرافة الكبرى يُسمّى قفيفة (تصغير قفّة). وسأل عنه فقالوا له هذا ولد الأمر. ولما ولي الحافظ الأمر وولد هذا الولد فكتم أمره ثم قتله». وقد سمّي قفيفة لأنّه حين ولد، أخرج من مكان ولادته وهرب «في قفّة على وجهها سلق وكزّات». ولكن عندما كبر، عُرف أمره من قبل الحافظ فقتله.

ولما مات يانس، رفض الحافظ أن يكلف أحداً بالوزارة «وتولّى الأمور بنفسه، ولم يستوزر أحداً».

(١) اتعاظ الحنفا، م.س. ص ١٤٥.

ولكي لا يعد ويقع بين فكي الوزارة والوزراء كلف الحافظ ولده الكبير سليمان بالوزارة، ولكن لم يستمر فيها أكثر من شهرين ومات، فقام بتكليف ولده الأوسط حيدرة، ونصّب به للنظر في المظالم، فدبّت الغيرة في نفس أخيه حسن، وانقسم أهل القصر حول حيدرة وحسن، «فوقعت الفتنة بين الطائفة الجيوشية والطائفة الريحانية، فاشتعلت نيران الحرب بين الفريقين».

يقول المقرئزي: «والتقى العسكران فقتل منهما ما يزيد على العشرة آلاف فارس، فكانت أول مصيبة نزلت بالدولة، من فقد رجالها ونقص عساكرها»^(١).

واستظهر حسن على حيدرة وعلى والده الحافظ. وانضم إليه أوباش العامة وزغارهم (زعرانهم). وأطلق يدهم في مضايقة الناس والتجّار وموظفي القصر. فهرب منه والده وأخوه واختبئوا خوفاً من قتلهم.

وبدأ الأوباش «يحسنون له كلّ رذيلة ويحرّضونه على أذى الناس» وبدأت المفاوضات بينه وبين والده المختبئ، «فعهد إليه بالخلافة وأركبه بالشعار ونعته بولي عهد المؤمنين. وكتب له بذلك سجلاً (منشوراً) قرئ على المنابر»^(٢).

وأقدم الحافظ على هذه الخطوة أملاً بصلاح الأمر بينه وبين ولده حسن، لكن ذلك لم يزدّه إلا شراً وتعدياً، فضيّق على أبيه وبالغ

(١) م.س. ص ١٤٩.

(٢) م.س. ص ١٥٠.

في مضرته فلم يجد الحافظ مفرأً من مواجهته، فأرسل أحد مستشاريه (الاستاذ المحنك)، إلى الصعيد، وجمع له الجنود والعساكر. وتقابل العسكران، عسكر الحافظ وعسكر ولده حسن، وكانت الهزيمة للحافظ وعسكره، وتابع حسن سيره من المعركة إلى قصر والده وحاصره.

يقول المقرئزي: «فلما اشتد الأمر على الحافظ، عمل حيلة وكتب ورقة ورمأها إلى ولده حسن، فيها: «يا ولدي، أنت على كل حال ولدي، ولو عمل كل منا لصاحبه ما يكره الآخر، ما أراد أن يصيبه مكروه. ولا يحملني قلبي على أذيتك، وقد انتهى الأمر إلى أن أمراء الدولة فلاناً وفلاناً، (وسمأهم له)، بعد أن شددت وطأتك عليهم وخافوك، قرروا الفتك بك، فلما وقف حسن على الورقة، قامت قيامته وجمع الأمراء المذكورين في داره فقتلهم أجمعهم. فاشتدت مصيبة الدولة بفقد من قتل من الأمراء الذين كانوا أركانها، وهم أصحاب الرأي والمعرفة، فوهت الخلافة لقلة الرجال وانعدام الكفاة»^(١).

ولما قتل حسن الأمراء والقواد خاف جنودهم على أنفسهم منه وابتعدوا عنه، وهو ازداد افتراء على الناس والتجار بمن معه من الزعران والأوباش.

ولما كثرت المنازعة بين الحافظ وولده، اجتمع ما تبقى من القواد والأمراء مع عساكرهم أمام القصر وقرروا عزل الاثنين: حسن من ولاية العهد والحافظ من الإمامة والولاية، لأن استمرارهما على

(١) م.س. ص ١٥١.

هذه الحال سوف يطيح بالدولة الفاطمية. وما أن وصل العسكر إلى باب القصر، حتى هرب الأوباش والزعران من خلف الأمير حسن، وما تبقى من الجند انسحبوا لناحية عسكر الأمراء، وبقي حسن وحده فهرب من أحد الدهاليز المؤدية إلى القصر واحتتمى بأبيه. «فبادر الحافظ بالقبض عليه وقيده، وأرسل إلى الأمراء يخبرهم بالقبض على حسن فطالبوه بقتله، فبعث إليهم يردعهم عن هذا الأمر ويقبّحه، وأنه قد عزله وأزال عنهم أمره ووعدهم بزيادة أرزاقهم ورواتبهم وإقطاعاتهم، فلم يقبلوا وأجابوه: «إما نحن وإما هو». وأحضروا الأحطاب والنيران لإحراق القصر، وبالغوا بالجرأة على الخليفة، فلم يجد من ينتصر به عليهم، لأنهم هم أنصاره وجنده الذين يتناول بهم على غيرهم، فألجأته الضرورة إلى أن طلب منهم مهلة ثلاثة أيام ليتروى فيما يعمل» (١).

وناقش الحافظ هذا الأمر مع مستشاريه من الأستاذين المحنكين. والعسكر طيلة المهلة متجمع أمام باب القصر، يهدّدونه ويتوعدّونه بمصير كمصير ولده حسن، فاستدعى طبيبيه أبا منصور وابن قرقة اليهوديين، «فبدأ بأبي منصور اليهودي، وفاوضه في عمل سقيّة (شراب مسموم) لابنه، فتحرّج أبو منصور من ذلك، وأنكر معرفته هذه الوصفة كلّ الإنكار، وحلف برأس الخليفة وعلى التوراة أنّه لم يقف قط على شيء من هذا. وأحضر ابن قرقة، وفاوضه في ذلك. فقال ابن قرقة: الساعة، وهذه السقيّة لا يتقطّع منها الجسد، بل

(١) م.س. ص ١٥٢.

تفيض النفس لا غير، فأحضرها من ساعته، وألزم الحافظ ابنه حسناً بمن ندبه من الصقالبة، فأكرهوه على شربها، فمات.»

وقد أخذ المؤرخون المشاركة هذا التصرف مأخذاً على الحافظ وهم يذكرونه في كتبهم، بالخليفة القاسي القلب، الذي قتل ولده بيده، بينما أثبتت لنا السطور السابقة، الظروف التي دفعت الحافظ للتخلص من ولده، لأن البديل، نهاية الحافظ والدولة الفاطمية.

وأرسل الحافظ للقواد والأمراء المتجمهرين أمام القصر: «لقد تم ما أردتم فامضوا إلى دوركم.»

فلم يثقوا بكلامه وأجابوه: لا بد لنا أن نشاهده ميّتاً، وانتبدوا منهم شخصاً جريئاً يعرف الأمير حسن معرفة جيّدة، اسمه جلال الدولة محمد، فتقدّم جلال الدولة من جئة الأمير حسن، فإذا هو مسجى بثوب وملاءة، فكشف عن وجهه وأخرج من وسطه سكّيناً وعرزه في عدة مواضع من بدنه، حتى تيقن أنه ميّت، ثم عاد إلى الأمراء والقواد والعساكر المتجمهرة أمام باب القصر، وأخبرهم بما عمل، فتفرّقوا.

ولما قتل حسن وهذأت الأمور، قبض الحافظ على الطبيب ابن قرقة وقتله وصادر كلّ أمواله، وأنعم على أبي منصور بلقب كبير الأطباء وجعله رئيساً على اليهود في بلدان الخلافة وأتحفه بنعم وهدايا وأعطيات جليّة.

وكان الحافظ وهو محاصر في قصره من قبل ولده حسن وأوباش البلد، كاتب أحد القواد الهاربين من وجه حسن وهو بهرام الأرمني.

وكان بهرام قد جمع حوله كلّ العساكر الهاربة من وجه الأمير

حسن والأرمن والعربان والبدو وزحف إلى القاهرة وحاصرها، وفي ذلك الوقت تم قتل الأمير حسن، فما كان من عساكر بهرام إلا أن هاجمت فلول عساكر الأمير حسن من الجيوشية والإسكندرانية والفرحية والغز الغرباء وأبادوا أكثرهم. وتابعوا طريقهم إلى أحياء القاهرة وخططها وأزقتها فنهبوها. فزادت هذه الواقعة التي أفنت معظم عساكر الدولة الفاطمية من قرب نهايتها على يد أعدائها الكثير المتربّصين بها.

وصل بهرام إلى القصر، وكان حسن قد مات والعساكر قد تفرقت، فخلع عليه الحافظ وكلفه بالوزارة، علماً أنه كان يفضل أن تبقى الوزارة بأيدي أولاده أو أن تبقى البلد بلا وزارة بالمطلق لما ناله من عسف الوزراء ومضايقاتهم، هذا المنصب الذي أفقده ولده وكاد أن يفقده الدولة بكاملها.

وكان أول نصرانيّ ينعت بسيف الإسلام. وقد أجبر العسكر الحافظ على تسميته بهذا الاسم.

واحتج الولاة والقضاة والدعاة على هذه الوزارة فأسكنهم الحافظ بسياسته وحنكته.

لكن النصاريّ تناولوا في أيام بهرام الأرمني على المسلمين، وكان يرافق الخليفة في صلاة الجمعة من القصر إلى باب الجامع «فيعدل إلى دكان أمام الجامع يقعد فيه بمفرده حتى يصلّي الخليفة بالناس».

وفي وزارته «أقبل الأرمن يتردّدون إلى القاهرة ومصر من كلّ الجهات، حتى صار بها منهم عالم عظيم».

فتقوى بهرام بهم وأصبحوا فرقة يحسب لها ألف حساب.
وبدا بهرام يوطد سلطاته، فاستقدم ابن أخيه من أرمينيا وكان
يعرف بالسبع الأحمر، وعين أخاه ويدعى الباساك، والياً على قوص
وكانت من أعظم ولايات الدولة الفاطمية.

ونقل رضوان بن ولخشي من ولاية القاهرة إلى ولاية عسقلان
بسبب منعه نزول جماعة من الأرمن وصلت في البحر إلى القاهرة
وردّهم من حيث أتوا.

وعمل بهرام على إكثار الأرمن وخاصة أقاربه وأخوته فأتوا من
نواحي حلب بالمئات بل بالآلاف وكذلك، تدفقوا إلى القاهرة من
أرمينيا «حتى صار منهم بديار مصر نحو الثلاثماية ألف إنسان
فعظم ضررهم بالمسلمين وكثر تطاولهم على المصريين واشتدّ
جورهم وتظاهروا بدين النصرانية وأكثروا من بناء الكنائس
والأديرة، حتى وصل الأمر بهم، إلى أن كلّ رئيس أو قائد فرقة من
العسكريين له كنيسة بجوار داره».

ويقول لنا المقرئزي: «إن أمر بهرام والأرمن تفاقم، فخاف الناس
منهم أن يغيّروا الملة الإسلامية ويتغلّبوا على البلاد فيردّوها دار
كفر، فنتابعوا في الشكاية من أهل بهرام وأقاربه»^(١).

فلم يجد الأعيان والتجار والقواد الحاقدين على الأرمن والوزير
بهرام أمامهم، سوى فحل الأمراء رضوان بن ولخشي المنقول من
القاهرة، «فبعثوا إليه يشكون ما حلّ بالمسلمين، ويستحثّونه على
السير وإنقاذهم مما نزل بهم».

(١) م.س. ص ١٥٩.

فما أن وصلت الكتب إلى رضوان، حتى نزل الجامع وارتقى المنبر وخطب خطبة الجمعة بنفسه ودعى المسلمين إلى الجهاد لتحرير القاهرة «من بهرام وشيعته النصارى من الأرمن» فاهتاجت الناس وجمع ثلاثين ألف فارس، وأخرج لهم كتب الخليفة الحافظ إليه يأمره بالتقدم إلى القاهرة و «نزع الوزارة من يد بهرام وأهل ملته».

وهجم رضوان وعساكره بعد أن رفعوا المصاحف فوق رماحهم وهاجموا قوات بهرام الأرمني، فهرب بهرام وتشتت قواته. وما أن وصل الخبر إلى قوص حيث كان أخوه الباساك، ثار العسكر المصري عليه وقتله ورماه على أحد المزابل. وخاف العسكر الأرمني وعاد البعض منهم إلى أرمينيا.

وما أن استأنس رضوان بوزارته وأطمأن حتى بدأ يعمل على خلع الخليفة الحافظ، وبدأ يشيع بين أنصاره من الشيعة الإمامية والإسماعيلية «بأنه ليس بإمام ولا خليفة وإنما هو كفيل لغيره، كما أن هذا الغير لم يصح». وأحضر رضوان الفقهاء واستفتاهم فرفضوا خلع له لأن الفقيه الإمامي كان جوابه: أنني إذا أفتيت بخلعه أكون قد اعترفت بإمامته وأنكرت إمامة المهدي المنتظر، لذلك لا يجوز لي أن أفتي بخلعه من لا علاقة لي بتنصيبه إماماً. أما الفقيه الإسماعيلي فكان جوابه أنه لم يسبق وخلع إمام لدى الإسماعيليين وهذه سابقة لا يستطيع الضلوع فيها، فشتمهما رضوان وطردهما من مجلسه، ووصلت الأخبار للحافظ.

وكثرت المباحدة بين الخليفة والوزير رضوان، فما كان من

ال خليفة أن أرسل وراء بهرام الأرمني الذي كان قد اختبأ في أحد أديرة سيناء وأعادته إلى قصره واعتمده مستشاراً له في كل صغيرة وكبيرة.

ويروي لنا المقرئزي أن رضوان تجرأ على الخليفة وهزأه «فانتفض الناس لذلك في القاهرة ومصر».

وكثرت المشاحنات بين الوزير رضوان والخليفة الحافظ وبدأ رضوان يبحث عن شخص يقبل به الشيعة خليفة وإماماً. وفي نفس الوقت بدأ الحافظ يكاتب أحد أمراء الدولة الكبار ويدعى علي بن السلار ويطلب منه التخلص من رضوان، وأرسل له الأموال الجزيلة التي تعينه على تنفيذ مهمته.

وكان علي بن السلار يعلم مدى تعلق الشعب المصري والعامّة بمنصب الخلافة والخليفة، فاستطاع أن يطرد رضوان من القاهرة بسهولة، حيث حرّض عشرين من صبياناه بأن يمشوا بمظاهرة ينادوا فيها: الحافظ يا منصور، وانتهت المظاهرة بآلاف العساكر والجنود والعامّة، وصلوا إلى باب الوزارة ونهبوه ونهبوا بيوت رضوان وأخوته وأعوانه. ففرّ إلى الشام وأخذ من عسقلان معقلاً له.

ولما مات بهرام الأرمني، حزن عليه الحافظ كثيراً فأصدر أمراً بإغلاق مؤسسات الدولة ثلاثة أيام حزناً عليه. وأمر بطرك الروم بتكفينه ومشى هو والأمراء والوزراء في جنازته.

ويروي لنا المقرئزي عودة رضوان من عسقلان واعتقال الحافظ له ورميه في سجن قصر الخلافة ونقبة السجن وهربه منه ثم

عودته إلى القاهرة مع عساكر لُواتة والخارجين على الدولة، فدبّر الحافظ له من العساكر السودانية من يغتاله فاغتالوه وقتلوه وقطعوا رأسه أمام باب القصر وعادوا بها إلى الحافظ. فهدأت نفس الحافظ واطمأنت.

ويخبرنا المقرئزي بأن رضوان «كان سنياً حسن الاعتقاد، شجاعاً مقداماً، قوي الغلب شديد البأس». ولم يستوزر الحافظ بعده أحداً.

وقال المقرئزي عن الحافظ أنه كان «حازم الرأي جماعاً للأموال، كثير المداراة، سيوساً عارفاً، وكان يميل إلى علم النجوم وكان له من المنجمين سبعة. وقال عنه أيضاً: «إنه من محاسن ما يحكى عنه أنه كان يرسل في كل ستة أشهر عسكرياً من القاهرة لمهاجمة الفرنج». وقد أجمع كل المؤرخين على تفكك أوصال الدولة الفاطمية في عهده، فقد زاد الشق في أيامه بين المستعلية والنزارية، وتراجعت صلاحيات الخلافة أمام تسلط الوزراء. وأوقفت الدعوة له باليمن، وأصبحت الخطبة في الجوامع تذاع باسم الطيب ابن الأمر، فأصبحت الرعاية الفاطمية ثلاثة رعايا: مستعلية ونزارية وطيبية. وزاد الطين بلة أنه أول وكيل عن الخليفة، وليس خليفة يوصي بالإمامة والخلافة لأصغر أولاده سنأ مع وجود ولدين كبيرين هما أبو الحجاج يوسف وهو أبو الخليفة العاضد، وأبو الأمانة جبريل. بينما الخلفاء السابقون الذين تسنّموا الخلافة مع عدم أحقيتهم بها، فكان وصولهم إليها بضغط من الوزراء ومصالحهم كوصول المستعلي والحافظ نفسه.

ال خليفة الفاطمي الثاني عشر

الظافر بأمر الله، أبو المنصور إسماعيل ٥٢٧ هـ - ٥٤٩ هـ

ببيع بالإمامة والخلافة يوم وفاة والده، وكان له من العمر سبع عشرة سنة. ولد سنة ٥٢٧ هـ. وتوفي سنة ٥٤٩ هـ، ودامت إمامته وخلافته من سنة ٥٤٤ هـ حتى سنة ٥٤٩ هـ.

يخبرنا المقرئ أن أول عمل قام به هذا الخليفة الغرّ اليافع، أنه صلى العشاء بالقصر واستدعى مسؤول التعذيب بعد اعتقاله ابني الأنصاري وطلب تعذيبهما أمامه حتى الموت.

يتساءل القارئ عن هذا الخليفة، الذي يعتبر معصوماً، بالنسبة لمريديه وأتباعه، فما شأن هذه العصمة التي تبدأ بقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق. وقد كان هذا الخليفة وصمة عار في تاريخ الخلفاء الفاطميين والدولة الفاطمية لأسباب سنذكرها لاحقاً.

وأول وزير للظافر كان ابن مصال، وما أن كُلف بالوزارة حتى قامت قيامة والي البحيرة والإسكندرية علي بن السلار وطالب الخليفة بهذا المركز له. وجهز علي بن السلار عباساً ابن زوجته بجيش كثيف ومعه من المقدمين الأشداء طلائع بن رزيك، وهاجموا

ابن مصال وقتلوه. ويروي المقرئزي أنَّ الصراع على الوزارة، كان فيه نهاية الدولة الفاطمية، لأنَّ المعركة بين ابن مصال وعلي ابن السلار «يقال أنَّه بلغت عدَّة القتلى سبعة عشر ألف قتيل» وكلَّهم من عساكر الدولة.

وأصدر الظافر مرسوماً بتعيين علي ابن السلار وزيراً، وكان الأخير على مذهب أهل السنة، فشذَّ من أزر أصحاب مذهبه. ولكن الحذر المتبادل ساد بين الوزير والخليفة، وأخذ كلَّ واحد يتربَّص بالثاني والنتيجة معروفة، فالوزير لا يستطيع أكثر من خلع الخليفة وتعيين غيره لأن قتله سيُجاب به بالعامَّة والرعية. أما الخليفة إذا قتل الوزير فليس هناك من يسأل أو يحاسب الخليفة.

وكان الخليفة الظافر قد جنَّد ٥٠٠ رجلاً جعلهم من حرسه الخاص، ويطلق عليهم المؤرِّخون مصطلح: «صبيان الخاص». فما كان من الوزير علي ابن السلار إلا أنَّ أوقع بهم وقتلهم كلَّهم.

وتدخَّلت والدَّة عباس بن أبي الفتوح مع الخليفة الظافر لمالها عليه من دالة، وطلبت منه تعيين حفيدها نصر بن عباس والياً على القاهرة فأصدر الخليفة مرسوماً يقضي بتعيينه والياً على القاهرة ولقبه بـ عضد الخلافة ناصر الدين نصر بن عباس.

ويروي لنا المقرئزي مجيء أسامة بن منقذ إلى مصر ونزوله ضيفاً مكرماً على الخليفة الظافر، وذهابه مع صديقه عباس بن أبي الفتوح في الحملة المصرية على الفرنجة دعماً لثغر عسقلان، ومعهم ولده نصر بتكليف من الوزير العادل بن السلار. «فلما نزلوا بعد رحيلهم من القاهرة على بلبيس، تذكر عباس وأسامة مصر وطبيها،

مقابل ما هم خارجون إليه من مقاساة السفر ولقاء العدو. فتأوه عباس أسفاً على مفارقتة لذاته بمصر، وأخذ يلوم العادل ابن السلار (معلمه) ويقبح عليه، لأن بسببه وتدبيره كانت هذه السفرة. فقال له أسامة (بن منقذ): لو أدركت كنت أنت السلطان مكان العادل. فقال له عباس: وكيف لي بذلك؟ فقال له أسامة: هذا ولدك ناصر الدين (نصر) بينه وبين الخليفة مودة عظيمة، فخاطبه على لسانه أن تكون سلطان مصر موضع عمك (زوج أمه). فالخليفة يحبك ويكره عمك. فإذا أجابك الخليفة، فاقتل عمك. فوقع هذا الكلام من عباس بموقع وقبله واستدعى ابنه نصر وأسر إليه بما تقرّر بينه وبين أسامة وسيّره سراً إلى القاهرة»^(١).

وكان العادل بن السلار يخاف على نفسه من الخليفة الظافر، ويحتاط منه ومن كلّ المقرّبين منه، ولما شعر بالمودة التي تجمع بين نصر وبين الظافر، قال لزوجته (أم عباس) ولولدها عباس: «والله ما ينبغي اجتماع نصر بالخليفة، فقولاً له أن يقصر من اجتماعه به، فربما نتج من شابين ما لا ينبغي».

وصل نصر إلى القاهرة ودخلها سراً دون أن يشعر به عم أبيه (العادل بن السلار) وعرض الفكرة على الظافر فوافقه عليها وزوّده بما يريد لتنفيذ العملية.

ولم يكن الدخول إلى بيت ابن السلار بالأمر الصعب على الفتى نصر بن عباس، فزوجة كبير الوزراء جدّته فدخل البيت وكمن له

(١) اتعاظ الحنفا، الثالث، ص ٢٠٤.

وقتلته، وأرسل الخبر لوالده بواسطة الحمام الزاجل، الذي عاد إلى القاهرة في اليوم الثاني لمقتل عمه ابن السلار.

وحمل نصر رأس ابن السلار إلى الظافر، فسرّ كثيراً لرؤيتها، وعرضها فترة ليراها الناس، ثم «حملت إلى خزانة الرؤوس في بيت المال، وجعلت فيها مع الرؤوس».

ويروي لنا المقرئزي مخالطة الخليفة الظافر لنصر بن عباس، وكثرة كرمه وهداياه وإغداقاته عليه، منها «صينية من ذهب فيها ألف حبة ما بين لؤلؤ وياقوت أحمر وأصفر وزمرد، وصينية فيها عشرون ألف دينار، وصينية فيها خمسون ألف دينار وأشياء وحوائج». وقد اعتاد المقرئزي أن يشير إلى مصادر معلوماته، خاصة إذا كانت لها أهمية وفيها نكهة مختلفة. لكن للأسف أورد خبر علاقة نصر بن عباس الصنهاجي مع الخليفة الظافر التي انتهت بمقتل الاثنين في أكثر من خمس صفحات من القطع الكبير دون أن يشير إلى مصادره، على غير عادته. وقد أفصح في هذه الصفحات، أنّ العلاقة التي كانت تربط الخليفة الظافر بنصر هي علاقة لواط، ويروي لنا المقرئزي كيف قال أسامة بن منقذ لنصر بن عباس عندما جاء يخبر والده بأنّ الخليفة ولّاه ناحية قليوب. فقال له ابن منقذ: «ما هي بمهر كغالية»^(١). ممّا أزعج والده. ويقول لنا المقرئزي أنّ أسامة أشار على عباس بواحد من حلّين: إما قتل الخليفة وإما قتل ولده نصر، وبالتأكيد وافق عباس على قتل الخليفة وبدأ يعدّ العدة لذلك بالاتفاق مع ولده نصر.

(١) راجع: م.س. ص ٢٠٩.

ويروي لنا المقرئزي أَنَّ الخليفة الظافر كان يتخفى ويتنكر بلبسه
ويذهب لينام في منزل نصر، فاتفق عباس الصنهاجي مع ولده نصر
على قتله «فقتله وقتل الخدم الذين معه، ورمى بهم في جب (بئر)
عنده، وغطى رأس الجب بقطعة رخام بيضاء، فصارت من جملة
رخام المجلس».

وهذا الموضوع الذي يسيء إلى الإسلام الشيعي والتشيع في
كل عصر ومصر، أفضل أن أناقشه وأرى رأي المؤرخين المدلسين
على الفاطميين وعلى الشيعة، قبل رأي المعاصرين للظافر
ولنصر بن عباس الصنهاجي.

يقول أبو المحاسن ابن تغري بردي: «أقام الظافر خليفة إلى
أوائل سنة ٥٤٩ هـ، ولم يصف بين الخليفة والوزير عيش قط،
وجرت بينهما أمور، وثبت عند ابن السلار كره الخليفة له، فاحترز
على نفسه منه، وأقام على هذه الحال أربع سنين وبعض الخامسة،
حتى قتله نصر بن عباس اغتيالاً في داره. وذكر أن ذلك تم بموافقة
الخليفة الظافر على ذلك، لأن نصراً هذا، كان قد اختلط بالخليفة
اختلاطاً دائماً، أدى إلى حسد أكثر أهل الدولة له. وخشي عباس على
نفسه من ولده نصر المذكور لما تم منه في حق ابن السلار. فرمى
بينه وبين الخليفة بموهومات قبيحة، حتى قتل نصر الخليفة أيضاً،
ودفنه في داره التي بالسيوفيين، وقتل استاذين معه»^(١).

وبالرغم من تحامل أبو المحاسن ابن تغري بردي على

(١) النجوم الزاهرة، الخامس، م.س. ص ٢٨٤.

الفاطميين، فقد نعت ما قذف به المؤرخون الخليفة الظافر بأنه «موهومات قبيحة» ابتدعها عباس الصنهاجي لكي يزيح ولده نصر من دربه.

أما ابن خلّكان فقد روى ما رواه المقرئ وقال: «وكان من أحسن الناس صورة، ولما قتله نصر حضر إلى أبيه عباس وأعلمه بذلك من ليلته، وكان أبوه قد أمر بقتله، لأن نصراً كان في غاية الجمال، وكان الناس يتهمونه به»^(١).

ويحتار القارئ، فالظافر كان من أحسن الناس صورة ونصر كان في غاية الجمال، فمن يلوط بمن. وإذا كان الظافر يقصد بيت نصر متخفياً للقائه، فلماذا يصحب معه اثنين من المستشارين (الاستاذين)؟

وينهي ابن خلّكان تعريفه بالظافر بأنه بنى «الجامع الظافري الذي بالقاهرة، داخل باب زويلة، وهو منسوب إليه وهو الذي عمره، ووقف عليه شيئاً كثيراً على ما يقال».

فيحتار القارئ هل الخليفة الظافر لوطي أم معمر للجوامع وهو دون العشرين من العمر؟

ويقول الحافظ ابن كثير: «كان الظافر شاباً لعاباً منهمكاً في الملاهي والقصف، فدعاه نصر إليه، وكان يحب نصراً، فجاءه متنكراً معه خويدم فقتله نصر وطمره، وكان من أحسن أهل زمانه»^(٢).

(١) وفيات الأعيان، الأول. م.س. ص ٢٣٧.

(٢) شذرات الذهب، الرابع، ص ١٥٢.

أما ابن الأثير فهو كان أوضح المؤرخين وذكر أنَّ الظافر «يفعل بنصر» ونقل الخبر عن أسامة بن منقذ. فلنر ما الذي قاله أسامة في كتابه الاعتبار.

يقول أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار: «فلما نام العادل (ابن السلار) أعلمه ذلك الأستاذ بنومه، فهجم عليه (نصر) في البيت الذي هو نائم فيه ومعه ستة نفر من غلمانه فقتلوه، رحمه الله»^(١).

يترجم أسامة بن منقذ على العادل بن السلار في الوقت الذي يروي لنا فيه المقرئ أن أسامة هو الذي أقنع عباس الصنهاجي بقتله.

ويروي لنا ابن منقذ أنَّ الخليفة الظافر يبدأ بتحريض نصر على والده، وإطماعه بالوزارة مكان أبيه فيقول: «وشرع الظافر مع ابن عباس (نصر) في حمله على قتل أبيه، ويصير في الوزارة مكانه، وواصله بالعطايا الجزيلة». ويعدُّ لنا ابن منقذ الهدايا التي ذكرها المقرئ نقلًا عنه والتي أشرنا إليها، بطريقة يجعلنا نستنتج أنَّ أسباب هذه الهدايا، تحريضه على قتل أبيه، وليس بسبب العلاقة القذرة التي الصقها به المؤرخون الحاقدون.

ويروي لنا ابن منقذ «أنه كان مع نصر بن عباس لصيقاً به، لا يفسح له في الغيبة عنه ليلاً ولا نهاراً، ينام ورأسه على رأس مخدة».

ويروي لنا أسامة بن منقذ، كيف أنَّ نصرًا بن عباس فاتحه بعملية قتل والده، فردعه عن هذا الأمر وأقنعه بقتل الظافر.

(١) كتاب الاعتبار، أسامة ابن منقذ، ط ١، بيروت دار الفكر الحديث، سنة ١٩٨٨، ص ٢٤.

وعندما يروي لنا عملية اغتيال الظافر، لا يشير إلى أي علاقة مخزية بينهما بل يقول: «وكانا يخرجان في الليل متنكرين، وهما أتراب، وسنّهما واحد، فدعاه إلى داره، وكانت في سوق السيوفيين، ورثب من أصحابه نفرأ في جانب الدار. فلما استقرّ به المجلس، خرجوا عليه فقتلوه. ورماه في جب في داره، وكان معه خادم أسود لا يفارقه أبداً يقال له سعيد الدولة فقتلوه»^(١).

فإذا كان أسامة بن منقذ، وهو سبب كل هذه «البلاوي» لم يشر إلى هذه العلاقة المخزية، فمن أين أتى بها بقية المؤرخين.

أما ابن الطوير وهو من موظفي الخليفة الظافر، وعاش أحداث هذه الحقبة لحظة بلحظة وأرخ لها في كتابه «نزهة المقلتين». يقول إنَّ عباساً استفزَّ ابنه نصراً حيث قال له: «قد أكثرت من ملازمة الخليفة، حتى تحدّث الناس في حقك بما أزعج باطني، وربما يتناقل الناس ذلك ويصل إلى أعدائنا منه. فأخذت نصر حدة الشباب وقال لوالده: أيرضيك قتله، فأجاب عباس: أزل التهمة عنك كيف شئت، فخرج الخليفة ليلة إلى نصر بن عباس فقتله بالجماعة الذين قتل بهم ابن السلار وأستاذين كانا معه وطمرهم في بئر هناك»^(٢).

أسامة بن منقذ قال إنَّهما تربان وسنّهما واحد وكان يخرجان معاً متنكرين، وابن الطوير قال إنَّ عباس استفزَّ ولده نصراً للتخلص من الخليفة.

(١) م.س. ص ٢٦.

(٢) نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، ابن الطوير، تحقيق أيمن فؤاد السيد، ط ١، طبعة المعهد الألماني، سنة ١٩٩٢، ص ٦٧.

ونحن نعلم عبر دراستنا المستفيضة لتاريخ كلّ الخلفاء الفاطميين، وبالأخصّ المستنصر الذي وصل به الأمر أن يجلس وحيداً في القصر على حصيرة، ويقتات بفتات مبلول بالماء ترسله إحدى قريباته له، ثم قيض له باستعادة كل مؤسسات الدولة.

وكيف أنّ «أبو الميمون الحافظ عبد المجيد»، كم مرّة سجنه وزرأه في قصره ولم يستطيعوا القضاء عليه. ونتساءل كيف استطاع نصر اغتيال الظافر؟ والجواب سهل. نصر بن عباس من أهل السنة، وبالتأكيد سيكون أعوانه من أهل السنة، أي أنّهم لا يعترفون بإمامة أو خلافة الظافر، ولا يعني لهم شيئاً.

فكان من السهل تدبير عملية اغتياله على يد أعوان سنيّين، أما لو كان أعوان وصبيان نصر بن عباس من الشيعة الإسماعيلية، أو الإمامية، فهم لا يجراؤن على الإقدام على اغتيال الخليفة، فهو بالنسبة للشيعة الإمامية، ابن بنت رسول الله، فاطمة الزهراء، وبالنسبة للشيعة الإسماعيلية، الإمام المعصوم ابن الإمام المعصوم.

من هنا كانت قضية اغتيال الظافر، لغز وجب إلقاء الضوء عليه ومناقشته من جميع جوانبه، لأنّ إلصاق هذه التهمة به هي إهانة لأهل بيت رسول الله (ص) وعترته.

ويروي لنا المؤرّخون المتقدمون والمتأخرون أنّ عباساً وولده نصرأ قد قتلا الظافر وأخويه الكبيرين وأتيا بولده عيسى وكان له من العمر سنتان وبايعوه بالخلافة ولقبوه بالفائز بنصر الله.

ال خليفة الفاطمي الثالث عشر

الفائز بنصر الله، أبو القاسم، عيسى ٥٤٤ هـ - ٥٥٥ هـ

ولد الفائز سنة ٥٤٤ للهجرة وبويع بالخلافة في نفس اليوم الذي قتل فيه أبيه سنة ٥٤٩ للهجرة.

وقد حمله عباس على كتفه وطلب من أعمامه - (أبو الأمانة جبريل وأبو الحجاج يوسف) البيعة لابن أخيهما الظافر فتمنعاً فقتلتهما، وخرج برأسيهما إلى خارج القصر، يعني أن عباساً قتل أولاد الحافظ جميعهم، فغضبت الجماهير المصرية على عباس وابنه، وقامت أخت الحافظ وأرسلت إلى طلائع بن رزك «أبو الغارات» والي الأشمونين، بشعور نساء القصر، تستنجد به على عباس وابنه.

ووجد عباس الصنهاجي نفسه في مأزق، فبدأ يعدّ العدة لمواجهته. خاصة بعد أن أحسّ بكره المصريين له فقد «اتفق أنه مرّ يوماً فرمي من طاقة ببعض الشوارع بهاون، ورُمي مرة بقذرة مملوءة طعاماً حاراً، فقال: ما بقي بعد هذا شيء، وعزم على الفرار فلم يقدر، وأغلقت أبواب القاهرة»^(١).

(١) اتعاظ الحنفاء، الثالث، م.س. ص ٢١٦.

وحاول الفرار فلم يستطع، ولم يترك له أبو الغارات طلائع بن
رُزَيْك مجالاً للهرب، خاصة بعد أن تفرَّق عنه وعن ابنه معظم العسكر
والتحق بأبي الغارات.

وهاجم ابن رُزَيْك بيوتهم «فانجلى الأمر عن فرار عباس وولده
نصر وأسامة بن منقذ، فذهب الناس دورهم».

وروى المقدسي أبو شامة صاحب كتاب الروضتين نقلاً عن
أسامة بن منقذ يصف هروب عباس فقال: «كان لعباس أربعمائة
جمل تحمل أثقاله ومائتا بغل، ومائتا جنيب (فرس أصيلة). فلما أراد
الخروج من مصر. وقد قام عليه أهل مصر وعسكريتها، فارسهم
وراجلهم، تقدّم بشدّ خيله وبغاله وجماله لِيَحْمَلَ ويخرج. فلما صار
الجميع على باب داره، وقد ملأت الفضاء أمام قصر السلطان
(عباس). خرج غلامه عنبر، كان على أشغاله، وغلمانهم كلّهم تحت
يديّهم. فقال للجَمَالين والركابية: روحوا إلى بيوتكم وسيبوا الدواب.
ففعلوا ذلك، وانحاز عنبر إلى المصريين يقاتله معهم». ويروي لنا
أسامة، أنّه لولا وجود الدواب حاجزاً بينه وبين المصريين «لطفاً من
الله تعالى فإنّها سدّت الطريق ومنعتهم من الوصول إليه، وهم في
خلق كثير ونحن في قلّة ما تبلغ خمسين رجلاً، وغلمان عباس
ومماليكه في ألف ومائتي غلام بالخيول والجياد والسلاح التام،
وثمان مائة فارس من الأتراك، خرجوا كلّهم من باب القصر
(الوزاري)، ووقفوا في الفضاء الذي بينه وبين رأس الطابية (ساحة)
فراراً من القتال».

ويروي لنا أبو شامة كيف أنّ حصار المصريين لعباس وعسكره

استمر أكثر من ستة أيام، «قاتلوه فيها أشد قتال، يقاتلهم من الفجر إلى الليل، فإذا نزل أمهلوه إلى منتصف الليل» ثم عادوا القتال. وقد استطاع عباس الهرب بمساعدة بعض العربان، ولكنه وقع في يد الفرنجة، «فقتلوا عباساً وابنه الأوسط حسام الملك وأسروا ابنه الأكبر ناصر الدين (نصر)، وأخذوا نساءه وخزائنه.

أما أسامة بن منقذ فقد روى في كتابه «الاعتبار» أنه جرح في هذه الواقعة ونجا مع من نجا من الأتراك والغلمان وفرّ إلى دمشق.

وبعد أن هدأت الحال، أجلس الفائز على كرسي الحكم وأصدرت السجلات بتكليف أبي الغارات طلائع بن رُزّيك بالوزارة ولقبه فيها بالملك. وكان هذا اللقب هو أول لقب ينعت به وزير فاطمي. فأصبح اسمه «الملك الصالح - أبو الغارات - طلائع بن رُزّيك».

ولكل زمان دولة ورجال، ولما خلت الساحة الفاطمية من الرجال، وتسَلَّط عليها أوباش الأرمن وأجلاف الأتراك، وسيطر العنصر الأعجمي على العنصر العربي، المسلم والنصراني، بدأت هذه الدولة بالعد التراجعي، وكان العداد هذه المرة، سريعاً على يد آل رُزّيك. فأول عمل قام به أبو الغارات بعد تثبيت أمره «مال على الموظفين وأخذ أموالهم، وتتبع أرباب البيوتات والنعم والأعيان، فسلبهم نعمهم. وقبض على عدة من أمراء الدولة وقوادها فقتلهم، دون وجه حق، وعلى عدة من أرباب العمائم (الدعاة والعلماء والأشراف) فقتلهم»^(١).

وما أن انتهى من أمراء وقواد وأعيان القاهرة حتى ارتدّ إلى

(١) اتعاظ الحنفاء، الثالث، م.س. ص ٢٢١.

أمراء الأطراف. فبدأ يناكدهم، ويطلب منهم ثمناً لولاية كل منهم على طريقة الأتراك العثمانيين فمن يدفع أكثر من الولاية يتولاها. «وجعل لكل ولاية سعراً ولمدة ستة أشهر فقط، فتضرر الناس من كثرة تردد الولاة عليهم»^(١).

وقد بلغت هذه الأمور إلى الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله، «فكتب عهداً لنور الدين زنكي، صاحب دمشق يوليه فيها مصر والساحل الشامي، وطلب منه الزحف وأمره بالمسير إليها لما بلغه قتل الظافر وإقامة الفائز من بعده وهو صغير وقيل له أن أحوال الدولة بمصر قد اختلت»^(٢).

لكن نور الدين محمود زنكي، اتبع طريقاً جديدة في الدخول إلى مصر وكشف أحوالها، حيث يخبرنا المقرئزي أنه أرسل زين الحجّاج رسولاً من قبله لمصر فاستقبله أبو الغارات أحسن استقبال «وجهه بجواب ومعه هدية فيها من الأسلحة وغيرها ما قيمته ثلاثون ألف دينار، ومن العين (الذهب) ما مبلغه سبعون ألف دينار تقوية له على جهاد الفرنج. وكتب له كتاباً ضمنه قصيدة يحرضه فيها على قتال الفرنج»^(٣).

ولم تطل فترة حكم الفائز وهو حكم صوري لأنه مات وكان له من العمر إحدى عشرة سنة وكانت السلطة الحقيقية بيد كبير الوزراء أبي الغارات طلائع بن رزّيك. وقد حدّثنا المقرئزي عن فترة حكم ابن

(١) م.س. ص ٢٢٢.

(٢) م.س. ص ٢٢٣.

(٣) م.س. ص ٢٢٤.

رُزِيك لحظة بلحظة ويوماً بيوم، وقد قضاها كلها في حرب الفرنجة على كل الجبهات، جبهة الأردن والشام والساحل الفلسطيني والساحل المصري وصقلية ولم يخسر أبو الغارات أية معركة مع الفرنجة.

وعن الفائز قال المقرئ: «لم يلتذ بالخلافة ولا رأى فيها خيراً. فإن أباه لما قُتل وبكر عباس إلى القصر، وقتل أخويه وابن عمه لينفي التهمة عن نفسه وعن ابنه، دخل القصر واستدعى ابن الظافر هذا، وحمله على كتفه وله من العمر نحو الخمس سنين. ووقف به في صحن القاعة، وأمر الأمراء فدخلوا عليه. فلما أصبحوا في القاعة قال لهم: هذا ابن مولاكم، وقد قُتل أبوه وعماه والواجب، إخلاص الطاعة لهذا الطفل. فقالوا بأجمعهم: سمعنا وأطعنا. وصاحوا صيحة اضطرب منها الطفل وداخله من تلك الصيحة، مع ما شاهده من رؤية عميه والخدّام وهم في دمائهم، ما خبل عقله. وبال على كتف عباس، فسيّروه إلى أمه، وأقام مختلاً يصرع، وجدّته تكفله (تراعيه). وركب في الأعياد مغرراً به. وخطب عنه قاضي القضاة وهو معه على المنبر. ثم وزر الصالح (ابن رُزِيك) بعد عباس، فاستبدّ بجميع الأمور وليس له معه أمر ولا نهْي»^(١).

وهكذا قاربت الدولة الفاطمية لأن تصبح جسماً بدون رأس يدبر شؤونها. وأصبح منصب الوزارة مطمعاً لكل أبق وشاذ، وفي الصراع على هذا المنصب فصل الرأس عن الجسد.

(١) اتعاظ الحنفاء، الثالث، ص ٢٢٩.

الباب الثامن

ال خليفة الفاطمي الرابع عشر

العاقد لدين الله، أبو محمد، عبدالله ونهاية الدولة الفاطمية ٥٤٦ هـ -
٥٦٩ هـ

يروى لنا المقرئزي طريقة تسمية العاقد إماماً وخليفة وهذه الرواية تسلط لنا الضوء على أخطر عملية لدى المسلمين الشيعة بكل طوائفهم ومذاهبهم، فالإمام يجب أن ينص عليه والده، والإمام عند الشيعة معصوم، يملك ما تملكه شيعته وله القرار الذي لا يناقش ولا يرد في أموالهم وأرواحهم، قلنر رواية المقرئزي:

يقول تقي الدين أحمد: «لما مات الخليفة الفائز، ركب الصالح بن رزك إلى القصر بثياب الحزن، واستدعى زمام القصر (مدير المراسم في القصر). وسأله عن يصلح في القصر للخلافة. فأجابه الزمام: ههنا جماعة. فقال له رزك: عرفني بأكبرهم. فسمى له واحداً، فأمر بإحضاره. فتقدم إليه علي بن مزيد وقال له سرّاً: لا يكن عباس أحزم منك رأياً حين اختار الصغير، وترك الكبير واستبد بالامر. فسمع نصيحته وقال للزمام: أريد منك صغيراً. فقال له الزمام: عندي ولد الأمير يوسف (أبو الحجاج بن الحافظ الذي قتله عباس الصنهاجي) وهو دون البلوغ. فقال له: علي به، فأحضر ابن الأمير

يوسف واسمه عبدالله بعد أن ألبس عمامة لطيفة وثوب مفوط (فيه فوط). وهو مثل الوحش، أسمر كبير العينين، عريض الحاجبين، أخنس الأنف (مرتفع الأنف) واسع المنخرين، كبير الشفتين، فأجلسه ابن رزّيك في منور القصر. وكان عمره إحدى عشرة سنة. وألبسه بذلة خضراء وهي لباس ولي العهد إذا حزن على من تقدّمه^(١).

وبعد دفن الفائز وهو ابن عم العاضد، ألبسه ابن رزّيك ثياب الخلافة وأجلسه في القصر «وبايعه، ثم بايعه الناس والأمراء والقواد». ونعته العاضد لدين الله.

ويروي لنا المقرئ أن طلائع بن رزّيك «استولى على الدولة، وتمكّن منها، فنقل جميع أموال القصر إلى دار الوزارة واحتكر الغلات وأكثر من قتل أمراء الدولة».

وبدا يظهر في سماء السياسة المصرية نجم شاور بن مجير السعدي، بعد أن تقرّب من الوزير ابن رزّيك واكترى منه ولاية الصعيد. وطلب ابن رزّيك من العاضد أن يتزوّج ابنته طمعاً من أن تنجب من العاضد ولداً يكون خليفة فيما بعد حتى تجتمع له الخلافة والوزارة فرفض العاضد فحبسه في القصر، ولم يطلق سراحه حتى قبل، فعقد له عليها.

وازداد ابن رزّيك ظلماً للناس وللأعيان وللأشراف و «ثقلت وطأته وكثرت مضايقاته لأهل القصر» فقامت عمّة العاضد، الصغرى واسمها ست القصور وعملت على قتله. وقد رثاه الفقيه عمارة اليمني بقصيدة منها:

(١) اتعاظ الحنفا الثالث. ص ٢٤٤.

شَخَصَ الأَنَامُ إِلَيْهِ تَحْتَ جَنَازَةٍ خُفِضَتْ بِرَفْعَةِ قَدَرِهَا الأَقْدَارُ
وَكَأَنَّهَا تَابُوتُ مُوسَى أَوْدَعَتْ فِي جَانِبِيهِ سَكِينَةً وَوَقَارُ
مَاتَ الوَصِي بِهَا وَحَمَزَةُ عَمَّهُ وَابْنُ البَتُولِ وَجَعْفَرُ الطَّيَّارُ
وَالْبَيْتُ الأَخِيرُ مِنَ المَرثِيَةِ يَشِيرُ إِلَى أَنَّ ابْنَ رُزَيْكٍ مِنْ نَسْلِ الأَثَمَةِ
الأَطْهَارِ. مَعَ أَنَّ كَتَبَ التَّارِيخَ لَمْ تَشْرُ إِلَى نَسَبِهِ الطَّالِبِي، بَلْ أَشَارَتْ
إِلَى أَنَّهُ كَانَ شِيعِيًّا اثْنِي عَشْرِيًّا إِمَامِيًّا، مِنْ أَرْمِينِيَا فَهُوَ يَعْتَرِفُ
بِالْخُلَيْفَةِ الفَاطِمِي كَخُلَيْفَةٍ وَلَيْسَ كإِمَامٍ. فَالإِمَامُ عِنْدَهُ هُوَ الْحَجَّةُ
الْمُنْتَظَرُ (عج).

وَقَالَ عَنْهُ عِمَارَةُ الِیْمَنِيِّ أَنَّهُ «لَمْ تَكُنْ مَجَالِسَ أَنْسَه تَنْقُطِعُ إِلَّا
بِالْمَذَاكِرَةِ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ وَفِي وَقَائِعِ الْحُرُوبِ مَعَ
أُمَرَاءِ دَوْلَتِهِ. وَكَانَتْ بِهِ صِفَتَانِ صِفَةٌ لَهُ وَصِفَةٌ عَلَيْهِ، فَمَا هُوَ عَلَيْهِ،
فَرَطُ الْعَصْبِيَّةِ فِي الْمَذْهَبِ (الشِّيعِيِّ الْإِثْنِي عَشْرِيِّ)، وَجَمْعُهُ الْمَالِ
وَاحْتِجَانُهُ، وَهُوَ غَرَامُهُ وَأَشْجَانُهُ، وَمِيلُهُ عَلَى جَنْدِهِ وَإِضْعَافُهُمْ وَالْقَصْ
مِنْ أَطْرَافِهِمْ، أَمَّا الصِّفَةُ الَّتِي لَهُ، فَكَانَ مُرْتَاضاً قَدْ شَمَّ أَطْرَافَ
المَعَارِفِ وَتَمَيَّزَ عَنْ أَجْلَافِ المُلُوكِ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ إِلَّا خَشُونَةٌ،
وَكَانَ شَاعِراً مُحِبّاً لِلأَدَبِ وَأَهْلِهِ، يَكْرُمُ جَلِيسَهُ وَيَبْسُطُ أَنْيَسَهُ. لَكِنْ
كَرَّمَهُ كَانَ أَقْرَبَ مِنَ الْجَزِيلِ إِلَى الْهَزِيلِ»^(١).

وَبَعْدَ وَفَاةِ الصَّالِحِ رُزَيْكٍ، اسْتَصْدَرَ وَلَدَهُ رُزَيْكُ بْنُ طَلَّاحِ بْنِ
رُزَيْكٍ سَجَلَاءً مِنَ الْعَاضِدِ، قَضَى بِتَكْلِيفِهِ بِالْوِزَارَةِ. وَسَمِيَ مَجْدُ
الإِسْلَامِ أَبُو شَجَاعِ رُزَيْكُ بْنُ الصَّالِحِ.

(١) النكت العصرية، م.س. ص ٤٨.

ويروي المقرئ أن أبا الغارات طلائع بن رزّيك قد أوصى وهو على فراش الموت بعدم التعرّض لشاور بن مجير السعدي. ولكن رزّيك لم يعمل بنصيحة والده، وصرّح أمام مساعديه بأنه سوف يجعله «يطأ بساطه».

ولم يمر شهر واحد حتى جهر شاور بالعصيان وشقّ عصا الطاعة على كبير الوزراء. فما كان من رزّيك إلا أن أصدر قراراً بعزله من ولاية قوص.

فما كان من شاور إلا أن خرج من قوص وبدأ يجمع العربان والعشاير والعساكر الحاقدة على رزّيك وقوّاده ومماليكه، الذين ضج المصريون من ظلمهم وجشعهم، حتى قال بعض الشعراء فيهم:

أمنتُم يا بني رزّيك جهلاً فذاك الأمر يتبعه الأمانى
أباد الله دولتكم سريعاً فقد ثقلت على كتف الزمان
وعندما وصل شاور إلى مشارف القاهرة، ركب رزّيك في ثلاثة آلاف فارس، وما أن التقى الجمعان حتى «وقع الصائح في بني رزّيك» لأنّ قواد عسكرهم قد انشقّوا عن الوزير وانحازوا إلى عسكر شاور. وكان أولهم القائد ضرغام وأخوته ملهم وحسام وهمام، فأسقط في أيدي بقية عسكر رزّيك، فهرب رزّيك وبقية أعوانه خارج القاهرة ولكن الدهر دوّار، فقد قبض عليه بعض العربان وأعادته إلى شاور «مكبلاً بالحديد» ثم قتله مع أخيه جلال الإسلام. «وانقطع بنو رزّيك، وبزوالهم زالت الدولة (الفاطمية)»^(١).

(١) اتعاظ الحنفا الثالث، م.س. ص ٢٥٩.

وقد اختلف رزيك عن والده أبي الغارات في موقفه من الصليبيين، فقد قضى والده مدة حكمه في شن الغارات الواحدة تلو الأخرى، وقد أشرنا إليها في زمن الظافر والفائز، وستتوسّع في شرحها حين الحديث عن موقف الفاطميين من الحروب الصليبية. لكن رُزَيْك «قد قرّر للفرنجة في كلّ سنة على مصر، ثلاثة وثلاثين ألف دينار يحملها إليهم».

وبعد مقتل رُزَيْك بن طلائع، جلس شاور في دار الذهب، وتقدّمت منه الشعراء والخطباء والناس تهنيّ، ويخبرنا المقرئزي، أنّ ضرغام وأخوته، امتعضوا من شاور وبدأوا يعدّون العدة للتخلّص منه قبل تولّيه الوزارة.

وبدأ شاور يهادن الدول المجاورة فجهز الخلع والهدايا إلى نور الدين محمود زنكي في الشام، ثم ضاعف رواتب الموظفين والقوادر عشر مرات.

وبدأ ضرغام وأخوته يجمعون الأخبار والأعوان فتخوّف منهم شاور. وبسرعة غير متوقّعة انقسم العسكر الفاطمي فرقتين: ضرغام ومن معه فرقة، وحرب قائد عسكر شاور فرقة. وبدأت المناكفات والمنازعات، حتى انتهت بفرار شاور إلى الشام. واستيلاء ضرغام على الوزارة، وقد روى لنا المقرئزي أنّ أخاه هماماً «صار كأنّه مشارك لأخيه في الوزارة، كلّ منهما يوقّع ويُقطّع» وهذه الملاحظة التي أبدّاها المقرئزي دليل فقدان السلطة من يد الخليفة الفاطمي وبداية نهايته.

أما شاور فقد وصل إلى دمشق «وترامى على نور الدين». وبعد أن استقرّ ضرغام في الحكم، أكمل على ما تبقى من أمراء الدولة الفاطمية وقوادرها، فأعدّ لهم دعوة وقتلهم جميعاً.

وفي السنة التالية لحكمه، قبض على سبعين قائداً وأميراً من أمراء الدولة الفاطمية المستجدين على مسرح السياسة، «وأخرجهم ليلاً وضرب أعناقهم، فاختلت الدولة بقتل رجالها وذهاب فرسانها»^(١).

أما شاور فقد بدأ يشرح لنور الدين زنكي حالة الدولة الفاطمية المتضعضة، ويقنعه بتجهيز حملة بقيادته لاحتلال مصر وإياه في حال عودته إلى الوزارة، بثلاث دخل مصر، غير الإقطاعات التي سيهبها لعساكره، ويكون معه من أمراء الشام من يقيم معه في مصر وتكون الخطبة لنور الدين، لكن نور الدين كان كما قال المقرئزي: «يقدم رجلاً ويؤخر أخرى»، دون أن يقصر في تكريم شاور ورعايته.

وبعد أخذ وردّ، قرّر نور الدين زنكي إرسال حملة إلى مصر هدفها الظاهر، مساعدة الفاطميين في الدفاع عن مصر تجاه الصليبيين، وهدفها الباطن، احتلال مصر وهدم كيان الدولة الفاطمية. وجهز نور الدين زنكي الحملة بقيادة أسد الدين شيركوه / عم صلاح الدين / ووالد صلاح الدين / نجم الدين أيوب / بصحبة الوزير الهارب شاور.

ووصل الخبر إلى الوزير ضرغام بواسطة الحمام الزاجل الآتي من والي بلبيس / أخوه حسام / بوصول شاور مدعماً بالعسكر الشامي.

(١) م.س. ص ٢٦٤.

فأرسل أخاه همّام كطليعة صدامية لملاقاة شاور وأسد الدين شيركوه، فالتقى الجمعان «فَجُرِحَ همّام، والتفت وراءه، فلم يَرِ أحداً من عسكره، فكان أقربهم بالركوب على فرسه وانهزموا أجمعهم. وغنم العسكر الشامي جميع ما كان معهم»^(١).

ووقعت معركة ثانية في أرض الطبّالة وكانت لضرغام على شاور والعسكر الشامي.

وأقدم ضرغام على مصادرة الأموال المودعة في المصرف المخصّص لأيتام المصريين لتقوية وضعه المالي في حربه ضد شاور «فكره الناس منه أخذه أموال الأيتام، مع، ما سبق من قتل الأمراء وغيرهم، وعلموا عجزه عن مقاومة شاور»^(٢).

ولما وجد العاضد (وكان له من العمر ١٣ سنة) انحلال أمر ضرغام بعث يأمر العساكر بالكف عن التراشق. واضمحلّت حالة ضرغام وتفرّق العسكر عنه. فوقف أمام القصر يحاول مقابلة الخليفة فلم يستطع. «فلما طال وقوفه نادى: أريد أمير المؤمنين يكلمني لأسأله عمّا أفعل. فلم يجبه أحدٌ، فصاح: يا مولاي كلّمني. يا مولاي أرني وجهك الكريم، يا مولانا بحرمة أجدادك على الله، كلّمني. وهو يبكي فلم يجبه أحدٌ وقويت الشمس، حتى قرب الظهر» ولم يكلمه الخليفة، فأمر ضرغام أحد غلمانته أن يمشي في شوارع القاهرة ومصر، ويدب الصوت على العساكر والعامّة أن الخليفة يستدعيهم،

(١) اتعاظ الحنفا الثالث، ص ٢٦٧.

(٢) م.س. نفسه، ص ٢٦٩.

«فأسرعوا إلى خيولهم وعادوا من كل جانب، مثل السيل، فرأوا
ضرغاماً على تلك الهيئة، والطاقة لم تفتح له، والخليفة لم يكلمه،
فأسقط في أيديهم. ورجعوا من حيث أتوا»^(١).

وهذا النص، إن دلّ على شيء فهو يدل على مدى تعلق الشعب
المصري بالخليفة الفاطمي الرمزي، واستعداده للدفاع عنه حتى الموت.
فهرب ضرغام، و «بعث شاور إلى الخليفة العاضد يستأذنه في
دخول القاهرة، فأذن له». ولاحقت العامة ضرغاماً فنهبوا داره
وقتلوه. واستصدر شاور مرسوماً بتسميته الوزير الأول في مصر.

ويحدثنا المقرئ عن التكريم الذي قابل فيه العاضد أسد الدين
شيركوه، فكان «يرسل إليه كل يوم عشرين طبقاً من سائر الأطعمة،
ومائتي قنطار خبزاً ومائتي أردب شعيراً، كما أعد له ملبوساً وسريراً
مرصعاً بالجواهر له قيمة عظيمة كان الأمر قد عمله».

وضجر شيركوه من قعدة المعسكرات، كما ضجر عسكره وأراد
الرجوع إلى الشام، فطالب شاور بثلاثي خراج مصر. فأنكر شاور
ذلك، ورفض تطبيق الاتفاق، فوقع الخلاف بينه وبين أسد الدين
شيركوه. وأخذ كل منهما يستعد لمحاربة الآخر. ووقف العاضد إلى
جانب شاور وبدأ يستحث الناس لمقاتلة شيركوه وأصحابه.

ووقعت الحرب بين العسكرين، فانكسر شاور وتراجع إلى
القاهرة، فرماه الناس بالحجارة، لأنه السبب في جلب البلاء لمصر
وللمصريين، فهرب إلى البستان الكافوري وقد أغمي عليه.

(١) م.س. ص ٢٧٠.

وبدأ شاور يفاوض شيركوه، فأقنعه بأخذ خمسين ألف دينار
والعودة بعساكره إلى دمشق وهكذا كان.

لكن شيركوه عاد إلى محاصرة القاهرة، فأحرق حيّين من
أحيائها.

كما أنّ شاوراً استنجد بالفرنجة، فساروا على طمع امتلاك مصر
وحاصروا شيركوه والعسكر الشامي، ثم تصالحوا معه ورحلوا إلى
الشام. كما أنّ شيركوه أخذ من شاور ثلاثين ألف دينار أخرى وعاد
بعسكره إلى الشام أيضاً.

وبعد أن خلا الجو لشاور، بدأ يعتقل أصحاب ضرغام ويقتلهم،
كما اعتقل كلّ من كان يتقرّب من شيركوه وقتله.

وما أطلّت سنة ٥٦٢ للهجرة، حتى عاد نور الدين محمود زنكي
وجّهز حملة بقيادة أسد الدين شيركوه لغزو مصر، فعلم بها أموري
/ ملك القدس الصليبي / فأرسل يخبر شاوراً بها، فاستنجد به شاور،
فأنجده.

ويقول المقرئزي إنّ شيركوه أرسل لشاور يفاوضه على محاربة
الفرنج سويّاً، لكنه رفض، ثم التقى الجمعان في الإسكندرية وكانت
الكسرة على شيركوه.

وبعد كَرّ وفرّ، نهب شيركوه منطقة البحيرة ونواحي الإسكندرية
وجدّ في طلب شاور، لكنه قرّر الصلح مع المصريين، شرط أن يدفع
له شاور قيمة ما كلفته هذه السفرة.

ويروي لنا المقرئزي تصرّف شاور الأحقق من حيث استقبال

أشراف القاهرة والدعاة بوجود أموري ملك القدس، ويروي لنا كيف أهانهم في عدم استقباله لهم، ولا أذن لهم بالجلوس فقال له الملك الصليبي: «أكرم قسسك».

وأقدم شاور على القبض على كل من اتصل بصلاح الدين الأيوبي في الإسكندرية، «فشق ذلك على صلاح الدين، واجتمع بملك الفرنج في ذلك، فأرسل الملك إلى شاور، وما زال به حتى أفرج عنهم»^(١).

ويصور لنا هذا الأمر تداخل الأمور بين وزراء نور الدين محمود وقيادات عسكره مع الفرنج، كما يصور لنا تداخلها مع وزراء الخليفة الفاطمي. علماً أن لا نور الدين زنكي ولا الخليفة العاضد، كاتب أو راسل أحداً من ملوك الفرنجة.

ثم سمح شاور بفتح شحنة (مخفر) للفرنج في القاهرة «وأن تكون أسوارها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من إرسال عسكر إليها، وأن يكون لهم من دخل ديار مصر في كل سنة مائة ألف دينار. قرر لهم شاور ذلك من غير علم العاضد ولا مشاورته. فإنه كان ممنوعاً من التصرف وشاور يستبد بأمور الدولة»^(٢).

أما شاور، بعد أن ارتاح من هم شيركوه والعسكر الشامي الذي عاد أدراجه إلى دمشق، ووضع مخفراً للفرنجة في قصر الخرنفش. «أخذ في الإكثار من سفك الدماء بغير حق، فكان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة. واشتد ظلم أخوته وأولاده وغلمانه ومن يلوذ به، وكثر تضرر الناس منهم».

(١) م.س. ص ٢٨٦.

(٢) اتعاظ الحنفا الثالث، ص ٢٨٧.

ويقول الفقيه عُمارة اليماني أَنَّ الصالح بن رُزَيْك رَبَّى رجال الدولة، فجاء ضرغام فأفناهم، وجاء شاور فأتلف أموال مصر وأطمع فيها الفرنج والغز (الأكراد) حتى انتقلت عن أهلها. وهذه من سيئات شاور التي حسبها الناس عليه^(١).

وفي مستهل سنة ٥٦٣ للهجرة، اتفق شاور مع نور الدين زنكي أن يحمل إليه مالاً في كل سنة شرط أن يصرف نظر شيركوه عن مصر. فقبل نور الدين ومنع أسدالدين شيركوه من العودة إلى مصر، وأرسله والياً على حمص.

وما أن حلت سنة ٥٦٤ للهجرة، حتى شعر المصريون أَنَّ الفرنج المتواجدين في القاهرة بدأوا يتحكّمون بالشعب المصري ويكثرون تعدّياتهم وأنهم قرّروا احتلال مصر بشكل نهائي.

وقام أموري ملك القدس (أمريك) بجمع جموعه وقرّر مهاجمة مصر، فعلم نور الدين محمود زنكي بما يخبئه أموري (أمريك) فأخذ بجمع عساكره أيضاً بهدف الوصول إلى مصر قبل الفرنج.

وأرسل شاور ابن مختار رسولاً إلى أمريك فقدّم أمريك حججاً واهية لمسيره. كما عاتب ابن بدران على أمور جرت بين شاور وصلاح الدين. وبعد أن أنكر كل طرف، التهمة، طلب أمريك من ابن مختار مبلغ ألف دينار (مليونان)، لكي يعود عن مصر. فطلب ابن مختار مهلة للعودة بالجواب وكان الجواب من طي بن شاور: الحرب.

(١) راجع النكت العصرية. الفقيه عُمارة اليماني، ط ١، ألمانيا، مطبعة مرسو، سنة ١٨٩٧، ص ٨٨.

ووقعت الحرب بين شاور وبين الفرنج، ويقول المقرئون إن شمس الخلافة بن مختار أقنع الكامل بن شاور أن يطلب من الخليفة العاضد مكاتبة نور الدين وحثه على حماية مصر من الفرنجة دون مشاورة أبيه، لعلمهم شدة كره شاور للغز (الأكراد)، وأنه يفضل أن يسلم مصر للصليبيين على تسليمها للأكراد الأيوبيين.

وكتب العاضد رسالة لنور الدين. و «أرسل العاضد لشاور يقول له: أين استدعائي الغز المسلمين لنصرة الإسلام، من استدعائك الفرنج للإعانة على المسلمين؟ فأجاب شاور الرسول: قل لمولانا عني أنت مغرور بالغز (الأكراد). والله لئن يثبت لهم رجل واحد بديار مصر، ما كانت عاقبته وخيمة إلا عليك. فأجابه العاضد: رضيت أن تكون مصر إسلامية وأكون أنا فداء للمسلمين»^(١).

ونلاحظ من جواب العاضد وهو لم يبلغ الثامنة عشرة من عمره، بينما شاور كان قد بلغ الستين من العمر أنه فعلاً قدّم نفسه فداء للإسلام ولإبقاء مصر إسلامية تجاه عدوين ظالمين، عدو الدين وهم الفرنجة، وعدو الجهل والمذهبية الحاقدة المتمثلة بجحافل الغز الأكراد الجاهلين للغة الإسلام وللإسلام نفسه.

وبدأ أملاكهم بمحاصرة القاهرة ومهاجمتها فوقف له المصريون بعد أن وطنوا أنفسهم على الموت دفاعاً عنها، «وإذا بشاور قد قام في حريق مصر (الفسطاط)، وأمر الناس بالانتقال منها إلى القاهرة، وحثهم على الخروج منها. فتركوا أموالهم وأثقالهم ونجوا بأنفسهم

(١) اتعاظ الحنفا الثالث، ص ٢٩٤.

وأولادهم وحرملهم. ونزلوا بمساجد القاهرة وحمّاماتها، وملأوا جميع الشوارع والأزقة. وصاروا مطروحين بعيالهم وأولادهم على الطرق وقد ذهبَت أموالهم وسُلِبَت عامة أحوالهم. واستمرَّت النار في المساكن أربعة وخمسين يوماً، والنَّهَابَةُ تهدم هنالك، وتحفر بحثاً عن الخبايا»^(١).

وقد ذكر المقرئزي أنَّ شاوراً حرق مصر القديمة (الفسطاط) بعشرين ألف قارورة من النفط وعشرة آلاف مشعل.

ووصل أمليق إلى بركة الحبش، وشاهد سحب الدخان ترتفع من الفسطاط. وحاول دخول القاهرة، فقاتله أهلها قتالاً شديداً. لكن شاور قام بمخادعة أمليق وعرض أربعمئة ألف دينار لقاء انسحابه بعد «أن يعتذر بأنه لولا الخوف من العاضد ومن معه من المسلمين لكان سلّمه البلد وأنه تقدّم له بالف ألف دينار».

ويقول المقرئزي: إنَّ أمليق رفض عروض شاور لكثرة كذبه وخداعه وأنّه عليه أن يسمعها من العاضد، فرفض العاضد إعطاء أي وعد أو كلام، واستشار القاضي الفاضل علي بن عبد الرحيم البيسانى، وهو فلسطيني سنّي المذهب، فذهب القاضي الفاضل وتشاور مع الكاتب الموفق ابن الخلال فكان جواب ابن الخلال: قبل الأرض عني لمولانا (العاضد)، وقل له: «إن وعد المشتري وصبر البائع فليست بغالية، وبين قيل وقال ينصرم الوقت، مما يعني موافقة المستشارين على دفع المبلغ لأمليق».

(١) اتعاظ الحنفا الثالث، م.س. ص ٢٩٧.

ولما بدأ شاور بجمع المال من القصر ومن الناس ليدفعه
لأمريك، وصلت طلائع العسكر الشامي بقيادة أسد الدين شيركوه
فهرب الفرنج وانسحبوا «ومعهم من الأسرى اثنا عشر ألفاً ما بين
رجل وصبي وامرأة» وخرج العاضد مسروراً بوصول النجدة
الشامية، واستقبل أسد الدين شيركوه وتلقاه.

وحاول شاور أن يفتال أسد الدين شيركوه وقيادات العسكر
الشامي، في مأدبة تقام لهم، ولكن ابنه شجاع نهاه عن هذه المؤامرة
حفاظاً على الإسلام من الفرنج. لكن صلاح الدين الأيوبي وقيادات
عسكره تغدوا بشاور قبل أن يتعشى بهم، وبموافقة الخليفة العاضد
«فقتل يوم السبت السابع عشر من ربيع الآخر (٥٦٤ هـ)، وحُملت
رأسه إلى العاضد».

ويقول المقرئزي: «كانت وزارة شاور هذه كثيرة الوقائع
والنوازل، فإنه أطمع الغز (الأكراد) والفرنج في البلاد، وجرهم إليها،
وأحرق مصر وأزال نعم أهلها وأذهب أموالهم. وكان السبب في إزالة
الدولة الفاطمية من ديار مصر وتملك الغز لها»^(١).

ودخل شيركوه القاهرة فخلع عليه العاضد وأصدر مرسوماً
بتعيينه الوزير الأول في الدولة الفاطمية، كتبته القاضي الفاضل
علي بن عبد الرحيم البيساني جاء فيه «هذا عهد لا عهد لوزير بمثله،
وتقليد طوق أمانة، «رأى الله وأمير المؤمنين أهلاً بحمله...»^(٢).

(١) م.س. ص ٣٠١.

(٢) صلاح الدين الأيوبي، قدرى قلعي، ط خمسة، بيروت، دار الكاتب العربي، سنة ١٩٧٢،
ص ١٩٤.

وكاتبوا نور الدين محمود زنكي بموضوع تكليف أسد الدين شيركوه بالوزارة، فأجاب بالموافقة.

وجلس أسد الدين شيركوه في كرسي الوزارة واستبد كسابقيه في أمور الدولة، واستعمل أصحابه في المراكز الخطيرة والدواوين، وأقطع قيادات عسكره ولايات البلاد. «ولما بلغ نور الدين زنكي وزارة شيركوه للعاضد واستبداده بالأمر، كره ذلك وأمضه، وأخذ يتحدث في ذلك، وأخذ يعمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين، وابن أخيه صلاح الدين، وكاتب العاضد في ذلك غير مرة ويلتمس منه أن يبعث إليه أسد الدين يريد بذلك إخراجه من مصر، فلم يسمح العاضد بإرساله لأنه دبر الأمور وقام بحمل أعباء المملكة».

ولم يعط ملك الموت الفرصة لأسد الدين شيركوه، فمات بعد استلامه الوزارة بثلاثة وستين يوماً بسبب «إكثاره من أكل اللحوم الغليظة» فاختنق ومات. مركزه في التاريخ الإسلامي

واختلف الأكراد بعد موت شيركوه، كل منهم يطلب الوزارة لنفسه، واتفقوا أخيراً على طلبها لصلاح الدين الأيوبي، وأبلغوا العاضد باتفاقهم، «فأرسل إليه وخلع عليه خلة الوزارة بالعقد والجوهر وحنكه، ونعته بالملك الناصر».

ويروي لنا المقرئ أن صلاح الدين «تاب عن الخمر وأعرض عن اللهو» بعد أن تسلّم الوزارة، وقربه العاضد منه حتى حسده الأمراء وبأينه جماعة منهم. وتوجّهوا إلى الشام، يحرضون نور الدين محمود زنكي عليه، خاصة لأنّ صلاح الدين، يعتبر صبي من صبيانته ومن ممالئكه. وطلب المساعدة المالية من العاضد، فأمدّه بها

«فكان أمره في زيادة وقوة وأمر العامة في نقص وضعف»^(١).

ونحن نقف أمام هذه الملاحظة اليتيمة التي أوردها المقرئزي، ونتساءل: لماذا وضع صلاح الدين وعامة الشعب المصري في وضع متناقض، وهل لعلمه أن الخليفة الفاطمي لا يحميه إلا العامة وأن العامة في حالة ضعف لا تسمح لها بحماية خليفته من هذا الكردي!

وأصبح العاضد يظهر في المواكب وصلاح الدين يوسف عن يمينه وأخوه أبو بكر العادل عن يساره، وحاول استقدام أبيه نجم الدين أيوب وأخيه من دمشق، فلم يسمح لهما نور الدين زنكي.

وصارت الخطبة في جوامع مصر للخليفة العاضد ولنور الدين زنكي من بعده.

ووصل نبأ وفاة أسد الدين شيركوه لنور الدين زنكي، فشق عليه استيلاء صلاح الدين على حكم مصر، فحاصر أصحاب صلاح الدين وأبعد أهاليهم عن مراكز الحكم، وطردهم من إقطاعاتهم، وكاتب الأمراء الأكراد الذين ذهبوا بصحبة صلاح الدين، يطلب منهم العودة إلى دمشق، «وتركه بمصر وحيداً ليوهن أمره. وشرع يذمه ويذكره بالسوء، ويطالبه بحمل الأموال إليه».

ولكن لم يهتز صلاح الدين لهذه الأخبار، وبنفسه من الاستيلاء على الحكم بمصر ما لا يردّه عنها سوى ملك الموت، وبدأ بتنفيذ انقلابه الدموي الأسود.

(١) اتعاظ الحنفا الثالث، ص ٣١٠.

الانقلاب الكردي الأسود:

عندما كان العرب يقودون شعوبهم زمن الخلفاء الراشدين والامويين وبداية العصر العباسي والمائة الأولى من حكم الخلفاء الفاطميين، كانوا يحسنون قيادة هذه الشعوب، لأنّ دستورهم كان القرآن وسنة نبيهم، وتجربة خلفائهم الراشدين وأئمتهم من العترة النبوية الطاهرة. وباعتبار لغة القرآن لغتهم، فهم أفضل من فهم محكمه، وعقل متشابهه، فجاءت القيادة بمستوى فهم النص القرآني.

ولكن عندما بدأت الشعوب الأعجمية تتدفّق على حواضر العرب وعواصم شعوبهم، بدأ العد العكسي للشعوب العربية والإسلامية، والسبب الأول، عدم قدرة هؤلاء الأعاجم على فهم النصّ القرآني والتجربة النبوية في الحكم، فبدأت المصالح والشهوات تحلّ محلّ مصلحة الإسلام والمسلمين. فسيطر البويهيّون ثم السلاجقة على الخلافة العباسية، فقرّموها وحجّموها، وسيطر الأتراك والأرمن والأكراد على الخلافة الفاطمية فدفنوها.

يقول المقرئزي إنّ صلاح الدين الأيوبي بدأ بتنفيذ انقلابه على الطريقة المكوكية، أي خطوة خطوة، أو حبكة حبكة. فأول ما قام به هو عزل الولاة الفاطميين في مصر والقاهرة والأطراف، وتعيين ولاة أكراد بدلاً عنهم. ثم عزل زمام القصر، أو رئيس الديوان، وهو زنجي فاطمي يدعى مؤتمن الخلافة، وعيّن مكانه الكردي بهاء الدين قراقوش.

ثم بدأ يتحرّش بالعبيد، ويستفزّهم، حتى أوقع بهم وبدأت الحرب بينه وبينهم، فاستظهروا عليه وعلى الأكراد، فاستقوى بالعاقد عليهم،

وهذه كانت غلطة كبيرة من الخليفة العاضد الذي قال لصلاح الدين من باب منظرة القصر: «دونكم والعبيد الكلاب، أخرجوهم من بلادكم»، فلما سمع العبيد ذلك، وهم كلهم مسلمون شيعة إسماعيليون، ويعتبرون الخليفة العاضد إماماً معصوماً «ضعفت نفوسهم، وانهزموا بعدما ثبتوا يومين وكادوا يهزمون الغزَّ (الأكراد).

وقام صلاح الدين الأيوبي بالخطوة الثانية من انقلابه الدموي الأسود، فأحرق «حارة السودان وأتلف أموالهم وهلك أولادهم وحرّمهم، وأحرق دور الأرمن، لأنهم كلهم رماة، لهم جارٍ (راتب)، وكانوا في هذه الحرب قد أنكوا الغزَّ بشدة رميهم ومنعواهم أن يتجاوزوا من موضعهم إلى محاربة العبيد». وكان الأرمن والعبيد كلما انتقلوا إلى مكان يحتمون به من الأكراذ والنيران، تبعهم الأكراذ وأحرقوه بالنفط. وحاصروهم الأكراذ في باب زويلة وسدّوا عليهم كلّ طرق الهرب، فطلبوا الأمان، فأعطاهم صلاح الدين الأمان، شرط الخروج من القاهرة بلا عودة، لكن من كان الغدر شيمته فلا أمان له. فبعد أن أخذ الأرمن، والعبيد بالانسحاب من مصر والقاهرة، هجم الأكراذ «على ديارهم وأموالهم واستباحوا جميع ما فيها».

ونصب لهم الأكراذ كميناً في زوارب الجيزة، فما أن وصلوا إليها، حتى هجموا عليهم و «أبادوهم حصداً بالسيف، ولم ينج منهم إلا الشريد وأمر صلاح الدين بتخريب المنصورة، وصيّرها بستاناً فمضى العبيد وذهبت آثارهم من مصر»^(١).

(١) راجع: اتعاظ الحنفا الثالث، ص ٣١٣.

يقول المقرئزي: «وبعد هذه الوقعة قوي أمر صلاح الدين وتلاشى أمر العاضد وانحلّ، ولم يبق له سوى إقامة ذكره في الخطبة».

وبدا بالخطوة الثالثة، فأخذ يستنفذ موجودات قصر الخليفة ويكثر الطلبات، حتى أخلّى القصر من كلّ شيء ولم يبق لدى العاضد سوى فرسه، فأخذها منه حين وجده يتنزّه في أحد البساتين وردّه ماشياً إلى القصر، فرمى العاضد خفيّه (حذاءه) من شدة غيظه وعاد ماشياً حافياً إلى قصره ينتظر نهايته المجهولة.

وبعد أن استتبّ أمر مصر والقاهرة، أرسل صلاح الدين الأيوبي خاله شهاب الدين الحارمي إلى الصعيد، يلاحق «من فرّ من العبيد، فأقنأهم. ولم يبق منهم بديار مضر إلا من اختفى، بعد أن كانت البلاد كلّها، لا تخلو مدينة ولا محلة من أن يكون فيها مكان معد للعبيد، مخمّي لا يدخله وال»^(١).

وهكذا تتبّع صلاح الدين الأفارقة الشيعة، على لون بشرتهم، فبعد أن كانوا وزراء الدولة الفاطمية ودعاتها وقضاتها وقادة عسكريها، أصبح واحد منهم يقتل على لون بشرته على يد الأكراد الموتورين.

ثم قام صلاح الدين بالخطوة الرابعة من انقلابه فصادر كلّ بيوت وقصور الأرمن والعبيد وأمراء لواتة وصنهاجة وكنّامة المغاربة، وسلّمها للأكراد من عسكريه.

(١) م.س. ص ٣١٤.

وبهذه الطريقة، دكّ صلاح الدين الأيوبي أعمدة الدولة الفاطمية واستأصلها من جذورها وهي: الأفارقة السود، وكانت فرقتهم لا تقل عن المئة ألف مقاتل برواتب. وقبائل المغرب العربية - صنهاجة وزويله ولواتة وكتامة، وهم أساس الدولة الإسلامية الشيعية الفاطمية، وعامة الشعب المصري من مريدين ومؤمنين، حيث أنهك أكثرهم بالتحريق والتقتيل والتجويع.

ويخبرنا المقرئزي، أنّ الخليفة العباسي المستنجد بالله، بدأ يحضّر نور الدين على دفن الخلافة الفاطمية وقطع دابرها وإقامة الخطبة له في جوامع مصر، فاستدعى نور الدين نجم الدين أيوب والد صلاح الدين، وأرسله إلى ولده لتنفيذ هذه المهمة. وقد أثبت المقدسي أبو شامة نصّ رسالة المستنجد إلى نور الدين زنكي، ومما جاء في هذه الرسالة:

«وهذا أمر يجب المبادرة إليه لنحظى بهذه الفضيلة، والمنقبة النبيلة، قبل هجوم الموت، وحضور الفوت، ولا سيّما إمام الوقت (الخليفة المستنجد بالله)، متطلّع إلى ذلك بكلّيته، وهو عنده من أهم أمنيته»^(١).

ولكن المستنجد الخائف من الموت قبل إزالة الدولة الفاطمية مات سنة ٥٦٦ هجرية، أي قبل موت العاضد، ولم تتحقّق أهم أمنيته عنده. يقول المقرئزي: إنّ نجم الدين أيوب وصل إلى القاهرة في الرابع

(١) كتاب الروضتين، في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي أبو شامة، لا طبعة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الجزء الثاني، سنة ١٩٥٦، ص ٤٦٧.

والعشرين من شهر رجب سنة ٥٦٥ للهجرة، وبلغ ولده صلاح الدين برسالة نور الدين زنكي. وبرغبة الخليفة العباسي المستنجد بالله.

فما كان من صلاح الدين إلا أن حقق أهم خطوة وأخطرها في انقلابه الأسود، وهي كانت خطوة تجربة، وعلى ضوء ردة فعلها، يتراجع أو يتابع وهذه الخطوة هي إبطاله الأذان «بحي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر» على مآذن مصر والقاهرة. ويقول المقرئ، إن هذه الخطوة كانت أول وصمة دخلت على الدولة الفاطمية. فلم يجرؤ أحد من العامة على الاعتراض، لأن القادة الفاطميين والأمراء والقضاة والأعيان والدعاة، أصبحوا بخبر كان.

ثم أمر صلاح الدين خطباء الجمعة بإلغاء الدعوة لعلي وذريته - عليهم السلام - وأمرهم «أن يذكر العاضد في الخطبة بكلام يحتمل اللبس على الشيعة، فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك، لا غير»^(١).

مركز تحقيقات مكتبة نور

ثم ارتد صلاح الدين إلى الوظائف المهمة في الدولة، فعزل «القضاة الشيعة من مصر كلها».

وولى القضاء القضاة الشوافع، وجعل إليهم الحل والربط والإفتاء في البر المصري كله، «واختفى بذلك مذهب الشيعة من الإمامية والإسماعيلية، وبطل من حينها مجلس الدعوة بالجامع الأزهر وغيره»^(٢).

(١) الحنفا الثالث، ص ٣١٨.

(٢) م.س. ص ٣٢٠.

وتدل هذه الفقرة على أنَّ مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية والمذهب الشيعي الإسماعيلي الفاطمي كانا يتمتّعان بنفس الشعبية والحرية في الوسط الشيعي والحكومي. وتفسير ذلك، أن ليس هناك إمام ظاهر عند الاثني عشرية ينافس الإمام الإسماعيلي الظاهر، وما دام الإمام المنتظر (ع) منتظراً فلا مشكلة يومية ميدانية بغيابه، فكل التكاليفات الشرعية اليومية هي نفسها عند الطائفتين الإسماعيلية والاثني عشرية. ولا تستطيع معرفة الاثني عشري من الإسماعيلي إلا إذا سألته عن إمام زمانه.

ليلة الانقلاب: أو وقوع الشعب المصري تحت الحكم الكردي:

بعد أن مهّد هذا الكردي القادم من نواحي أذربيجان وجورجيا الطريق لجعل أبناء مصر عبيداً له ولمرتزقته، بقي أمامه خطوتان، السيطرة التامة على أحياء القاهرة ومصر، ومنع أي تحرّك شيعي ضده، وقتل العاضد.

مركز تحقيقات كميونيزم وعلوم إسلامي

والخطوتان يرويهما لنا المقرّيزي بوضوح وموضوعية، وهو المؤرّخ السنّي الوحيد الذي لم يغتبط لاجتياح الأكراد لمصر بل تجد حزنه وامتعاضه وقرفه باد بين السطور. يقول المقرّيزي: «وَكثُرَ عسْكر صلاح الدين وأقاربه وأصحابه بمصر، وكفّ أمراء المصريين عن التصرّف ومنعهم من كلّ شيء. فلما رأى أمره قد قوي وأوتاد دولته قد تمكّنت من البلاد، عزم على إظهار ما يخفيه، فواعد أمراء النشّابين (الأكراد) على أن يمشوا إلى بيوت الأمراء المصريين في الليل، وأن يقف كلّ أمير منهم بجنده على باب أمير من أمراء مصر، فإذا خرج للخدمة، قبض عليه واحتاط على داره وعلى ما فيها، وأخذها لنفسه.

فأصبحوا الصباح واقفين على أبواب منازل الأمراء المصريين بجنودهم، فما هو إلا أن يخرج الأمير من منزله ليصير إلى الخدمة (إلى وظيفته) على عادته، فإذا بالأمير الشامي (الكردي) الذي قد عُيِّن له، قد قبض عليه وأوثقه، وهجم بمن معه على داره فملكها بجميع ما تحتوي عليه، وما يتعلّق بصاحبها وينسب إليه من أهل ومال وخيول وعبيد وجوار، وما له من إقطاعات. فلم ينتشر الضوء، حتى علت الأصوات، وارتفعت الضجّات، وثار الصياح من كلّ جانب وصار الأمراء الشاميون (الأكراد) في سائر نعم أمراء مصر، وأصبح الأمراء المصريون أسرى معتقلين في أيدي أعاديهم. فأل أمرهم إلى أن أصبح الأمير منهم بواباً على الدار التي كان يسكنها وأصبح آخر منهم سائس فرس كان يركبها. وصار آخر وكيل قبض (تحصيل دار) في بلد كانت إقطاعاً له، ونحو ذلك من أنواع الهوان^(١).

إنه نصّ تاريخي مهم يجب أن يقرأه كلّ مصري ومسلم وعربي، لأن الشعب المصري الذي قاد الأمة الإسلامية قرنين من الزمن في ظل الفكر الإسلامي الشيعي الفاطمي، وحقق مستويات حضارية تضاهي حضارة أجداده الفراعنة، كما وعلى كلّ المستويات الاجتماعية والفلسفية والعسكرية والعقائدية والطبية والشعرية، وهي موضوع بحثنا، وما هذه المقدمة السياسية التاريخية إلا مدخل للحديث عن حضارة مصر الفاطمية الشيعية وعن مؤسساتها التي حققت رقيّاً وثراء ودعة تعجز حضارة الألفية الثالثة عن تقديمها. طمسها الأكراد ودفنوها تحت أقدامهم وأسواطهم التي أذاقوا الشعب

(١) اتعاظ الحنفا الثالث، ص ٣٢١.

المصري لهيبها، منذ دخول صلاح الدين الأيوبي، وحتى طرد الرئيس جمال عبد الناصر بقاياهم من مصر.

وَأَتَّبَعَ صلاح الدين خطوة اعتقال كافة الموظفين المصريين ومصادرة أملاكهم وبيوتهم، بمحاصرة قصر الخليفة العاضد، ومنع الدخول إليه والخروج منه، لأنه علم أَنَّ العاضد مريض ومرضه لا شفاء منه فلم يقتله وتركه يموت بعلته.

ثم أمر الخطباء بإبطال الخطبة للعاضد نهائياً وبطريقة فيها لبس أيضاً حيث أَنَّ المستضيء بالله العباسي كانت كنيته - أبو محمد - والعاضد كنيته - أبو محمد - «فكان الخطيب يدعو للإمام أبي محمد، فتخاله العامة والروافض، العاضد، وهو يريد أبا محمد المستضيء بأمر الله، أمير المؤمنين، الخليفة»^(١).

وبعد أن أصبح العاضد أسير قصره ومرضه، طلب صلاح الدين من أئمة الجوامع بمصر، الخطبة للمستضيء بالله العباسي دون لبس أو تعمية، فخطب الخطباء باسم الخليفة العباسي في آخر يوم جمعة من شهر ذي الحجة من سنة ٥٦٦ للهجرة.

ويقول المقرئزي: إِنَّ المرض اشتد على العاضد وضعفت قواه وتخاذلت أعضاؤه وَتَفَشَّتْ الحمى في جميع أنحاء جسمه، فمنع صلاح الدين الأيوبي «طبيبته ابن السديد عن الحضور إليه، وامتنع عن مداواته وخذله مساعدة للزمان عليه، وميلاً مع الأيام»^(٢).

(١) م.س. ص ٢٢٢.

(٢) م.س. ص ٢٢٥.

موت العاضد:

في اليوم العاشر من شهر محرم لسنة ٥٦٩ للهجرة توفي العاضد في قصره وعلى سرير المرض. ويصف المقرئ في ليلة وفاته فيقول: «عشية يوم عاشوراء، نفذ حكم الله المقدور، وقضاؤه الذي يستوي فيه الأمر والمأمور في العاضد لدين الله، وقامت عليه الواعبة، وعظمت ضوضاء الأصوات النادبة، حتى كأن القيامة قد قامت، وكان بين وضع اسمه من أعواد المنابر ورفع جسمه على أعواد النعش ثلاثة أيام»^(١).

وكان المقرئ ينعي به جدّه الحسين عليه السلام، فالحسين قتله الأعداء في ليلة العاشر من محرم، والعاضد غودر في العاشر من محرم.

وترك العاضد من الأولاد ثلاثة عشر ولداً وكان له من العمر حين وفاته واحد وعشرون سنة، منها إحدى عشرة سنة في الخلافة. ولم يخف المقرئ احتقاره لصالح الدين الأيوبي وللأكراد حين قال في خاتمة حديثه عن محاسن الدولة الفاطمية «وسياتي من إيراد خربات ترتيبهم وحكاية أمور دولتهم عند ذكر خطط القاهرة (أحياء)، إن شاء الله، ما يعرفك مقدار ما كانوا عليه من أمور الدنيا، وحقارة من جاء بعدهم»^(٢).

(١) م.س. ص ٣٢٧.

(٢) م.س. ص ٣٤٤.

رأي المؤرخين فيه:

قال عنه المقرئزي: «كان كريماً سمحاً لطيفاً، لين الجانب، يغلب عليه الخير وينقاد إليه، وكان اسمر حلو السمرة كبير العينين أزج الحاجبين»^(١).

وقال عنه ابن الأثير: «كان كثير الكرم، لين الجانب غلب الخير على طبعه وانقياده. وعن نهاية الدولة الفاطمية قال: هذا دأب الدنيا، لم تعط إلا واستردت، ولم تحل إلا وتمررت، ولم تصف إلا وتكدرت، بل صفوها لا يخلو من الكدر، وكدرها قد يخلو من الصفو. فنسأل الله تعالى أن يقبل قلوبنا إليه، ويرينا الدنيا حقيقة، ويزهّدنا فيها، ويرغبنا في الآخرة إنّه سميع الدعاء»^(٢).

أما أبو المحاسن ابن تغري بردي فقد قال عن العاضد: «لما خطب لبني العباس بلغه ذلك فاغتم فمات وأنه لما أيقن بزوال دولته، كان في يده خاتم، له فصٌ مسموم، فمضّ به فمات».

وقد كرّر خبر الانتحار ابن أيبك الدوادري في كتابه الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، رغم بعده وبعد أبي المحاسن أكثر من ثلاثمائة سنة عن موضوع موت العاضد ويعتبر ابن الأثير من معاصري هذا الحدث ولم يشر إليه، ممّا يدفع القارئ إلى الاستنتاج أنّ كلّ ما حبّوه من مرويات وأخبار هي من صنع خيالهم، ووضعوها لقاء حفنة من الدراهمات تقرّباً من سلاطين

(١) اتعاظ الحنفا الثالث، ص ٣٢٨.

(٢) الكامل في التاريخ، التاسع، م.س. ص ١١٢.

الأيوبيين والمماليك. وسيؤكد لنا هذا الأمر، في الفصل اللاحق الذي سيستعرض أسباب سقوط الدولة الفاطمية، كما يستعرض آراء هؤلاء المؤرخين بها.

ويقول المقرئزي: إنه بعد وفاة العاضد، «أن ابنه داوود، استدعى صلاح الدين لبيايعة، فامتنع وقبض عليه وعلى بقية أولاد العاضد وأقاربه، وفرّق بين الرجال والنساء حتى لا يحصل منهم نسل، وأعطى القصر الكبير لأمرائه فسكنوا فيه، وأسكن أباه نجم الدين أيوب في قصر اللؤلؤة، وصار كلّ من استحسن من الغز (الأكراد) داراً أخرج صاحبها منها وسكنها»^(١).

وقام الحافظ ابن كثير بنظم أرجوزة ذكر فيها أسماء الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين ونعتهم بأجل النعوت والألقاب وختمها بقوله عنهم^(٢):

سادوا البلاد والعباد فضلاً وملاوا الأقطار حكماً وعدلاً
أولادهم المصطفى محمد وأفضل الخلق بلا تردّد
وتابع الأرجوزة عن الفاطميين فقال:

والفاطميّون قليلو العدد لكنّهم مدّ لهم في المدّة
فملكوا بضعا وستين سنة من بعد مائتين وكان كالسنة
والعدة أربع عشرة المهدي والقائم المنصور والمعدي
أعني به المعزّ باني القاهرة ثم العزيز الحاكم الكوافرة
والظاهر المستنصر المستعلي والأمر الحافظ عنه سوء الفعل

(١) اتعاظ الحنفا الثالث، ص ٣٤٧.

(٢) البداية والنهاية، ١٢، م.س. ص ٢٠٩.

والظافر الفأئز ثم العاضد آخرهم وما لهذا جاحد
أهلك بعد البضع والسنيينا من قبل خمسمائة سنيينا
وأصلهم يهود ليسوا شرفاً بذاك أفتى السادة الأئمة
أنصار دين الله من ذي الأئمة

قصيدة بأسماء الخلفاء الفاطميين:

وكان ردي على الحافظ ابن كثير القصيدة التالية:

ومهدي باسم الله جل جلاله محمد عبيد الله فاتحة العقد
وقائم بأمر الله طاب سناؤه يقوم مقام الطاهرين ذوي المجد
بمن اسمه المنصور نلنا محامداً وهم أهل بيت الطهر ألوية الحمد
مُعز لدين الله سابع سبعة به مصر نالت فائق المجد والرغد
عزيز لدين الله عز نظيره يشع عليه الدين مع سابع الحمد
وحاكم بأمر الله ناصر دينه تجلّت به روح الإله من المهد^(١)
ظهير لدين الله أظهر اسمه لإعزاز أهل البيت والصفوة الأسد
ومستنصر باسم الدين كان لواؤه محبة أهل البيت والاب والجذ
ومُسْتَعْلٍ باسم الله قل نظيره سليل غدير الطهر حيدرة الفرد
وأمراً بأخذ الثأر أضحى مؤذناً بحى على خير أعمال البرية يبدي
وحافظ لدين الله صان إمامة من الحقد والأوغاد قد غيل بالحقد
ظفور بأمر الله والاسم ظافر مُحَبٌّ لرب الكون وجداً على وجد
وفائز بحب الله نالت بنوده

رضى الناس والرحمان من سالف العهد

(١) إشارة إلى إيمان المسلمين الشيعة الموحدين الدروز بتجلي الروح الإلهية فيه.

وعاضد لدين الله قد بات مرغماً أسير صلاح الدين الغادر الوغد
هم الأصل أما الفرع نحن غصونه
سنبقى دوام الدهر نجني من الشهد
ومن نسل إسماعيل بن جعفر فرعهم
عليهم صلاة الله في المهد والحد
بفاطمة الزهراء طالت غصونه يكرمها الرحمان في جنة الخلد
أسباب سقوط الدولة الفاطمية:

لما قامت الدولة الفاطمية قامت على أسس عقيدية فكرية دينية
متينة، يحميها تنظيم حزبي عسكري متماسك، له قياداته وكوادره
وقواعده وأنصاره.

ومن هذا المنطلق استطاعت هذه الدولة التي تحمل أهدافاً تعتبر
بالنسبة لأنصارها مقدسة، أن تسيطر على العالم الإسلامي بكامله طيلة
مئة وخمسين سنة. فالرقعة الجغرافية التي حكمها الفاطميون الشيعة،
امتدت من أقصى المغرب العربي وجزر البحر المتوسط، إلى أقصى
العراق العجمي والجزيرة العربية واليمن والموصل، باستثناء بغداد.

ولكن عندما بدأت الأسس العقيدية تنهار بسبب أحداث ميدانية
عسكرية خارجة عن إرادة الخلفاء، بدأ أنصار هذه الدولة ينقسمون
على بعضهم ويتشتتون بسبب مواقفهم المتباينة من هذه الأحداث
المفروضة قسراً على خلفائهم، وبالتالي عليهم. وكانت الضربة الأولى
لهذه الدولة بعد وفاة المستنصر، حيث ينص النظام الداخلي أو دستور
الحزب الفاطمي على أن الإمام والخليفة يجب أن يكون أكبر الأولاد

سناً. ولما كان نزار يكبر المستعلي بأربعين سنة على الأقل، فحكماً يجب أن يكون نزار هو الإمام والخليفة من بعد المستنصر، حسب المفهوم الشيعي للإمامة. لكن سيطرة الوزير الأرمني الأفضل بن بدر الجمالي على الحكم، وهو بالطبع لن يحترم أسس تعيين الإمام، لعداوة بينه وبين الأمير نزار، أشرنا إليها في مكانها، حاول قتل نزار وأجبر رؤوساء الحزب والدعوة الإسماعيلية الشيعية بحد السيف، مبايعة المستعلي ابن الستة عشرة سنة. وشتت وقتل كل من خالف أوامرهم. فانقسم الحزب الشيعي في مصر إلى قسمين متناقضين متخاصمين: قسم يدعو للإمام نزار ويحارب المستعلي وأصحابه، وقسم يدعو للإمام المستعلي مرغماً، وحفاظاً على الدولة والحكم، يجد نفسه مضطراً لحماية نفسه ومصالحه وإمامته وحكومته، أن يحارب من كان وإياه في صف واحد وحزب واحد ودعوة واحدة.

وجاءت الضربة الثانية عندما أقدم جماعة الإمام نزار على قتل الأمر لأحكام دين الله. وكان قد عهد بالإمامة لولده الطيب - أبو القاسم - وكان له من العمر حين اغتيال الأمر سنة واحدة. وحسب نصوص الإمامة يجب أن يكون الطيب الخليفة والإمام من بعد والده. ولكن الوزير الأرمني «أبو علي كتيفات» أحمد بن الأفضل، أخذ يبحث عن الطيب ليقتله فأخفاه أتباعه. مما اضطره إلى الخطبة «للقائم المنتظر تمويهاً» وتسمية الأمير عبد المجيد - أبو الميمون - ابن القاسم ابن المستنصر - خليفة وإماماً مستودعاً وكفياً - حتى ظهور الطيب وسمّاه الحافظ لدين الله.

فانقسم أنصار المستعلي إلى قسمين متخاصمين: الطيبية

والحافظية وهكذا بدأت الدولة الفاطمية تفقد أهم مقوماتها وأركانها،
إلا وهي: حبُّ الشعب المصري لها وإيمانه بعقيدتها الدينية والتفافه
حول أئمتها وخلفائها. مما فتح الطريق أمام المتسلقين والوصوليين
من أتراك وأكراد وأرمن للسيطرة على مقدرات هذه الدولة من جهة،
وإلى رد هجمات أنصارها السابقين النزاريين من جهة ثانية. فكانت
النهاية الدراماتيكية التي شرحنا خطواتها حين تحدّثنا عن آخر خليفة
فيها - العاضد -.

ترى كيف نظر المؤرّخون المتقدّمون إلى نهاية هذه الدولة؟
ولنبداً بالأقرب فالأقرب لعصرهم وننتهي بالمتأخّر عنهم:

يقول المقدسي أبو شامة وهو من مواليد سنة ٥٩٩ للهجرة أي
أقربهم معاصرة لأحداث هذه الدولة: «لما قطعت خطبة العاضد
تطاول أهل السنة (الأكراد) على الإسماعيلية (المصريون) وتتبعوهم
وآذلوهم، وصاروا لا يقدرّون على الظهور من بيوتهم وإذا وجد
واحد من الأتراك مصرياً، أخذ ثيابه وعظمت الأذية بذلك، فهرب أكثر
أهل مصر عنها إلى البلاد».

وأرسل نور الدين محمود زنكي كتاباً إلى بغداد طالباً تعميمه في
كلّ البلاد والممالك الإسلامية هذا نصّه: «أصدرنا هذه المكاتبة إلى
جميع البلاد الإسلامية عامة، بما فتح الله على أيدينا رتاجه، وأوضح
لنا منهاجه، وهو ما اعتمدنا من إقامة الدعوة العباسية الهادية، بجميع
المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية والإسكندرية ومصر
(الفسطاط) والقاهرة، وسائر الأطراف القاصية والدانية والحاضرة
والبادية، وانتهت إلى القريب والبعيد، وإلى قوص وأسوان بأقصى

الصعيد. وهذا شرف لزماننا ونحن أهله، نفتخر به على الأزمنة التي مضت قبله. وما زالت هممنا إلى مصر مصروفة، وعلى افتتاحها موقوفة، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها. وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها. وبقيت مائتين وثمانين سنة مَمْنُوءة بدعوة المبطلين، مملوءة بحزب الشياطين. وقد اجتمع فيها داءان: الكفر والبدعة وكلاهما شديد الروعة. فملَكنا الله تلك البلاد، ومكَّننا على ما كنا نُؤمِّله في إزالة الإلحاد والرفض، ومن إقامة الفرض»^(١).

ويقول أبو شامة:

«وفي أيامهم كثرت الرافضة واستحكم أمرهم، ووضعت المكوس على الناس، واقتدى بهم غيرهم. وأفسدت عقائد الطوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام كالنصيرية والدرزية. والحشيشية نوع منهم. وأخذت الفرنج أكثر بلاد الشام والجزيرة. إلى أن من الله بظهور البيت الأتابكي وتقدّمه مثل صلاح الدين، فاستردّوا البلاد، وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد.

وبعد أن عدّد أسماء خلفائهم قال: يدعون الشرف ونسبتهم إلى مجوسي أو يهودي، حتى اشتهر ذلك لهم بين العوام، فصاروا يقولون الدولة الفاطمية والدولة العلوية، وإنّما هي الدولة اليهودية أو المجوسية الباطنية الملحدة. ومن وقاحتهم أنّهم كانوا يأمرّون الخطباء بذلك على المنابر، ويكتبونه على جدران المساجد»^(٢).

(١) كتاب الدولتين الجزء الثاني، ص ٥٠٢.

(٢) كتاب الدولتين الثاني، ص ٥١١.

ولم يكتف أبو شامة بإظهار شماتته بما أصاب الشيعة من
الأكراد، بل جمع كل النصوص الشعرية التي تصوّر هذا الأذى.
فأورد نقلاً عن بعض الشعراء في مدح الأكراد:

الستم مزيلي دولة الكفر من بني عبيد بمصر إن هذا هو الفضل
زنادة شيعية باطنية

مجوس، وما في الصالحين لهم أصل
يسرون كفرًا يظهرون تشيعاً ليستقروا شيئاً وقد عمهم الجهل
وقال العماد الأصفهاني:

قد خطبنا للمستضيء بمصر ونائب المصطفى إمام العصر
وخذلنا النصر العاضد العاضد والقاصر الذي بالسقصر
وأشعنا شعار بني العباس فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعي يدعو ثبوراً وهو بالذل تحت خجر وخضر
واستعدنا من أدعياء حقوقاً تدعى بينهم لزيد وعمير
والذي يدعي الإمامة بالقا هرة انحط في حضيض التهر
وعندما توفي الخليفة العاضد قال العماد الأصفهاني شامتاً:

توفي العاضد الدعي فما يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى وغدا يوسفها في الأمور محتكما
وانطفأت جمرة الغواية وقد باح من الشرك كل ما اضطرها
وقال الحسين بن تركان يمدح صلاح الدين يوسف ويذم
الفاطميين:

أخذت به مصرًا وقد حال دونها

من الشرك ناس في لهي الحق تقذف

وقد دنت منها المناير عصابة يعاف التقى والدين منهم ويأنف
فطهرها من كل شرك وبدعة أغر غرير بالمكارم يشفف
تملكها من قبضة الكفر يوسف
وخلصها من عصابة الرفض يوسف

وقال الشاعر العرقلة:

أصبح الملك بعد آل عليّ مشرقاً بالملوك من آل شاذي
وغدا الشرق يحسد الغرب للقوم ومصر تزهو على بغداد
ماحووها إلا بحزم وعزم وصليل الفولاذ في الفولاذ
وقال الحافظ ابن كثير:

«وقد كانت مدة ملك (خلافة) الفاطميين مائتين وثمانين سنة
وكسراً. فصاروا كأمس الزاهب كأن لم يغنوا فيها. وكان أول من ملك
منهم المهدي.

وكان من سَلَمِيَّة حدادا اسمه عبيد، وكان يهودياً، فدخل بلاد
المغرب وتسمى بعبيد الله وادعى أنه شريف علوي فاطمي... وقد كان
الفاطميون أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً، وكانوا من أعتى الخلفاء
وأجبرهم وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة وأخبثهم سريرة. ظهرت
في دولتهم البدع والمنكرات. وكثر أهل الفساد. وقلّ عندهم
الصالحون من العلماء والعباد. وكثر بأرض الشام النصرانية
والدرزية والحشيشية. وتغلب الفرنج على سواحل الشام بأكمله»^(١).
وقد نقل الحافظ ابن كثير عن أبي شامة، أنه أفرد كتاباً سماه

(١) البداية والنهاية ١٢، م.س. ص ٢٦٨.

«كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد». لكنني لم أهتم إلى هذا الكتاب، فلربما اقتنع بحججه ودعاواه ضد هذه الفئة المظلومة.

ويقول أبو المحاسن ابن تغري بردي تعليقاً على إيداع أولاد العاضد في السجن: «وكانت هذه الفعلة من أشرف أفعاله، فلنعم ما فعل، فإن هؤلاء كانوا باطنيين زنادقة دعوا إلى مذهب التناسخ واعتقاد حلول الجزء الإلهي في أشباحهم. وقد قال الحاكم لداعيه: كم في جريدتك (كيسك) قال: ستة عشر ألفاً يعتقدون إنك إله. وقال قائلهم، وأظنه في الحاكم بأمر الله^(١):

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
فلعن الله المادح والممدوح.

ولا ندري من أين استقى أبو المحاسن معلوماته حول سؤال الحاكم لداعيته، فلم يذكرها أي مؤرخ متقدم عليه، مع العلم أنهم كلهم مؤرخون سنة متحاملون على الدولة الفاطمية ويفضحون مثالبها ونقائصها.

كما أن البيت مشهور بأن الذي قاله هو ابن هانيء الأندلسي في مدح الإمام المعز، فكيف نسبه أبو المحاسن إلى الحاكم؟.

ويبقى المقرئزي وهوشين المؤرخين السنة ورأيه هو الرأي الفصل لأنه كان بعيداً عن الأهواء المذهبية، يعالج الخبر بدقة وبموضوعية.

يقول المقرئزي:

(١) النجوم الزاهرة، الخامس، ص ٣٢٥.

لا شك أنَّ القوم كانوا شيعة، يرون تفضيل عليّ بن أبي طالب على من عداه من الصحابة، وكانوا ينتحلون من مذاهب الشيعة مذهب الإسماعيلية. وهم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، وتنقلها في أولاده الأئمة المستورين، إلى عبيد الله المهدي، وهو أول من قام عنهم بالخلافة في المغرب. وبقية الشيعة (الإمامية والزيدية) لا يقولون بإمامة إسماعيل. وينكرون عليهم ذلك أشد الإنكار.

وكانوا مع انتحالهم مذهب التشيع، غلاة في الرفض. إلا أنَّ أولهم كانوا أكابر صانوا أنفسهم عمّا تحرّف به آخرهم. ثم إنَّ الحاكم بأمر الله، أكثر من النظر في العقائد وكان قليل الثبات سريع الاستمالة. واقترب به رجل يعرف باللبّاد الزوزني، فأظهر مذهب الباطنية. وقد كان عند أولهم منها طرف. فأنكر الناس هذا المذهب لما فيه من مخالفة الشرائع.

فلما كانت أيام المستنصر، وفد إليه الحسن بن الصباح، فأشاع هذا المذهب في الأقطار. ودعا الكافة إليه، واستباح الدماء بمخالفته.

ووجد بنو العباس السبيل إلى الغض منهم لما مكّنوا من البغض فيهم ومما قاسوه من الألم يسبب أخذهم ما كان بأيديهم من ممالك القيروان وديار مصر والشام والحجاز واليمن وبغداد أيضاً، فنقوهم عن الانتساب إلى عليّ بن أبي طالب، بل وقالوا إنّما هم من أولاد اليهود، وتناولت الألسنة ذلك وملثوا به كتب الأخبار.

ثم لما اتصل بهم الغرّ (الأكراد)، لم يزدتهم قربهم من الدولة الفاطمية إلا نفوذاً ولا ملاحم إحسانها إليهم إلا حقداً وعداوة لها، حتى قووا بنعمتها على إزالتها، واقتدروا بها على محوها.

وكانت أساسات دولتهم راسخة في التخوم وسيادة شرفهم قد أنافت على النجوم، وأتباعهم وأولياؤهم لا يحصى لهم عدد، وأنصارهم وأعوانهم قد ملئوا كل قطر وبلد، فأحبوا طمس أنوارهم وتغيير منارهم، وإصاق الفساد والقبيح بهم، شأن العدو وعادته في عدوه»^(١).

ونحن لا نختلف مع المقرئ في اختلاف أولهم عن آخرهم ولا في تقلب الحاكم لكثرة أشغاله في العقائد، كما نوافقه على أن غلاة الدعاة أمثال الذين خلفوا الحسن بن الصباح الحميري صاحب قلعة الموت، هم الذين أساءوا إلى الفكر الإسلامي الشيعي الإسماعيلي وغير الإسماعيلي. فقد اتخذ مبغضوهم من هذا الغلو منفذاً لنفيهم من الملة الإسلامية والشريعة المحمدية. كما أننا نتفق معه بصحة نسبهم، وقد عالجنا موضوع محضر الطعن في النسب في فصل سابق. ونحن معه بأن «سيادة شرفهم قد أنافت على النجوم». وأن الحقد هو الذي دعا أعداءهم إلى إصاق كل «قبيح وفاسد» بهم.

وما كان أشرف وأوفى وأصدق من الفقيه السني المذهب الشاعر عُمارة اليماني حين ردّ على ابن أبي حصيبة، لما مدح والد صلاح الدين نجم الدين أيوب وهجا في نفس القصيدة - الخلفاء الفاطميين الذين بنوا قصر اللؤلؤة، المصائر من قبل نجم الدين: قال ابن أبي حصيبة مخاطباً نجم الدين أيوب:

(١) اتعاظ الحنفا، الثالث، ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

يا مالک الارض لا أرضی لك طرفاً منها وما كان منها لم یكن طرفاً
قد عجل الله هذه الأرض تسكنها وقد أعد لك الجنات والغرفا
تشرفت بك عمن كان یسكنها فالبس بها العزّ ولتلبس بك الشرفا
كانوا بها صدفاً والدار لؤلؤة وانت لؤلؤة صارت لها صدفا
فعندما سمع الفقيه عمارة الیمنی هذه التشبیهاً التي فضل بها
ابن ابي حصیبة كردياً مارقاً أبقاً على أهل بیت النبی وعترته، وكيف
جعل هذا الكردي لؤلؤة وهم صدفٌ له، انتفض في وجهه قائلاً^(١):

اثمت يا من هجا السادات والخلفا وقلت ما قلت في ثلبهم سُخفا
جعلتهم صدفاً حلواً بلؤلؤة

والعرف ما زال سكنی اللؤلؤ الصدفا
وانما هي دار حلّ جوهرهم فيها وشفّ فأسناها الذي وصفا
فقال لؤلؤة عجباً ببهجتها لكونها حوت الأشراف والشرفا
فهم بسكناهم الآيات إذ سكنوا فيها ومن قبلها قد أسكنوا الصحفا
والجوهر الفرد نور ليس یعرفه من البریة إلا كل من عرفا
لولا تجسمهم فيه لكان على ضعف البصائر للأبصار مختطفاً
فالكلب يا كلب أسنى منك مكرمة لأنّ فيه حفاظاً دائماً ووفاً
ويعقب المقریزي على هذه القصيدة: فلله درّ عمارة، لقد قام بحق
الوفاء، ووفى بحسن الحفاظ كما هي عادته، ولا جرم أنّه قتل في
واجب من يهوى كماهي سُنّة المحبّين فالله یرحمه ويتجاوز عنه».

(١) الخطط المقریزية الأولى، م.س. ص ٤٦٩.

لقد أكدّ لنا عمارة وهو المسلم السنّي الذي تروي لنا كتب التاريخ، أنّه قاطع مجلس الوزير طلائع بن رزيك عندما شتم أحد أعضاء مجلسه، السلف الصالح، ولم يعارض الوزير الشاتمين. ولم يعد لحضور المجلس إلا بعد وعد بعدم التعرّض للسلف. فعمارة يرى أنّهم السادات والخلفاء، وأنهم لؤلؤ، لأن لا مجال لأن يسكن الصدف اللؤلؤ بل العكس، فاللؤلؤ هو الذي يسكن الصدف. وهم لم يسكنوا قصر اللؤلؤة فقط، بل تحدّثت عنهم الآيات والمصاحف، وأنهى قصيدته بتشبيهه ابن أبي حصيبة الناكث الجاحد بالكلب لأن «الكلب أسنى منه مكرمة وفيه حفاظ ووّد دائم».

وإذا حاولنا مقارنة هؤلاء الخلفاء السادة الأشراف بغيرهم ممّن أتى بعدهم من أكراد أذربيجان وممالك جورجيا، فماذا نجد بمقابل كرمهم المنقطع النظير وزهدهم الذي ورثوه عن جدّهم الإمام السجّاد وحكمتهم التي ورثوها عن جدّهم الإمام الصادق؟.

والجواب في إيراد عدة نصوص للمقارنة:

في الوقت الذي كان فيه الخليفة الفاطمي يفطر على ثمرة أيام رمضان، يقول شقيق صلاح الدين الأيوبي، تاج الملوك بوري بن أيوب في رمضان^(١):

رمضان بل مَرَضَانُ إلا أنّه أخطوا إذن في قولهم وأساؤوا
مرضان فيه تخالفانهاره سلّ ولكن ليله استسقاء

(١) الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ابن أبيك الدواداري، ط ١، القاهرة، المعهد الألماني،

فهو يرى في نهار رمضان مرض السل وفي ليله مرض الاستسقاء.
وهم يفضلون الخمر على الحشيش. يقول شاعرهم فتح الدين
أحمد بن الثقفي^(١):

مح الله الحشيش وأكليها لقد خبثت كما طاب السلاف
كما تصبى كذا تضني وتشقي لأكلها وغايتها انحراف
وأصغردائها والداء جمٌ بغاء أو جنون أو نشاف
وحدثنا ابن أبيك الدواداري عن شقيق صلاح الدين الملك المعظم
توران شاه ملك اليمن، كيف ضحك على تجار اليمن وتجار الهند
والسند الذين جاؤوه «بأموال الدنيا» فحملها بـ خمسمائة مركب من
زبيد» وأعطاهم وصولات بها، ثم نصبها عليهم^(٢).

وقال الشاعر ابن عُنَيْن يهجو ابن أخي صلاح الدين الملك المعظم
عيسى ووالده الناصر محمد وأخاه الأشرف موسى.
وكنّا نرجي بعد عيسى محمداً لينقذنا من شدة الضرّ والبلوى
فأوقعنا في تيه موسى كما ترى حيارى فلا من لديه ولا سلوى
وقال ابن عُنَيْن يهجو المعظم عيسى وكل أركان دولته^(٣):

سلطاننا أعرج وكاتبه ذو عمش والوزير منحذب
وصاحب الأمر خلقه شرسٌ وناظر الجيش داؤه عجب
والدولعي الخطيب منعكف وهو على قشر بيضة ثلب
ولا بن يافا وعظّ يغربّه الناس وعبد اللطيف محتسب

(١) شذرات الذهب، السادس، ص ٢.

(٢) راجع الدر المطلوب في أخبار بني أيوب. م.س. ص ٢٩٧.

(٣) م.س. نفسه، ص ٢٩٦.

وحاكم المسلمين ليس له في غير غرمول جرجس أرب
عيوب قوم لو أنها جمعت في فلك ما سرت به الشهب
فنفاه صلاح الدين من دمشق.

ويحدثنا الدواداري عن الملك الصالح، ناصر الدين محمد أنه
عندما «حاصره السلطان الملك الكامل في آمد وأخذها وجد عنده في
قصره خمسمائة حُرّة من بنات الناس يطوئن حراماً». فماذا فعل معه
الملك الكامل وهو ابن أخي صلاح الدين؟ يجيبنا الدواداري:
«فاحضره الملك الكامل إلى مصر وأحسن إليه»^(١).

وقال جعفر بن شمس الخلافة، بشقيق صلاح الدين الملك العادل
ولده الكامل^(٢).

يا ظالم ألقُب بالعادل . ويا ناقصاً لُقُب بالكمال
أهلكتما كلَّ جميع الوري لا عشتما دهرأ إلى قابل
وقد نعتهم مؤرّخهم، الدواداري بالغدر، فهو حين يتحدث عن آخر
ملوكهم الصالح أيوب زوج شجرة الدر يقول عن مماليكه وقواد
عسكره: «وذلك لكثرة ما جرّب من غدر الأكراد».

وحين أجمع كلّ المؤرّخين على كرم الفاطميين المنقطع النظير
وكيف أنّ كلّ خليفة منهم في الأسواق تلحق به بغلة محمّلة دنانير
ذهب، يوزّعها ذهاباً وإياباً، حتى ينال نفس الأشخاص من كرم
الخليفة في الذهاب والإياب، حدّثنا كتب التاريخ عن الخليفة العباسي

(١) شذرات الذهب، الخامس، م.س. ص ١٤١.

(٢) الدر المطلوب، م.س. ص ٢٦٥.

الناصر لدين الله أنه «بنى بركة وترك فيها المال، وكان يقول: ترى أعيش حتى أملاها»^(١).

وكانت بلاد الإسلام بالنسبة لملوك الأكراد دكاناً يرتزقون من خلاله، فعندما حاول الكامل ابن العادل أن يأخذ من ابن عمه الأشرف موسى، حمص وما وراءها، فأرسل الأشرف للكامل يعاتبه بقوله: «أخذت الشرق مني وأعطيته لولدك. وافترقت وأيش هي دمشق؟ ما هي إلا بستان، وما لي فيها رزق»^(٢).

وبلغ بالأكراد الأيوبيين الحقد حتى أقدم كبيرهم صلاح الدين يوسف على قتل العالم الزاهد السهروردي بسبب تشييع ولده الأفضل علي على يده.

وأرى من واجبي أن أنهي هذا الفصل بنصيحة قدمها المقرئ لعل من أراد الإطلاع على سيرة الخلفاء الفاطميين وأعقبها ببعض الأبيات من قصيدة عمارة اليميني في رثاء هذه الدولة.

قال المقرئ: «فتقطن، رحمك الله، إلى أسرار الوجود، وميز الأخبار كتميزك الجيد من النقود، تغتر إن سلمت من الهوى، بالصواب»^(٣)، ومما يدل على كثرة التحامل عليهم، أن الأخبار الشنيعة، لا سيما التي فيها إخراجهم من ملة الإسلام، لا تكاد تجدها إلا في كتب المشاركة من البغداديين والشاميين^(٤).

(١) م.س. نفسه. ص ٢٧٧.

(٢) شذرات الذهب، الخامس، م.س. ص ٢٠٩.

(٣) الدر المطلوب، م.س. ص ٣١٨.

(٤) ينصح المقرئ بالابتعاد عن الأهواء لكي نصل إلى الحقيقة والصواب.

أما كتب المصريين الذين اعتنوا بتدوين أخبارها، فلا تكاد تجد
في شيء منها البتة. فحكّم العقل، وأهزم جيوش الهوى، واعطِ كلَّ
ذي حقٍّ حقّه. ترشد إن شاء الله تعالى».

أما قصيدة الفقيه عمارة اليمني التي رثى بها الدولة الفاطمية
فمنها قوله:

رمى يادهر كفّ المجد بالشلل وجيده بعد حسن الحلّي بالعطل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل سعيت مهلاً أما تمشي على مهل
لهفي ولهف بني الأمال قاطبة على فجيعتها في أكرم الدول
قدمت مصرفاً ولتني خلائفها من المكارم ما أربى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن كما لها أنّها جاءت ولم أسل
وكنت من وزراء الدست حين سما رأس الحصان يهاديه على الكفل
ونلت من عظماء الجيش مكرمة وخلة خُرس من عارض الخلل
يا عاذلي في هوى أبناء فاطمة لنا الملامة إنْ قصّرت في عذلي
بالله دُرّ ساحة القصرين وأبكٍ معي

عليهما لا على صُنّسين والجمل
وقل لأهليهما والله ما التحمت فيكم جراحي ولا قرحي بمندمل
ماذا عسى كانت الإفرنج فاعلة في نسل آل أمير المؤمنين علي
وقد حصلت عليها واسم جدّكم محمد وأبوكم غير منتقل
مررت بالقصر والأركان خالية من الوقود وكانت قبلة القُبل
فملت عنها بوجهي خوف منتقد من الأعادي ووجه الودّ لم يمل
أسلتُ من أسفي دمع غداة خلّت بحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكي على ما تراءت من مكارمكم حال الزمان عليها وهي لم تحل

دار الضيافة كانت أنس وإفدكم واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إذا أضحت مكارمكم

حال الزمان عليها وهي لم تحل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست

ورث منها جديد عندهم وبلي
وموسم كان في يوم الخليج لكم يأتي تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعبيدين كان لكم فيهن من وبلى جود ليس بالوشل
والأرض تهتز في يوم الغدير كما يهتز ما بين قصر يكم من الأسل
والخيل تعرض في وشي وفي شية

مثل العرائس في حلى وفي حلل
ولا حملتم قرى الأضياف من سعة

الأطباق إلا على الأكتاف والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للذمتين وللضيف المقيم وللطاري من الرسل
دار الطراز بتئيس الذي عظمت منه الصلات لأهل الأرض والدول
وللجوامع من إحسانكم نعم لمن تصدر في علم وفي عمل
وربما عادت الدنيا فمعقلها منكم وأضحت بكم محلولة العقل
والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم ولا نجا من عذاب الله غير ولي
ولا سقى الماء من حر ومن ظمأ من كف خير البرايا خاتم الرسل
ولا رأىجنة الله التي خلقت

من خان عهد الإمام العاضد ابن علي
أثمتي وهداتي والذخيرة لي إذا ارتهنت بما قدمت من عملي

تالله لم أوفهم في المدح حقهم لأن فضلهم كالوابل الهطل
ولوتضاعفت الأقوال واتسعت ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل
باب النجاة هم دنيا وآخره وحبهم فهو أصل الدين والعمل
نور الهدى ومصابيح الدجى ومحل

الغيث إن ربت الأنواء في المحل
أئمة خلقوا نوراً فنورهم من محض خالص نور الله لم يغل
والله ما زلت عن حبي لهم أبداً ما أكر الله لي في مدة الأجل
«وبسبب هذه القصيدة قتل عمارة رحمه الله وتمحلت له الذنوب».

رحم الله الفقيه عمارة ورحم الله المقرئ.

فلا كل من نظم شعراً بشاعر، ولا يتساوى المدلس والوضاع مع
المؤرخ. فالوضاع وضيع، والمؤرخ رفيع. الأول يضعه وضعه،
والثاني يرفعه ترفعه عن الكذب والمحاباة ومداينة أصحاب السلطة
والسلطان.

مركز تحقيق التراث
مكتبة محمد بن عبد الله

الفهرست

٥	إهداء
٧	المقدمة
١١	حضارة مصر في ظل الإسلام الشيعي
١١	لماذا هذا العنوان؟
٢٠	الباب الأول
٢٣	الأسس التاريخية لعقيدة الدولة الفاطمية
٢٦	أصحاب الكساء
٢٧	حجة الوداع وبيعة غدير خم:
٣٣	أبو هريرة بين السنة والشيعه
٤٠	مقتل الخليفة عثمان بن عفان
٤٦	حرب الجمل
٤٦	خلافة الإمام الأول: علي بن أبي طالب (ع):
٤٩	زوجات النبي شعراً:
٥٠	حرب صفين
٥٢	مقتل الإمام علي (ع):
٥٣	خلافة الإمام الثاني الحسن الزكي (ع):
٥٤	كتاب الإمام علي لواليه على مصر، مالك بن الأشتر:

٥٨	وصيته لولده الحسن (ع):
٦٠	إمامة وخلافة الإمام الثاني الحسن بن علي (ع):
٦٢	صلح الحسن:
٦٤	وفاة الإمام الحسن (ع):
٦٦	إمامة الإمام الثالث الحسين بن علي (ع):
٦٩	خروج الحسين (ع):
٨٥	الإمام الرابع: زين العابدين علي بن الحسين (ع):
٨٧	تسمية الإمام زين العابدين (ع) بالنص:
٩٠	الإمام الخامس: محمد بن علي بن الحسين الملقب بالباقر:
٩١	مقتل أخيه زيد بن علي (ع):
٩٨	الإمام السادس: جعفر بن محمد الملقب بالصادق (ع):
١٠٠	الإمام الصادق وموقف أئمة مذاهب السنة من مدرسته:
١٠٥	الإمام جعفر الصادق والتقية:
	وفاة الإمام السادس جعفر الصادق (ع) وانقسام الشيعة إلى: إسماعيلية
١١٠	وإثني عشرية إمامية
١١٠	الإمام السابع: إسماعيل بن جعفر الصادق (ع):
١٢٤	الإمام الإسماعيلي الثامن: محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق (ع):
١٢٨	الإمام الإسماعيلي التاسع: عبد الله بن محمد:
١٣٢	رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء:
١٤١	الإمام الإسماعيلي الفاطمي العاشر أحمد بن عبد الله التقي:
	الإمام الإسماعيلي الفاطمي الحادي عشر، الحسين بن أحمد الملقب
١٤٣	برضي الدين:
١٤٦	الباب الثاني
	الإمام الفاطمي الثاني عشر عبيد الله المهدي وإعلان أول خلافة شيعية
١٤٦	في المغرب والانتقال من دور الستر إلى دور الظهور

- داعي الدعاة أبو عبد الله الشيعي مهندس الدولة الفاطمية في المغرب: ١٥٥
- ال خليفة الثاني محمد بن عبيد الله المهدي القائم بأمر الله الفاطمي: ١٥٨
- محنة أبي يزيد الخارجي: (صاحب الحمار): ١٥٨
- وفاة الخليفة القائم قبل القضاء على أبي يزيد الخارجي: ١٦٢
- ال خليفة الثالث أبو الطاهر إسماعيل الذي تلقب بالمنصور: ١٦٥
- نهاية الخارجي أبي يزيد وانتعاش الدولة الفاطمية بنهايته: ١٦٥
- خطبة المنصور يوم عيد الفطر، لا تخرج عن أدبيات الشيعة: ١٧٠
- وفاة الخليفة الثالث المنصور أبو الطاهر إسماعيل: ١٧٢
- فتح مصر على يد الخليفة الرابع معد ابن المنصور،
- أبو تميم المعز لدين الله الفاطمي: ١٧٣
- التشيع في مصر قبل الفاطميين: ١٧٣
- ال خليفة المعز يحاول فتح مصر على عهد كافور الإخشيدي: ١٧٨
- جواهر الصقلي يفتح مصر: ١٨٢
- بنت الإخشيد سحاقية تجامع النساء: ١٨٤
- المعز يجهز الحملة لفتح مصر: ١٨٥
- كتاب أمان جواهر لشعب مصر: ١٨٨
- إذاعة عدة قرارات وبلاغات فاطمية شيعية من على منابر جوامع مصر: ١٩٥
- خطبة يوم الجمعة مكتوبة: ١٩٥
- الإفطار بغير رؤية: ١٩٦
- ٤ - جواهر يحدد مسار صلاة الجمعة: ١٩٧
- ٥ - جواهر لا يرخص لأي عمل بدون شريك مغربي: ١٩٧
- ٦ - جواهر يلزم الجهر بالبسملة والقنوت في الصلاة والأذان
- بحي على خير العمل في كل مساجد القاهرة: ١٩٨
- ٧ - وهل شهر المحرم: ١٩٩

- القرامطة على أبواب القاهرة ٢٠٠
- بعض القرارات القرمطية في مجتمع الكوفة الجديد: (الماركسية): ٢٠٤
- كتاب المعزّ للحسن بن أحمد بن زكرويه القرمطي يختصر
- الخطاب الإسلامي الفاطمي: ٢١١
- الخليفة الفاطمي الرابع: المعزّ لدين الله ٢١٦
- أبو تميم معدّ بن اسماعيل: ٢١٦
- الأسد يحرس خمارويه: ٢١٨
- المعزّ يدفع ديّات أبناء عمه الطالبين المتقاتلين في مكة: ٢١٩
- أسطورة احتجاج المعزّ: ٢٢٦
- كيف فسّر المؤرّخون المشاركة احتجاج المعزّ؟ ٢٢٦
- عدل المعزّ، دفع الأقباط لادّعاء تنصّره: ٢٢٨
- الخليفة الفاطمي الخامس العزيز فزار ابن المعزّ: ٢٢٩
- الاهتمام بأمن المواطن: ٢٣٨
- إقراض الموظفين بالتقسيط المريح وبدون فائدة: ٢٤١
- لكل جريمة عقاب: ٢٤٢
- الخليفة الفاطمي السادس المنصور أبو علي الحاكم بأمر الله: ٢٤٥
- الحاكم يبدأ بحملة تطهير تبدأ بكبار موظفي الدولة: ٢٤٨
- القُرّادتي موظف مهمّ في الدولة الفاطمية: ٢٥٣
- قرارات حاكمية تهدف إلى تنظيم المجتمع: ٢٥٤
- منع كلّ المسكرات والمهيّجات وألعاب القمار: ٢٥٧
- الحاكم: الخليفة المتواضع الفائق الكرم: ٢٥٩
- الحاكم يقرب بين شقي الإسلام: السنة والشيعة: ٢٦١
- الحاكم يخرج دائماً بدون حراسة أو مواكبة: ٢٦٣
- محضر الطعن في نسب الخلفاء الفاطميين ٢٦٦

٢٨١	رأي ابن أبيك الصفدي في نسب الفاطميين:
٢٨٢	رأي ابن حزم الأندلسي:
٢٨٣	رأي ابن العماد الحنبلي في محضر الطعن بالنسب:
٢٨٤	رأي المقرئزي بمحضر الطعن بنسب الفاطميين:
٢٨٩	رأي المقرئزي بمجمل الآراء في محضر الطعن بنسب الخلفاء الفاطميين:
٢٩٣	آراء بعض الباحثين المعاصرين:
٢٩٦	الحاكم بأمر الله الحضاري
	قرارات حاكمة لتنظيم المجتمع الإسلامي، أظهرها المؤرخون
٣٠٨	بعيدة عن المالوف:
٣١٢	ظهور مذهب الموحدين الدروز
٣١٤	ولادة الحاكم بأمر الله وتوليّه الخلافة
٣١٧	- الحاكم يقيم الحدود حسب الشريعة الإسلامية:
٣٢٧	عدالة الحاكم بأمر الله
٣٣٤	ال خليفة الحاكم يسترجع وديعة أحد الحجاج المغاربة من التاجر المصري
٣٣٧	- الرسالة المنفذة إلى القاضي:
٣٤٢	غرائب عهد الحاكم
٣٤٥	الحاكم بأمر الله الفاطمي: عادل أم سفاك للدماء؟
٣٤٦	مقتل عيسى بن نسطورس:
٣٤٨	قتل علاقة والي صور الفاطمي:
٣٥٠	قتل برجوان الخادم (كبير الوزراء):
٣٥٣	أسباب قتل ريدان الصقلبي:
٣٥٦	رأي المؤرخين بالحاكم
٣٦٠	الحاكم العبيدي
٣٧٤	ال خليفة الفاطمي السابع: الظاهر لإعزاز دين الله علي

ال خليفة الظاهر لإعزاز دين الله يحمي قوافل الحج الوافدة

- ٣٧٦ من جميع أنحاء العالم الإسلامي:
- ٣٨١ الخليفة الفاطمي الثامن المستنصر بالله معد بن الظاهر، أبو تميم
- ٣٨٧ دخول بغداد تحت طاعة المستنصر:
- ٣٩٠ خراب مصر أو الشدة المستنصرية:
- ٣٩٣ بداية الشدة ببداية الفتنة:
- ٣٩٦ المئة ألف بالف:
- ٣٩٧ العامة تدافع عن الخليفة:
- ٣٩٧ المجاعة تدفع الناس لأكل الجيف والكلاب والقطط:
- ٤٠١ منهوبات قصور الخلافة وقيمتها، ألف دينار بدينار:
- ٤٠٣ وهذه قائمة بأهم ما أخرج من القصور:
- ٤١١ - نهب التربة وخريطة العالم:
- ٤١٢ - سرقة سرير الملك:
- ٤١٢ - سرقة خزانة الكتب أو مكتبة القصر:
- ٤١٥ رأي المقرئزي بأسباب المجاعة:
- ٤١٨ أين كان العباسيون؟
- ٤٢٢ الأرمن يحكمون مصر باسم الإسلام الشيعي
- ٤٢٢ الاثني عشري لمدة سبعين سنة
- ٤٢٥ نهاية حكم المستنصر:
- ٤٢٦ رأي المؤرخين المعاصرين بالمستنصر:
- ٤٢٨ الخليفة الفاطمي التاسع الإمام المستعلي بالله أبو القاسم أحمد:
- ٤٣٣ الخليفة الفاطمي العاشر الأمر بأحكام الله، المنصور أبو علي:
- ٤٣٩ الخليفة الفاطمي الحادي عشر الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد
- ٤٥٢ الخليفة الفاطمي الثاني عشر الظافر بأمر الله، أبو المنصور إسماعيل

٤٦٦	الباب الثالث
	الخليفة الفاطمي الرابع عشر العاضد لدين الله، أبو محمد، عبدالله
٤٦٦	ونهاية الدولة الفاطمية
٤٨٢	الانقلاب الكردي الأسود:
٤٨٧	ليلة الانقلاب: أو وقوع الشعب المصري تحت الحكم الكردي:
٤٩٠	موت العاضد:
٤٩١	رأي المؤرخين فيه:
٤٩٣	قصيدة بأسماء الخلفاء الفاطميين
٤٩٤	أسباب سقوط الدولة الفاطمية:



مركز تحقيقات تكمیل و ترمیم اسلامی